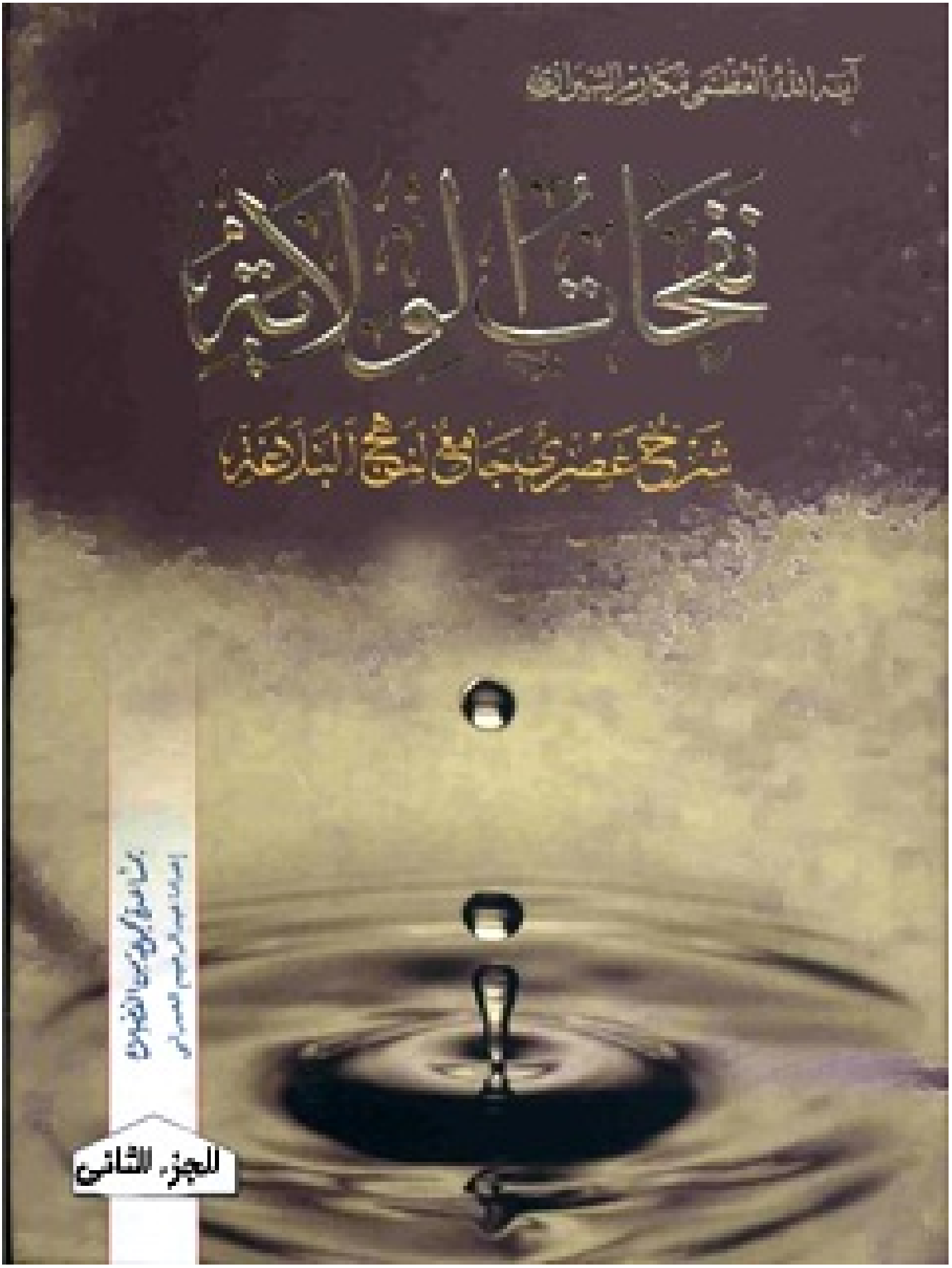

آية الله العظمى مكارم الشيرازي
نفحات الولاية
شرح عصري جامع لنهج البلاغة
الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

نفحات الولايه: شرح عصرى جامع لنهج البلاغه

كاتب:

ناصرمكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابى طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
نفحات الولایة المجلد ۲ ----- ۲۰
اشارة ----- ۲۰
الخطبة[۱] الحادی والعشرون ----- ۲۰
اشارة ----- ۲۰
شرح الخطبة ----- ۲۱
تخففوا تلحقوا! ----- ۲۱
عاقبة المثقلین! ----- ۲۲
الخطبة الثانیة و العشرون ----- ۲۳
اشارة ----- ۲۳
القسم الأول: أضواء علی الخطبة ----- ۲۳
اشارة ----- ۲۳
وقعة الجمل ----- ۲۴
حزب اللّه وحزب الشیطان ----- ۲۴
القسم الثانی ----- ۲۵
اشارة ----- ۲۵
المعذّرون المفتضحون! ----- ۲۵
القسم الثالث: تهدید علی علیه السلام ----- ۲۷
اشارة ----- ۲۷
الرجال الأشداء ----- ۲۸
الخطبة[۲۷] الثالثة والعشرون ----- ۲۹
اشارة ----- ۲۹
القسم الأول ----- ۲۹

اشارة ----- ۲۹
نظرة إلى الخطبة ----- ۲۹
الرضا والتسليم أمام إرادة اللّه ----- ۳۰
الرضى والتسليم إلى جانب السعى والعمل ----- ۳۲
القسم الثانى: سبيل بلوغ مقامات الصالحين ----- ۳۳
اشارة ----- ۳۳
فصل فى أنّ الاخلاص أساس العمل ----- ۳۴
القسم الثالث: السند الشعبى ----- ۳۴
اشارة ----- ۳۴
فصل فى حسن الثناء (لسان الصدق) ----- ۳۵
القسم الرابع: الإعتضاد بالعشيرة ----- ۳۶
اشارة ----- ۳۶
فصل فى بركات التعاضد بالقرابة ----- ۳۷
الخطبة الرابعة والعشرون ----- ۳۸
اشارة ----- ۳۸
نظرة إلى الخطبة ----- ۳۸
المساومة والمصناعة ----- ۳۸
فصل فى الضعف والمساومة ----- ۴۰
الخطبة[۶۹] الخامسه و العشرون ----- ۴۰
اشارة ----- ۴۰
القسم الأول ----- ۴۱
اشارة ----- ۴۱
نظرة إلى الخطبة ----- ۴۱
النفاق والعصيان ودور الإمام ----- ۴۱

تأملان ----- ۴۲
۱- الكوفة على وجهين ----- ۴۲
۲- أهل الكوفة والإمام عليه السلام ----- ۴۳
القسم الثانی: سرّ الانهیار ----- ۴۴
اشارة ----- ۴۴
تأمّلات ----- ۴۵
۱- بسر بن أرطاة القائد السفاح لمعاوية ----- ۴۵
۲- مقوّمات النصر وهزيمة الأمم ----- ۴۷
القسم الثالث: السئم والملل ----- ۴۸
اشارة ----- ۴۸
بنو فراس بن غنم ----- ۵۰
الخطبة السادسة والعشرون ----- ۵۰
اشارة ----- ۵۰
نظرة إلى الخطبة ----- ۵۰
القسم الأول: العرب فی الجاهلية ----- ۵۱
اشارة ----- ۵۱
تأمّلات ----- ۵۳
۱- آفاق العصر الجاهلی ----- ۵۳
۲- شر دار أم خيرها ----- ۵۴
القسم الثانی: الصبر المرير ----- ۵۴
اشارة ----- ۵۴
تأمّلات ----- ۵۵
۱- الأحداث المريرة بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله ----- ۵۵
۲- هل بايع الإمام عليه السلام الخليفة الأول؟ ----- ۵۶

القسم الثالث: المساومة السياسية المفضوحة ----- ۵۶
اشارة ----- ۵۶
تأمّلات ----- ۵۸
۱- السياسات الدنيوية لا تعترف بالأصول الأخلاقية ----- ۵۸
۲- باعة الدين بالدنيا! ----- ۵۸
۳- علاقة النصر بالثبات ----- ۵۹
الخطبة السابعة والعشرون ----- ۶۰
اشارة ----- ۶۰
سند الخطبة وزمانها ومكانها ----- ۶۰
اشارة ----- ۶۰
نظرة إلى الخطبة ----- ۶۱
القسم الأول: الجهاد باب من أبواب الجنّة ----- ۶۱
اشارة ----- ۶۲
تأمّلان ----- ۶۴
۱- الجهاد سر رفعة الشعوب وعزتها ----- ۶۴
۲- هل الجهاد الإسلامی دفاعی فقط؟! ----- ۶۵
القسم الثانی: الموت كمداً ----- ۶۶
اشارة ----- ۶۶
تأمّلات ----- ۶۸
۱- معادلات الهزيمة والانتصار ----- ۶۸
۲- حماية الأقليات الدينية ----- ۶۸
۳- الغيرة الدينية ----- ۶۸
القسم الثالث: الاجتماع على الباطل والفرقة عن الحق ----- ۶۹
اشارة ----- ۶۹

تأمّل: علة هذا الذم ---- ۷۰
القسم الرابع: إدماء القلب ---- ۷۱
اشارة ---- ۷۱
تأمّلات ---- ۷۲
۱- الاتباع الطلحاء والقادة الأكفاء ---- ۷۲
۲- الإجابة على سؤال ---- ۷۳
۳- سؤال آخر ---- ۷۴
۴- الخاتمة المريرة للواقعة ---- ۷۴
الخطبة[۱۷۹] الثامنة والعشرون ---- ۷۵
اشارة ---- ۷۵
نظرة إلى الخطبة ---- ۷۵
القسم الأول: الدنيا والآخرة عند الإمام على عليه السلام ---- ۷۵
اشارة ---- ۷۵
تأمّلات ---- ۷۷
۱- الدنيا والآخرة فى الأحاديث ---- ۷۷
۲- الخسارة العظمى ---- ۷۸
القسم الثانى: الرحيل الوشيک ---- ۷۹
اشارة ---- ۷۹
تأمّلان ---- ۸۱
۱- خير الزاد ---- ۸۱
۲- اتباع الهوى وطول الأمل من أعدى أعداء الإنسان ---- ۸۲
اشارة ---- ۸۲
تكملة ---- ۸۳
الخطبة[۲۱۴] التاسعة والعشرون ---- ۸۴

اشارة ----- ۸۴
نظرة إلى الخطبة ----- ۸۴
القسم الأول: عوامل ضعف أهل الكوفة ----- ۸۴
القسم الثانی ----- ۸۶
اشارة ----- ۸۶
تأمّلان ----- ۸۷
۱- الحق يؤخذ ولا يُعطى ----- ۸۷
۲- الدفاع عن الوطن ----- ۸۸
القسم الثالث: اليأس من القوم ----- ۸۹
اشارة ----- ۸۹
أسباب الهزيمة والفشل ----- ۹۰
الخطبة[۲۳۴] الثلاثون ----- ۹۱
اشارة ----- ۹۱
نظرة إلى الخطبة ----- ۹۱
عوامل قتل عثمان ----- ۹۲
الخطبة[۲۳۷] الحادية والثلاثون ----- ۹۴
اشارة ----- ۹۴
السعی لانقاذ الخاطئين ----- ۹۴
تأمّلات ----- ۹۶
۱- رد فعل الزبير تجاه رسالة الإمام عليه السلام ----- ۹۶
۲- قطوف من سيرة طلحة والزبير ----- ۹۶
۳- شروط الأمر بالمعروف والنهی عن المنكر ----- ۹۸
الخطبة[۲۵۱] الثانية و الثلاثون ----- ۹۸
اشارة ----- ۹۸

نظرة إلى الخطبة ----- ۹۸
القسم الأول: الدهر وضياع القيم ----- ۹۹
اشارة ----- ۹۹
تأمّلان ----- ۱۰۰
۱- ما مفهوم فساد الزمان؟ ----- ۱۰۰
۲- التنكر للقيم ----- ۱۰۱
القسم الثانى: الناس أربعة أصناف ----- ۱۰۲
اشارة ----- ۱۰۲
الأصناف الأربعة فى كل مجتمع ----- ۱۰۴
القسم الثالث: الصنف الخامس: أولياء الله ----- ۱۰۵
القسم الرابع: الاتعاظ بالماضين ----- ۱۰۷
الخطبة[۲۹۵] الثلاثة و الثلاثون ----- ۱۰۸
اشارة ----- ۱۰۸
نظرة إلى الخطبة ----- ۱۰۹
القسم الأول: دحر الباطل ----- ۱۰۹
اشارة ----- ۱۰۹
تأمّلات ----- ۱۱۱
اشارة ----- ۱۱۱
۱- من أخبار يوم ذى قار ----- ۱۱۱
۲- جاهلية العرب ----- ۱۱۲
۳- حديث خاصف النعل ----- ۱۱۲
القسم الثانى: مالى ولقريش؟ ----- ۱۱۳
اشارة ----- ۱۱۳
الحسد مصدر الاضطراب الاجتماعى ----- ۱۱۵

الخطبة[۳۲۶] الرابعة والثلاثون ----- ۱۱۵
اشارة ----- ۱۱۵
مناسبة الخطبة ----- ۱۱۵
نظرة إلى الخطبة ----- ۱۱۶
القسم الأول: لم الخشية من الشهادة؟ ----- ۱۱۶
اشارة ----- ۱۱۶
جدوى الذم واللوم ----- ۱۱۷
القسم الثانى: يقظة العدو وسيات النصير ----- ۱۱۸
اشارة ----- ۱۱۸
عوامل اخرى للضعف والهزيمة ----- ۱۱۹
القسم الثالث: الانفراد فى مجابهة العدو ----- ۱۲۰
اشارة ----- ۱۲۰
العزم النهائى للزعيم الشجاع ----- ۱۲۲
القسم الرابع: حقى عليكم وحقكم على ----- ۱۲۳
اشارة ----- ۱۲۳
تأمّلان ----- ۱۲۵
۱- الحقوق المتبادلة للإمام والامّة ----- ۱۲۵
۲- تعارض الحق والمصلحة! ----- ۱۲۷
الخطبة[۳۶۵] الخامسة و الثلاثون ----- ۱۲۷
اشارة ----- ۱۲۷
نظرة إلى الخطبة: نتيجة العصيان ----- ۱۲۷
تأمّلان ----- ۱۳۰
۱- قصة التحكيم ----- ۱۳۰
۲- الاستفادة من آراء الآخرين ----- ۱۳۱

الخطبة[۳۷۹] السادسة و الثلاثون ----- ۱۳۱
اشارة ----- ۱۳۱
نظرة إلى الخطبة ----- ۱۳۱
إتمام الحجة على الخوارج ----- ۱۳۲
قصة التحكيم ثم ظهور أمر الخوارج ----- ۱۳۳
الخطبة[۳۸۹] السابعة والثلاثون ----- ۱۳۴
اشارة ----- ۱۳۴
نظرة إلى الخطبة ----- ۱۳۴
القسم الأول: الصمود أمام العواصف ----- ۱۳۴
القسم الثانی: القوی عندی ضعیف ----- ۱۳۶
اشارة ----- ۱۳۶
نصرة المظلوم ومجابهة الظالم ----- ۱۳۷
القسم الثالث: أول من أسلم ----- ۱۳۸
اشارة ----- ۱۳۸
عهد رسول‌اللّه صلی الله علیه و آله لعلی علیه السلام ----- ۱۳۹
الخطبة: الثامنة و الثلاثون ----- ۱۴۰
اشارة ----- ۱۴۰
نظرة إلى الخطبة ----- ۱۴۰
النجاة من الشبهة ----- ۱۴۰
تأثير الشبهة فی تحريف الحقائق ----- ۱۴۲
عبثية الخوف من الموت ----- ۱۴۲
الخطبة[۴۱۲]: التاسعة والثلاثون ----- ۱۴۳
اشارة ----- ۱۴۳
نظرة إلى الخطبة ----- ۱۴۳

أمر النعمان بن بشير مع عليّ ومالک بن کعب الأرحبيّ ----- ۱۴۳
القسم الأول: سکوت الإمام علیه السلام ----- ۱۴۴
القسم الثانی: الضعف أمام العدو ----- ۱۴۵
اشارة ----- ۱۴۵
عاقبة الضعف أمام العدو ----- ۱۴۶
سؤال ----- ۱۴۶
الخطبة الاربعون ----- ۱۴۷
اشارة ----- ۱۴۷
نظرة إلی الخطبة ----- ۱۴۷
تأمّلان ----- ۱۵۰
۱- بلاء التحریف ----- ۱۵۰
۲- ضرورة تشکیل الحکومة ----- ۱۵۱
اشارة ----- ۱۵۱
خطأ إبن أبی الحدید ----- ۱۵۲
الخطبة[۴۳۴] الحادیة و الاربعون ----- ۱۵۳
اشارة ----- ۱۵۳
نظرة إلی الخطبة ----- ۱۵۳
السیاسة الإلهیة والشیطانیة ----- ۱۵۵
الخطبة[۴۵۵] الثانیة و الاربعون ----- ۱۵۷
اشارة ----- ۱۵۷
نظرة إلی الخطبة ----- ۱۵۷
القسم الأول ----- ۱۵۷
القسم الثانی ----- ۱۵۸
اشارة ----- ۱۵۸

الموت يعنى إغلاق صحيفة الأعمال ----- ۱۵۹
الخطبة[۴۶۹] الثالثة الاربعون ----- ۱۶۰
اشارة ----- ۱۶۰
نظرة إلى الخطبة ----- ۱۶۰
القسم الأول: رجل الحرب والسلام ----- ۱۶۱
اشارة ----- ۱۶۱
الهدف من الدعوة إلى الصلح والبيعة ----- ۱۶۲
القسم الثانى ----- ۱۶۳
اشارة ----- ۱۶۳
أعمال عثمان وأسباب قتله. ----- ۱۶۴
الخطبة[۴۸۳] الرابعة والاربعون ----- ۱۶۵
اشارة ----- ۱۶۵
قصة الخريت بن راشد الناجى وخروجه على علىّ عليه السلام ----- ۱۶۵
فرار العبيد ----- ۱۶۶
تأمّلان ----- ۱۶۷
اشارة ----- ۱۶۷
۱- من بين الأسئلة التى تطرح بشأن هذه الخطبة ----- ۱۶۷
۲- فلسفة الحزم ----- ۱۶۷
الخطبة[۴۸۹] الخامسة و الأربعون ----- ۱۶۸
اشارة ----- ۱۶۸
نظرة إلى الخطبة ----- ۱۶۸
القسم الأول: الرحمة اللامتناهية ----- ۱۶۸
القسم الثانى: الدنيا دار المنى ----- ۱۶۹
اشارة ----- ۱۶۹

الكفاف والعفاف ----- ۱۷۰
الخطبة[۵۱۲]السادسة و الاربعون ----- ۱۷۱
اشارة ----- ۱۷۱
نظرة إلى الخطبة ----- ۱۷۱
الاستعاذة باللّه من وعثاء السفر ----- ۱۷۱
فلسفة الدعاء ----- ۱۷۲
الخطبة[۵۲۹] السابعة و الاربعون ----- ۱۷۳
اشارة ----- ۱۷۴
نظرة إلى الخطبة ----- ۱۷۴
نبوءة عن مستقبل الكوفة ----- ۱۷۴
رأيان فى الكوفة ----- ۱۷۵
الخطبة[۵۳۶] الثامنة و الاربعون ----- ۱۷۵
اشارة ----- ۱۷۵
نظرة إلى الخطبة ----- ۱۷۶
القسم الأول: استحقاق اللّه للحمد والثناء ----- ۱۷۶
القسم الثانى: تعبئة القوى لمواجهة العدو ----- ۱۷۷
اشارة ----- ۱۷۷
أخبار على عليه السلام فى جيشه وهو فى طريقه إلى صفين ----- ۱۷۷
نزول علىّ بكربلاء ----- ۱۷۹
الخطبة[۵۵۴] التاسعة والاربعون ----- ۱۷۹
اشارة ----- ۱۷۹
نظرة إلى الخطبة ----- ۱۷۹
المنزه عن الظن والخيال ----- ۱۸۰
وجوده ظاهر وكنه ذاته خفى ----- ۱۸۲

الخطبة[۵۶۵] الخمسون ----- ۱۸۳
اشارة ----- ۱۸۳
نظرة إلى الخطبة ----- ۱۸۳
تأمّلات ----- ۱۸۴
۱- أساس الفتن ----- ۱۸۴
۲- السياسات الشيطانية ----- ۱۸۵
الخطبة[۵۷۳] الحادية و الخمسون ----- ۱۸۵
اشارة ----- ۱۸۵
نظرة إلى الخطبة ----- ۱۸۶
أقبروا هذه الفتنة الخبيثة ----- ۱۸۶
تأمّلات ----- ۱۸۸
۱- ضرورة العيش فی ظل العزة والكرامة ----- ۱۸۸
۲- غسل أدمغة المغفلين ----- ۱۸۹
۳- المروءة والشهامة ----- ۱۸۹
الخطبة[۵۸۹] الثانية و الخمسون ----- ۱۹۰
اشارة ----- ۱۹۰
نظرة إلى الخطبة ----- ۱۹۰
القسم الأول: الدنيا الغرور ----- ۱۹۰
القسم الثانی: السعی القليل وإن كثر ----- ۱۹۲
القسم الثالث: عظمة وسعة النعم الإلهية ----- ۱۹۳
الخطبة[۶۱۳] الثالثة والخمسون ----- ۱۹۴
اشارة ----- ۱۹۴
تمام الاضحية ----- ۱۹۴
عِلّيّة سلامة الاضحية من النقص والعيب ----- ۱۹۵

الخطبة[۶۱۹] الرابعة و الخمسون ----- ۱۹۵
اشارة ----- ۱۹۵
نظرة إلى الخطبة ----- ۱۹۵
ليس هنالک سوى القتال ----- ۱۹۶
تأمّلان ----- ۱۹۷
۱- البيعة الفريدة للإمام عليه السلام ----- ۱۹۷
۲- الحرب والسلام، والكفر والإيمان ----- ۱۹۷
الخطبة[۶۲۸] الخامسة والخمسون ----- ۱۹۸
اشارة ----- ۱۹۸
نظرة إلى الخطبة ----- ۱۹۸
تماسک الإمام عليه السلام حيال القتال ----- ۱۹۸
الخطبة[۶۳۲] السادسة والخمسون ----- ۱۹۹
اشارة ----- ۲۰۰
نظرة إلى الخطبة ----- ۲۰۰
الوقوف المشرف إلى جانب رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله ----- ۲۰۰
تأمّلان ----- ۲۰۲
۱- ثانى فتن البصرة ----- ۲۰۲
۲- خصائص المسلمين الاوائل ----- ۲۰۴
الخطبة[۶۴۲] السابعة والخمسون ----- ۲۰۴
اشارة ----- ۲۰۴
نظرة إلى الخطبة ----- ۲۰۴
إحذروا العدو ----- ۲۰۵
تأمّلات ----- ۲۰۸
۱- علة عدم ذكر الإمام عليه السلام للشخص المقصود بالخطبة ----- ۲۰۸

۲- لماذا حكم الإمام عليه السلام بهدر دم معاوية؟ ----- ۲۰۸
۳- تأريخ سب الإمام على عليه السلام ----- ۲۰۹
۴- التقية وسيلة دفاعية ----- ۲۱۰
الخطبة[۶۵۸] الثامنة و الخمسون ----- ۲۱۰
اشارة ----- ۲۱۰
نظرة إلى الخطبة ----- ۲۱۱
فضاعة مظلومية الإمام عليه السلام ----- ۲۱۱
الخطبة[۶۶۱] التاسعة والخمسون ----- ۲۱۲
اشارة ----- ۲۱۲
هل من سبيل لعلم الغيب ----- ۲۱۲
الخطبة[۶۶۳] الستون ----- ۲۱۳
اشارة ----- ۲۱۳
مصير الخوارج ----- ۲۱۳
تأمّلات ----- ۲۱۳
۱- الخوارج ظاهرة لافرقة ----- ۲۱۴
۲- الخوارج لصوصا سلابين ----- ۲۱۵
تعريف مركز ----- ۲۴۴

نفحات الولایة المجلد ۲

اشارة

عنوان و نام پدیدآور : نفحات الولایه: شرح عصری جامع لنهج‌البلاغه/ ناصرمکارم شیرازی، بمساعده مجموعه من‌الفضلاء؛ اعداد عبدالرحیم الحمدانی.

مشخصات نشر : قم : مدرسه‌الامام علی‌ابن‌ابی‌طالب (ع) ، ۱۴۲۶ق.-= ۱۳۸۴.

مشخصات ظاهری : ج.

شابک : ۳۰۰۰۰ ریال : دوره ۹۶۴-۸۱۳-۹۵۸-X: ؛ ج. ۱ ۹۶۴-۸۱۳-۹۰۷-۵ : ؛ ج. ۲ ۹۶۴-۸۱۳-۹۰۸-۳ : ؛ ج. ۳ ۹۶۴-۸۱۳-۹۱۷-۲ : ؛ ج. ۴ ۹۶۴-۸۱۳-۹۱۸-۰ : ؛ ج.۵ : ۹۶۴-۸۱۳-۹۴۱-۵ ؛ ۷۰۰۰۰ ریال: ج. ۶۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۰-۵ : ؛ ۷۰۰۰۰ ریال: ج. ۷۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۱-۲ : ؛ ۷۰۰۰۰ ریال: ج. ۸۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۲-۹ : ؛ ۷۰۰۰۰ ریال: ج. ۹۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۳-۶ : ؛ ۷۰۰۰۰ ریال: ج. ۱۰۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۴-۳ :

یادداشت : عربی.

یادداشت : ج ۱- ۵ (چاپ دوم: ۱۳۸۴).

یادداشت : ج. ۶- ۱۰ (چاپ اول: ۱۴۳۲ ق.= ۱۳۹۰).

یادداشت : کتابنامه.

مندرجات : .- ج. ۶. من خطبة ۱۵۱ الی ۱۸۰.- ج. ۷. من خطبة ۱۸۱ الی ۲۰۰.- ج. ۸. من خطبة ۲۰۱ الی ۲۴۱.- ج. ۹. من رسالة ۱ الی ۳۱.- ج. ۱۰. من رسالة ۳۲ الی ۵۳

موضوع : علی‌بن ابی‌طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق -- خطبه‌ها

موضوع : علی‌بن ابی‌طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- کلمات قصار

موضوع : علی‌بن ابی‌طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- نامه‌ها

موضوع : علی‌بن ابی‌طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق . نهج‌البلاغه -- نقد و تفسیر

شناسه افزوده : حمرانی، عبدالرحیم

شناسه افزوده : علی‌بن ابی‌طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق . نهج‌البلاغه. شرح

شناسه افزوده : مدرسة الامام علی بن ابی طالب (ع)

رده بندی کنگره : BP۳۸/۰۲ /م۷ ۱۳۸۴

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۹۵۱۵

شماره کتابشناسی ملی : م۸۴-۴۰۳۴۷

الخطبة[۱] الحادی والعشرون

اشارة

ومن خطبة له علیه السلام

«وهی کلمة جامعة للعظمة والحکمة»

«فإنّ الغايَةَ أمامَكم، وإنَّ وَراءَكُم السّاعَةَ تَحْدُوكُم. تَخَفَّفوا تَلحَقُوا، فَإنَّما يُنتَظر بِأَوّلِكَم آخِرُكُم».

قال السيد الشريف الرضى: أقول: إنّ هذا الكلام لو وزن بعد كلام اللَّه سبحانه وبعد كلام رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بكل كلام لمال به راجحاً، وبرَّز عليه سابقاً فأمّا قوله عليه السلام: «تخففوا تلحقوا» فما سمع كلام أقلّ منه مسموعاً ولا أكثر منه محصولًا وما أبعد غورها من كلمة! وأنقع نطفتها من حكمة! وقد نبهنا فى كتاب «الخصائص» على عظم قدرها وشرف جوهرها.

شرح الخطبة

تخففوا تلحقوا!

ورد هذا الكلام ضمن سياق الخطبة ۱۶۷، حيث تضمنت تلك الخطبة مثل هذه العبارات مع بعض الفوارق الطفيفة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۶

والذى يفهم من كلام المرحوم السيد الشريف الرضى أنّ الإمام عليه السلام قد ألقى هذه الخطبة أوائل ما آلت إليه الخلافة، بينما يفهم من كتاب «مطالب السؤل»[۲] أنّ هذه الخطبة هى إمتداد للخطبة السابقة وتعرّض لذات المطالب.

وهناك احتمال آخر فى أنَّ الخطب الثلاث قد صدرت معاً عن أمير المؤمنين عليه السلام فى موضع واحد، ثم صنّفتْ ثلاثة أقسام.

على كل حال فإنَّ هذا القسم من الخطبة- والذى لا يتجاوز بضعة عبارات- وعلى حد تعبير السيد الرضى لو وزن بعد كلام اللَّه وبعد كلام رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لمال به راجحاً! والحق ان الأمر كذلك حقاً ماهذه الفصاحة والبلاغة فى كلمات قصار تتعرَّض لمثل هذه الحقائق السامية!

فالإمام ينبّه أبناء الأُمّة بادئ الأمر إلى مفهوم المعاد ومحكمة العدل الإلهى ليلفت إنتباههم من خلال ذلك إلى عظم المسؤوليات والوظائف التى ينبغى لهم أن ينهضوا بها فى خلافته، ويحذرهم من كافة ألوان النفاق والتشتت والفرقة والنكوص عن إداء الواجبات. وأخيراً يذكرهم بالعاقبة التى تنتظرهم بعد العرض على اللَّه يوم القيامة، فأمّا الجنّة وأمّا النار «فإن الغاية أمامكم، وإن وراءكم الساعة تحدوكم».

والتعبير ب «الغاية» (عاقبة الأمر) بشأن القيامة والجنّة والنار لأنّ الحياة فى الدنيا إنّما هى مقدمة للحياة الأبدية فى العالم الآخر.

فقوله عليه السلام: «فان الغاية أمامكم» يعنى عدم وجود الشك والريب فى أن مآل الامور هناك وليس لأحد الفرار عن ذلك المآب.

وأمّا التعبير ب «الساعة» فقد صرَّح بعض شارحى نهج البلاغة بأنّه إشارة إلى القيامة الصغرى؛ أى الموت. فقوله عليه السلام: «وراءكم» يفيد أنَّ عوامل الموت إنَّما تكمن وراء الإنسان، فهى تسوق الإنسان من الطفولة إلى الشباب ومن الشباب إلى الكهولة والشيخوخة وأخيراً من الشيخوخة إلى انقطاع الحياة. فى حين صرَّح البعض الآخر بأنّ المراد ب «الساعة» هو ساعات

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۷

الليل والنهار وكأنّها الأمر الصارم الذى كمن خلف الإنسان ويسوقه إلى حتفه. وليس هناك من فوارق تذكر بين هذين التفسيرين حيث مؤداهما واحد. وبالاستناد إلى أن كلمة «تحدوكم» المشتقة من مادة «حدو» بمعنى «السوق والدفع نحو الشىء».

فإنَّ الذى يتبادر إلى الذهن هو أن تقلب الليل والنهار والشهر والسنة رغم تقريبها الإنسان من وصول أجله وانقطاع حياته، غير أنّها تشكل عوامل غفلته بفعل اختلاطها بزخارف الدنيا وزبرجها. فالواقع هو أنّ هذه العبارة التى تصدرت الكلام رغم قصرها قد أشارت إلى القيامة الكبرى إلى جانب إشارتها إلى القيامة الصغرى؛ الأمر الذى يعدّ المستمع للاصغاء إلى المرحلة اللاحقة.

فأورد عليه السلام هذه الجملة المقتضبة العميقة المعنى: «تخففوا تلحقوا» عادة إذا ما انطلقت قافلة من الناس إلى مكان وواجهت هذه القافلة بعض المنعطفات التى لايمكن اجتيازها بسهولة فإنَّ أولئك الأفراد المثقلين بالأحمال غالباً ما يتخلفون عن القافلة التى لا يسعها

الوقوف من أجل فرد أو بضعة أفراد فلا يكون أمامها سوى تجاوز ذلك الفرد ومواصلة السير والحركة. أمّا ذلك الفرد الذى تخلف عن القافلة فإنَّه سيكون لقمة سائغة لقطاع الطرق واللصوص وذئاب الصحراء، بينما يشقّ المخفون طريقهم بسرعة تجعلهم يصلون إلى هدفهم أسرع من الجميع.

وهذا هو حال بنى آدم فى هذه الدنيا، فهم مسافرون وقد شدّوا الرحال إلى الحياة الأبدية التى تعقّب الموت. فمن ثقل حمله من متاع الدنيا وحطامها كان لقمة سائغة للشيطان، أمّا أهل الورع والزهد والتقوى فإنَّهم سيحثون الخطى سريعاً لينالوا سعادة الآخرة والفوز بالخلود.

وقد أكّد الإمام عليه السلام هذا المعنى- فى الخطبة ۲۰۴- حين نادى أصحابه: «تجهَّزوا- رحمكم اللَّه- فقد نودى فيكم بالرحيل وأقلّوا العُرجة على الدنيا ... فإنَّ أمامكم عقبة كؤودا ومنازل مخوفة مهولة».

وقد شبه بعض شرّاح النهج الإنسان بالمسافر الذى يجوب البحر وهو يواجه أمواجه العاتية حيث سيكون الغرق مصيره الحتمى إذا لم يخف مؤونة سفينته.

وقد شبهوا قلب الإنسان بهذه السفينة، التى ستواجه الغرق لا محالة إذا ما أثقل ذلك القلب بحبِّ الدنيا والانغماس فى الشهوات.[۳]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۸

وأخيراً يختتم الإمام على عليه السلام خطبته بقوله: «فانما ينتظر بأولكم آخركم». وتدل هذه العبارة بوضوح على أنّ عالم البشرية بحكم القافلة الواحدة التى تشتمل على المقدمة- التى سبقت بالحركة- والوسط والمؤخرة؛ وهى تواصل مسيرتها لتلتحق مؤخّرتها بمقدمتها، وبعبارة اخرى فإنّ قانون الموت لا يعرف الحصر والاستثناء وهو المحطة التى سيتوقف عندها الجميع. وبناءً على ما تقدّم فإنَّ عاقبة الأولين نذير مبين للآخرين.

عاقبة المثقلين!

إنَّ أهم عامل يقف وراء خسران طائفة من الناس والذى تضمنته كلمات الإمام عليه السلام فى خطبته إنَّما يكمن فى إثقال كاهلها بالتكالب على متاع الدنيا الزائد عن حاجتها فى حياتها الدنيوية المتواضعة.

ولك أن تفرض أنَّ فرداً ينطلق للسفر ليوم واحد وقد حمل مقداراً من الخبز والماء والفاكهة لما يكفيه لذلك اليوم، بينما حمل الآخر عدة حقائب وقد ملأها بمختلف الأطعمة والأشربة والفاكهة وانطلق إلى سفره. فمن البداهة أن ينطلق الأول بكل هدوء وخفة وخطى واثقة وحثيثة دون أن يشعر بالكلل والتعب، فى حين سينقطع نفس الثانى ولا يسعه مواصلة السير والحركة. وهذا هو المصير الذى ينتظر أولئك الأفراد الذين جعلوا همهم فى الدنيا ومتاعها الزائل وجعلوا يفكّرون ليل نهار فى كيفية حفظ هذه الأموال، حتى أنستهم ذكر اللَّه، ولم يكتفوا بذلك ففقدوا حتى السكينة والطمأنينة فى حياتهم الدنيا.

هذا وقد تطرق بعض شرّاح نهج البلاغة إلى قصة الصحابى الجليل سلمان الفارسى رضى الله عنه كشاهد حى ونموذج لقول الإمام على عليه السلام «تخففوا تلحقوا» وذلك حين نصب والياً على منطقة المدائن فركب دابته وانطلق بمفرده إليها.

فاتصل بالمدائن خبر قدومه، فاستقبله أصناف الناس على طبقاتهم، فلما رأوه قالوا: أيها الشيخ أين خلّفت أميرنا؟ قال: ومن أميركم؟ قالوا: الأمير سلمان الفارسى صاحب رسول الله صلى الله عليه و آله.

قال: لا أعرف الأمير، وأنا سلمان.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۹

فترجلوا له وقادوا اليه المراكب والجنائب. فقال: إنّ حمارى هذا خير لى وأوفق. فلما دخل البلد أرادوا أن ينزلوه دارالامارة قال: ولست بأمير. فنزل على حانوت فى السوق وقال إدعوا إلىّ صاحب الحانوت فاستأجر منه. وكان معه وطاء يجلس عليه ومطهرة يتطهّر بها

للصلاة وعكازة يعتمد عليها فى المشى. فأتفق أنّ سيلا وقع فى البلد فارتفع صياح النّاس بالويل والعويل يقولون: وا أهلاه وا ولداه و وا مالاه، فقام سلمان ووضع وطائه فى عاتقه وأخذ مطهرته وعكازته بيده وإرتفع على صعيد وقال: هكذا ينجو المخفّفون يوم القيامة.[۴] والطريف فى الأمر ما ذكره السيد الرضى رضى الله عنه من أنّ هذا الكلام لو وزن بعد كلام اللّه سبحانه وبعد كلام رسول اللّه صلى الله عليه و آله بكل كلام لمال به راجحاً. ولاسيما قوله عليه السلام: تخففوا تلحقوا.

فما أبعد غورها وأعظمها من حكمة وموعظة رغم قصرها؛ الأمر الذى دفع بالسيد الرضى رضى الله عنه إلى الإسهاب فى الخوض فى تفاصيلها فى كتابة «الخصائص».

ج‌ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۱

الخطبة الثانية و العشرون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام ۵]

حينَ بَلَغهُ خَبَرُ الناكثين بيعَتِه.

وفيها يذمُّ عملَهم ويلزمهم دمَ عثمانَ ويتهدّدهم بالحرب.

القسم الأول: أضواء على الخطبة

اشارة

«ألا- وإنّ الشّيطانَ قَدْ ذَمّر حِزبَهُ وَاستجلَبَ جَلبَهُ لِيَعُودَ الجَورُ إلى أوطانِهِ ويَرجعَ الباطِلُ إلى نِصابِهِ، وَاللّهِ! ما أنكرُوا عَلىَّ مُنكَراً، ولا جعَلُوا بَينِى وَبَينَهم نَصِفاً».

ج‌ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۲

وردت هذه الخطبة- كما يفهم من عنوانها- بشأن طلحة والزبير بعد نقضهما البيعة وما تلاها من أحداث مريرة تمثلت إحداها بمعركة الجمل، كما تشير إلى قضية المطالبة بدم عثمان التى تمسك بها أصحاب الجمل والتى استغلت فيما بعد من قبل أهل الشام.

وأخيراً تتضمن مذمتهم وتقريعهم من جانب الإمام عليه السلام والرد الحاسم على تهديداتهم وتخرصاتهم. وتبدو مضامين هذه الخطبة أكثر شبهاً بخطبه ۱۰، ۲۶ و ۱۷۲؛ الأمر الذى جعل من المحتمل أن تكون كل خطبة من هذه الخطب جزءاً من خطبة واحدة وقد قام السيد الرضى رضى الله عنه بتجزأتها على ضوء ما يناسب المقام.

الطريف فى الأمر أنَّ بعض الروايات صرّحت بأنّ عمرو بن العاص قال يوماً لعائشة:

«لوددت أنّك قتلت يوم الجمل!». فردت عائشة متعجبة: «ولم؟ لا أباً لك!». فأجابها بن العاص: «كنت تموتين بأجلك وتدخلين الجنّة ونجعلك أكبر التشنيع على علىّ»[۶].

يرى بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ هذه من الخطب المتعلقة بمعركة صفّين، وقد عنت عباراتها معاوية[۷]، إلّاأنّ الذى يستفاد من عنوان الخطبة الذى اعتمده السيد الرضى رضى الله عنه وكلام ابن أبى الحديد[۸] وسائر الشرّاح أنّ هذه الخطبة إنّما تتناول ناكثى البيعة من أصحاب الجمل، وإن كانت مضامينها تتناسب وحال الطائفتين؛ الجمل وصفين.

الشرح والتفسير

وقعة الجمل

أشرنا سابقاً إلى أنّ الخطبة وردت بخصوص أولئك الذين أججوا نيران فتنة الجمل؛ أى طلحة والزبير ورهطهما. فقد كان كل من طلحة والزبير يطمع فى الحكومة ولما صرفها الإمام عليه السلام عنهما ولم يكن مستعدّاً لتقليدهما أيَّة مسؤولية فى حكومته، ثارت ثائرتهما وقادهما

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۳

هوى أنفسهما لنقض البيعة، وأخذا يجيشان الجيوش بما فيها عائشة- زوج النبى صلى الله عليه و آله- ويهيا لقتال على عليه السلام بذريعة الطلب بدم عثمان ۹]، وقد إختارا البصرة- التى كانت ممهدة آنذاك لمثل هذه الفتنة- مركزاً لمؤامراتهم الدنيئة على الإمام عليه السلام.

فالإمام عليه السلام يتطرق فى بداية الخطبة إلى هذه المؤامرة فقال: «ألا وإنّ الشيطان قد ذمر[۱۰] حزبه واستجلب جلبه ۱۱] ليعود الجور إلى أوطانه ويرجع الباطل إلى نصابه».

فهو يشير عليه السلام إلى الانحرافات والاضطرابات التى أعقبت قتل عثمان ومبايعة الامّة لعلى عليه السلام بالخلافة. والمراد بحزب الشيطان- فى الخطبة- أولئك الذين تسلّطوا على بيت مال المسلمين أبان حكومة عثمان وتولوا بعض المناصب الخطيرة، كما كانوا يتطلعون للسيطرة على الخلافة، فالإمام عليه السلام يحذر الامّة من هؤلاء الشياطين الذين يتربصون بها الدوائر وإنَّهم يحيكون المؤامرات من أجل الاستحواذ ثانية على بيت المال وممارسة الظلم والجور بحق المسلمين والحيلولة دون قيام الإمام عليه السلام بوظيفته فى إصلاح المجتمع الإسلامى وإجتثاث جذور الفساد والانحراف التى برزت واستفحلت فى خلافة عثمان.

وأخيراً يصرح الإمام عليه السلام بعدم وجود أى دليل أو منطق يسوغ لهؤلاء الوقوف بوجه الإمام وقتاله «واللَّه ما أنكروا علىَّ منكراً ولا جعلوا بينى وبينهم نصفاً».

فهو يشير عليه السلام إلى طلحة والزبير والطائفة التى نكثت البيعة، كما يتطرق عليه السلام إلى حجتهم الواهية المتمثلة بقتل عثمان. ثم يورد عليه السلام أقسى العبارات بحقّهما.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۴

نعم لقد تنكرت كافة المصادر الإسلامية والكتب التأريخية لنسب قتل عثمان إلى الإمام على عليه السلام، بينما تصرّح بأنَّ الإمام سعى أكثر من غيره لإخماد نار الفتنة، فهو القائل عليه السلام «واللَّه لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً» فلم يتّبع الناكثون فى هذه الأحكام المتسرّعة، العدل والانصاف بقدر ما تشبّثوا بالكذب والتهمة والظنة. ولا يبدو من الغرابة اللجوء إلى مثل هذه الأساليب بالنسبة لأولئك الذين يسعون إلى ضمان مصالحهم وتحقيق أهدافهم. وما أكثر ما نشاهده فى عصرنا الراهن من الساسة الظلمة الذين لا يتحفظون عن أبشع الأساليب الدنيئة من أجل ضمان مصالحهم اللامشروعة.

حزب اللَّه وحزب الشيطان

لقد تضمّنت خطبة الإمام عليه السلام إشارة لطيفة إلى ما أورده القرآن الكريم فى آخر سورة المجادلة، حيث صنفت الآية القرآنية المباركة الناس إلى حزبين هما: «حزب اللَّه» و «حزب الشيطان»، كما أشارت إلى الميزة الرئيسية التى يتّصف بها حزب اللَّه وهى صفة الحب فى اللَّه والبغض فى اللَّه «لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها رَضِىَ

اللَّه عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أولئِك حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ المُفْلِحُونَ»[۱۲].

وفى مقابل ذلك هناك حزب يهم بحفظ مصالحه ويعتمد أسلوب النفاق والخداع ولا يتورع عن موالاة أعداء اللَّه وإظهار المودة لهم إلى جانب بث بذور الظلم والفساد بين صفوف العباد، فيصفهم القرآن قائلا: «إِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولئِك حِزْبُ الشَّيْطانِ ألا إِنَّ حِزْبَالشَّيْطانِ هُمُ الخاسِرُونَ»[۱۳].

والحزبان المذكوران لا يختصان بزمان نزول القرآن وعصر صدر الإسلام، بل تتعدد صورهما وأشكالهما فى كافة العصور والدهور.

ولو ألقينا نظرة عابرة على عالمنا المعاصر

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۵

لشاهدنا بوضوح هذين التيارين وقد كمن أحدهما مقابل الآخر، فعادة ما يستند حزب الشيطان إلى منطق القوة الغاشم والغطرسة والأموال والثروة والتآمر وممارسة الظلم والجور وبث بذور النفاق والفرقة وإشاعة الفساد والانحراف، بينما يستند حزب اللَّه إلى القيم والمثل والمبادئ الحقة ولا يتوانى فى التصدّى لزعماء الحزب المذكور. يتربص حزب الشيطان عادة لاستغلال الفرص المناسبة ومنها الثورات والانقلابات التى تطيح بحكومة وتأتى باخرى.

وأفضل شاهد على ذلك ما شهدته حكومة الإمام على عليه السلام أوائل تشكيلها. فقد اتّفقت كلمة ما تبقى من فلول الجاهلية الذين برزوا للوجود فى خلافة عثمان على مواجهة ربيب الإسلام وتلميذ النبى صلى الله عليه و آله الإمام على عليه السلام، فأشعلوا نيران الفتن التى كان من المقدر للإمام إخمادها والتغلب عليها، فعاثوا فى الأرض فساداً بما لم يدع للإمام من سبيل سوى الوقوف بوجههم ومقاتلتهم.

فالإمام عليه السلام يحذر الأمّة ومنذ اليوم الأول لحكومته من مكايد حزب الشيطان وعدم الانخداع بأساليبه والأعيبه القذرة.

وأخيراً يفهم من عباراته عليه السلام أنّ للظلم والجور وطن وأنّه يستند إلى اسس ودعائم! نعم وطن الجور والظلم هو الموضع الذى يتجحفل فيه عسكر الشيطان، كما أنّ المبادئ التى ينتهجها حزب الشيطان لهى الأسس والدعائم التى يرتكز عليها الظلم والجور.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۷

القسم الثانى

اشارة

«وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ! فَلَئِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ فَإِنَّ لَهُمْ لَنَصِيبَهُمْ مِنْهُ وَلَئِنْ كَانُوا وَلُوهُ دُونِى فَمَا التَّبِعَةُ إِلَّا عِنْدَهُمْ وَإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَى أَنْفُسِهِمْ يَرْتَضِعُونَ أُمّاً قَدْ فَطَمَتْ وَيُحْيُونَ بِدْعَةً قَدْ أُمِيتَتْ.

يا خَيْبَةَ الدَّاعِى! مَنْ دَعا! وَإِلامَ أُجِيبَ! وَإِنِّى لَراضٍ بِحُجَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَعِلْمِهِ فِيهِمْ».

الشرح والتفسير

المعذّرون المفتضحون!

يشرح الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة ما أورده فى بدايتها، ثم يعرض الأدلة القاطعة التى تدين ناكثى البيعة ومؤججى نار الحرب ويفضحهم أمام المسلمين. فقد أشار عليه السلام إلى الذريعة الأصلية التى تمسك بها طلحة والزبير وأعوانهما؛ أى المطالبة بدم عثمان، فقال عليه السلام:

«وإنّهم ليطلبون حقاً هم تركوه ودماً هم سفكوه»- روى المؤرخ المعروف الطبرى فى تاريخه عن أحد أصحاب عثمان أنّ علياً عليه السلام كان فى ماله بخيبر لما حصر عثمان، فقدم المدينة والناس مجتمعون على طلحة، وكان لطلحة فى حصار عثمان أثر، فلما قدم على عليه السلام أتاه عثمان، وقال له: أمّا بعد؛ فانّ لى حق الإسلام وحق الأخا والقرابة والصهر، ولو لم يكن من ذلك شيء وكنّا فى جاهلية، لكان عاراً على بنى عبد مناف أن يبتز بنو تيم أمرهم- يعنى طلحة- فقال له على عليه السلام: أنا اكفيك، فاذهب أنت. ثم خرج إلى المسجد فرأى اسامة بن زيد، فتوكأ على يده حتى دخل دار طلحة وهى مملوءة من الناس، فقال له: يا طلحة، ما هذا الأمر الذى صنعت

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۸

بعثمان؟ فقال: يا أبا الحسن، أبعد أنّ مس الخرام الطبين! فانصرف على عليه السلام حتى أتى بيت المال، فقال: افتحوه، فلم يجدوا المفاتيح، فكسر الباب، وفرق مافيه على الناس؛ فانصرف الناس من عند طلحة حتى بقى وحده، وسرّ عثمان بذلك؛ وجاء طلحة فدخل على عثمان، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنّى أردت أمراً فحال اللّه بينى وبينه، وقد جئتك تائباً- فقال: واللّه ما جئت تائباً ولكن جئت مغلوباً؛ اللّه حسيبك يا طلحة.[۱۴] ثم ذكر الطبرى فى موضع آخر من تأريخه أنّ عثمان حين قتل، خرج من عنده «سودان بن حمران» وهو يقول «أين طلحة؟ فقد قتلنا عثمان»[۱۵].

فالذى يستفاد من هذه الشواهد وسائر القرائن التأريخية أن طلحة كان من المخططين الرئيسيين لقتل عثمان. أمّا جملة عائشة بشأن عثمان فهى معروفة مشهورة للجميع فقد كانت تنادى صراحة «اقتلوا نعثلًا! قتل اللّه نعثلًا» وكانت تقصد بنعثل عثمان.

ابن أبى الحديد يصرح فى شرحه لاحدى خطب نهج البلاغة بشأن موقعة الجمل فيقول:

يعترف جميع المؤرخين المسلمين بأنّ عائشة كانت من أعدى أعداء عثمان وهى التى أخرجت قميص رسول اللّه صلى الله عليه و آله وكانت تقول «هذا قميصه لم يبل وقد أبلى عثمان سنته»، وقيل أنّ أول من دعا عثمان نعثلًا عائشة، وكانت تقول: «اقتلوا نعثلًا قتل اللّه نعثلًا»[۱۶]. فالعجيب ورغم ذلك قد خرج هؤلاء للمطالبة بدم عثمان! ويبدو أنّ هذه المسائل ليست عجيبة فى عالم السياسة (السياسة التى تفتقر إلى الإيمان والتقوى والورع) فى أن يتآمر بعض الأفراد ثم يهبون للوقوف بوجه هذه المؤامرات من باب الدفاع! ثم قال الإمام عليه السلام: «فلئن كنت شريكهم فيه فان لهم لنصيبهم منه ولئن كانوا ولوه دونى فما التبعة إلا عندهم».

فالمراد أنّ الجميع يعلم بأنّ هؤلاء شركاء فى قتل عثمان، ولو افترض بانّى شريك أيضاً فى هذا الدم (والحال انّى لست غير شريك فحسب، بل بذلت قصارى جهدى لاطفاء نيران هذه الفتنة) فانّ التهمة ثابتة بحقهم، فان كانوا هم النواة الأصلية فى هذا العمل فان عليهم أن يتحملوا مسؤولية عملهم! وإذا كان الأمر كذلك فما أوقحهم فى قيامهم ومطالبتهم إيّاى بدم عثمان.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۹

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه قائلًا: «وإن أعظم حجتهم لعلى أنفسهم». حيث يميط اللثام عن الدافع الرئيسى وهو أنّ هؤلاء كانوا يرغبون باستمرار الأوضاع التى كانت سائدة على عهد عثمان، فتجعل لهم بعض الامتيازات فى بيت المال، غير أنّ ذلك العهد ولى واندرس وليس هنالك من سبيل إلى عودته إلى مسرح الأحداث ثانية: «يرتضعون امّا قد فطمت ويحيون بدعة قد اميتت».

كما وردت عدة تفاسير لقوله عليه السلام: «اما قد فطمت» منها أن يكون المراد تلك السنن الجاهلية والبدع والعصبية التى كانت سائدة قبل الإسلام، حيث يتشبثون بكل الوسائل الأخلاقية من أجل الحكومة، فأمير المؤمنين يصف ذلك العهد بالام التى فطمت فلم تعد هنالك من وسيلة لتحقيق المطامع»[۱۷].

ويبدو أنّ هذا التفسير يناسب العبارة الثانية «ويحيون بدعة قد اميتت» لا العبارة الاولى، كما أنّ جمع العبارتين بمعنى واحد يخالف ظاهر اللفظ. فى حين ذهب البعض إلى أنّ المراد أنّهم بمطالبتهم بدم عثمان إنّما يريدون احياء أيام حكومته، رغم أن هؤلاء المطالبون بدمه هم من بين الأفراد الذين ثاروا عليه وسببوا قتله ومن هنا أرادوا أن يرتضعوا أما قد فطمت.

وبالطبع فانه يمكن الجمع بين كل هذه المعانى، وإن بدأ المعنى الأول أنسب. فالنتيجة التى ستتمخض عنها حركة هؤلاء الافراء سوف لن تكون سوى الفشل الذريع؛ الأمر الذى عبر عنه الإمام عليه السلام بالقول «يا خيبة الداعى! وإلام أُجيب»[۱۸]. والواقع انهذه العبارة تكهن بالنتيجة التى ستؤول اليها معركة الجمل. فالإمام عليه السلام يعلن أنّ عاقبتهم ستكون الفشل والهزيمة؛ عاقبة الغدرة الذين خططوا لقتل عثمان ثم انبروا للمطالبة بدمه ففرقوا صفوف المسلمين فضلوا طائفة من الناس وخسروا الدنيا والآخرة. ثم قال الإمام عليه السلام: «وإنّى لراض بحجة اللَّه عليهم وعلمه فيهم» ولعل مراده بحجة اللَّه، ما ورد فى الآية القرآنية بشأن البغاة «وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتِ إِحْداهُما عَلى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۰

حَتّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ»[۱۹]. أمّا قوله عليه السلام: «علمه فيهم» فقد تكون إشارة للحديث المشهور عن النبى صلى الله عليه و آله بشأن على عليه السلام «قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين». فلما سألت أم سلمة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عن هذه الفرق الثلاث قال: الناكثين أهل الجمل، والقاسطين أهل الشام والمارقين أصحاب النهروان»[۲۰].

ولما كان الإمام عليه السلام راضى برضا اللَّه وعالم بما ستؤول إليه الأحداث من يأس العدو وهزيمته فان روحه مفعمة بالرضى والهدوء والسكينة.

ج‌ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۱

القسم الثالث: تهديد على عليه السلام

اشارة

«فَإِنْ أَبَوْا أَعْطَيْتُهُمْ حَدَّ السَّيْفِ وَكَفَى بِهِ شَافِياً مِنَ الْبَاطِلِ وَنَاصِراً لِلْحَقِّ! وَمِنَ الْعَجَبِ بَعْثُهُمْ إِلَيَّ أَنْ أَبْرُزَ لِلطِّعانِ! وَأَنْ أَصْبِرَ لِلْجِلادِ هَبِلَتْهُمُ الْهَبُولُ! لَقَدْ كُنْتُ وَما أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ وَلا أُرْهَبُ بِالضَّرْبِ! وَإِنِّى لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ رَبِّى وَغَيْرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِينِى».

الشرح والتفسير

لقد تقدم الإمام عليه السلام بتحذير تلك العناصر من مغبة مواصلة الغواية وضرورة الوقوف على جسامة الأخطاء وهجر سبيل الشيطان والوفاء ببيعتهم للإمام عليه السلام والكف عن إثارة الفتن وتأجيج نار الحرب. وهنا- فى القسم الأخير من الخطبة- يحذرهم من أنّ عدم الارعواء ومنح الآذان الصاغية للنصح سوف يضطره للتكلم معهم بلغة السيف، السيف الذى كفى به شافياً فى الرد على عبدة الأهواء والشهوات من أصحاب المنطق الغاشم.

فقد قال عليه السلام: «فان أبوا أعطيتهم حد السيف» العلاج الأفضل للباطل «وكفى به شافياً من الباطل وناصراً للحق». فما يقال أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حمل القرآن الكريم بيد والسيف بأخرى إنّما يكشف عن حقيقة واقعية مسلمة فى الحكومات الإلهية. فالجهود التى بذلها الأنبياء من أجل إصلاح المجتمعات واجتثاث جذور الفساد والانحراف إنّما تكرست بالأساليب المنطقية والعقلية واسداء النصائح والمواعظ بغية إلفات إنتباه الخاطئين إلى أخطائهم، ولكن من المسلم به أنّ هناك طائفة قد جعلت عقلها وضميرها آلة طيعة بيد أهوائها وشهواتها، فهى لا تعرف سوى لغة السيف والقوة؛ الأمر الذى يضطر زعماء الامّة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۲

الربانيين إلى شهر السيف بوجه هذه الطائفة الطائشة والاطاحة برؤوسها العفنة، وهذا هو آخر الدواء حيال تلك الأمراض المستعصية إذا ما عجزت غيره من الأدوية عن شفاء تلك الأمراض «إن آخر الدواء الكلى»[۲۱] والواقع هو أنّ قوله عليه السلام: «شافياً من الباطل»

وقوله:

«ناصراً للحق» من قبيل اللازم والملزوم؛ وذلك لأنّ علاج الباطل يؤدى إلى نصرة الحق ونصرة الحق تؤدى إلى اضمحلال الباطل. ثم يعرب الإمام عليه السلام عن فائق دهشته إلى أنّ هؤلاء قد أعلنوا عليه الحرب ودعوه إلى الطعان والصمود أمام سيوفهم وهو الذى تشهد له ساحات الوغى وميادين القتال فى المواقع التى تنكص فيها الأبطال «ومن العجب بعثهم إلىّ أن أبرز للطعان ۲۲] وأن أصبر للجلاد»[۲۳].

فالعبارة تكشف بجلاء أنّ ناكثى البيعة هم الذين بادروا إلى نشوب المعركة، حيث هدوا الإمام عليه السلام بكل وقاحة بإعداد نفسه لمواجهة سيوفهم وحرابهم، وهذا ما نوّه إليه ابن أبى الحديد عن المؤرخ المعروف أبو مخنف قوله: رجع رسل على عليه السلام من عند طلحة والزبير وعائشة يؤذنونه بالحرب.[۲۴]

على كل حال فانّ هذا التهديد يكشف عن مدى تعامى مؤججى فتنة الجمل عن رؤية الحقائق والوقائع، وقد أعمى حبّ المناصب والمقامات بصيرتهم وبصائرهم حتى لم يعودوا يروا الحقيقة المطلقة التى تهتف باندیتهم ليل نهار، ألا وهى شجاعة وبسالة على عليه السلام التى رأوها مراراً وكراراً فى الغزوات الإسلامية على عهد النبى صلى الله عليه و آله. ثم عاود الإمام عليه السلام مواصلة حديثه فى الاستغراب من ذلك التهديد الفارغ ليقدم الدليل القاطع على رفضه لما أوردوه فقال عليه السلام:

«هبلتهم الهبول! لقد كنت وما أُهدد بالحرب ولا أُرهب بالضرب! وإنى لعلى يقين من ربّى وغبر شبهة من دينى»، قوله عليه السلام «هبلتهم الهبول»[۲۵]- بالاستناد إلى مفهوم الهبل بمعنى الثكل

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۳

بالولد- يريد به أنّكم لا- تستحقون الحياة والبقاء وليس لكم سوى الموت، ثكلتكم أمهاتكم على هذه الأخطاء الشنيعة والانحراف الفكرى الذى أوصلكم إلى هذه الحالة. وقد ورد شبيه هذه العبارة الذى يعطى ذات المعنى وهو قولهم «ثكلتهم الثواكل» والتى استعملها الإمام عليه السلام لهذا الغرض فى سائر خطبه من نهج البلاغة.

على العموم فانّ الإمام عليه السلام قد أشار فى هذه العبارات إلى سابقته العريقة وتأريخه المشرق ليشير كناية، إنّما يعرفنى حتى مشركى العرب ولم يجرأ أحد على تهديدى بالحرب والمبارزة طيلة حياتى، وقد عشتم معى وزعمتم أنّكم من المسلمين. المسألة الاخرى التى أشار اليها الإمام عليه السلام هى أنّ من يخشى الحرب يخشى القتل والشهادة، ومن يخشى القتل والشهادة فليس له من إيمان ويقين باللَّه سبحانه وأن طريقه ملىء بالشكوك والشبهات؛ لأنّ من آمن وأيقن بسلامة طريقه ووثق بما عند اللَّه فانّه يعلم أنّ قتال أعداء الحق وخصوم الدعوة لا يكتنفه أى فشل أو هزيمة ولن ينطوى سوى على احدى نتيجتين إمّا النصر وإمّا الشهادة؛ الأمر الذى صرحت به الآية الشريفة ۵۲ من سورة التوبة: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلّا إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ» وأمّا قوله عليه السلام: «فانى لعلى يقين من ربى، وغير شبهة من دينى» فقد اعتبره بعض شرّاح نهج البلاغة أنه يعطى مفهوماً واحداً ويؤكد بعضه البعض، إلّاأنّ الصحيح هو أنّ العبارتين من قبيل بيان العام بعد الخاص، وهى تشتمل على مفهومين. فالعبارة الاولى تشير إلى مقام اليقين لدى الإمام عليه السلام والذى ورد التعبير به عن الإمام عليه السلام قائلًا: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً»[۲۶].

والعبارة الثانية تشير إلى الوظائف الدينية التى كشفت له عن كافة معالم الطريق دون الشعور بأدنى شك أو ريب، ولا سيما أنّه سمع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقد قال له: «يا على ستقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين» (أصحاب الجمل وصفين والنهروان).

الرجال الأشداء

هنالك عدد من الأفراد أو الفئات التى تطالعنا فى سوح الوغى طيلة الصراع المرير بين

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۴

الحق والباطل وهم يتمتعون بالتفوق الكبير على خصومهم. على سبيل المثال فقد انتصر جند الإسلام على الجيوش الساسانية الجرارة- التى كانت تفوقهم بعشرة أضعاف من حيث العدد والعدة ومن حيث التجهيزات والوسائل الحربية التى لا يمكن مقارنتها بنظيرها لدى المسلمين- بل تميزت العسكرية الإسلامية من حيث التعبئة والقتال على قيام مجموعات المستضعفين الحافة العزل من السلاح إلّامن نور الإسلام والإيمان والمفاهيم القرآنية والتعاليم الإسلامية باقتحام الميدان وتحطيم اسطورة توازن القوى، لتحقق الانتصارات تلو الانتصارات على أكبر الجيوش وأقواها. ولا غرو فانما ينبع ذلك من «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ» فقد كانوا يرون أنفسهم منتصرين مهما كانت نتيجة الحرب، سواء انتهت المعركة بهزيمة الأعداء أو نيل الشهادة، فكلا النتيجتان سعادة كبرى.

وقد لمسنا هذا المعنى بوضوح فى الحرب المفروضة التى شنها النظام الصدامى ضد الجمهورية الإسلامية الفتية، حيث وقفت كافة قوى العالم من الشرق والغرب خلفه لتقدم له كافة ألوان الدعم والاسناد، غير أنّ شبابنا المؤمن من قوات التعبئة والحرس الثورى والجيش الذين تربوا فى أحضان القرآن ومدرسة أهل البيت عليهم السلام قد أركعوا هذا العدو الشرس وجرعوه مرارة الهزيمة. نعم هذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة ليعلن للأعداء من عبدة الأهواء، لست أنا الذى يهدد بالحرب! لست أخشى الضرب فى سبيل اللّه، فقلبى قد غمر بنور الإيمان واليقين، بل أنا ربيب الإسلام والمدرسة النبوية التى‌ترى النصر حليفها بغض النظر عن النتيجة، وما عساها تكون سوى هزيمة العدو أو الفوز بالشهادة. وهذه هى الروحية التى ينبغى أن يستشعرها المسلمون تجاه أعدائهم ولا يولون أدنى أهمية لهذا التفوق المادى الكاذب الذى قد يكون مؤثراً إلّاأنّه لن يحسم المعركة لصالح الباطل أبداً.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۵

الخطبة[۲۷] الثالثة والعشرون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وتشتمل على تهذيب الفقراء بالزهد وتأديب الأغنياء بالشفقة

القسم الأول

اشارة

«أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْأَمْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ كَقَطَرَاتِ الْمَطَرِ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ بِما قُسِمَ لَها، مِنْ زِيادَةٍ أَوْ نُقْصانٍ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ غَفِيرَةً فِى أَهْلٍ أَوْ مالٍ أَوْ نَفْسٍ فَلا تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً! فَإِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ مَا لَمْ يَغْشَ دَناءَةً تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَها إِذا ذُكِرَتْ وَيُغْرَى بِها لِئامُ النَّاسِ كانَ كَالْفالِجِ الْياسِرِ الَّذِى يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِداحِهِ تُوجِبُ لَهُ الْمَغْنَمَ، وَيُرْفَعُ بِها عَنْهُ الْمَغْرَمُ.

وَكَذَلِكَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ الْبَرِىءُ مِنَ الْخِيانَةِ يَنْتَظِرُ مِنَ اللَّهِ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ:

إِمَّا داعِىَ اللَّهِ فَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لَهُ، وَإِمَّا رِزْقَ اللَّهِ فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ وَمالٍ، وَمَعَهُ دِينُهُ وَحَسَبُهُ، وَإِنَّ الْمالَ وَالْبَنِينَ حَرْثُ الدُّنْيا، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ حَرْثُ الْآخِرَةِ، وَقَدْ يَجْمَعُهُما اللَّهُ تَعالَى لِأَقْوامٍ».

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۶

نظرة إلى الخطبة

استهل الإمام عليه السلام خطبته بتقسيم رزق الإنسان وما قسم له على ضوء التقدير والتدبير الإلهى، ثم أوصى عليه السلام بأن من رأى

لأخيه نعمة فلا ينبغى أن يكن له البغض أو الحسد (كما لا ينبغى أن يغتر إن جنى ثروة فيضحى بدينه وإيمانه من أجلها) آنذاك دعا عليه السلام الناس إلى الإخلاص والورع والتقوى وصفاء النية وصلاح العمل بعيداً عن الرياء والعجب والفخر. أمّا فى القسم الأخير من الخطبة فقد أشار عليه السلام إلى بعض المسائل الاجتماعية الحساسة من قبيل تقوية أواصر القرابة وضرورة التعاضد والتعاون بين أفراد القبيلة والامّة الإسلامية الواحدة بغية التغلب على المصاعب والمشاكل، مؤكداً على عدم فقدان الانتماء إلى العشيرة من خلال اعتماد البخل والإمساك؛ فإنَّ ضرر هذا الفقدان عليه سيكون أعظم وأشد ممّا هو عليه بالنسبة للعشيرة، فانه إنَّما يمسك يده بينما بالمقابل تمسك عنه أيدى كثيرة.

الشرح والتفسير

الرضا والتسليم أمام إرادة اللَّه

أشار الإمام عليه السلام- فى هذه الخطبة- إلى مسألة مهمّة ذات أثر عظيم فى تهذيب النفوس والحد من جموح الفرد والمجتمع. وهى ممّا لاشك فيه أنّ الحياة الاجتماعية البشرية تعد الأساس لبركات وثمرات عظيمة، بحيث يمكن أن نقول إنّ القسم الأعظم من النجاحات والمكتسبات الباهرة فى كافة المجالات والميادين العلمية والصناعية والاجتماعية إنّما حققتها البشرية فى ظل هذه الحياة الاجتماعية. وإلى جانب تلك الثمار والمعطيات والبركات كانت هنالك المشاكل الخطيرة التى تهدد بالفناء جميع الآثار الايجابية لهذه الحركة مالم تجد الحلول الشافية.

ومن ذلك، وجود الفوارق بين بنى البشر من حيث الاستعداد والقابليات الجسمية والروحية على المستوى الفردى والاجتماعى؛ الأمر الذى أدّى إلى التفاوت الفاحش فى الإمكانات المادية والمالية. ومن هنا بدت ردود الفعل السلبية للأفراد الذين تخلفوا عن هذه المسيرة، أو سعوا بتخبط للخلط بين الحلال والحرام ليزجوا بأنفسهم فى هذا السباق غير المتكافئ والمجهول النهاية فى مصاف من تقدّم عليهم من حيث الجوانب المادّية ولم يكن أمامهم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۷

سوى سبيلين، إمّا الشعور بالإحباط واليأس والانسحاب من ميدان العمل والنشاط والتقوقع على الذات، أو اشتعال نيران الحسد والبغض فى قلوبهم تجاه اولئك والهم بالانتقام منهم. من جانب آخر فإنَّ البعض الذى يتمتع بالإمكانات قد يصاب بالغرور والكبر والعجب والفخر فيندفع نحو الطغيان والفساد والانحراف.

الآيات القرآنية والروايات الإسلامية بدورها ودرءاً لهذه المفاسد والحيلولة دون ظهورها قد لفتت أنظار الجميع إلى حقيقة مفادها أنّ هذه الفوارق والزيادة والنقصان ليست مسألة عبثية بقدر ماهى واقع يستند إلى الحكمة الإلهية التى تنظم شؤون العباد على أساس ما يصلحهم ويقوم حياتهم. ولعل الأسرار التى يختزنها هذا التصنيف خافية علينا نحن العباد فى أغلب الامور، إلّاأنّ مجرد علمنا بأنّ اللَّه حكيم ورحمن ورحيم هو الذى ينظم الامور وتتشعر قلوبنا الرضى والتسليم لهذا التنظيم والتخطيط؛ فإنَّ القضية ستتغير وتخرج من شكلها الظاهرى، آنذاك ستسود السكينة والطمأنينة قلوبنا وأرواحنا وستزول كافة تلك العواقب السلبية التى بدت لنا لأول وهلة. ومن هنا تواتر التأكيد على الرضى والتسليم ولاسيّما بالنسبة للرزق فى الآيات والروايات.

نعود الآن بعد هذه المقدمة المختصرة إلى تفسير الخطبة، فقد تطرق الإمام عليه السلام فى بداية خطبته عن تهذيب النفوس ووضع حدّ للمفاسد الاجتماعية، فقد قال عليه السلام: «أمّا بعد: فان الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر إلى كلّ نفس بما قسم لها، من زيادة أو نقصان» فالتشبيه بقطرات المطر تشبيه غاية فى الروعة؛ لأنّ قطرات المطر تنزّل بصورة مختلفة على الأرض وفقاً للإرادة الإلهية والحكمة الربانية، والأرزاق الإلهية تسقط على هذه الشاكلة من السماء إلى البشرية على الأرض بفضل اللَّه ورحمته. فقد ينزّل المطر بغزارة على بعض المناطق حتى تسيل أنهاراً عظيمة بينما قد تشهد مناطق اخرى زخات خفيفة من المطر طيلة السنة. ثم يخلّص

الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة التي ينبغي أن يستحضرها الناس: «فاذا رأى أحدكم لأخيه غفيرة[۲۸] في أهل أو مال أو نفس، فلا تكونن له فتنة».

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۸

لعل غفيرة تشير إلى أنّ الأموال والثروات لمن دوافع الغفلة وستر عيوب الإنسان حتّى عن نفسه، وإنْ وردت غفيرة هنا بمعنى المال الكثير.

مايجدر ذكره أنّ الفتنة هنا لا تعني الامتحان، وإن وردت عادة بهذا المعنى في الأعم الأغلب، بل المراد بها ما يدعو إلى الفساد والخداع وردود الأفعال السلبية من قبيل الحسد والعداوة والبغضاء التي يمارسها الفقراء المعدومون حيال أصحاب الأموال والثراء. ثم قال عليه السلام:

«فان المرء المسلم مالم يغش دناءة تظهر فيخشع لها إذا ذكرت ويغرى بها لئام الناس، كان كالفالج ۲۹] الياسر[۳۰] الذي ينتظر أول فورة من قداحه ۳۱] توجب له المغنم، ويرفع بها عنه المغرم». كما أنّ المسلمين البعيدين عن الخيانة إنّما ينتظرون من الحق سبحانه أمرين: أمّا حلول الأجل الإلهي (وقد أفنى عمره بطيب السمعة وحسن العاقبة) فما عند اللّه خير له وأبقى.

وأمّا أنْ يوسّع اللّه عليه رزقه في هذه الدنيا ويمّن عليه بالصاحبة والأهل والولد في سلامة من دينه وصون لعزته وكرامته «وكذلك المرء المسلم البرىء من الخيانة ينتظر من اللّه إحدى الحسنيين: إمّا داعي اللّه فما عند اللّه خير له، وإمّا رزق اللّه فاذا هو ذو أهل ومال، ومعه دينه وحسبه». ولكن لابدّ من الإذعان إلى الفارق الكبير بينهما فأحدهما من قبيل زرع الدنيا كالمال والولد، والآخر من زرع الآخرة وهو العمل الصالح «وإنَّ المال والبنين حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة». وقد يجمع اللّه سبحانه نعم الدنيا والآخرة لبعض الأفراد «وقد يجمعهما اللّه تعالى لأقوام».

والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد كشف بهذه العبارات عن حقيقة مهمّة ومصيرية في حياة الإنسان تكمن في ضرورة عدم تلوثه بالذنوب والمعاصي والإرجاس التي لا تجر عليهم سوى الخزي والعار والسقوط من أعين الناس والحد من شخصيته لديهم.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۹

وبناءً على ما تقدّم فإنّ هناك أحد مصيرين رفيعين بانتظار الفرد الذي يعيش النقاء والعفّة في حياته، أنْ يقضي حياته معززاً مكرماً ليحث السير نحو رحمة اللّه ومغفرته وأجره وثوابه. أو أن يفيض اللّه عليه من نعم الدنيا في هذه الحياة الدنيا ويجمع له خير الدارين.

القضية المهمّة التي حظيت باهتمام شرّاح نهج البلاغة هي أنّ الإمام علي عليه السلام شبّه المؤمن الذي يتمتع بالغلبة والسعادة والفوز بلطف اللّه ورحمته المقامر الماهر الذي يفوز بالتضارب بالقداح، وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: كيف يشبه الإمام عليه السلام المؤمنين الذين يعيشون الرضى والتسليم تجاه رزق اللّه وقسمه بهذا الفرد المقامر الأثيم المقارف لهذه الكبيرة من الكبائر؟

يتّضح من التأمّل في عبارات الإمام عليه السلام من قبيل «فوزة» و «قداح» و «مغنم» و «مغرم» أنّ الياسر ليس المراد به القمار، بل أراد به نوعاً خاصاً من الاقتراع كانت تمارسه العرب، حيث كانوا يأتون بعشرة سهام لكل واحد منها اسم، ويشترون جملًا فيذبحوه ويقسّموه عشرة أقسام، ثم يجعلون السهام مع بعضها ليقوم من يثقون به باستخراجها واحداً واحداً، ثم يكون الفائز على أساس ترتيب السهام حسب أسمائها الأول والثاني إلى السابع والسهم الأول فيها يسمى «مُعَلّى - والسهام الأخرى إذا خرجت باسم أحدهم فهو الذي يدفع قيمة الجمل، أمّا الفائزون فيعطون سهامهم للفقراء دون أن يأكلوا منها شيئاً، وكانوا يفتخرون بذلك العمل.[۳۲]

طبعاً لايجوز هذا العمل شرعياً، إلّاأنّه لا يشتمل على معايب وفواجع القمار. فالإمام عليه السلام أراد أن المؤمنين من أهل الرضى والتسليم يشبهون الأفراد الذين يفوزون بسهم المُعلّى في ذلك الاقتراع، ووجه الشبه أنّه يفوز بأكبر نصيب دون أدنى عناء. والتعبير بالقداح وأول فوزة والغنيمة والنجاة من الخسارة كلّها تناسب هذا المعنى؛ وهذا ليس متعارفاً في القمار حيث لا يترك المقامر المقامرة لمجرد غلبه في الوهلة الاولى، بل يواصل قماره حتّى لا تعرف النتيجة التي سيؤول إليها. وبالطبع فإنّنا لا ننكر أنّ المفردة مفهوم واسع

يشمل الاقتراع وألعاب الحظ، ولكن لابدّ من الالتفات إلى أنّ القمار بمعناه الحقيقى يختلف تماماً عن ذلك النوع من الاقتراع، ولا سيما أنّ القرآن قد عبر ب «الأزلام» لا- الميسر وإنْ ورد الذم عليهما معاً «إِنَّما الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ ...».[۳۳]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۰

الرضى والتسليم إلى جانب السعى والعمل

لعل هنالك من يقول بأنّ روح الرضى والتسليم لأمر اللّه فى الرزق وفى المنافع المادية بصورة عامّة إنّما تهدأ النفس البشرية وتحدّ من جماحها وتحوّل دون الإنسان والارتماء فى ميادين الحرص والطمع وجباية الأموال واللهث وراء الثروة والانغماس فى المحرمات كما تصدّه عن استشعار معنى الحسد والبغض، إلّاأنّ مثل هذا الشعور قد يقتل عند الإنسان روح السعى والمثابرة بحيث يتشبّث كلّ فرد بذريعة من الذرائع من قبيل أنَّ الأرزاق مقسّمة وكلّ قد سمّى اللّه له رزقه ونصيبه فيخلد إلى السكون والدعة والكف عن العمل، فما جدوى ذلك والأرزاق قد قسمت؛ الأمر الذى يؤدى بالتالى إلى تخلّف الأمّة فى المجال الاقتصادى والتطور المادى واجتثاث جذور الفقر والحرمان.

إلّا أنّ هذا الإشكال قد يزول إذا ما ألتفت إلى أمرين: الأول هو أنّ هذه التعاليم الإسلامية والوصايا الأخلاقية إنّما توخّت الحد من تهافت الإنسان على الماديات وتناسيه لكل ما سواها، بعبارة اخرى فإنّ الإنسان يمتلك الدوافع التى تسوقه نحو الماديات والنهوض بحياته الاقتصادية، ولو لم تكن هنالك من كوابح لهذه الدوافع فإنّه سينطلق بسرعة هوجاء نحو الحرص والتسابق فى جنى الأموال والثروة بحيث يحطم كافة الحدود والقيود الأخلاقية والقيم المعنوية. وبعد هذا هو المعنى الذى أشار له الإمام على بن الحسين عليهما السلام حين قال: «معاشر أصحابى! أوصيكم بالآخرة ولست أوصيكم بالدنيا! فإنّكم بها مستوصون وعليها حريصون وبها متمسّكون»[۳۴]. والأمر الثانى يكمن ضرورة جمع كافة الآيات والروايات الواردة بهذا الشأن من أجل التوصّل إلى النتيجة النهائية بخصوص التعاليم الإسلامية؛ لأنَّ القضايا الإسلامية المحورية لاتبدو واضحة المعالم من خلال آية واحدة أو حديث واحد. ففى مجال تحصيل الرزق والقناعة به وضرورة السعى والحركة هنالك الآيات والروايات التى أشارت من جهة إلى مسألة الرضى والتسليم تجاه التقديرات الإلهية، وهنالك من جهة اخرى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۱

الآيات والروايات التى وردت فى الحث على السعى والعمل، بحيث يفهم من مجموع الطائفتين من الآيات والروايات أنّ الضعف والوهن فى هذا المجال ليس صحيحاً كما أن الحركة الحريصة والممزوجة بالذنب والمعصية التى تفرزها طبيعة تجاهل التقدير الإلهى والتوكّل على اللّه هى الأخرى ليست صحيحة أيضاً. وبعبارة اخرى، صحيح أنّ الرزق قد قسم من جانب اللّه، غير أنَّ ذلك مشروط بشرط السعى والجهد المقرون بالخلق والتقوى والورع.

ونختتم البحث بما ورد فى الحديث النبوى الشريف بشأن مقام الرضى والتسليم فى أنّ طائفة من المسلمين تطير من قبورها يوم القيامة إلى الجنّة لتتنعّم بنعيمها دون أن تشهد الحساب فتسألهم الملائكة عن الحساب والجواز على الصراط، فتجيب أنّها لم‌تر الحساب والصراط. وتسألهم عن جهنّم، فجيبوا بعدم رؤيتها. فيسألون من أيّة امتم أنتم؟ فتقول من أُمّة محمد صلى الله عليه و آله فتقسم عليهم الملائكة عن أعمالهم التى أدّت بهم إلى هذه الكرامة، فيقولون: «كنا إذا خلونا نستحى أن نعصيه ونرضى باليسير ممّا قسّم لنا» فتقول لهم الملائكة: «حقّ لكم هذا»[۳۵].

ج‌ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۳

القسم الثانى: سبيل بلوغ مقامات الصالحين

اشارة

«فاحْذَرُوا مِنَ اللَّهِ ما حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ وَاخْشَوْهُ خَشْيَةً لَيْسَتْ بِتَعْذِيرٍ! وَاعْمَلُوا فِى غَيْرِ رِياءٍ وَلا سُمْعَةٍ فَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ لِغَيْرِ اللَّهِ يَكِلْهُ اللَّهُ لِمَنْ عَمِلَ لَهُ. نَسْأَلُ اللَّهَ مَنازِلَ الشُّهَداءِ وَمُعايَشَةَ السُّعَداءِ وَمُرافَقَةَ الْأَنْبِياءِ».

الشرح والتفسير

يواصل الإمام عليه السلام خطبته بعدد من الوصايا الأخلاقية فيقول عليه السلام: «فاحذروا من اللَّه ما حذَّركم من نفسه» ولعلّ العبارة إشارة إلى الآية الشريفة: «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ»[۳۶] أو إلى الآية: «وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ»[۳۷]. ثم حثّ عليه السلام على خشيته وتقواه بحيث لا تكون هناك من حاجة لالتماس الأعذار الواهية «واخشوه خشية ليست بتعذير»[۳۸]، لأنّه العالم بباطن كل فرد وأسراره وأعذاره الصحيحة من السقيمة. جدير بالذكر أنّ العبارة السابقة تحدثت عن الحذر من اللَّه، ثم أُردفت بالحديث عن الخشية، وقد صرّح اللغويون أنّ الخشية تتضمن الخوف المقرون بدرك العظمة، ومن هنا صرّح القرآن الكريم «إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ»[۳۹]، أمّا الحذر فيقال حين يحتاط الإنسان من خطر قطعى أو محتمل.

ثم أشار عليه السلام فى وصيته الثالثة إلى الإخلاص فى النيّة وتنقية الأعمال من الرياء والسمعة لأنَّ من عمل للَّه

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۴

وشرك معه آخر وكله اللَّه إلى ذلك الآخر وقال له خذ أجرك منه فانّك لم تعمل لى «واعملوا فى غير رياء ولا سمعة، فإنَّه من يعمل لغير اللَّه يكله اللَّه لمن عمل له».

نعم خشية اللَّه وخشية مقارفة الذنوب والمعاصى لا تكفى لوحدها، بل لابدّ من الإتيان بالأعمال الصالحة البعيدة عن كافة أشكال الرياء والسمعة، والرياء يعنى مراءاة الآخرين ولفت أنظارهم لما يقوم به الإنسان من أعمال، والسمعة أن يقوم بالعمل للَّه، إلّاأنّه يسعى لإسماعه الآخرين، بحيث يجلب انتباههم إليه، و إلّا يفعل ذلك يسر لسماع الآخرين فيثنون عليه ويطرونه.

والمعروف بين العلماء أنّ السمعة لا تبطل العمل، إلّاأنّها مذمومة خلقاً ومدعاة لانحطاط الإنسان الروحى والمعنوى، ولعلّها تؤدّى إلى زوال الأجر والثواب. وقد استدل الإمام عليه السلام فى تحذيره من السمعة والرياء بأنّ اللَّه سبحانه لا يقبل إلّاالعمل الخالص لوجهه فإنّ شرك العبد معه أحد آخر وكله اللَّه إليه ليأخذ منه أجره، وبالطبع فإنّه لا يملك القدرة على إعطاءه الأجر والثواب. والعبارة هى مضمون حديث قدسى معروف نقل عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّ الحق سبحانه قال: «أنا خير شريك ومن أشرك معى شريكاً فى عمله، فهو لشريكى دونى، لأنى لا أقبل إلّاما خلص لى»[۴۰].

ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه قائلًا: «نسأل اللَّه منازل الشهداء ومعايشة السعداء ومرافقة الأنبياء». حيث يهدف الإمام عليه السلام إلى تعريف الأُمّة بالقيم الإلهية الحقّة من قبيل الشهادة ومرافقة الأنبياء وهى الامور التى لا تنال بسهولة كما لا تمنح للإنسان بالمجان «ومن يطع اللَّه وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَاولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً* ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفى بِاللَّهِ عَلِيماً»[۴۱].

فالمراحل الثلاث- الشهادة والسعادة ورفقة الأنبياء- التى وردت فى كلام الإمام عليه السلام يمكن أن تكون من قبيل العلّة والمعلول، فالشهادة سبب السعادة، والسعادة سبب مرافقة الأنبياء.

كما يمكن أن يكون الكلام إشارة لطيفة إلى حوادث المستقبل وشهادة الإمام عليه السلام.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۵

فصل فی أنّ الاخلاص أساس العمل

للشرک والوثنیهٔ شعب، من أهمها الریاء والسمعهٔ. والریاء من مادهٔ الرؤیهٔ بمعنی التظاهر وإلفات نظر الآخرین إلیه من خلال التظاهر بالعبادهٔ والأعمال الحسنهٔ. وهذا الفرد فی الواقع مشرک، لأنّه یری عزّته وکرامته بید الآخرین لا بید اللّه، ولذلک یقوم بأعماله بدافع من لفت انتباه الآخرین إلیه.

أمّا بشأن السمعهٔ فهناک تفسیران: أحدهما أنّ السمعهٔ هو أن یقوم الفرد بالعمل قربهٔ إلی اللّه، فتخالطه الأفکار باطّلاع الآخرین وإسماعهم بعمله لیحظی بمدیحهم وثنائهم. وهو الأمر الذی لا یوجب بطلان العمل حسبما صرّح بذلک الفقهاء، لأنّه قد حصل بعد الإتیان بالعمل، إلّا أنّها تقلل من ثواب العمل أو تقضی علیه، والآخر أن تکون خالطته فکرهٔ إسماع الآخرین منذ بدایهٔ العمل لیثنوا علیه ویکیلوا له المدح والثناء. ولیس هنالک من فارق بین السمعهٔ بهذا المعنی والریاء، سوی أنّ المرائی یقوم بالعمل لیراه الآخرون بینما یقوم الآخر بالعمل لیسمعه الآخرون، وعلیه فالعملان لیسا بخالصین.

علی کلّ حال فإنّ الریاء والسمعهٔ من أکبر آفات الأعمال العبادیهٔ. ولما کان نفوذ الریاء والسمعهٔ إلی الأعمال الإنسانیهٔ غایهٔ فی التعقید والدقّهٔ فقد تواتر التحذیر منه کراراً فی الآیات القرآنیهٔ والروایات الإسلامیهٔ. وأعظم مفسدهٔ لهذا العمل هو أنّه یقضی علی روح التوحید ویقذف بصاحبه فی وادی الشرک والازدواجیهٔ فی العبادهٔ، لأنّ توحید الأفعال یعلّمنا الإیمان والإذعان بأنّ کلّ شیء بید اللّه وأنّ الأجر والثواب والعزّهٔ والکرامهٔ والرزق و ... تابعهٔ لإرادهٔ اللّه مأتمرهٔ بأوامره، إلّاأنّ المرائین إنّما یلتمسون هذه الامور من الآخرین، وهذا شرک علنی.

وقد ورد فی الروایات یقال یوم القیامهٔ للمرائی: «یا کافر! یا فاجر! یا غادر! یا خاسر! حبط عملک وبطل أجرک، فلا خلاص لک الیوم»[۴۲]. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ الریاء والسمعهٔ مصدر کافهٔ الاختلالات الاجتماعیهٔ، فالمرائی إنّما یهتم بظاهر العمل دون الإکتراث إلی باطنه، فالظاهر جمیل والباطن فاسد.

نفحات الولایهٔ، ج۲، ص: ۳۶

المؤسّسات والدوائر تتمتع بظاهر أنیق بینما تستبطن الخواء والفساد من الداخل، الأفکار سطحیهٔ ساذجهٔ خالیهٔ من أیّ عمق وجذور فالهدف فی المجتمعات المرائیهٔ إنّما یولی للکمیّهٔ لا للکیفیّهٔ. ومن البدیهی أنّ مثل هذه المجتمعات إنّما تحث الخطی نحو الانحطاط والاضمحلال والانهیار. وبالطبع علی العکس من ذلک فهنالک الیوم البلدان التی أولت أهمیهٔ قصوی للقطاعات الصناعیهٔ والزراعیهٔ والاقتصادیهٔ وحثت الخطی من أجل خدمهٔ المجتمع ورفاهه فقد سارت نحو الرقی والتطور والازدهار.

نکتفی بهذا المقدار بشأن الریاء والسمعهٔ ونترک الخوض فی التفاصیل أکثر إلی الأبحاث القادمهٔ بما یتناسب والموضوع.

ج ج

نفحات الولایهٔ، ج۲، ص: ۳۷

القسم الثالث: السند الشعبی

اشارهٔ

«أَیُّها النّاسُ إِنَّهُ لا یَسْتَغْنِی الرَّجُلُ- وَإِنْ کانَ ذا مالٍ- عَنْ عِتْرَتِهِ، وَدِفاعِهِمْ عَنْهُ بِأَیْدِیهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ وَهُمْ أَعْظَمُ النّاسِ حَیْطَهً مِنْ وَرائِهِ وَأَلَمُّهُمْ لِشَعَثِهِ وَأَعْطَفُهُمْ عَلَیْهِ عِنْدَ نازِلَهٍ إِذا نَزَلَتْ بِهِ وَلِسانُ الصِّدْقِ یَجْعَلُهُ اللّهُ لِلْمَرْءِ فِی النّاسِ خَیْرٌ لَهُ مِنَ الْمالِ یَرِثُهُ غَیْرُهُ».

الشرح والتفسیر

لمّا فرغ الإمام علیه السلام من وصایاه للفقراء والمعدمین بطاعهٔ اللّه وخشیته وإلّا یصدهم عن ذلک الانحراف الأخلاقی بسبب سوء

الأوضاع وصعوبة العيش التى يعانون منها، وأصل خطبته ليخاطب هنا الأغنياء والمرفهى بما يحفظ التوازن فى المجتمع. فقد حثم بادئ ذى بدء إلى مدّ يد العون والمساعدة إلى بطانتهم وأقربائهم وعشيرتهم، ويلفت نظرهم إلى غض الطرف عن الأموال والثروة التى ليس من شأنها أن تجعل الإنسان غنياً عن قرابته «أيها الناس إنه لا يستغنى الرجل- وإن كان ذا مال- عن عترته ۴۳]، ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم». فالواقع أنّهم أعظم سند يوفر له الحماية والدعم ويزيل عنه المشاكل والمخاطر، وإذا ما تعرض لبعض الظروف الصعبة والحوادث الخطيرة، كانت عترته أشفق من الآخرين به وأحرصهم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۸

عليه «وهم أعظم الناس حيطة[۴۴] من ورائه وألمّهم ۴۵] لشعثه ۴۶] وأعطفهم عليه عند نازلة إذا نزلت به». نعم فالحياة مليئة بالمخاطر والمطبات والعواصف الهوجاء والأحداث المريرة التى لا يسع الإنسان التغلب عليها بمفرده، ومن هنا فإنّ العقل والحكمة تتطلب من الإنسان التفكير فى مثل هذه الأحداث. وما أروع أن تكون لهذا الإنسان قرابة تهب لدعمه وحمايته فى مثل هذه الظروف. ولكن، هل يمكن الحصول على دعم القرابة ومساندتها دون الإحسان إليها وتفقد أمورها وإحاطتها بالحب والرعاية وإغاثتها مالياً ومعنوياً؟ قطعاً، لا. فما أحرى كل إنسان أن يوطد أواصر مودّته لقرابته من خلال بعض البذل المادى حتّى لا يبقى وحده حين تعصف به الأحداث والمصائب. طبعاً الإحسان إلى الآخرين ممّا ورد الندب إليه ولا تخفى آثاره «الإنسان عبيد الإحسان» إلّاأنّ الأولوية فى هذا الأمر للقرابة «الأقربون أولى بالمعروف» حيث تمهد الأجواء أمام تعميق أواصر الاخاء والمحبّة. وبغضّ النظر عما سبق فإنّ هذا الأمر لو طبق فى المجتمع كما ينبغى فقد لا تبقى هنالك من آثار للفقر والحرمان فى المجتمع، كيف لا وفى كلّ قبيلة عدد من الأفراد المتمكنين الذين لو مدّوا يد العون إلى سائر أفراد قبيلتهم لما ظل هنالك من يعانى من الحرمان. وقد أوصى الإمام عليه السلام ولده الإمام الحسن عليه السلام بهذا الأمر مبيّناً فوائد إكرام العشيرة ومعالجة مشاكلهم إذ قال عليه السلام: «وأكرم عشيرتك! فإنّهم جناحك الذى به تطير وأصلك الذى إليه تصير ويدك التى بها تصول»[۴۷]. ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى دليل الآخر فى إطار حثه الأفراد المتمكنين على مساعدة قرابتهم فيقول: «ولسان الصدق يجعله اللَّه للمرء فى الناس خير له من المال يرثه غيره» .. وقد ورد فى هذا المعنى من النثر والنظم الكثير الواسع، فمن ذلك قول عمر لابنة هرم: ما الذى أعطى أبوك زهيراً؟ قالت: أعطاه مالًا يفنى، وثياباً تبلى. قال: لكن ما أعطاكم زهير لا يبليه الدهر، ولا يفنيه الزمان.

إذا أتت اعطيت الغنى ثم لم تجدبفضل الغنى ألفيت مالك حامد

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۹

وقل غناء عنك مال جمعتهإذا كان ميراثاً وواراك لاحد

نعم لايحمل الإنسان شيئاً من الأموال معه فى قبره، إلّاأنّه يحمل العمل الصالح والذكر الحسن لدى الناس، فلا يكد يذكر إسمه حتّى يترحم عليه الناس ويسألون اللَّه له المغفرة والعفو والرحمة.

هذا هو رأس المال المعنوى والمادى الخالد الذى يمكن نيله من خلال الإنفاق فى سبيل اللَّه وبذل الإحسان إلى عباد الرحمن. وزبدة الكلام فانّ الأغنياء قد دعوا إلى مدّ يد العون إلى فقراء المجتمع ومساعدتهم من خلال دافعين؛ الأول بغية الحصول على الأعوان والأنصار وتوظيفهم لصالحهم حين بروز النوائب والشدائد التى تواجههم فى حياتهم، والثانى بهدف الحصول على السمعة الحسنة والذكر الطيب بعد الموت بما يجعل الآخرين يترحّمون عليهم ويسألون اللَّه لهم العفو والمغفرة. وما أعظم هذه التجارة بهذا المتاع الدنيوى الزائل من أجل الحصول على السندين المذكورين.

فصل فى حسن الثناء (لسان الصدق)

لقد ذكر الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة أنّ لسان الصدق يجعله اللّه للمرء فى الناس خير له من المال يورثه غيره. ولسان الصدق هو أن يذكر الإنسان بالخير، ويثنى عليه به، قال سبحانه:

«وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ»[۴۸] وهو دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام. كما أشار البارئ سبحانه فى إطار ثنائه على طائفة من الأنبياء «وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا»[۴۹]. واللسان فى الآية بمعنى ذكر الإنسان بالخير. وممّا لا شك فيه أنّ هذه القضية ليست من قبيل القضايا الروتينية الجوفاء، بل تنطوى على عدّة معطيات على مستوى الفرد والمجتمع، فهى:

أولًا: أنّها لمن دواعى الفخر والاعتزاز الخالد، بينما نرى أنّ الأموال والثروات المادية إنّما توزّع فى لحظة وقد لا يبقى لها من أثر.

ثانياً: إنّ حسن الثناء والذكر الحسن إنّما يسوق الآخرين للدعاء لهؤلاء الأفراد وطلب

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۰

الرحمة والمغفرة لهم من اللّه؛ الأمر الذى لا تخفى آثاره المعنوية.

ثالثاً: إنّ هذا الأمر له تأثيره البالغ فى نفوس أبناء المجتمع فى الاقتداء باولئك الأفراد وإحياء القيم العليا فى المجتمع والقضاء على ما يخالفها، فقد جاء فى الرواية المعروفة «من سنّ سنّة حسنة كان له مثل أجر من عمل بها»[۵۰].

وأخيراً أنّ ذلك من مدعاة العزة والرفعة والكرامة لدى نسل اولئك الأفراد المحسنين، فما أكثر من نعرف من الأفراد الذين نكن لهم الحب والاحترام لانحدارهم من اولئك الأفراد. هذه طائفة من الآثار المعنوية الفردية والاجتماعية للسان الصدق وطيب الاحدوثة.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۱

القسم الرابع: الإعتضاد بالعشيرة

اشارة

ومنها:

«أَلا لا يَعْدِلَنَّ أَحَدُكُمْ عَنِ الْقَرابَةِ يَرَى بِها الْخَصاصَةَ أَنْ يَسُدَّها بِالَّذِي لا يَزِيدُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ وَلا يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُ؛ وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ، فَإِنَّما تُقْبَضُ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ وَتُقْبَضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ وَمَنْ تَلِنْ حاشِيَتُهُ يَسْتَدِمْ مِنْ قَوْمِهِ الْمَوَدَّةَ».

الشرح والتفسير

بعد أن قرظ الإمام عليه السلام الثناء والذكر الجميل وفضله على المال، أمر بمواساة الأهل وصلة الرحم وإن قلّ ما يواسى به، حيث أكد هذا الأمر بثلاث عبارات فقال عليه السلام: «ألا لا يعدلن أحدكم عن القرابة يرى بها الخصاصة[۵۱] أن يسدها بالذى لا يزيده إن أمسكه ولا ينقصه إن أهلكه». يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة لأحد معنيين؛ الأول إلى البعد المعنوى لهذا العمل فى أنّ حرمان القرابة ممّا يتمتع به الإنسان من إمكانات وثروات من شأنه أن يسلب بركة مال الإنسان وحياته ويحول دون نمائه وزيادته، وعلى العكس من ذلك فانّ معونة القرابة ومساعدتها تنطوى على عدة بركات من شأنها أن تدرك هذا النقص الظاهرى بتفضّلات اللّه وألطافه؛ أو أن يكون إشارة إلى بعده الظاهرى والمادى، لأنّ مشاكل القرابة إنّما تنتقل بشكل أو بآخر إلى الإنسان وتؤرق فكره وتشغل روحه وتعرض سمعته وشخصيته للخطر وبالتالى تضاعف من مشاكله ومعاناته، وعليه فما أحراه أن يهب لمساعدتهم ومعونتهم ليظفر بثواب

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۲

الآخرة وبركات الدنيا وينال الذكر الطيب والاحدوثة الحسنة. فقد جاء فى الحديث أن الإمام على عليه السلام قال: «البركة فى مال من

آتى الزكاة وآسى المؤمنين ووصل الأقربين»[۵۲] ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى الأضرار الفادحة التى يتكبدها الإنسان إذا أمسك يده عن قرابته ولم يقدم العون والمساعدة، ومن ذلك إنّه إنّما يقطع عنهم يده بينما يقطعون عنه أيديهم التى لا غنى له عنها «ومن يقبض يده عن عشيرته، فإنّما تقبض منه عنهم يد واحدة وتقبض منهم عنه أيد كثيرة».

فالحق ليس هنالك من عاقل مستعد للتضحية بكل هذه المنافع من أجل التنازل عن بعض منافعه الشخصية الضئيلة، ثم يختتم الإمام عليه السلام كلامه بالقول «ومن تلن حاشيته يستدم من قومه المودّة». يمكن أن تنطوى مفردة «حاشيته» على معنيين؛ الأول صفات الإنسان وروحياته، والآخر أن تكون إشارة إلى البطانة وبناءً على هذا، فإنّ مفهوم الجملة هو تمحور قوم الإنسان حوله إذا حسن سلوك بطانته تجاه الناس. فقد رأينا الكثير من الأفراد الصالحين الذين انفرجوا عنهم الناس رغم صلاحهم بسبب سوء تصرف بطانتهم ومن حولهم.

فصل فى بركات التعاضد بالقرابة

إنّ مسألة صلة الرحم وتوطيد أواصر المحبّة بالقرابة وإن كانت وظيفة إلهية ورد التأكيد عليها فى الآيات القرآنية والروايات الإسلامية، إلّاأنّ ممّا لاشك فيه أنّ القيام بهذه الوظيفة الدينية والإنسانية إنّما ينطوى على بركات جمة تعرض لها الإمام عليه السلام أواخر هذه الخطبة والمهم أن يعزز الإنسان هذه الأصرة ولا يمارس كلّ مأمن شأنه الإساءة إليها أو قطعها. ولابدّ من الإحسان إلى القربى حين شعور الإنسان بوفور النعمة، لتهب للوقوف إلى جانبه إذا ما واجهته بعض المحن والخطوب. وقد دلّ الواقع بما لا يقبل الشك أنّ التفوّق على المشاكل لا يتأتى من خلال الجهود الفردية، بل يتطلب مؤازرة الآخرين وتكافئ جهودهم، وما أحرى أن تكون الأولوية فى هذه الرابطة للقرابة والعشيرة حيث يعرف كلّ منهما الآخر إلى جانب الإرتباط العاطفى الذى يشدّ كلّ منهما الآخر إلى جانب الإرتباط العاطفى الذى يشدّ كلّ منهما للآخر،

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۳

غير أنّ المؤسف له أنّ أغلب الأفراد إنّما يضربون هذه الامور عرض الجدار بمجرّد نيلهم بعض الثراء والنعمة فيبتعد عن قرابته ويحرم نفسه من كلّ هذه الطاقات التى يمكنها معالجة مصاعبه ومشاكله، وهذا هو المعنى الذى تناولته أغلب الروايات الواردة بهذا الشأن. فقد جاء فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «صِلَةُ الرّحِمِ وَحُسْنُ الجِوار، يُعَمّران الديار وَيَزيدان فِى الأعمار»[۵۳]. وقال الإمام الباقر عليه السلام: «صِلَةُ الأرحام وَحُسنُ الجِوارِ، زيادَةٌ فى الأَموالِ»[۵۴]. كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «صِلَةُ الأرحامِ تُزَكّى الأعمال وَتُنْجى الأموال وتَرْفَعُ البَلوى وتُيَسَّرُ الحِسابُ وتُنسى فى الأجل»[۵۵]. وبالمقابل فإنّ قطع الرحم ينطوى على آثار خطيرة على حياة الإنسان فى الدنيا وسوء العذاب فى الآخرة. فقد جاء فى الحديث أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: «أخبَرنى جبرئيلُ إنَّ رِيحَ الجنّةِ تُوجَدُ مِن مَسيرةِ ألفِ عامٍ ما يَجِدُها عاقٌّ ولا قاطِعُ رَحِمٍ ولا شَيخُ زانٍ».[۵۶]

ولعل هنالك من يسأل: ما المراد بصلة الرحم؟ المراد هو تعميق أواصر المحبّة والنجدة فى حل المشاكل وعدم الغفلة وتفقد الأحوال فى كافة الظروف، وقد تحفظ هذه الصلة حتّى بالسلام والإرتباط عن طريق الهاتف. فقد قال أميرالمؤمنين على عليه السلام: «صِلُوا أرحامَكُم ولو بِالتسليم»[۵۷] وسنتكلم فى الأبحاث القادمة عن صلة الرحم ومعطياتها المادية والمعنوية بما يتناسب والمواضيع الواردة فى الخطب. هذا وقد قال السيد الرضى (ره) فى آخر هذه الخطبة:

«الغفيرة هاهنا الزيادة والكثرة؛ من قولهم للجمع الكثير: الجم الغفير، والجماء الغفير. ويروى عفوة من أهل أو مال». والعفوة: الخيار من الشىء. يقال: «أكلت عفوة الطعام» أى خياره. وما أحسن المعنى الذى أراده عليه السلام بقوله: «ومن يقبض يده عن عشيرته ...» إلى تمام الكلام؛ فانّ الممسك خيره عن عشيرته إنّما يمسك نفع يد واحدة، فاذا احتاج إلى نصرتهم، واضطر إلى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۴

مرافدتهم، قعدوا عن نصره، وتثاقلوا عن صوته، فمنع ترافد الأيدى الكثيرة، وتناهض الأقدام الجمة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۵

الخطبة الرابعة والعشرون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وهى كلمة جامعة له، فيها تسويغ قتال المخالف والدعوة إلى طاعة اللّه، والترقى فيها لضمان الفوز

«وَلَعَمْرِى! ما عَلَىَّ مِنْ قِتالِ مَنْ خالَفَ الْحَقَّ وَخابَطَ الْغَىَّ، مِنْ إِدْهانٍ وَلا إِيهانٍ. فاتَّقُوا اللَّهَ عِبادَ اللَّهِ، وَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ مِنَ اللَّهِ، وَامْضُوا فِى الَّذِى نَهَجَهُ لَكُمْ، وَقُومُوا بِماعَصَبَهُ بِكُمْ، فَعَلِىٌّ ضامِنٌ لِفَلْجِكُمْ آجِلًا، إِنْ لَمْ تُمْنَحُوهُ عاجِلًا».

نظرة إلى الخطبة

يهدد الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة مخالفيه بشدة ويعرب عن عزمه الراسخ فى التصدى لهم وقتالهم بعد أن يقنطهم من أدنى موادعة أو مصالحة على حساب العدل والحق، ثم يوصى صحبه بمواكبته فى هذا الطريق والتأهب لمواجهة أعداء الدين. ويرى البعض أنّ الخطبة فى الواقع ردّ على اولئك الذين يشكلون على الإمام عليه السلام فى مساومة الأعداء واضطرارهم للاستسلام من خلال استمالتهم بالرشوة و ... فالإمام عليه السلام يكشف أنّه ليس من أهل المساومة والخداع.[۵۸]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۶

الشرح والتفسير

المساومة والمصانعة

استهلّ الإمام عليه السلام خطبته بالقول: «ولعمرى [۵۹] ما علىّ من قتال من خالف الحق وخابط[۶۰] الغى، من إدهان [۶۱] ولا إيهان [۶۲]».

يبدو أنّ هنالك فارق بين العبارتين «خالف الحق» و «خابط الغى»- هو أنّ العبارة الاولى إلى الفرد الذى يشق عن علم سبيل مخالفة الحق، بينما تشير الثانية إلى من يختار ذلك الطريق ويسبح فى بحر من الضلال جهلًا وخطأ ودون أدنى تأمّل ومطالعة. أمّا تعبيره عليه السلام بالادهان (المجاملة والمداهنة) والايهان (الضعف) فهو تحديد إلى أنّ الكف عن القتال والمواجهة إنّما يستند إلى أحد سببين؛ إمّا المجاملة والمداهنة لأعداء الحق، أو الضعف والعجز، وحيث لم يكن لأى من هذا السببين من سبيل إلى كيان على عليه السلام فإنّ مواجهته لمخالفى الحق عنيفة لا هوادة فيها.

وقد ورد تقريباً شبه هذا المعنى فى سائر كلمات الإمام عليه السلام فى إطار حديثه عن الإطار العام الذى يتحرّك ضمن دائرته زعماء المسلمين وأئمتهم فقد قال عليه السلام: «لا يُقيمُ أمرُ اللَّهِ سُبحانَه إلّا مَنْ لا يُصانِعُ ولا يُضارِعُ ولا يَتَّبِعُ المَطامِعَ»[۶۳]. كما وصف نفسه عليه السلام فى موضع آخر فقال:

«وأَيمُ اللَّه لقد كنتُ مِن ساقَتها حتَّى تَوَلَّتْ بِحَذافيرِها واستَوسَقَتْ فى قِيادها، ما ضَعُفْتُ ولا جَبُنْتُ ولا خُنْتُ ولا وَهَنْتُ»[۶۴].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۷

ثم أبدى عليه السلام نصائحه ووصاياه وفى مقدمتها مراعاة الورع والتقوى فقال عليه السلام:

«فاتقوا اللَّه عباد اللَّه»

. فالتقوى- التى تعنى خشية اللَّه فى الباطن وعدم مقارفة الذنوب والمعاصى والعمل على طاعة اللَّه- هى أساس الأعمال الصالحة والباقيات الصالحات، ومن هنا ورد التأكيد عليها بصفتها مقدمة لسائر الوصايا الأخلاقية والدينية. ثم أوصى عليه السلام بالفرار من معصية اللَّه إلى طاعته وغضبه وسخطه إلى رضاه وعذابه إلى رحمته ونقمته إلى نعمته «وفرّوا إلى اللَّه من اللَّه» فالعبارة إشارة لطيفة إلى مسألة توحيد الأفعال، لأنّ أية مشكلة تواجه الإنسان فى هذا العالم إنّما تفرزها طبيعة أعماله والآثار التى أودعها اللَّه هذه الأعمال. وعليه فمشاكله من ذاته وعقابه ممّا تفرزه أعماله، وعليه فليس أمامه من سبيل لحل مشاكله سوى الفرار إلى اللَّه واللجوء إليه إذ «لا مؤثر فى الوجود إلّااللَّه» وكل خير وبركة ونجاة تفاض على الإنسان من اللَّه سبحانه- القرآن من جانبه تحدث عن طائفة من العصاة الذين استحقوا سخط اللَّه وغضبه ولم يعد أمامهم من سبيل سوى اللجوء إلى اللَّه سبحانه «وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلّااليه»[۶۵] الطريف فى الأمر أنّ الإنسان إذا شعر بخوف من أحد لاذ بآخر، إلّاأنّ ذلك ليس كذلك بالنسبة للَّه سبحانه، فاذا ما خافه الإنسان وخشى عذابه، لجأ إليه، وهل هناك من هو أرحم بالإنسان منه؟! هذا هو الدرس الذى ينبغى أن تتعلمه من التوحيد الأفعالى فى أنّ اللَّه هو مصدر كلّ خير وحركة وبركة. فللَّه الأسماء والصفات التى تدعونا للجوء إلى اللَّه على كلّ حال وفى كلّ الظروف.

فان خشينا سخطه وغضبه لذنا بعفوه ورحمته، وإن خفنا عدله لجأنا إلى فضله وكرمه.

وأخيراً يبدو أنّ هذه العبارة مقتبسة من قوله سبحانه على لسان رسوله الكريم صلى الله عليه و آله: «فَفِرُّوا إِلى اللَّهِ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ»[۶۶]. ثم قال عليه السلام فى الوصية الثالثة «وامضوا فى الذى نهجه لكم» ثم أوصى عليه السلام قائلا: «وقوموا عصبة[۶۷] بكم».

والواقع أنّ الإمام عليه السلام قد سنّ بهذه العبارات

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۸

قانوناً جامعاً يشتمل على أربعة بنود من شأنها ضمان السعادة النجاة:

الأول: مراعاة التقوى وخشية اللَّه.

الثانى: الحركة نحو اللَّه من خلال الفرار منه إليه سبحانه.

الثالث: الثبات على النهج الإيمانى وسلوك السبيل الصحيح نحو اللَّه.

الرابع: العمل بالتكاليف والوظائف الدينية التى أمر بها الشارع المقدس.

قد يقال أنّ الوصايا الأربعة استهلت بفاء التفريع فما علاقتها بصدر الخطبة الذى تحدث عن العزم الراسخ فى مجابهة مخالفى الحق وقتالهم؟ والجواب على هذا السؤال واضح، لأنّ قتال هذه الطائفة المنحرفة الجائرة إنّما يتطلب جنوداً أشداء مؤمنين من ذوى العزم والإرادة، وكأنّ الإمام عليه السلام أراد أن يعدّ أصحابه للوقوف بوجه أصحاب الباطل. جدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام عبّر عن التكاليف بقوله «ما عصيه بكم» (التكاليف التى كلّفتم بها وأمركم بأدائها)، ومفهوم العبارة هو أنّ الوظائف الإلهية ليست من الامور التى يستطيع الإنسان إهمالها وعدم الإكتراث لها، بل هى طوق فى رقبته ودين فى ذمته لابدّ له من أدائه.

يذكر أنّ هذه التعبيرات قد وردت فى أغلب الآيات والروايات التى تشير إلى أنّ الإنسان إنّما يتحرر من القيود إذا ما أدّى هذه التكاليف والوظائف. وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام خطبته بضمانة النصر والغلبة والعاقبة الحسنة لأصحابه فى خوضهم القتال ضد تلك الطائفة الضالة عن الحق، النصر الذى سيفوزون به فى الدار الآخرة لا محالة إذا تعذر فى دار الدنيا «فعلىٌّ ضامن لفلجكم آجلًا إن لم تمنحوه عاجلًا». وهذا هو المنطق القوى والرصين الذى اعتمده القرآن فى مخاطبته لأتباعه فى تصديهم لأعداء الحق بأنّهم منتصرون غالبون مهما كانت نتيجة القتال: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ»[۶۸] ومعلوم أنّ الجنود الذين يرون أنفسهم منتصرين فى جميع الأحوال وأنّ عدوهم مهزوم، إنّما يقاتلون بمعنويات عالية دون أن يشعروا بأدنى خوف أو خطر ممّا ستفرزه أحداث القتال. فيرى أغلب العلماء والمفكّرين أنَّ الإيمان

بهذا المبدأ- النصر أو الشهادة- هو العامل الرئيسى الذى يقف وراء

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۹

الانتصار الذى يشعر به المسلمون فى جبهات القتال رغم عدم الموازنة فى القوى والتكافئ فى العدة والعدد مع جيوش الأعداء. وهذا هو المبدأ الذى ينبغى أن يجعله العالم الإسلامى اليوم نصب عينيه فى مجابهته لعالم الكفر فلا ينبهر بإمكاناته وتجهيزاته الزائفة.

والحق أنّ هذا المبدأ لا يحصل إلّافى ظل الإيمان والورع والتقوى وخوف اللَّه.

فصل فى الضعف والمساومة

إنّ من الفوارق الأساسية بين الساسة الربانيين والساسة العاديين إنّما يكمن فى أنّ ساسة الدنيا لا يتورّعون عن أيّة وسيلة من أجل تحقيق أطماعهم وأغراضهم الشخصية، وغالباً ما يساومون العدو على المبادئ الإنسانية ومصالح مجتمعاتهم ويتجاهلون الحق والعدالة، بغية حفظ مواقعهم السياسية والاجتماعية، فى حين ليست هنالك من مساومة فى قاموس الساسة الربانيين، بل غالباً ما يضحى هؤلاء بمواقعهم الحساسة حرصاً على حفظ المبادئ ورعاية للحق والعدل والقسط؛ الأمر الذى نلمسه بوضوح فى سيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وتلميذه أميرالمؤمنين على عليه السلام. فما أكثر الأفراد الذين اعترضوا على سياسة على عليه السلام من قبيل استمالة الآخرين عن طريق التمييز فى العطاء من بيت مال المسلمين: أو الإبقاء على معاوية فى حكومة الشام، دون أن يحدثوا أنفسهم بالأساليب التى يتبعها معاوية فى حكومته للناس أو المبادئ التى سيعبر عليها فى هذه الحكومة! أو الاقتراح الذى طرحه عليه عبد الرحمن بن عوف فى الشورى بتسليمه مقاليد الامور شريطة العمل بسياسة الشيخين، أو تفويض طلحة والزبير ولاية البصرة والكوفة. وقد اقترح من قبل، على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بعض الاقتراحات من قبيل اقتضاء المصلحة لطرده الضعفاء والمستضعفين. فاولئك وإن كانوا يفيضون إيماناً باللَّه ورسوله، إلّا أنّ المصلحة تقتضى استقطاب الأغنياء وتعبئتهم ضدّ العدو رغم خلو قلوبهم من الإيمان! ويبدو أنّ اختلاف الرؤية (على ضوء السياسة الإلهية والسياسة الشيطانية) واختلاف المصلحة من الواقع هى التى دفعت باولئك الأفراد والفئات الدنيوية للاعتراض على السياسة النبوية والعلوية.

والإمام عليه السلام يوضح فى هذه الخطبة السياسة التى سيتبعها وأنّه ليس من أولئك الساسة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۵۰

الذين يرون للمجاملة والمداهنة من مكان فى سياسته وتعامله مع المارقين عن الحق والعدالة، وليس لديه من وسائل سوى التقوى وامتثال التكاليف الشرعية دون الإكتراث لهذا أو ذاك من المساومين والمعترضين، ونوكل المزيد من الكلام فى هذا الموضوع إلى محلّه.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۵۱

الخطبة[۶۹] الخامسه و العشرون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وقد تواترت عليه الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد، وقدم عليه عامله على اليمن- وهما عبيد اللَّه بن عباس وسعيد بن نمران- لمّا غلب عليهما بسر بن أبى أرطاة فقام عليه السلام على المنبر ضجرا بتثاقل أصحابه عن الجهاد، ومخالفتهم له فى الرأى،

فقال:

القسم الأول

اشارة

«ما هِيَ إِلَّا الْكُوفَةُ أَقْبِضُها وَأَبْسُطُها، إِنْ لَمْ تَكُونِي إِلَّا أَنْتِ تَهُبُّ أَعاصِيرُكِ، فَقَبَّحَكِ اللَّهُ

وتمثل بقول الشاعر:

لَعَمْرُ أَبِيكَ الْخَيْرِ يا عَمْرُو إِنَّنِيعَلَى وَضَرٍ مِنْ ذا الْإِناءِ قَلِيلِ»

نظرة إلى الخطبة

يعتقد بعض شرّاح نهج البلاغة كابن أبى الحديد أنّ الخطبة بعد صفين والتحكيم والخوارج، حيث ألقاها عليه السلام أواخر عمره الشريف ۷۰]. ويفهم من مقدمة الشريف الرضى أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة حين تواترت عليه الأخبار بشأن استيلاء أصحاب معاوية على

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۵۲

البلاد الإسلامية، حيث بلغه عاملاه على اليمين فأطلعاه علىغلبة بسر بن ارطاة لهما على تلك المنطقة. فقد كان بعض أتباع عثمان فى صنعاء وكانوا قد بايعوا علياً عليه السلام مكراً وخديعة. وكان عبيد اللَّه بن عباس آنذاك عامل على عليه السلام على اليمن وقائد الجيش كان سعيد بن نمران. وقد شنت الغارات تلو الغارات من قبل أهل الشام على المناطق الإسلامية بعد قتل محمد بن أبى بكر الذى نصبه الإمام عليه السلام والياً على مصر. قام أتباع عثمان- فى اليمن- بدعوة الناس للمطالبة بدم عثمان، فتصدى لهم عبيد اللَّه بن عباس وأمر بسجنهم. فكتبوا من السجن إلى بعض أصحابهم فى الجيش لعزل سعيد بن نمران والخروج عليه. ففعلوا والتحق بهم طائفة من اليمن ثم امتنعوا عن دفع الزكاة. فكتب عبيد اللَّه وسعيد كتاباً للإمام عليه السلام. فكتب الإمام عليه السلام كتاباً لأهل اليمن ودعاهم للعمل بوظائفهم وحذرهم من العصيان والتمرد. فردّوا عليه بالتزامهم بطاعة الإمام عليه السلام بشرط عزل هذين الشخصين. ثم كتبوا لمعاوية. فبعث معاوية بسراً إلى اليمن فى جيش كثيف وأمره أن يقتل كلّ من كان فى طاعة على عليه السلام، فقتل خلقاً كثيراً، وقتل فى من قتل فى مكّة داود وسليمان، إبنى عبيد اللَّه بن عباس كما قتل فى الطائف صهر عبيد اللَّه. ثم بلغ اليمن بعد أن خرج منها عبيد اللَّه وسعيد، واستخلف علياً عبداللَّه بن عمرو الثقفى، فحمل بسر عليه فقتله ثم استولى على صنعاء مركز اليمن. فلمّا دخل عبيد اللَّه وسعيد على الإمام عليه السلام فى الكوفة ذمهما عليه السلام لتركهما مكانهما، ثم صعد المنبر وألقى هذه الخطبة.

على كل حال فإنّ الخطبة قد أوردت حين اشتدت حملات أهل الشام على مختلف مناطق البلاد الإسلامية وضعف المقاومة التى أبداها أصحاب الإمام عليه السلام حيث كان الإمام عليه السلام فى غاية التذمر والاستياء، فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بالشكوى من قلّة الأفراد المطيعين، ثم تعرّض عليه السلام إلى الواقعة الأليمة لحملات بسر بن أرطاة وغلبته على اليمن، ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالشكوى للَّهمن هؤلاء القوم الذين مردّوا على النفاق والمعصية فيدعوا عليهم ويسأل اللَّه أبدالهم بشر منه وإبداله من هو خير منهم.

الشرح والتفسير

النفاق والعصيان ودور الإمام

تبدو عبارات الإمام عليه السلام واضحة بالالتفات إلى سبب ورود الخطبة والأجواء التى كانت

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۵۳

حاكمة آنذاك، فقد أشار الإمام عليه السلام إلى أنّه لم تبق لديه سوى الكوفة بعد ذلك التمرّد والعصيان «ما هى ۷۱] إلّاالكوفة، أقبضها وأبسطها». والسؤال المطروح هنا: ماهى العلل والعوامل التى جعلت جيش الإمام عليه السلام يعيش هذه الحالة الخطيرة فى العراق وسائر المناطق الإسلامية؟ نترك الإجابة على هذا السؤال إلى البحث الذى سنخوض فيه فى موضوع تأملات.

أمّا المسألة المهمّة فهى أنّ رجلًا ربانياً مثلَ على عليه السلام وبتلك الشجاعة والبطولة والحنكة فى التدبير إنّما عاش تلك الحالة تجاه أعداء الإسلام أثر عدم وجود القُوى المخلصة والشجاعة الموالية للحق والمواكبة لحركة الإمام عليه السلام. فقد أشار الإمام عليه السلام بقوله «أقبضها وأبسطها» بشأن الكوفة إلى خروج سائر المناطق عن حكومته وإن كانت خاضعة لها ظاهرياً. ثم قال عليه السلام: «ان لم تكونى إلّاأنت تهبّ أعاصيرك ۷۲] فقبحك اللّه» فى إشارة إلى أنّ الكوفة وإن كانت مركز حكومة الإمام عليه السلام إلّاأنّها لم تكن خالية من التمرد والنفاق، بحيث لم يكن الإمام عليه السلام يحسب لأهلها ذلك الحساب. وما أعظم معاناته عليه السلام وهو بذلك العلم والحلم والحكمة والشجاعة إلّا أنّه يفتقر إلى المخلصين من الأتباع.

ثم تمثل عليه السلام بقول الشاعر:

لعمر أبيك الخير يا عمرو إننىعلى وضر من ذا الإناء قليل

«وضر» سواء كان بمعنى بقية الدسم فى الإناء، أو بقية قطرات الماء فى الإناء، أو الرائحة الباقية فى إناء الطعام، فهى إشارة إلى أنّ الكوفة لم تكن سوى ذرة زهيدة آنذاك بالنسبة للعالم الإسلامى الواسع، ولا يسع أىّ زعيم بالاعتماد على أهل هذه المنطقة مهما كان من حفظ بيضة الإسلام والدفاع عن البلاد الإسلامية والوقوف بوجه هذه الذئاب الكاسرة المتعطشة للدماء.

الشرح والتفسير

تأملان

۱- الكوفة على وجهين

تعتبر الكوفة من المناطق الإسلامية المشهورة فى التأريخ والتى كانت مسرّحاً لعدّة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۵۴

حوادث حتى إقترن تأريخ الإسلام بتلك المنطقة ويعتقد البعض أنّ إسمها مشتق من شكلها الذى يشبه الدائرة، حيث كانت تصطلح العرب على المنطقة الرملية المدورة بإسم «كوفان»، وقال البعض سمّيت بذلك الإسم لاجتماع الناس هناك؛ لأنّ أحد معانى هذه المفردة هو الاجتماع والتجمّع كما ذكروا عدّة وجوه اخرى للتسمية لايسع المقام الخوض فى تفاصيلها. وقيل بنيت عام ۱۷ ه على عهد الخليفة الثانى على يد سعد بن أبى وقّاص، وكانت أكبر مدن العراق التى تشد إليها الرحال. وسمّيت «قبة الإسلام». وقيل أن سعد بن أبى وقاص قد نزل المدائن بعد فتح العراق وغلبة الساسانيين فبعث رسله ليبشّر الخليفة الثانى بالفتوحات، فلما رأى الخليفة رسل سعد وقد شحبت وجوههم سألهم السبب، فذكروا له سوء مناخ مدن العراق، فأمر ببناء مدينة تتناسب ومزاج العسكر فاختار سعد الكوفة. ولم تمض مدة حتّى إشتعلت فيها النار فاحترقت- ثم بنيت من اللبنات. وقد خيّر سعد المسلمين بنزول المدائن أو الكوفة. فاختار فريق منهم الكوفة واستعادوا صحتهم.[۷۳]

وهناك عدّة روايات صرّحت بعضها بذم الكوفة فى حين صرّح البعض الآخر بمدحها، ويبدو أنّ الروايات قد وردت بشأن مختلف عصور الكوفة والأقوام التى سكنت فيها. فقد فسرّت بعض الروايات قوله سبحانه «وَطُورِ سِينِينَ»[۷۴] الواردة فى الآية بالكوفة.

وجاء فی روایـة عن الإمام الصادق علیه السـلام أنّه قال: «الکَوفَةُ رَوْضَةٌ مِن رِیاضِ الجَنَّةِ»، کما ورد فی ذیل هذه الروایة أنّ فیه قبر نوح وإبراهیم وقبر سید الأوصیاء الإمام علی علیه السـلام وقبور ثلاثمأة وسبعین نبیّاً وستمأة وصیّاً. وروی عن الإمام الصادق علیه السـلام أیضـاً أنه قـال: «إنّه لیس بَلَدٌ مِنَ البُلـدانِ وَمِصرٌ مِنَ الأمصارِ، أکثَرَ مُحِبّاً لنَا مِن أهلِ الکُوفـةِ»[۷۵]. مع ذلک فقـد شـهدت الکوفة عدّة عصور تسلّط علیها الأعـداء ولاسیّما أعداء أهل البیت علیهم السـلام بحیث أصبحت من الأوکار المناهضة للإسـلام وأهل بیت النبی صلی الله علیه و آله.

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۵۵

۲- أهل الکوفة والإمام علیه السلام

کلّنا نعلم بأنّ إحدی مشاکل حکومة الإمام علی علیه السـلام تکمن فی أهل العراق ولاسـیما أهل الکوفة الذین یتّصفون بالتمرد وعدم الطاعـة؛ الأمر الـذی جعل الإمام علیه السـلام یتعرّض له فی عـدّة خطب لیعرب عن إستیائه منهم وشـکواه، فی حین کانت روحیة أهل الشام وطاعتهم تمثّل أحد عوامل تفوّق معاویة فی أعماله.

وقـد نظر بعض المؤرّخین إلی هـذا الموضوع نظرة إیجابیـة فذهبوا إلی أنّ العلّة فی عصـیان أهل العراق علی الأمراء وطاعة أهل الشام، أنّ أهـل العراق أهـل نظر وذوو فطـن ثاقبـة، ومـع الفطنـة والنظر یکـون التنقیـب والبحث، ومـع التنقیب والبحث یکـون الطعن والقـدح والترجیـح بین الرجـال، والتمییز بین الرؤسـاء، وإظهـار عیوب الأمراء، وأهل الشام ذوو بلادة وتقلیـد وجمود علی رأی واحـد، لا یرون النظر، ولا یسألون عن مغیب الأحوال ومازال العراق موصوفاً أهله بقلّة الطاعة، وبالشقاق علی اولی الرئاسة.[۷۶]

إلّـا أنّ المرحوم مغنیـة یری أنّ هـذا الکلام أجوف لا أساس له. فأی عیب کان یسع أهل العراق أن یردّوه علی حکومـة العـدل العلویة حتّی مـارسوا ذلـک الشـقاق والنفـاق (أیّـة فطنـة ثاقبـة تـدفع بالأفراد إلی العصـیان والتمرّد والـذی أدّی إلی تلک الذلّـة والخنوع أمام العدو؟!) والحق کما ذکره المؤرّخون ومنهم طه حسین فی کتابه (علی وبنوه) أنّ سیاسة معاویة کانت قائمة علی المکر والخداع وشراء دین النـاس بینمـا اعتمـد الإمـام علی علیه السـلام علی الحق والعـدل، ولعـل الشاهـد علی ذلـک مـارد به الإمام علیه السـلام حین قال: «أتـأمرونی أن أطلب النصـر بـالجور فیمن ولّیت علیه؟! واللّه لاـ أطور به ما سـمر سـمیر وما أمّ نجم فی السـماء نجماً»[۷۷]. ثـم ردّ علیه السـلام علی اولئک الـذین قارنوا بین سیاسـته وسـیاسة معاویـة قائلًا: «واللّه ما معاویـة بأدهی منّی لکنّه یغدر ویفجر ولولا کراهیة الغدر لکنـت من أدهی النـاس»[۷۸]. وهـو الأـمر الـذی نلمسه الیـوم بوضـوح فی عصـرنا الراهن حیث یری بعض الأـفراد وضـمن تحلیلاـتهم الاجتماعیة أن الساسة

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۵۶

الأفذاذ هم اولئک الذین یعتمدون أسالیب التضـلیل والخداع والذین لا یتورعون عن التشبث بأخسّ الوسائل من أجل تحقیق أهدافهم وأطمـاعهم، فی حین لاـ یرون من کفـاءة وجـدارة لُاولئـک الأـفراد من أهـل الإیمـان والـورع والتقوی الـذین لاـ یسـاومون علی القیم والمبادئ، نعم للأسف مازال هـذا الخطأ الفاحش هو الـذی یسود بعض العقول والأفکار، وقـد أدی إلی سلسـلة من المفاسد السیاسـیة والاجتماعیـة، بل ما أعظم الـدماء البریئـة التی سـفکت علی مـدی التأریـخ بسـبب هذه النظرة الخاطئة علی کلّ حال فإنّ الواقع هو غیر ماذکر، فالعراق ولاسـیما منطقة الکوفة إنّما سکنت من عدّة فئات وبمختلف الثقافات وقد تأثروا إلی حد بعید بسیاسة عثمان بما دفعهم للتکالب علی الدنیا والاغترار بها وقد أصـبحت السـنن الخاطئة آنذاک من مفردات حیاتهم الیومیة (بما فی ذلک التمییز فی العطاء من بیت المـال) حتّی کان أغلب زعماء القبائل یتوقعون المناصب والأموال الطائلـة؛ الأمر الـذی جعل معاویـة ینجـح فی إسـتمالتهم فکانوا یتقاطرون علی معاویة، الواحد تلو الآخر.

أضف إلی ذلک فقـد کانت هنالک بعض الفوارق بین روحیـة أهل العراق والشام، منها أنّ أهل الشام کانوا یعرفون بالعمل، بینما کان

العراقيون أهل كلام كما كان الشاميون يتحلّون بالانضباط الاجتماعى ولم يكن مثل هذا الانضباط سائداً لدى أهل العراق. وأخيراً كان أهل الشام أوفياء، بينما يمتاز أهل العراق بالغدر ونكث العهود.

وبالطبع فإنّ هذا الكلام لا ينسحب على أهل العراق فى أىّ عصر وزمان غير زمان الإمام على عليه السلام كعصر الإمام الحسن أو الحسين عليهما السلام. ومن هنا وردت روايات الأئمة المعصومين عليهم السلام التى تشيد بأهل العراق والكوفة. ولا غرابة أن تتّصف امّة ببعض الصفات السلبية فى عصر من العصور، ثم تنسلخ عنها فتتحلى بصفات إيجابية.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۵۷

القسم الثانى: سرّ الانهيار

اشارة

ثم قال عليه السلام:

«أُنْبِئْتُ بُسْراً قَدِ اطَّلَعَ الْيَمَنَ وَإِنِّى- وَاللَّهِ- لَأَظُنُّ أَنَّ هَؤُلاءِ الْقَوْمَ سَيُدالُونَ مِنْكُمْ بِاجْتِماعِهِمْ عَلَى باطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمامَكُمْ فِى الْحَقِّ، وَطاعَتِهِمْ إِمامَهُمْ فِى الْباطِلِ وَبِأَدائِهِمُ الْأَمانَةَ إِلَى صاحِبِهِمْ وَخِيانَتِكُمْ وَبِصَلاحِهِمْ فِى بِلادِهِمْ وَفَسادِكُمْ، فَلَوِ ائْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلَى قَعْبٍ، لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلاقَتِهِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام- فى هذا المقطع من الخطبة- إلى قصة بسر بن ارطاة ذلك الجبار الشامى الفض وغلبته على اليمن، ثم تطرق عليه السلام إلى مصير أهل العراق والمستقبل المظلم الذى ينتظرهم مع ذكر الأسباب والعلل التى ستفضى إلى ذلك المستقبل. فقد ذكر بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ معاوية وجّه بسراً إلى المدينة وأمره بقتل شيعة على عليه السلام وإرعاب أهل المدينة التى هبت لنصرة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقاتلت أبى سفيان، فدخل المدينة وشتم أهلها وهدّدهم وتوعدهم، ثم دعا الناس إلى بيعة معاوية فبايعوه، وأحرق دوراً كثيرة. ثم قصد اليمن فاستباح أهلها وقد قتل ولدى حاكم اليمن آنذاك عبد اللَّه بن عباس.[۷۹] وقد ذكر ابن أثير أنّ هذين الطفلين لاذا بأعرابى من بنى كنانة، فلما أراد بسر أن يقتلهما، قال له الكنانى: دعهما فلا ذنب لهما، فإن كنت قاتلهما

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۵۸

فاقتلنى معهما، حيث كان يعتبر ذلك الأعرابى أن قتلهما يعنى تقصيره فى أداء الأمانة. فما كان من بسر إلّاأن قتلهما وقتل هذا الأعرابى.[۸۰]

على كل حال إطلع أمير المؤمنين على عليه السلام على هذه الأخبار الأليمة فساءه ذلك فقال:

«أُنبئت بسراً قد اطَّلع ۸۱] اليمن وإنى واللَّه لأظن أنّ هؤلاء القوم سيدالون ۸۲] منكم»

، ثم تطرق عليه السلام إلى علل هذه الدولة ليسلط الضوء على أربعة عناصر مهمّة تقف وراء النصر، فقال عليه السلام:

«باجتماعهم على باطلهم، وتفرّقكم عن حقّكم»

. فالاتحاد دعامة النصر ولاسيّما إذا سادت الوحدة أتباع الحق. ولكن يالها من مصيبة أن يتفرق دعاة الحق عن حقهم ويجتمع دعاة الباطل ويتحدون على باطلهم! رغم أنّ الباطل مصدر الخلاف والتشتت وأنّ الحق مركز الاخاء والوحدة. نعم فإنّ الوفاق والاتحاد لمن دوعى النصر والنجاح فى كل عمل وإنّ الشقاق والفرقة لمن دواعى الهزيمة والفشل.

أمّا العنصر الثانى فيخلّص فى الطاعة وإمتثال الأوامر التى كانت سائدة لأصحاب الباطل وعدم طاعة أهل الحق لإمامهم:

«وبمعصيتكم إمامكم فى الحقّ، وطاعتهم إمامهم فى الباطل»

. أجل فالانضباط والطاعة حيثما كانت إنّما تقود إلى النصر والغلبة. وليس لجيش ولا لُامّة أن تبلغ ما تريد دون رعايتها للانضباط وطاعتها لآمرها وزعيمها، ومن هنا ورد التأكيد فى كافّة الدوائر والمؤسسات اليوم على مسألة الانضباط والالتزام بالمقررات.

العنصر الثالث يتمثّل بالأمانة والوفاء بالعهد والتى تقابلها الخيانة ونقض العهود ولاسيّما حيال الرؤساء والزعماء

«وبادائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم»

فأمانتهم إنّما دفعت بهم لتعبئة كافّة الإمكانات والطاقات ضد أعدائهم، فى حين بددت خيانتكم هذه الطاقات وذهبت بها أدراج الرياح، وهل من مصير ينتظر من ضيع طاقاته وبدد إمكاناته سوى الهزيمة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۵۹

والفشل. لقد فسرّ بعض شرّاح نهج البلاغة الأمانة هنا بالبيعة، غير أنّ التفسير الذى أوردناه سابقاً واستناداً إلى سائر عبارات الخطبة يبدو أنسب من هذا التفسير، أضف إلى ذلك فإن كانت البيعة بمعنى الطاعة فقد ذكرت سابقاً ولا داعى للتكرار.

وأخيراً «وبصلاحهم فى بلادهم وفسادكم» وعليه فقد أوجز الإمام عليه السلام عوامل نصرهم وفشل إتباعه فى اتّحادهم وانضباطهم وأمانتهم وصلاحهم فى بلادهم، فى حين عاش أتباعه الفرقة والاختلاف والغدر والخيانة والفساد. فأساليب الإدارة والحنكة فى الحكومة وإدارة شؤون البلاد مهما كانت قويّة فإنّها لن تؤدّى إلى نتائج مرضية فى ظلّ هؤلاء الأفراد الذين يمثّلون أذرع الحاكم وعناصره فى الدولة.

أجل فالحق ضعيف مهضوم إذا مافسد أتباعه، والباطل قوى فى ظلّ اتّحاد أتباعه.

ثم يختتم الإمام عليه السلام كلامه قائلًا:

«فلو ائتمنت أحدكم على قعب ۸۳] لخشيت أن يذهب بعلاقته ۸۴]».

فهل من مجال للوثوق بمثل هؤلاء الأفراد الذين لا يؤتمنون على أتفه الأشياء، فضلًا عن القيام بإدارة شؤون الحكومة الإسلامية ومسائل الصلح والقتال وبيت المال وامثال ذلك.

تأمّلات

۱- بسر بن أرطاة القائد السفاح لمعاوية

فأمّا خبرُ بُسْرِبن أرطاة العامرىّ؛ من بنى‌عامربن لؤى‌بن غالب، وبَعث معاوية له ليُغيرَ على أعمال أميرالمؤمنين عليه‌السلام، وما عَمِله من سَفْك الدماء وأخذ الأموال، فقد ذكر أرباب السّير أنّ الذى هاج معاوية على تسريح بُسْر ابن أرطاة- ويقال ابن أبى أرْطاة- إلى الحجاز واليمن، أنّ قوما بصنعاء كانوا من شيعة عثمان، يُعْظِمون قتلَه، لم يكن لهم نظام ولا رأس، فبايعوا لعلىّ عليه‌السلام على ما فى أنفسهم؛ وعاملُ علىّ عليه‌السلام على صنعاء يومئذ

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۶۰

عُبيداللَّه بن عباس؛ وعامله على الجَنَد سعيدبن نِمْران.

ووجّه الكتاب مع رجل من هَمْدان، فقدِم عليهم بالكتاب فلم يجيبوه إلى خَيْر، فقال لهم:

إنّى تركت أميرَالمؤمنين يريد أن يوجِّه إليكم يزيدَبن قيس الأرْحبىَّ، فى جيش كثيف، فلم يمنعْه إلا انتظارُ جوابكم. فقالوا: نحن سامعون مطيعون، إن عَزَل عنّا هذين الرجلين: عُبيدَاللَّه وسعيدا.

فرجع الهمْدانىّ من عندهم إلى علىّ عليه‌السلام فأخبره خبر القوم.

فلما قدِم كتابهم، دعا بُسْرَبن أبى أرطاة، وكان قاسىَ القلب فَظّاً سفّاكاً للدماء، لا رأفةَ عنده ولا رحمة، فأمرَه أن يأخذَ طريقَ الحجاز والمدينة ومكة حتى ينتهىَ إلى اليمن، وقال له: لا تنزِلْ على بلد أهله على طاعةِ علىّ إلّابسطتَ عليهم لسانَك؛ حتى يَرَوْا أنّهم لا نجاءَ لَهم، وأنّك محيط بهم. ثم اكفُفْ عنهم، وادعُهم إلى البيْعة لى، فمنْ أبى فاقتلْه، واقتلْ شِيعةَ علىّ حيث كانوا.

ج ج

وروى إبراهيم‌بن هلال الثقفىّ فى كتاب "الغارات "عن يزيدبن جابر الأزدىّ، قال:

سمعت عبدالرحمن‌بن مَسعدة الفزارىّ يحدّث فى خلافة عبدالملك، قال: لما دخلتْ سنةُ أربعين، تحدّث الناس بالشام أنّ عليّاً عليه‌السلام يستنفِرُ النّاس بالعراق فلا ينفرون معه، وتذاكروا أن قد اختلفتْ أهواؤهم، ووقعت الفُرقة بيهم، قال: فقمت فى نَفَرٍ من أهل الشام إلى الوليدبن عُقْبة، فقلنا له: إنّ الناس لا يشكّون فى اختلاف الناس على علىّ عليه‌السلام بالعراق، فادخلْ إلى صاحبك فمرْه فليسِرْ بنا إليهم قبل أن يجتمعوا بعد تفرقهم، أو يصلُحَ لصاحِبهم ما قد فسد عليه من أمره. فقال: بلَى، لقد قاولته فى ذلك وراجعته وعاتبته، حتى لقد برِم بى، واستثقل طَلْعتى، وايمُ اللّه على ذلك ما أدع أنْ أبلّغه ما مشيْتم إلىّ فيه.

فدخل عليه فخبّره بمجيئنا إليه، ومقالتنا له، فأذن لنا، فدخلْنا عليه، فقال: ما هذا الخبرُ الذى جاءنى به عنكم الوليد؟ فقلنا: هذا خبرٌ فى الناس سائر، فشمِّرْ للحرب، وناهِض الأعداء، واهتبل الفرصة، واغتنم الغِّرة، فإنّك لا تدرى متى تقدرُ على عدوّك على مثل حالِهم التى هم عليها، وأن تسيرَ إلى عدوِّك أعزُّ لك من أن يسيرُوا إليك. واعلم واللّه أنّه تفرّق الناس عن صاحبك لقد نهض إليك. فقال لنا: ما أستغِنى عن رأيكم ومشورتكم، ومتى أحْتَجْ إلى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۶۱

ذلك منكم أدْعُكم. إنّ هؤلاء الذين تذكُرون تفرّقَهم على صاحبه، واختلافَ أهوائهم، لم يبلغ ذلك عندى بهم أن أكونَ أطمعُ فى استئصالِهم واجتياحهم، وأنْ أسيرَ إليهم خاطرا بجنْدى، لا أدرى علىّ تكونُ الدائرة أم لى! فإيّاكم واستبطائى، فإنّى آخذُ بهم فى وجهٍ هو أرفقُ بكم.

وبعث معاوية عند خروجنا من عنده إلى بُسربن أبى أرطاة، فبعثه فى ثلاثة آلاف، وقال:

سرْ حتى تمرّ بالمدينة، فاطرد الناس، وأخِفْ مَنْ مررت به، انهبْ أموال كلِّ مَنْ أصبت له مالًا؛ ممّن لم يكن دخل فى طاعتنا، فإذا دخلتَ المدينة، فأرِهم أنّك تريد أنفسهم، وأخبرْهم أنّه لا براءةَ لهم عندك ولا عذرَ؛ حتى إذا ظنّوا أنّك موقعٌ بهم فاكففْ عنهم، ثم سِرْ حتى تدخل مكة، ولا تعرِضْ فيها لأحد، وأرْهب الناسَ عنك فيما بين المدينة ومكة، واجعلها شرداتٍ؛ تأتى صنعاء والجَند، فإنّ لنا بهما شيعة، وقد جاءنى كتابهم.

ج ج

أن بُسراً لما أسْقَط مَنْ أسقط من جيشه، سار بمن تخلّف معه، وكانوا إذا ورَدوا ماء أخذوا إبلَ أهلِ ذلك الماء فركبوها، وقادوا خيولَهم حتى يرِدُوا الماء الآخر، فيردّون تلك الإبل، ويركبون إبل هؤلاء، فلم يزل يصنع ذلك حتى قرب إلى المدينة.

قال: وقد روى أنَّ قُضاعة استقبلتهم ينحَرُون لهم الجُزُر، حتى دخلوا المدينة. قال:

فدخلوها، وعامل علىّ عليه‌السلام عليها أبو أيّوب الأنصارىُّ، صاحب منزل رسول‌اللّه صلى اللّه عليه وآله، فخرج عنها هارباً، ودعا الناس إلى بيعة معاوية فبايعوه. ونزل فأحرقَ دوار كثيرة.

ج ج

قال إبراهيم: وقد روى عَوانة عن الكلبىّ أن بُسْراً لمّا خرج من المدينة إلى مكّة قتل فى طريقه رجالًا، وأخذ أموالًا، وبلغ أهلَ مكة خبرُه، فتنحّى عنها عامّةُ أهلها، وتراضَى النّاس بشيبة بن عثمان أميراً لما خرج قُثَم بن العباس عنها، وخرج إلى بُسر قوم من قريش، فتلقَّوْه، فشتمهم، ثم قال: أمَا واللّه لو تُركت ورأيى فيكم لتركتُكم وما فيكم روح تمشى على الأرض، فقالوا: نَنْشُدك اللّه فى أهلك

وعِتْرتك!

ج‌ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۶۲

قال إبراهيم: وروى علىّ بن مجاهد، عن ابن إسحاق، أن أهلَ مكة لما بلغهم ما صنع بُسْر، خافوا وهربوا، فخرج بنا عبيداللَّه بن العباس، وهما سليمان وداود، وأمهما جُوَيْرِيَة ابنة خالد بن قَرَظ الكنانية، وتُكنَى أمّ حكيم، وهم حلفاء بنى زُهرة، وهما غلامان مع أهل مكة، فأضلوهما عند بئر ميمون بن الحضْرمىّ.

وخرج بُسر من الطائف، فأتى نَجْران، ثم جمعهم وقام فيهم، وقال يا أهلَ نجران، يا معشرَ النصارى وإخوان القرود: أما واللَّه إنْ بلغنى عنكم ما أكرَه لأعودَنّ عليكم بالتى تقطع النَّسْل، وتُهلِكُ الحرث، وتخرّب الديار!

وتهددّهم طويلًا، ثم سار حتى أَرْحَب، فَقَتل أبا كرب- وكان يتشيّع- ويقال إنّه سيّد مَنْ كان بالبادية من هَمْدان، فقدمه فقتله.

وأتى صنعاء وقد خرج عنها عبيداللَّه بن العباس، وسعيد بن نِمْران، وقد استخلف عبيداللَّه عليها عَمْروا بن أَراكة الثقفىّ، فمنع بُسْراً من دخولها وقاتله، فقتله بُسْر، ودخل صنعاء، فقتل منها قوماً، أتاه وفد مأرِب فقتلهم، فلم ينجُ منهم إلّارجل واحد، ورجع إلى قومه، فقال لهم: «أنعى قتلَانا، شيُوخاً وشُبّاناً».

فندب علىّ عليه‌السلام أصحابَه لبعث سرّية فى إِثر بُر، فتثاقلوا، وأجابوا جارية بن قُدامة السعدى، فبعثه فى ألفين، فشخَص إلى البصرة، ثم أخذ طريق الحجاز حتى قِدم اليمن، وسأل عن بُسر فقيل: أخذ فى بلاد بنى تميم، فقال: أخذ فى ديار قوم يمنعون أنفسهم. وبلغ بُسراً مسيرُ جارية، فانحدر إلى اليمامة، أخذ جارية بن قدامة السير، ما يلتِفت إلى مدينة مرّ بها ولا أهل حصن، ولا يعرِّج على شىء إلّاأن يُرْمِلَ بعضُ أصحابه من الزاد فيأمر أصحابه بمواساته أو يسقط بعير رجل، أو تَحْفَى دابته، فيأمر أصحابه بأن يُعْقِبوه، حتى انتهوْا إلى أرضْ اليمن، فهربت شيعة عثمان حتى لحقوا بالجبال، واتّبعهم شيعة علىّ عليه‌السلام، وتداعت عليهم من كلّ جانب، أصابوا منهم، وصَمَد نحو بُسر، وبسر بين يديه يفرّ من جهة إلى جهة اخرى، حتى أخرجه من أعمال علىّ عليه‌السلام كلّها.

وقال بُسْر: أحَمد اللَّه يا أميرالمؤمنين أنى سرت فى هذا لاجيش أقتل عدوك ذاهباً جائياً لم يُنْكَب رجل منهم نكبة، فقال معاوية اللَّهُ قد فعل ذلك لا أنت.

ج‌ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۶۳

قال: ودعا علىّ عليه‌السلام على بُسْر، فقال: اللّهم إنّ بُسرا باع دينَهَ بالدنيا، وانتهك محارمك، وكانت طاعةُ مخلوقٍ فاجرٍ آثرَ عنده مِمّا عندك. اللّهمّ فلا تُمِتْه حتى تَسْلُبه عقلَه، ولا توجب له رحمتك ولا ساعة من نهار. اللهمّ ألعن بُسراً وعمراً ومعاوية، وليحلّ عليهم غضبُك، ولتنزل بهم نِقْمَتُك وليصبهم بأسُك ورِجْزُك الذى لا تردّه عن القوم المجرمين.

فلم يلبث بُسْرٌ بعد ذلك إلّايسيراً حتى وسوس وذهب عقلُه، فكان يهذِى بالسيف، ويقول: اعطُونى سيفاً أقتلْ به، لا يزال يردد ذلك حتى اتَّخِذ له سيف من خشب، وكانوا يدنون منه المرفقة، فلا يزال يضربها حتى يُغشى عليه، فلبث كذلك إلى أن مات.

قال المسعودى فى مروج الذهب بعد نقل هذه القصة أن بسراً كان يقول للناس: انظروا كيف يطعمنى هذان الغلامان إبنا عبيدالله- الذان قتلا مظلومان بيدى- وكان ربما شدت يداه إلى الوراء منعا من لعبه بحزئه والناس تمنعه من ذلك.[۸۵]

۲- مقوّمات النصر وهزيمة الأمم

لقد شرح الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة بعباراتها القصيرة ذات المعانى العميقة المقوّمات التى تمنى بها الامم والشعوب، ولا يقتصر هذا الأمر على أهل العراق والحجاز واليمن وقضية والى من الولاة كمعاوية وقائد عسكره بسر بن ارطاة، بل يشمل كافة العصور

والدهور. فقد تحدّث الإمام عليه السلام فى بادئ الأمر عن وحدة الكلمة التى تعدّ السبب الرئيسى فى تضامن القوى وتعبئة طاقاتها فى مواجهة الأعداء. وممّا لاشك فيه أنّ أهم العوامل التى أدّت إلى انتصار جنود الإسلام على عهد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على أعدائهم الذين كانوا يفوقونهم عدّة وعدداً إنّما يكمن فى وحدة الكلمة. فكم من فئة قليلة هزمت عدوّها بفضل الاتحاد والإخاء. القرآن من جانبه اعتبر وحدة كلمة المسلمين من معاجز النبى الأكرم صلى الله عليه و آله «هُوَ الَّذى ايَّدَكَ بِنَصْرِه وَ بِالْمُؤْمِنينَ* وَأَ لَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِى الأَرضِ جَمِيعاً ما أَ لَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلكِنَّ اللَّهَ أَ لَّفَ بَيْنَهُمْ»[۸۶]، كما اعتبر الوحدة الإسلامية التى سادت المسلمين أبان عصر الرسالة من النعم الإلهية الكبرى على الامّة الإسلامية

«وَاذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذ كُنْتُمْ

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۶۴

أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً»[۸۷]، فى حين قرن الفرقة والشقاق بالعذاب الدنيوى والأخروى «قُلْ هُوَ القادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً»[۸۸]. كما أشار الإمام عليه السلام إلى مسألة الانضباط وحنكة القيادة على أنّها العامل الآخر المكمّل لعنصر الاتحاد والإخاء والتضامن. والحق رأينا عدّة ثورات فى عصرنا الراهن قد كتب لها النجاح بينما لم توفّق غيرها لهذه النتيجة، ولعلّ العامل الرئيسى فى ذلك النجاح إنّما يستند إلى وحدة القيادة، بينما تعانى غيرها من التشتت وتعدد مراكز القرار.

ثم تطرق عليه السلام إلى الأمانة بفضلها العامل الثالث من عوامل النصر. فمما لاشكّ فيه أنّ أيّة أمة من الأمم لن تذيق طعم النصر والسعادة مالم تستثمر طاقاتها وثرواتها بالشكل الصحيح. ولا يتيسّر هذا الأمر إلّاإذا كانت الأمانة هى التى تحكم أفراد الامة وتدفعها لصون إمكاناتها الاجتماعية.

أمّا العامل الأخير الدخيل فى النصر فإنّما يكمن فى صلاح أفراد المجتمع، وبعبارة اخرى فإنّ أفراد الامة لن يتخلّوا على مشاكلهم ويتخلّصوا من مخالب الأعداء مالم يأخذوا بنظر الاعتبار مصالح المجتمع ويضحوا بمنافعهم الشخصيّة ويجدوا ويجتهدوا فى إصلاح مجتمعهم، وليعلم اولئك الذين يهمّون بمنافعهم الشخصيّة ولو أدّت إلى فساد المجتمع إنّهم إنّما يقضون على المجتمع وبالتالى يقضون على أنفسهم.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۶۵

القسم الثالث: السئم والملل

اشارة

«اللَّهُمَّ إِنِّى قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّونِى وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُونِى ۸۹] فَأَبْدِلْنِى بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وَأَبْدِلْهُمْ بِى شَرّاً مِنِّى! اللَّهُمَّ مِثْ ۹۰] قُلُوبَهُمْ كَما يُماثُ الْمِلْحُ فِى الْماءِ، أَما وَاللَّهِ- لَوَدِدْتُ أَنَّ لِى بِكُمْ أَلْفَ فارِسٍ مِنْ بَنِى فِراسِ بْنِ غَنْمٍ.

هُنالِكَ لَوْ دَعَوْتَ أَتاكَ مِنْهُمْفَوارِسُ مِثْلُ أَرْمِيَةِ الْحَمِيمِ».

ثم نزل عليه السلام من المنبر.

الشرح والتفسير

يتضرع الإمام عليه السلام فى آخر الخطبة إلى اللَّه بقلب مفعم بالهم والحزن فيدعو على اولئك الأتباع، غير أن دعائه عليهم يحمل تحذيراً جدياً لمن كان له أدنى صحوة من ضمير، حيث يسعى الإمام عليه السلام عن هذا الطريق إلى تنبيه أهل الضلالة وإعادتهم إلى الصراط المستقيم، فقال عليه السلام:

«اللّهم إنّى قد مللتهم وملونى وسئمتهم وسئمونى»

ومن الطبيعى ألاـ يكون هناك من وقع لنصائح الإمام العادل والقائد الشجاع فى قلوب عبدة الدنيا والأهواء من أهل الجهل والعجز والذل إذا ما تباينت أهداف القائد ومبادئه وخلقه مع أهداف الرعية

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۶۶

وأخلاقها، الأمر الذى يؤدى بالتالى إلى تعب الطرفين وسئم كل منهما الآخر. وإذا كان النبى صلى الله عليه و آله قد استطاع النهوض بزعامة الأقوام الجاهلية، فانّما ذلك لأنّهم أقروا بأهدافه ومبادئه فى التربية وقد كيفوا أنفسهم مع سننه وخلقه. ومن هنا فانّ الأنبياء الذين لم يوفقوا فى هذا الأمر ملوا أتباعهم، كما أنّ أقوامهم هى الاـخرى لم تكن تطيق تحملهم. ولا يفوتنا هنا ضيق ذرع قوم لوط بنبيهم لطهارته وعفته «أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ».[۹۱]

ثم دعا عليهم قائلًا:

«فابدلنى بهم خيراً منهم، وأبدلهم بى شراً منى».

فهم ليسوا أتباعاً جديرين بهذا الإمام، ولم يعد إماماً مناسباً لهم، فالحكمة الإلهية تقتضى أن يخرجوا مسودى الوجوه من هذا الامتحان بعد أن تسلب منهم هذه النعمة الإلهية فيعشوا أنواع الهوان والذل. وما أسرع ما استجيب دعاء الإمام عليه السلام، فقد تسلط عليهم بنو امية ليرتكبوا بحقهم ما قل نظيره أو انعدم فى التأريخ والعجيب ماورد فى بعض التواريخ الإسلامية من أنّ الحجاج قد ولد[۹۲] آنذاك، وبالطبع فانّ أهل العراق والكوفة قد دفعوا ثمن جرائمهم وتخاذلهم قبل ذلك، إلّاأنّها بلغت ذروتها على عهد الحجاج.

طبعاً ليس المراد بالعبارة «أبدلم بى شراً منى» أنّى سيء ولكن سلط عليهم من هو أسوأ منّى. بل هى مقارنة تطلق على الخير المطلق والشر المطلق، فقد جاء فى القرآن سورة الفرقان بعد أنّ أشار إلى شدة عذاب جهنم قائلًا: «قُلْ أَذ لِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخُلْدِ الَّتِى وُعِدَ المُتَّقُونَ».

وبعبارة اخرى لم يكن أهل العراق والكوفة آنذاك أخيار ليسأل الإمام عليه السلام اللَّه أخير منهم، ولا الإمام عليه السلام- والعياذ باللَّه- كان سيئاً ليسلط اللَّه عليهم من هو أسوأ منه، ففى مثل هذه الموارد تفقد صيغة أفعل التفضيل مفهومها العادى وترد للمقارنة بين شيئين متضادين. ويبدو أن هذا الدعاء شبيه الدعاء الذى ابتهل به نبى اللَّه نوح عليه السلام على قومه بعد أن يئس من صلاحهم «رَبِّ لا تَذَرْ عَلى الأَرْضِ مِنَ الكافِرِينَ دَيّاراً»[۹۳]. ثم قال عليه السلام: «اللّهم مث قلوبهم كما يماث الملح

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۶۷

فى الماء». لعل المراد بموث قلوبهم (بمعنى ذوبانها) هو هجوم الهموم والغموم عليها بحيث تجرح عواطفهم الإنسانية إلى درجة يقال ذاب القلب، فقد ورد شبيه هذا المعنى فى خطبة الجهاد رقم ۲۷ إذ قال عليه السلام:

«واللَّه، يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم»

. ومن الواضح أنّ المراد بذوبان القلب ضياع العقل والفطنة والدراية والحكمة. فمفهوم العبارة: خذ عقولهم وحكمتهم لهذا النفاق والعصيان فيعيشوا الحيرة والاضطراب فى حياتهم. وقد ورد التعبير عن القلب بمعنى العقل والحكمة أو وعاء العقل والحكمة فى عدة آيات وروايات، ومن ذلك ماورد فى الآية ۲۵ من سورة الانعام: «وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ». والواقع أن من أعظم العقوبات الإلهية- التى أوردها القرآن الكريم والروايات بالنسبة للأفراد من أهل النفاق والمعصية- هى الا يرى الإنسان الحقائق ولا يدركها كما هى، فيعيش القلق والحيرة والضلال. ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالقول:

«أما- واللَّه- لوددت أن لى بكم ألف فارس من بنى فراس بن غنم.

ثم تمثل بقول الشاعر:

هنالك لو دعوت أتاك منهمفوارس مثل أرمية الحميم

ثم نزل الإمام عليه السلام من المنبر:

قال السيد الشريف: أقول: «الارمية» جمع «رمى» وهو السحاب والحميم، هاهنا وقت الصيف. وإنّما خص الشاعر سحاب الصيف بالذكر لأنه أشد جفولًا ولا أسرع خفوفاً؛ لأنّه لا ماء فيه. وإنّما يكون السحاب ثقيل السير لامتلائه بالماء، وذلك لايكون فى الأكثر إلّازمان الشتاء، وإنّما أراد الشاعر وصفهم بالسرعة إذا دعوا، ولا إغاثة إذا استغيثوا، والدليل على ذلك قوله: هنالك لو دعوت أتاك منهم.

بنو فراس بن غنم

هم بنو فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة، حى مشهور بالشجاعة، منهم علقمة بن فراس وهو جذل الطعان. ومنهم ربيعة بن مكدم بن حرثان بن جذيمة بن علقمة بن فراس الشجاع المشهور، حامى الظعن حياً وميتاً، ولم يحم الحريم وهو ميت أحد غيره؛ عرض له فرسان من بنى سليم، ومعه ظعائن من أهله يحميهم وحده، فطاعتهم، فرماه نبيشة بن حبيب

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۶۸

بسهم أصاب قلبه، فنصب رمحه فى الأرض، واعتمد عليه وهو ثابت فى سرجه لم يزل ولم يمل.

وأشار إلى الظعائن بالرواح، فسرن حتى بلغن بيوت الحى، وابن سليم قيام إزاءه لا يقدمون عليه، ويظنونه حياً؛ حتى قال قائل منهم: إنّى لا أراه إلّاميتاً، ولو كان حياً لتحرك؛ إنّه واللّه لماثل راتب على هئية واحدة، لا يرفع يده، ولا يحرك رأسه. فلم يقدم أحد منهم على الدنو منه، حتى رموا فرسه بسهم، فشب من تحته، فوقع وهو ميت، وفاتتهم الظعائن.[۹۴]

وجاء فى كتاب بلوغ الأدب أن شجاع كل فرد من أبناء هذه القبيلة بعشرة من شجعان سائر القبائل، وهم أشجع قبائل العرب.[۹۵]

والطريف فى الأمر أن جيش الإمام عليه السلام فى الكوفة قد بلغ عشرات الآلاف، بل بلغ طبق رواية مئة ألف جندى ۹۶]، إلّاأنّ الإمام عليه السلام يتمنى استبدال كل هذا الجيش بألف من فرسان بنى فراس؛ الأمر الذى يدل على مدى ضعف جيش الكوفة وعجزه، ومدى شجاعة أبناء قبيلة بنى فراس، فقد تضاعفت شجاعتهم الذاتية فى ظل الإسلام والإيمان. كما جاء فى القرآن الكريم: «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذنِ اللَّهِ».[۹۷]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۶۹

الخطبة السادسة والعشرون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وفيها يصف العرب قبل البعثة ثم يصف حاله قبل البيعة له نظرة إلى الخطبة.

نظرة إلى الخطبة

يرى بعض المحققين أنّ الدافع من هذه الخطبة (أو بتعبير آخر كتابة هذه الرسالة) أنّه سأل البعض علياً عليه السلام عن رأيه بمن سبقه من الخلفاء بعد أن استولى أصحاب معاوية على مصر وقتلوا محمد بن أبى بكر. فاستنكر عليهم الإمام عليه السلام ذلك بعد أن استولى معاوية على مصر وقتل شيعته، فكتب الإمام عليه السلام هذا الكتاب.[۹۸] ويتصور أحياناً بأنّ الخطبة اختتمت بالدعوة إلى الجهاد وهذا ما يتنافى وما ذكر، حيث يدل ذلك على أنّ الكلام صدر عن الإمام عليه السلام قبل معركة صفين، لكن يمكن أن يكون هذا الكلام إشارة إلى معركة أراد الإمام عليه السلام أن يعب الناس لها قبل شهادته، غير أنّ شهادته عليه السلام حالت دون ذلك.

على كل حال فالخطبة على ثلاثة أقسام: القسم الأول فى وضع العرب فى الجاهلية وعلى أعتاب انبثاق الدعوة الإسلامية وبعثة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله التى أنقذتهم ممّا لا يمكن تصوره من البؤس والشقاء.

والقسم الثانى فى الحوادث التى اعقبت رحيل رسول اللّه صلى الله عليه و آله وكيفية غصب حق الإمام عليه السلام فى الخلافة، وسكوته حفظاً للإسلام والقرآن بينما كان يعيش حالة من التذمر والاستياء.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۷۰

والقسم الثالث إشارة إلى البيعة المشروطة لعمرو بن العاص على معاوية والتى أدت إلى تلك الويلات والمصائب والأضرار الفادحة فى الأرواح والأموال، ثم يختتم الخطبة بحث أتباعه بالتأهب للقتال.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۷۱

القسم الأول: العرب فى الجاهلية

اشارة

«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه و آله نَذِيراً لِلْعالَمِينَ وَأَمِيناً عَلَى التَّنْزِيلِ، وَأَنْتُمْ- مَعْشَرَ الْعَرَبِ- عَلَى شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دارٍ مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجارَةٍ خُشْنٍ وَحَيَّاتٍ صُمٍّ تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ، وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَتَقْطَعُونَ أَرْحامَكُمْ، الْأَصْنامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ وَالْآثامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ».

الشرح والتفسير

يتطرق الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبة إلى أوضاع العرب فى الجاهلية فيرسم صورة واضحة الملامح عن حياتهم من خلال الأبعاد الفكرية والعاطفية والاقتصادية والاجتماعية، بحيث لا نتوصل لهذه الصورة التى رسمها الإمام عليه السلام ولو طالعنا كافة المؤلفات التى صنفت بشأن العرب فى العصر الجاهلى. ويبدو أنّ الإمام عليه السلام استهل الخطبة بهذا الكلام ليذكرهم بالعصر الجاهلى الذى سبق الإسلام فيقارنونه بما بعد البعثة النبوية الشريفة فيقفوا على قيمة الإسلام ولا يضحوا بهذه القيمة والنعمة من خلال هذه الفرقة والاختلاف وأتباع الأهواء والشهوات، ولا غرو فقيمة النعم تبقى مجهولة ولا يعرف قدرها إلّاإذا فقدت فقد قال عليه السلام:

«إن اللّه بعث محمداً صلى الله عليه و آله نذيراً للعالمين وأميناً على التنزيل».

الجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام أكد على جانب الانذار فى رسالة النبى صلى الله عليه و آله، بينما نعلم أنّ الانذار قد قرن بالبشارة، كما ورد ذلك فى عدة آيات قرآنية، كالآية الشريفة «يا أَيُّها النَّبِيُّ إِنّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً»[۹۹] وسائر الآيات القرآنية.[۱۰۰] غير أنّ الانذار بالعقاب

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۷۲

والتهديد بالعذاب غالباً ما يكون الدافع لحركة الامّة نحو القيام بوظائفها والتحفظ عن تركها كان التأكيد أكثر على مسألة الانذار، ومن هنا ورد التأكيد فى أغلب الآيات القرآنية على الانذار بشأن رسالة النبى صلى الله عليه و آله وسائر الأنبياء، ولم تطالعنا أى من الآيات التى اقتصرت على البشارة. وهذا هو الاسلوب الذى اعتمدته القوانين المعاصرة، حيث ركزت على جانب العقوبة بصفتها الضمانة الإجرائية الناجحة، ونادراً ما يعتمد الحث والتشجيع من أجل تحقيق الغرض المذكور. بصورة عامة فانّ الهدف النهائى للانذار هو إثارة الشعور بالمسؤولية تجاه الوظائف والتكاليف الملقاة على عاتق الإنسان. وهنا لا ينبغى أن ننسى بأن انذار النبى صلى الله عليه و آله يشمل كافة الكائنات؛ الأمر الذى يدل على عالمية الدين الإسلامى وخلوده، لأنّ للعالمين مفهوم واسع يشمل كافة أفراد البشرية فى

كل عصر ومصر. قوله عليه السلام:

«أميناً على التنزيل»

تلويح ضمنى بعصمة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فهو صائن لكتاب اللَّه ومبلغه للعالم دون أدنى تغيير. ثم تطرق عليه السلام لأوضاع العرب زمان الجاهلية فى عشرة عبارات مقتضبة عظيمة المعانى تشير إلى أربعة محاور، فقال:

«وأنتم معشر العرب على شر دين»

وأى دين أسوأ من الوثنية؟ أن ينحت عاقل قطعة من الحجر أو الخشب بيده ثم يسجد لها ويعبدها ويرى مقدراته بيدها ويلوذ بها فى حل المشاكل التى تواجهه فى حياته، أو أن يصنع صنماً من التمر يتخذه إلهاً فاذا جاع أكله. أضف إلى ذلك الانحراف الخطير فان طقوس هؤلاء القوم مملوءة بالخرافات والعقائد السخيفة البعيدة عن المنطق والتى سطرتها كتب تأريخ العرب فى العصر الجاهلى، وسنعرض لجانب منها لاحقاً.

هذا على مستوى العقائد والأفكار. ثم تطرق عليه السلام إلى أوضاعهم الاقتصادية المزرية فقال عليه السلام: «وفى شر دار منيخون»[۱۰۱] بين حجارة خشن وحيات صم، تشربون الكدروتأكلون الجشب».[۱۰۲]

تعبيره عليه السلام «شر دار» بالنسبة لمحل إقامة عرب الجاهلية، رغم أن أغلبهم (ولاسيما من

خاطبهم الإمام عليه السلام بهذه الكلمات) كانوا يقطنون فى مكة أو المدينة يفيد أن هاتين المنطقتين قد فقدتا قدسيتهما ومكانتهما المعنوية إثر تبدلهما إلى مركز للأصنام والأوثان والفساد والانحراف.

وقد أحاطت بهم عواصف الرمل والرياح المحرقة فى تلك الصحارى الجرداء، بحيث إذا تمكن أحدهم من العثور على بقية ماء فى بعض البرك والآبار فانه كان على درجة من التلوث والتعفن بسبب هبوب الرياح أو تلويثه من قبل بعض الأفراد حتى ليشعر شاربه بالغثيان، غير أن هؤلاء كانوا مضطرين لشربه، ولم يكن طعامهم بأفضل ممّا عليه الشراب.

نقل أحد شرّاح نهج البلاغة أنّ إعرابياً سئل: «أى الحيوانات تأكلون فى البادية؟» قال:

«نأكل كل ما دبّ ودرج الا أم جبين».[۱۰۳]

أمّا التعبير بالحيات الصم، هو أن الحية الصماء أخطر من غيرها لأنّها صماء لا تنزجر بالصوت، أو لعل سمها أخطر.

أما المحور الثالث فقد أشار فيه الإمام عليه السلام إلى أوضاعهم الاجتماعية المزرية وإنعدام الأمن والاستقرار فقال عليه السلام:

«وتسفكون دمائكم»

والتعبير بالمضارع

«تسفكون دمائكم»

كسائر الأفعال فى عبارات الخطبة يفيد استمرار هذه الأوضاع المتفاقمة. والواقع لا تحتاج قضية سفك الدماء المتعارفة بينهم إلى دليل، فسيوفهم تشهر لاتفه الأسباب ليخوضوا أعنف المعارك وأشرسها لشهور بل لسنوات- ولعلنظرة عابرة إلى معاركهم المعروفة بحرب الفجار والتى ستشير إليها لاحقاً تفيد أنّ أولئك الجهال كانوا يخوضون أشرس القتال من أجل أهون الأشياء. وأخيراً أشار عليه السلام إلى المحور الرابع المتمثل بأوضاعهم العاطفية المتردية

«وتقطعون أرحامكم»

ولعل العبارة إشارة إلى قضية وأد البنات ودفنهن أحياءً، حيث كانوا يرون البنت تجر عليهم الخزى والعار، فكان أحدهم يتوارى عن الأنظار خجلًا إذا ولدت له بنت، وهذا ما أشارت إليه الآية ۵۸ و ۵۹ من سورة النحل «وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ* يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۷۴

التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ» وقد لا يكتفى البعض بالاقتصار على هذا القتل على البنات فيعمد إلى قتل ولده خشية الفقر؛ الأمر الذى نهى القرآن عنه بشدّة، فقد نهت عن ذلك الآية ۳۱ من سورة الاسراء «وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيّاكُمْ» بل كان الوالد يقتل ولده والولد والده والأخ أخيه عبثاً، فقد عاشت الرحم فاجعة لم يشهد لها التأريخ مثيل.

ويختتم الإمام عليه السلام كلامه بخلاصة مفاسدهم المعنوية والمادية بالقول

«الأصنام فيكم منصوبة والآثام بكم معصوبة»

. وكأن تعبيره (منصوبة) إلى أنّهم كانوا يفتخرون بهذه الأصنام فينصبونها فى كل مكان فضلًا عن عبادتها والسجود لها. ومعصوبة من مادة عصب (مايربط العضلات بالعظام) إشارة إلى أنواع المعاصى من قبيل سفك الدماء وقتل النفس وقطع الرحم والتعرض للنواميس ونهب الأموال وشرب الخمر والقمار و ... التى اجتاحت عرب الجاهلية وعليه فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارات إلى انحرافاتهم العقائدية والأخلاقية وأزماتهم الاقتصادية والعاطفية ومدى الانحطاط والسقوط الذى بلغوه على هذه المستويات.

تأمّلات

۱- آفاق العصر الجاهلى

ضرورى هو البحث حول العصر الجاهلى والمسائل المختلفة المرتبطة به من أجل التعرف على الإسلام وعظمة النبى صلى الله عليه و آله، فقد سعى المؤرخون لإحصاء المسائل المتعلقة بذلك العصر، وقد أشرنا إلى هذه المسألة فى شرح الخطبة الثانية، وحيث أشار الإمام عليه السلام فى القسم الأول من هذه الخطبة إلى ذلك الموضوع فإننا نرى ضرورة الإشارة إلى بعض الأمور:

أ الحديث طويل فى عقائدهم الخرافية فالوثنية كانت هى الحاكمة والمنصوبة فى جوف الكعبة فهناك أوثان القبيلة والاسرة، ولبعضها أشكال وأخرى دون شكل. من عقائدهم أن الملائكة بنات الله، فى حين ينفرون أنفسهم بشدة من البنات. وينكرون القيامة ويشاورون أصنامهم فى الأمور المهمة، وطريقة ذلك أنهم يكتبون على السهام «افعل» و «لاتفعل»

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۷۵

فيجعلونها مع بعضها ويخرجون واحد منها على أنه الأمر الذى أصدره الوشن. ومن خرافاتهم العقائدية الإيمان بالغيلان وطيور الشؤم والبركة وما إلى ذلك.

ب- على الصعيد الإقتصادى فقد كان يدفعهم الفقر وعلاوة على وأد البنات إلى قتل الأولاد. وأغلب دخلهم كان عن طريق السلب والنهبت، وكان الأغلب وبسوء الوضع الإقتصادى يعيش حافيا شبه عريان، وإن كان لأحدهم لياس متواضع دعا، ذلك للفخر فينشد:

من يك ذابت فهذا بتّى‌مقيّظ مصيّف مشتّ!

ج- على المستوى العاطفى فكفاهم أنهم لم يرحموا أى شىء وذلك بسبب طبيعتهم الوحشية كما يقول ابن خلدون حيث يميلون إلى السلب والتهب ولذتهم بذلك وفخرهم بالقتل- روى أن أحدهم سمع قول النبى صلى الله عليه و آله فى وصف الجنة ونعمها، فسأل هل فيها قتال- قيل: لا.

قال إذن لا خير فيها. قيل فى بعض التواريخ أن الحروب التى نشيت بين عرب الجاهلية بلغت ۱۷۰۰ حرب دام لبعضها مئة عام وتعاقبت عليها الأجيال، وما أكثر الحروب التى كانت تنشب لأتفه الأسباب.

ى- أما على الصعيد الإجتماعى فقد كانت أوضاعهم مزرية بفضل إنتشار الفساد والخمر حتى كان الشراب هو المتبادر إلى الأذهان من التجارة والشجاعة تعنى القتل والغيرة والعفة تعنى وأد البنات- كانوا يعشقون ثلاث: المرأة والخمر والقتال حتى قال شاعرهم:

إذا مت فادفنی إلی جنب کرمةتروی عظامی بعد موتی عروقها

ولا تدفننی فی الفلات فانّنی‌أخاف اذا ما متّ ألّا أذوقها

کانوا یعتقدون بوجوب نصرة الصدیق علی الحق کان أم الباطل. کما کان القمار بارزا عندهم حتی أنهم کانوا یخسرون فیها نسائهم. کان الزنا منتشرا بینهم حتی إشتهر عندهم الزانیات من أصحاب الرایات، وهکذا سائر المفاسد التی لا مجال لإحصائها.[۱۰۴]

نعم هکذا کان العرب وقد أتقدهم الله بالإسلام، فلم ینجو من الخرافات والوثنیة

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۷۶

والعقائد المنحطّة، بل تغیرت حتی أوضاعهم الإجتماعیة والإقتصادیة والعاطفیة وقد صنع من إنسانهم المتوحش مثال الفرد المتحضر الأسوة کمن علی شاکلة أبی‌ذر والمقداد وعمار وبلال.

وتتضح عظمة الإسلام ورسالة النبی صلی الله علیه و آله من هذه المقارنة، أما ظهور آثار الجاهلیة فی عصرنا باشکالها الأوسع والأقسی- بسبب الإبتعاد عن تعالیم الأنبیاء سیما تعالیم نبی الإسلام صلی الله علیه و آله لهی شهادة أخری علی عظمة هذه الرسالة.

۲- شر دار أم خیرها

النقطة الجدیدة بالذکر فی الخطبة المذکورة وصفه لموضع سکن عرب الجاهلیة بشر دار، بینما وصف ذلک العصر فی الخطبة الثانیة بالقول «خیر دار وشر جیران» ولما کان المراد فی العبارتین أرض مکة فیبدو هناک تناقضا، إلا أنّ أدنی تأمل یفید عدم وجود أی تناقض- فأرض مکة ذاتاً مرکزاً لأفضل دار یعنی الشعبة، ولکن بالعرض فإن جمیع هذه الأرض المقدسة حتی بیت الله فقد لوثت بالشرک والوثنیة والمفاسد الأخلاقیة. وعلیه فهی شر دار باعتبار وخیر دار باعتبار آخر.

ج‌ج

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۷۷

القسم الثانی: الصبر المریر

اشارة

«فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَیْسَ لِی مُعِینٌ إِلَّا أَهْلُ بَیْتِی، فَضَنِنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ، وَأَغْضَیْتُ عَلَی الْقَذَی، وَشَرِبْتُ عَلَی الشَّجا، وَصَبَرْتُ عَلَی أَخْذِ الْکَظَمِ، وَعَلَی أَمَرَّ مِنْ طَعْمِ الْعَلْقَمِ».

الشرح والتفسیر

أشار الإمام علیه السلام- فی هذا المقطع من الخطبة- إلی الحوادث التی أعقبت رحیل رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله ولاسیما حادثة الخلافة، ویتطرق إلی السبب الذی دعاه إلی السکوت وعدم المطالبة بحقه المسلّم فی الخلافة، أی خلافة رسول الله صلی الله علیه و آله- والتی کانت فی الواقع حق المسلمین- فقال علیه السلام:

«فنظرت فاذا لیس معین إلا أهل بیتی»

نفحات الولایة ؛ ج۲ ؛ ص۷۷

من الواضح أنّ القیام بالأمر تجاه تلک الطائفة المتحزبة- التی تشهد التواریخ بأنّها خططت للالتفاف علی الخلافة قبل وفاة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله- لا ینسجم وأی منطق؛ لأنّ مثل هذا القیام لیس فقط لا یتمخض عن نتیجة، بل سیؤدی ذلک القیام إلی قتل طائفة

من صفوة أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله، أضف إلى ذلك فان هذه المواجهة قد تقود إلى شق صفوف المسلمين بما يعود بالنفع للمنافقين الذين كانوا يتربصون بالمسلمين مثل هذه الحوادث بعد وفاة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله؛ الأمر الذى جعل الإمام عليه السلام يفضل الصمت والسكوت ومن هنا واصل الإمام عليه السلام خطبته بهذا الشأن فقال:

«وأغضيت ۱۰۵] على

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۷۸

القذى ۱۰۶] وشربت على الشجا[۱۰۷]، وصبرت على أخذ الكظم ۱۰۸] وعلى أمر من طعم العلقم ۱۰۹]».

تأمّلات

۱- الأحداث المريرة بعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله

تشبه هذه العبارات تلك التى وردت فى الخطبة الثالثة المعروفة بالخطبة الشقشقية، بل هى أشد وقعاً منها، وتفيد أنّ الإمام عليه السلام قد قضى ساعات ولحظات غاية فى المرارة إبان تلك السنين- ما يقارب خمس وعشرين سنة- التى قضاها بعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله جليس الدار حين دفع عن حقّه فى الخلافة.

ولم يكن تذمر الإمام عليه السلام كونه لم يتزعم الحكومة، فقد أعلن صراحة عن عدم إكتراثه لهذا الأمر وأشار كراراً إلى أن هذه الخلافة لا تساوى عنده شيء إلّاأن يقيم حقّاً أو يدحض باطلًا، فهى مسؤولية إلهية وليست وسيلة للفخر والمباهاة، وإنّما كان تذمره لأنّه كان يشهد تنصل الأمّة شيئاً فشيئاً عن الإسلام وابتعادها عن القيم واحيائها لسنن الجاهلية حتى حدث ماكان يخشى منه، فقد تسلم معاوية زمام امور الدولة الإسلامية وأصبحت خلافة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ملكية وراثية ليرثها من بعده ولده يزيد الذى ارتكب أفظع الجرائم والجنايات بحق المسلمين وتكشف عبارات الإمام عليه السلام عن مدى الدعايات الشديدة التى مارسها القائمين على شؤون الحكومة من جهة وتهديد الامّة وارعابها من جهة اخرى فى إقصاءه عن حقه المسلم فى الخلافة بحيث لم يكن معه من ينهض بالأمر سوى أهل بيته، فقد نقل المؤرخون عن الإمام عليه السلام أنّه قال:

«لو وجدت أربعين ذوى عزم لقاتلت»[۱۱۰]

والذى يستوحى من عباراته عليه السلام أنّ

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۷۹

المتحمسين لغصب الخلافة لم يكونوا يتورعون حتى عن سفك دماء أهل البيت عليهم السلام، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله:

«فضننت بهم عن الموت»

؛ الأمر الذى يبدو عجيباً ورهيباً للغاية، وان كانت مثل هذه الامور الأخلاقية ليست عجيبة فى عالم السياسة والحكومة! كما يحتمل أن يكون أولئك المتعصبين للخلافة يتربصون الدوائر بذرية الإمام عليه السلام التى كانوا يرون أنّها ستتصدى للخلافة مستقبلًا، فهم يهمون بقتلهم لكى لا تبقى لأهل البيت من باقية تنهض بمسؤولية الخلافة.

أمّا السؤال عن مدى لوعة الإمام عليه السلام وشدة تلك الأيام التى كانت تمر عليه وهو جليس الدار، يتطلع بذهول لتلك الأفعال التى ارتكبت باسم الحكومة الإسلامية من قبيل تحريف العقائد والانحراف فى فهم النصوص والأحكام الإسلامية وتضييع العدالة وبالتالى استبدال الحكومة الإسلامية بالملكية الوراثية كحكومة فرعون وقيصر وكسرى، فالإجابة عليه قد وردت فى الخطبة الثانية والستين من نهج البلاغة التى قال فيها الإمام عليه السلام:

«أما بعد، فان اللّه سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه و آله نذيراً للعالمين، ومهيمناً على المرسلين، فلما مضى تنازع المسلمون الأمر من بعده، فو اللّه ما كن يلقى فى روعى ولا يخطر ببالى أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه و آله عن أهل بيته، ولا أنّهم منحوه عنى من بعده! فما راعنى إلّاانثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدى حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه و آله، فخشيت إن لم أنصر الإسلام، وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به علىّ أعظم من فوت ولا يتكم التى إنّما هى متاع أيام قلائل، يزول منها ماكان، كما يزول السراب، أو كما يتقشع السحاب؛ فنهضت فى تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهنه»

فالإمام عليه السلام كان يشهد آنذاك مشكلتين خطيرتين؛ الاولى ذهاب حقه المسلم فى الخلافة؛ الحق الذى أدى زواله إلى انحرافات عظيمة برزت على الساحة الإسلامية، والثانية تكمن فى الخطر الذى كان محدقاً بالإسلام، والفرصة التى كان ينتظرها تيار النفاق من أجل الاجهاز عليه، فما كان منه عليه السلام إلّاأنّ يعمل بالقاعدة المنطقية العقلائية والشرعية فى تقديم الأهم على المهم عند التزاحم، فسكت على مضض عن حقه فى الخلافة حفاظاً على بيضة الإسلام.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۸۰

۲- هل بايع الإمام عليه السلام الخليفة الأول؟

كثر الكلام بين المؤرخين والمحدثين بشأن موقف الإمام على عليه السلام من خلافة الأول والبيعة التى تمت له فى سقيفة بنى ساعدة. وليس هنالك من اتفاق بين علماء الشيعة والسنة بهذا المجال، فقد صرح الشارح البحرانى أنّ أغلب علماء الشيعة يعتقدون أنّ الإمام على عليه السلام امتنع عن مبايعة الخليفة الأول، وقد انضم إليه عدد من بنى هاشم، إلّاأنّهم اضطروا آخر الأمر لبيعته بعد أن اجبروا عليها. وقيل أنّ أمير المؤمنين على عليه السلام لازم البيت ولم يخرج، فلما رأوا أنّه وحيد تركوه ولم يحملوه على البيعة. أما محدثوا العامة فقد ذهبوا إلى أنّ الإمام عليه السلام قد امتنع عن البيعة ستة أشهر حتى توفت الزهراء عليها السلام فبايع طوعا. وللمرحوم العلّامة السيد شرف الدين صاحب المراجعات تحليل رائع بهذا الشأن، خلاصته أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يؤكد حقه المسلم فى الخلافة ونص النبى صلى الله عليه و آله بالوصية عليه من جانب، ومن جانب آخر أراد أن يفوت الفرصة على المنافقين- الذين كانوا يتربصون الدوائر بالإسلام ويرون السبيل قد تمهد أمام أطماعهم بالقضاء على الدين من خلال الاختلافات بين الأنصار والمهاجرين- فامتنع عن البيعة مدة (ليعلن عن حقه فى الخلافة)، ثم بايع حفظاً للإسلام ودرءاً لخطر المنافقين والمتربصين بالدين.[۱۱۱] وقد وردت بعض العبارات التى تشير إلى هذا المعنى فى الخطبة ۶۲ من نهج البلاغة

«.. فأمسكت يدى حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه و آله فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به على أعظم من فوت ولايتكم ...».

وسنتحدث إن شاء الله بما يناسب المقام حين شرحنا للخطب والرسائل المرتبطة بهذا البحث.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۸۱

القسم الثالث: المساومة السياسية المفضوحة

اشارة

ومنها:

«وَ لَمْ يُبايِعْ حَتَّى شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ عَلَى الْبَيْعَةِ ثَمَناً، فَلا ظَفِرَتْ يَدُ الْبائِعِ، وَخَزِيَتْ أَمانَةُ الْمُبْتاعِ، فَخُذُوا لِلْحَرْبِ أُهْبَتَها، وَأَعِدُّوا لَها عُدَّتَها

فَقَدْ شَبَّ لَظاها، وَعَلا سَناها، وَاسْتَشْعِرُوا الصَّبْرَ فَإِنَّهُ أَدْعَى إِلَى النَّصْرِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى المساومة الفاضحة التى اشترطها عمرو بن العاص على معاوية كثمن للبيعة، فقال:

«ولم يبايع حتى شرط أن يؤتيه على البيعة ثمناً»

. فقد ذكر المؤرخون: لما نزل على عليه السلام الكوفة بعد فراغه من أمر البصرة، كتب إلى معاوية كتاباً يدعوه إلى البيعة، أرسل فيه جرير بن عبداللّه البجلى. فقدم عليه به الشام، فقرأه واغتم بما فيه، وذهبت به أفكاره كل مذهب، وطاول جرير بالجواب عن الكتاب، حتى كلم قوماً من أهل الشام فى الطلب بدم عثمان، فأجابوه ووثقوا له، وأحب الزيادة فى الاستظهار، فاستشار بأخيه عتبة بن أبى سفيان، فقال له: استعن بعمرو بن العاص فانّه من قد علمت فى دهائه ورأيه، وقد اعتزل عثمان فى حياته، وهو لأمرك أشد اعتزالًا؛ إلّاأنّ يثمن له دينه فسيبيعك، فانّه صاحب دنيا. فكتب إليه معاوية «أما بعد، فانه كان من أمر على وطلحة والزبير ماقد بلغك، وقد سقط إلينا مروان بن الحكم فى نفر من أهل البصرة، وقدم علينا جرير بن عبداللّه فى بيعة على، وقد حبست نفسى عليك، فأقبل أذاكرك اموراً لا تعدم صلاح مغبتها، إن شاء اللّه»- فلما قدم الكتاب على عمرو استشار ابنيه: عبد اللّه بن عمرو ومحمد بن عمرو، فقال لهما: ما تريان؟ فقال عبداللّه: قر فى منزلك فلست مجعولًا خليفة، ولا تزيد على أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة. أما ولده

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۸۲

الآخر فقال: الحق بجماعة أهل الشام فلما دخل عمرو بن العاص الاشم، خاطبه معاية قائلًا:

«يا أبا عبداللّه أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذى عصى اللّه وشق عصى المسلمين وقتل الخليفة وأظهر الفتنة وفرق الجماعة وقطع الرحم»[۱۱۲]. فقال له عمرو: من هو؟ قال: على. فقال عمرو بن العاص: «واللّه ما أنت وعلى بجملى بعير ليس لك هجرته ولا سابقته ولا صحبته ولا جهاده ولا فقهه ولا علمه». وواللّه إنّ له مع ذلك لحظاً فى الحرب ليس لأحد غيره، ولكنى قد تعودت من اللّه تعالى إحساناً وبلاءً جميلًا؛ فما تجعل لى إن شايعتك على حربه، وأنت تعلم مافيه من الغرر والخطر؟ قال معاوية: حكمك، فقال عمرو: مصر. فتلكأ عليه معاوية وقال: يا أبا عبداللّه إنى أكره لك أن تتحدث العرب عنك أنّك إنّما دخلت فى هذا الأمر لغرض الدنيا، قال عمرو: دعنى عنك. فأشار عليه عتبة بأن يجيب عمرو، فأجابه وأعطاه مصر.[۱۱۳] جدير بالذكر إنّ مصر كانت فى نفس عمرو بن العاص لأنّه هو الذى فتحها فى سنة تسع عشرة من الهجرة فى خلافة عمر، فكان لعظمها فى نفسه وجلالتها فى صدره، وما قد عرفه من أموالها وسعة الدنيا، لا يستعظم أن يجعلها ثمناً من دينه. أضف إلى ذلك فقد ولاها أربع سنوات على عهد الخليفة الثانى، وأربع اخرى على عهد عثمان حتى عزله. ثم قال الإمام عليه السلام:

«فلا ظفرت يد المبايع، وخزيت أمانة المبتاع»[۱۱۴]

. فالواقع كلامه عليه السلام يتضمن الدعوة ضد المشترى والبائع. نعم صحيح أنّ معاوية قد وفى له بوعده وأعطاه مصر، إلّاأنّه لم يحكمها مدة طويلة بعد أن وافاه الأجل، إلى جانب ما نقل عنه أواخر عمره عن مدى خشيته من عاقبته ومصيره، فلم يذق طعم النصر الذى كان يحلم به. كما أنّ معاوية وإن وطد دعائم حكومته بهذا العمل إلّاأنّها آلت إلى الانهيار المخزى بعد أن انفرج عنه كافة الصحابة من المهاجرين والأنصار والأفراد المشهورين بحسن السمعة من أهل الورع والتقوى ولم يتمحور حوله سوى تلك الثلة التى ورثت العداء للإسلام وسليلى زعماء الجاهلية، فكانوا أعوانه الذين يبطش بواسطتهم الناس ويجرعونهم أبشع غصص القتل والارعاب والتهديد والوعيد. كما يحتمل ألا تكون العبارة من

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۸۳

قبيل الدعاء، بل هى جملة خبرية؛ أى أنّ بيع الدين بالدنيا لا يقود إلى النصر أبداً، بل ستكون الخسارة من نصيب البائع والمشترى؛ الأمر الذى أشارت إليه بعض الآيات القرآنية «أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ»[۱۱۵] والآية «أُولئِكَ الَّذِينَ

اشْتَرَوُا الحَياةَ الدُّنْيا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ»[۱۱۶]. وتعبير الإمام عليه السلام بالأمانة عن حكومة مصر وحقوق أهلها من المسلمين إشارة صريحة إلى أنّ حكومة الامّة وإدارة شؤونها إنّما هى أمانة إلهية لابدّ أن ينهض بعبئها الأخيار الصالحين بغية ضمان مصالح الامّة، وأمّا اولئك الذين يتخذون هذه الحكومة وسيلة لتحقيق مآربهم وأغراضهم الشخصية إنّما يخونون هذه الأمانة الإلهية وهذا ما سيؤدى فى آخر الأمر إلى فضيحتهم وزوال حكمهم.

ومن هنا صرح أغلب المفسرين بأنّ المصداق الوحيد أو المصداق البارز للأمانة الواردة فى الآية الشريفة «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأماناتِ إِلى أَهْلِها»[۱۱۷] إنّما هى الحكومة والولاية. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بحث الامّة على الاستعداد والتأهب لمنازلة العدو

«فخذوا للحرب اهبتها»[۱۱۸]، وأعدوا لها عدتها فقد شبّ ۱۱۹] لظاها[۱۲۰] وعلا سناها[۱۲۱]»

. فالعبارة تفيد أنّ الإمام عليه السلام قد اعتمد كافة الطرق السلمية من أجل وضع حد لذلك النفاق والعداء ولاسيما غدر أهل الشام وحكامهم إلّاأنّ كل ذلك لم يجد نفعاً، فكان حجم التآمر والدسائس يزداد كل يوم، فما كان منه عليه السلام إلّاأن أمر بالتأهب للقاء العدو؛ فقد شبت لظى نيران الأعداء وتصاعدت ألسنتها، ولابدّ من مواجهتها والعمل على اطفائها. كما يشير التأريخ الإسلامى إلى أنّ أعداء الإمام عليه السلام كانوا يسارعون للاستعداد للقتال وقد بعثوا بكتبهم ورسائلهم إلى طلحة والزبير. وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام بالإشارة إلى الصبر بفضله أحد أهم مقومات النصر فقال «واستشعروا

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۸۴

الصبر فإنه أدعى إلى النصر». واستناداً إلى مفردة الاستشعار من مادة (ش ع ر) التى تعنى الثياب الداخلية (فى مقابل الدثار بمعنى الثياب الخارجية) يتضح أنّ الصبر والاستقامة لابدّ أن تسود باطن الإنسان وتمد الإنسان بمعانى الصمود إزاء الحوادث المريرة.

تأمّلات

۱- السياسات الدنيوية لا تعترف بالأصول الأخلاقية

هناك عبارة ما انفكت الألسن ترددها حتى صارت مثلًا، وهى قولهم «الملك عقيم» التى تفيد تنكر السياسة المادية- القائمة على أساس القيم الدنيوية والأنانية والأطماع الشخصية- حتى للقرابة بما فيها الزوجة والولد والوالدين والتضحية بها من أجل تحقيق أهدافها وأغراضها؛ ولاغرو فالساسة لا يرون من قيمة تفوق حفظ مواقعهم، وعليه فمن الطبيعى أن يضحون بالغالى والنفيس ويضربون كل قيمة عرض الحائط من أجل حفظ مصالحهم.

وقوله عليه السلام:

«فضننت بهم عن الموت»

تشير إلى أنّ المتعطشين للخلافة كانوا مستعدين حتى لقتل أهل البيت من بنى هاشم فيما لو استعان بهم الإمام عليه السلام ونهض بالأمر للمطالبة بحقه فى الخلافة. والحديث النبوى المعروف

«حبّك للشىء يعمى ويصم»[۱۲۲]

لأصدق على الرغبة بالجاه والمقام منه على سائر الامور، ونموذج ذلك ماورد فى الخطبة التى نحن بصددها. ويحفل التأريخ بسير أولئك الذين عبروا على كل شىء وسحقوه من أجل الظفر بأهدافهم فى السلطة والرئاسة.

۲- باعة الدين بالدنيا!

تعرضنا إلى حد ما فى البحث السابق إلى مسألة بيه الدين والقيم والمثل المعنوية بالمنافع المادية الرخيصة، ولمسنا نموذج ذلك فى شخصية عمرو بن العاص الذى أشارت إليه الخطبة المذكورة، حيث صرحت بأنّه ومن أجل حكومة مصر ولو لمّدة قصيرة قد باع دينه وقيمه،

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۸۵

وقد أعرب آخر عمره كما أورد ذلك المؤرخون عن مدى ندمه، ولكن حيث لم ينفع الندم وقد اغلقت كافة سبل العودة.

القرآن الكريم من جانبه أشار إلى هذا الأمر بصفته أحد العوامل الرئيسية المؤدية إلى الانحراف ولاسيما بالنسبة للعلماء من عبدة الدنيا. ومن ذلك ما أورده القرآن بشأن فريقاً من علماء بنى اسرائيل- الذين كانوا يبشرون بظهور النبى قبيل انبثاق دعوته على ضوء العلم الذى كان لديهم والأخبار الواردة فى كتبهم (التوراة والانجيل) إلّاأنّهم حرفوا الكلم حين تعرضت بعض مصالحهم المادية للخطر- فقد صرحت الآية ۱۸۷ من سورة آل عمران قائلة:

«وَإِذ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ».

فمن الواضح أنّ القرآن الكريم يذمهم من أجل أنّهم حرصوا على متاع قليل، بل المراد أنّ المتاع المادى- وأن تضمن أرفع المقامات وأكثر الثروات- يبقى قليلًا مقارنة بالمتاع المعنوى «فَما مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا فِى الآخِرَةِ إِلّا قَلِيلٌ»[۱۲۳].

على العموم فانّ كافة الأفراد الذين يقدمون طاعة المخلوق على طاعة الخالق ويؤثرون أطماعهم ومنافعهم على الآخرة ويضربون الأحكام الشرعية عرض الحائط ولا يكترثون للحلال والحرام من أجل تحقيق أهوائهم الشخصية إنّما هم فى زمرة باعة الدين بالدنيا.

ويقابلهم اولئك الأفراد الذين لا يرون فى أعمالهم سوى رضى اللَّه والتسليم لإرادته، وهؤلاء هم الذين وصفهم القرآن بحزب اللَّه الذين لا يرون حتى فى الأهل والقرابة من عائق أمام رضى اللَّه «لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ...»[۱۲۴].

۳- علاقة النصر بالثبات

إن كان النصر يقوم على عدة عوامل، فانّ أحد أهم هذه العوامل هو الصبر، وتبدو الرابطة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۸۶

بين النصر والصبر على درجة من الوضوح بحيث إن الأدباء ومنذ قديم الزمان قد قرنوا الظفر بالصبر «من صبر ظفر». وقد أشار القرآن الكريم صراحة إلى هذه الحقيقة حتى اعتبر أنّ النصر حليف جند الإسلام مهما كان عدد وعدة العدو إذا ما تحلو بالصبر والاستقامة «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً»[۱۲۵]. وهذا هو السبب الذى يكمن وراء انتصار المسلمين فى كافة الغزوات رغم عدم الموازنة والتفاوت الفاحش بين ما عليه الأعداء من عدة وعدد ومعدات وما عليه المسلمين، حيث كانوا يتحلون بالصبر النابع من إيمانهم باللَّه واليوم الآخر.

وهذا ما أكده الإمام عليه السلام فى خطبته اذ قال:

«واستشعروا الصبر فانه أدعى إلى النصر»

. ولا يسعنا هنا إلّاأن نكتفى بهذا المقدار ونوكل المزيد من الكلام إلى الأبحاث القادمة. أما المسألة الجديرة بالذكر فهى أن استشعار الصبر- بمعنى نفوذه إلى عمق النفس البشرية- أو دثاره- بمعنى التحلى به على مستوى الظاهر؛ الأمر الذى يدخل الرعب إلى قلوب الأعداء- إنّما يقود إلى النصر وهزيمة العدو.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۸۷

الخطبة السابعة والعشرون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وقد قالها يستنهض بها الناس حين ورد خبر غزو الانبار بجيش معاوية فلم ينهضوا.

وفيها يذكر فضل الجهاد ويستنهض الناس ويذكر علمه بالحرب ويلقى عليهم التبعة لعدم طاعته.

سند الخطبة وزمانها ومكانها

اشارة

قال ابن أبى الحديد هذه الخطبة من مشاهير خطبه عليه السلام؛ قد ذكرها كثير من المحققين والمحدثين (غير المرحوم الشريف الرضى) ورواها أبو العباس المبرد فى أول (الكامل) وأسقط من هذه الرواية ألفاظاً وزاد فيها ألفاظاً، وقال فى أولها: إنه انتهى إلى على عليه السلام أنّ خيلًا وردت الأنبار[۱۲۶] لمعاوية، فقتلوا عاملًا له يقال له: حسان بن حسان، فخرج مغضباً يجر رداءه، حتى أتى النخيلة، وأتبعه الناس، فرقى رباوة فى الأرض، فحمد اللّه وأثنى عليه وصلى على نبيّه صلى الله عليه و آله ثم قال:

أما بعد فان الجهاد باب من أبواب الجنّة، فمن تركه رغبة عنه، ألبسه اللّه الذل وسيم الخسف»[۱۲۷].

كما أوردها المرحوم الكلينى فى كتابه الكافى فى بحث الجهاد.[۱۲۸]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۸۸

ونقلها صاحب مصادر نهج البلاغة عن عشرة مصادر معروفة قبل المرحوم السيد الرضى ومنها: «البيان والتبيين للجاحظ وعيون الأخبار لابن قتيبة والأخبار الطوال للدينورى والغارات للثقفى والعقد الفريد لابن عبد ربّه والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ...»[۱۲۹]

وعليه فانّ الإمام عليه السلام قد أورد هذه الخطبة فى النخيلة حين اخبر عليه السلام بهجوم سفيان بن عوف الغامدى- والذى عبّر عنه الإمام عليه السلام ب (أخو غامد)- على الأنبار وقتل عامله عليها حسان بن حسان وطائفة من المسلمين وقد نهبوا أموالهم وخربوا بيوتهم دون أن يواجهوا أدنى مقاومة ثم عادوا إلى الشام سالمين. فأمّا أخو غامد الذى وردت خيله الأنبار فهو سفيان بن عوف بن المغفل الغامدى؛ وغامد قبيلة من اليمن، وهى من الازد، أزد شنوءة- واسم غامد عمر بن عبد اللّه بن كعب بن الحارث بن كعب بن كعب بن عبد اللّه بن مالك بن نصر بن الأزد- وسمى غامداً لأنّه كان بين قومه شر فأصلحه وتغمدهم بذلك. قال سفيان بن عوف الغامدى، قال: دعانى معاوية، فقال: إنّى باعثك فى جيش كثيف، ذى أداة وجلادة، فألزم جانب الفرات، حتى تمر بهيت فتقطعها، فان وجدت بها جنداً فأغر عليهم وإلّا فامض حتى تغير على الأنبار، فان لم تجد بها جنداً فامض حتى توغل فى المدائن؛ ثم أقبل إلىّ واتق أن تقرب الكوفة. واعلم انك إن أغرت على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنّك أغرت على الكوفة؛ إن هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترعب قلوبهم وتفرح كل من له فينا هوى منهم، وتدعو الينا كل من خاف الدوائر، فاقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك، وأخرب كل ما مررت به من القرى، واحرب الأموال، فإن حرب الأموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب. قال: فخرجت من عنده فعسكرت، وقام معاوية فى الناس فخطبهم، فقال: أيّها الناس، انتدبوا مع سفيان بن عوف، فانّه وجه عظيم فيه أجر، سريعة فيه أوبتكم إن شاء اللّه- ثم نزل. قال: فو الذى لا إله غيره ما مرت ثالثة حتى خرجت فى ستة آلاف، ثم لزمت شاطئ الفرات، فأغذذت السير حتى أمر بهيت، فبلغهم أنى قد غشيتهم فقطعوا الفرات، فمررت بها وما بها عريب، كأنّها لم تحلل قط، فوطئتها حتى أمر بصند وداء، ففروا فلم ألق بها أحداً، فأمضى حتى أفتتح الأنبار،

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۸۹

وقد نذروا بى، فخرج صاحب المسلحة إلى، فوقف لى فلم أقدم عليه حتى أخذت غلماناً من أهل القرية. فقلت لهم: أخبرونى كم بالأنبار من أصحاب على عليه السلام؟ قالوا: عدة رجال المسلحة خمسمائة، ولكنهم قد تبددوا ورجعوا إلى الكوفة؛ ولا ندرى الذى يكون فيها، قد يكون مائتى رجل، فنزلت فكتبت أصحابى كتائب، ثم أخذت أبعثهم إليه كتيبة بعد كتيبة، فيقاتلهم واللَّه ويصبر لهم، ويطاردهم ويطاردونه فى الأزقة، فلما رأيت ذلك أنزلت إليهم نحواً من مائتين، وأتبعتهم الخيل، فملا حملت عليهم الخيل وأمامها ثلاثين رجلًا، وحملنا ما كان فى الأنبار من الأموال؛ ثم انصرفت، فو اللَّه ما غزوت غزاة كانت أسلم ولا أقر للعيون، ولا أسر للنفوس منها. وبلغنى واللَّه أنّها أرعبت الناس، فلما عدت إلى معاوية، حدثته الحديث على وجهه، فقال: كنت عند ظنى بك، لا تنزل فى بلد من بلدانى إلّاقضيت فيه مثل ما يقضى فيه أميره، وإن أحببت توليته وليتك، وليس لأحد من خلق اللَّه عليك أمر دونى، قال فو اللَّه ما لبثنا إلّايسيراً، حتى رأيت رجال أهل العراق يأتوننا على الابل هرّاباً من عسكر على عليه السلام. وكان اسم عامل على عليه السلام على مسلحة الأنبار أشرس بن حسان البكرى. قال ابراهيم بن عبداللَّه بن قيس كنت مع أشرس بن حسان البكرى بالأنبار على مسلحتها، إذ صبحنا سفيان بن عوف فى كتائب تلمع الأبصار منها، فهالونا واللَّه، وعلمنا إذ رأيناهم أنه ليس لنا طاقة بهم ولا يد، فخرج إليهم صاحبنا وقد تفرقنا فلم يلقهم نصفنا، وايم اللَّه لقد قاتلناهم فأحسنا قتالهم؛ حتى كرهونا، ثم نزل صاحبنا، وهو يتلو قوله تعالى: «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا». ثم قال لنا: من كان لا يريد لقاء اللَّه، ولا يطيب نفساً بالموت، فليخرج عن القرية مادمنا نقاتلهم، فان قتالنا إياهم شاغل لهم عن طلب هارب، ومن أراد ما عند اللَّه فما عند اللَّه خير للأبرار، ثم نزل فى ثلاثين رجلًا، فهممت بالنزول معه، ثم أبت نفسى، واستقدم هو وأصحابه، فقاتلوا حتى قتلوا رحمهم اللَّه، وانصرفنا نحن منهزمين.[۱۳۰]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۹۰

نظرة إلى الخطبة

كما ذكرنا سابقاً فان هذه الخطبة- المعروفة بخطبة الجهاد- من أشهر خطب أميرالمؤمنين عليه السلام التى تدور حول محور الجهاد. فقد استهل الخطبة بشرح أهمية الجهاد ومعطياته والعواقب الوخيمة التى تنتظر الأُمّة فى حالة تركه. ثم عرض باللوم لأهل الكوفة بعد أن تعرض لحملة «سفيان الغامدى» على مدينة الأنبار وشهادة «حسان بن حسان»- العامل الوفى والأمين لأمير المؤمنين عليه السلام على الأنبار- والجرائم التى ارتكبها أهل الشام فى سلب الأموال وهدم البيوت- وفى القسم الثالث من الخطبة إلى ذم أهل العراق آنذاك ثانية والتعلل ببعض الامور بهدف التقاعس عن الجهاد- وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام خطبته ببيان استعداده التام لجهاد العدو وسوابقه المشرقة بهذا الخصوص وفى الختام فهى خطبة ذات تأثير بليغ فى نفوس السامعين، حتى قال الشارح المعروف ابن أبى الحديد بهذا المجال: واعلم أنّ التحريض على الجهاد والحض عليه قد قال فيه الناس فأكثروا، وكلهم أخذوا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام؛ فمن جيد ذلك ما قاله ابن بناتة الخطيب بشأن الجهاد

«.. فانّ الجهاد أثبت قواعد الإيمان، وأوسع أبواب الرضوان، وأرفع درجات الجنان ..»

ثم أضاف: فانظر إليها وإلى خطبته عليه السلام بعين الانصاف، تجدها بالنسبة إليها كمخنث بالنسبة إلى فحل، أو كسيف من رصاص بالاضافة إلى سيف من حديد.[۱۳۱]

ج‌ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۹۱

القسم الأول: الجهاد باب من أبواب الجنّة

اشارة

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَتَحَهُ اللَّهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى وَدِرْعُ اللَّهِ الْحَصِينَةُ، وَجُنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ الذُّلِّ، وَشَمِلَهُ الْبَلاءُ، وَدُيِّثَ بِالصَّغارِ وَالْقَماءَةِ، وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِسْهابِ، وَأُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهادِ، وَسِيمَ الْخَسْفَ، وَمُنِعَ النَّصَفَ».

الشرح والتفسير

لقد تعرضت الخطبة إلى فلسفة الجهاد وبركاته فى عبارات قصيرة ذات عدة معان، إلى جانب الآثار السيئة لترك الجهاد، فقد قال بعد أن حمد اللَّه وأثنى عليه

«أمّا بعد فان الجهاد باب من أبواب الجنّة»

وبالطبع هناك عدة أسباب وردت فى الأحاديث بصفتها «أبواب الجنّة» التى تؤدى إلى نيل الرحمة والفوز بالرضوان والجنّة يكمن أهمها فى الجهاد، فقد ورد فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال:

«للجنّة باب يقال له «باب الجهاد» يمضون إليه فاذا هو مفتوح وهم متقلدون بسيوفهم، والجمع فى الموقف، والملائكة ترحب بهم»[۱۳۲]

. ونعلم أنّ الجهاد فى الإسلام على نوعين: جهاد العدو وجهاد النفس. وقد اصطلح على الأول بالجهاد الأصغر وعلى الثانى بالجهاد الأكبر، وكل منهما باب من أبواب الجنّة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۹۲

ولا يتيسر لقاء اللَّه دون الجهاد الأكبر كما تتعذر العزة والرفعة فى الدنيا والآخرة دون الجهاد الأصغر. ثم قال عليه السلام

«فتحه اللَّه لخاصة أوليائه»

. صحيح أنّ جهاد العدو والنفس يعد وظيفة جميع المسلمين، إلّاأنّ أولياء اللَّه فقط الذين يسعهم خوض غمارهما حتى النهاية على أساس الاخلاص والنية الحسنة، بينما قد تكون نيات الآخرين مشوبة بالطمع ونيل الغنام أو الحصول على الحياة والمنصب والشهرة وبالتالى فهم لا- يواصلون المسيرة إلى آخرها. فأولياء اللَّه فقط الذين يقتحمون الميدان ويصبرون على الأذى فى حركتهم الجهادية فيركعون كافة قوى الشر والظلام.

ونخلص ممّا سبق إلى عدم ورود الإشكال على الإمام عليه السلام فى أنّه خص باب الجهاد بخاصة أولياء اللَّه بينما كتب على جميع المسلمين. كما نفهم من قوله عليه السلام أن من طوى مسيرة الجهاد الأصغر والأكبر فهو من خاصة أولياء اللَّه سبحانه. ثم يصف عليه السلام الجهاد فيقول

«وهو لباس التقوى ودرع اللَّه الحصينة، وجنته الوثيقة»

ونعلم أنّ اللباس زينة للإنسان وجمال له من جانب، ومن جانب آخر فانه حافظ لبدنه من شدة الحرارة والبرودة التى تؤذيه فيما لو كان عرياناً، كما يشكل أساس عزة الأقوام والشعوب ودرعها من أنواع المخاطر والآفات؛ الأمر الذى أكده الإمام عليه السلام فى عباراته اللاحقة.

وأخيراً فالجسد العارى عرضة لأنواع الأذى موصوفاً بالقبح والشناعة، وعليه فالأُمّة التى تولى ظهرها للجهاد هى أُمّة ذليلة مهددة بكافة عناصر الزوال والانهيار. أمّا علة إضافة اللباس للتقوى فى العبارة فلعل ذلك يفيد تعذر حفظ أصول التقوى دون توفر الأمن، كما يتعذر الأمن دون الجهاد. كما يحتمل تفسيرها على أنّها اشارة إلى الآية ۲۶ من سورة الأعراف التى عدت التقوى نعمة الهية بعد ذكر اللباس الظاهر «وَلِباسُ التَّقْوى ذ لِكَ خَيْرٌ».

وبناءً على هذا فالمراد هو أن لباس التقوى الذى ورد فى القرآن إنّما مصداقه الكامل هو الجهاد الذى يجعل المجتمع يعيش الأمن

والأمان على كافة المستويات ۱۳۳] وهو مصدر الحسن والجمال.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۹۳

ثم شبه الإمام عليه السلام الجهاد بالدرع الحصينة والجنّة الوثيقة، والوسيلتان من المعدات الدفاعية فى القتال، حيث لم يكن من أمان لاولئك الذين يخوضون المعارك سابقاً ولم يتدرعوا، وهذا هو حال الامّة التى تترك الجهاد فهى ضعيفة خاوية تجاه ضربات العدو. ولعل هذه العبارة تشير إلى حقيقة وهى أنّ الجهاد لا يراد به الهجوم على الآخرين ومن أجل التوسع والسيطرة ونهب الأموال والثروات وفرض الأفكار والعقائد، لأننا نؤمن بأنّ الإسلام والقرآن إنّما يستند إلى منطق قوى يغنيه عن شهر السيف بوجه المقابل. وعليه فانّما شرع الجهاد من أجل حفظ المجتمع الإسلامى وإزالة الموانع التى تعترض أساليب التبليغ والقضاء على الموانع التى تحول دون حرية البيان.

أمّا الحروب المعاصرة فهى وإن نحت الدروع القديمة إلّاأنّها تعتمد اليوم الوسائل التى تفوقها فى الدفاع من قبيل المدرعات والمصفحات والمواضع المحصنة، كما تلجأ إلى بعض الملابس الخاصة بغية مواجهة الهجمات الكيميائية بحيث لا تتأثر من قريب أو بعيد بخطر هذه الأسلحة.

جدير بالذكر أن ما ذكر بشأن تفسير عبارة الجهاد الأصغر (العدو الخارجى) يصدق تماماً على الجهاد الأكبر (جهاد النفس)؛ حيث لا طاقة للإنسان بهجمات الشيطان دون جهاده لنفسه. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى الآثار السلبية التى يتمخض عنها ترك الجهاد ليوجزها فى سبع نقاط، فقال:

«فمن تركه رغبة عنه ألبسه اللَّه ثوب الذل»

وقوله عليه السلام (رغبة عنه) إشارة إلى استثناء الأفراد من هذا الحكم ممن يمتلكون الأعذار الموجهة التى لا تجعلهم قادرين على خوض الجهاد من قبيل العجز والمرض ونحو ذلك؛ الأمر الذى أكدته بعض الآيات القرآنية.[۱۳۴] الأثر السلبى الثانى لترك الجهاد «وشمله البلاء» فمثل هذا الفرد أو الأمّة إنّما يعتكف فى موضع أعزل يجعله عرضة لحملات الحيوانات المفترسة بحيث تدخل عليه دون أدنى مقاومة، والجهاد وحده هو الذى يشكل السد الحديدى إزاء مثل هذا البلاء فينأى بالإنسان بعيداً عن هذه الحيوانات. أمّا الأثر السلبى الثالث فقد أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله «وديث ۱۳۵] بالصغار[۱۳۶]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۹۴

والقماءة[۱۳۷]» وكيف لا يعيش الذل والهوان والضعة من ضيع هذا السند العظيم؛ أى الجهاد.

وصحيح أنّ العبارتين قريبتان من بعضهما بالمعنى، إلّاأنّ هناك فارقاً طفيفاً، حيث كان الكلام هناك عن الذلة وهنا عن الحقارة والضعة. فالمفهومان مختلفان إلّاأنّها من قبيل اللازموالملزوم. وأمّا المصيبة الأخرى التى تطيل تارك الجهاد فهى

«وضرب على قلبه بالأسهاب»[۱۳۸]

فالأفراد الضعفاء والعجزة والمهزومون إنّما يعانون من الأوهام على الدوام فلا يسعهم تقييم الحقائق كما هى. فخشية العدو تجعلهم يعيشون فى هالة من الخيالات المرعبة، أو أنّهم يلجأون إلى بعض الخرافات من أجل تحقيق النصر كأن يتخلوا عن السيف والمقاومة ويلوذوا بالسحرة والكهنة.

وقد حفل التأريخ بنماذج حيّة لمثل هؤلاء الأفراد، الذين لا يكشفون بذلك سوى عن ضعفهم وعجزهم، بينما يتنزه المجاهدون الشجعان عن مثل هذه السفاسف.

ثم ذكر الأثر السلبى الخامس بقوله عليه السلام

«وأُديل ۱۳۹] الحق منه بتضييع الجهاد»

، وذلك لأنّ الحق- كما ورد فى المثل المعروف- يؤخذ ولا يعطى. فالطواغيت وأصحاب المنطق الغاشم والمستبدون لا يفوضون

الحق لأصحابه أبداً، ولابدّ من التحلى بالقوة من أجل انتزاع الحق من براثن اولئك الطغاة؛ الأمر الذى نوه له الإمام عليه السلام فى الخطبة التاسعة والعشرين بقوله

«لا يدرك الحق الا بالجد»

وأمّا الأثر السلبى السادس «وسيم الخسف» وبالالتفات إلى اطلاق الخسف والخسوف‌على زوال نور القمر والاختفاء فى الأرض، وان «سيم» من مادة «سوم» بمعنى الحركة إثر شىء فان مفهوم الجملة سيكون: أنّ تاركى الجهاد فى الواقع إنّما يسيرون باتجاه الزوال والانقراض؛ الأمر الذى لاحظناه بوضوح فى الأمم والبلدان التى آلت إلى السقوط والانهيار إثر تقاعسها عن الجهاد.[۱۴۰]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۹۵

ثم قال عليه السلام فى إطار ذكره للاثر السلبى السابع

«ومنع النصف»[۱۴۱]

ودليل ذلك واضح؛ لأنّ أتباع العدالة عادة ما يشكلون الأقلية، ولو لم يكونوا كذلك كمية فهم أقلية من حيث الكيفية والقدرة.

ومن هنا فان أصحاب السطوة يندفعون بكل ما اوتوا من قوة لهضم حقوق الشعوب المظلومة ويسعون لمضاعفة ثرائهم وأموالهم. وليس لهذه الشعوب من وسيلة لاستعادة حقوقها وخلاصها من براثن الظلم والاضطهاد وتحقيق العدالة الاجتماعية سوى فى خوض غمار الجهاد. وهنا تكمن أهمية العبارات التى أوردها الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة بشأن الجهاد وفلسفته ومعطياته الايجابية والسلبية فيما لو تخلت عنه الشعوب والامم.

كما يتضح ممّا أوردنا أنّ الجهاد لم يندب بفعل الثواب المعنوى المترتب عليه، بل بسبب الآثار والمعطيات الكبيرة التى يفضى إليها فى هذه الحياة الدنيوية. فهل هناك من يطلب الذل والهوان ويرضى بغصب الحقوق وتضييعها وبالتالى يحث الخطى نحو الزوال والفناء؟! فان كان الجواب بالسلب، كان علينا أن نشدد حيازيمنا ونهب لخوض الجهاد والتحلى بالصبر والاستقامة من أجل درك معطياته العظيمة فى الدنيا والآخرة وتحمل كافة الآلام والمصاعب كاحتمال المريض لمرارة الدواء من أجل التماثل للعافية والشفاء.

تأمّلان

۱- الجهاد سر رفعة الشعوب وعزتها

كثر الكلام بشأن الجهاد، ولدينا المزيد من الكلام بهذا الخصوص طالما توالت خطبه عليه السلام فى نهج البلاغة فى الحديث عن هذه المسألة.

أمّا الشىء المهم الذى نود التطرق إليه بصفته مبدأ حيوياً هو أنّ الجهاد قانون الحياة الذى يمنحها الدوام والبقاء وأنّ الإنسان وكل كائن ينبض بالحياة مازال مقبلًا على الجهاد وبخلافه

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۹۶

يبدأ عده العكسى فى الموت والفناء. فالنبات يواجه عدة آفات يسعى للتغلب عليها من أجل البقاء حياً، وجذور الأشجار هى الاخرى تغوص فى أعماق الأرض من أجل امتصاص الماء والأملاح فاذا ما اعترضت بعض الموانع كالصخور سعت لاختراقها ومواصلة تغلغلها فى أعماق التربة وإن عجزت عن ذلك فتشت عن طريق آخر واستمرت فى مسيرتها. وهكذا الحال بالنسبة للحشرات والحيوانات التى تواجه الأخطار التى تهدد كيانها باستمرار فتبدى مقاومتها من أجل مواصلة حياتها. فهناك بعض الطيور التى تهاجر إلى مسافات شاسعة قد تنطلق من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى مقاومة كافة الظروف المحيطة بغية مواصلة حياتها. أمّا الإنسان فيعيش حركة جهادية مريرة على مستوى أعضائه الداخلية ودورته الدموية، فالجنود التى تدافع عن البدن- والتى يصطلح عليها بكريات الدم البيض-

طيلة عمر الإنسان إنّما تتصدى ببسالة لكافة الأعداء المتمثلين بالمكروبات والفايروسات التى تحاول اختراق بدن الإنسان عن طريق الماء والغذاء والهواء والشقوق التى تحدث فى الجلد.

وقد الهمت هذه الكريات سبل الصمود بوجه كافة الأسلحة الكيميائية والفيزيائية بحيث تبيدها وتبقى على البدن سالماً صحيحاً. فاذا ضعفت هذه الجنود لأىسبب من الأسباب وتقاعست فى وظيفتها هجمت جميع الأمراض على الإنسان، وما المرض الخطير الذى يطلق عليه «الايدز» إلّانتيجة طبيعية لاختلال عمل هذه الكريات وتوقفها عن العمل، ومن هنا فانّ المصابين بهذا المرض الخطير إنّما يكونون عرضة للاصابة بأخطر الأمراض. وزبدة الكلام فان الجهاد رمز الحياة وسر السعادة والسبب الرئيسى للنصر والغلبة وعامل الرفعة والعزة، لكن ليس ذلك سوى الجهاد من أجل تحقيق الحق والعدل وإلّا فليس ذلك سوى الجريمة والظلم والعدوان.

ومن هنا تظافرت الآيات القرآنية والروايات الإسلامية بما فيها الخطبة المذكورة التى أكدت على قضية الجهاد بما لم تول مثل هذه الأهمية لغيره من المفاهيم، ولاسيما الجهاد بالمعنى الأشمل الذى يتضمن الوقوف بوجه العدو الخارجى والداخلى. فقد جاء فى الحديث الشريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«من ترك الجهاد ألبسه اللَّه ذلًا فى نفسه وفقراً فى معيشته

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۹۷

ومحقاً فى دينه»[۱۴۲]

ويستفاد من هذا الحديث أن ترك الجهاد إنّما يهدد بالخطر الحياة المعنوية للإنسان فضلًا عن حياته المادية. وفى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال:

«إغزوا تورثوا أبنائكم مجداً»[۱۴۳]

كما ورد عن أمير المؤمنين على عليه السلام فى قصار حكمه فى نهج البلاغة ضمن إطار بيانه لفلسفة الأحكام الشرعية فقال:

«والجهاد عزاً للإسلام»[۱۴۴]

. وأخيراً فهناك عدة خطب شحن بها نهج البلاغة بشأن الجهاد سنعرض لها فى الأبحاث القادمة.

۲- هل الجهاد الإسلامى دفاعى فقط؟!

منذ سنوات وقد شغل هذا السؤال أذهان الأوساط الإسلامية بما فيها العلماء، فقد ذهبت طائفة إلى أنّ كافة غزوات رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كانت دفاعية حذراً من اتهام الإسلام من أنّه قد انتشر بالسيف ورهبة السلاح! أو بعبارة اخرى خشية اتهام الإسلام بالروح السلطوية والفتوحات العسكرية. وبالمقابل هناك طائفة اخرىترى أنّ الغزوات الإسلامية على قسمين؛ بعضها هجومية وبعضها دفاعية، وترى أنّ هذين القسمين حق ثابت للمسلمين اليوم، وتعتقد أنّ الإسلام موظف بتحرير المسلمين الذين يرزحون تحت نير السلطات الظالمة؛ الأمر الذى يدخل ضمن الجهاد الهجومى، كماترى أنّ الإسلام مكلّف بتمهيد السبيل أمام ممارسة الاعلام المنطقى وإزالة كافة العوائق التى تعترض هذا السبيل ولو اضطر للجوء للقوة وهذا نوع آخر من الجهاد الهجومى. كما هنالك رأى ثالث يقول أنّ طبيعة القتال فى الإسلام هى طبيعة دفاعية، إلّاأنّ المسائل الدفاعية قد تجعل الهجوم ضرورة. مثلًا الدفاع عن المظلومين، أو بعبارة اخرى التدخل الإنسانى وإن كان يبدو ظاهرياً هجوماً إلّاأنّه فى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۹۸

الواقع دفاع عن قوم يرزحون تحت الظلم والاضطهاد، وعليه فالدفاع عنهم ضرورى بالنسبة لكافة الأفراد من أهل الإيمان. والهجوم بالمعنى الثانى- يعنى تمهيد السبيل أمام حرية الأعلام المنطقى وممارسة التبليغات- هو الآخر دفاع تجاه بعض الموانع، فانّ الإسلام يأذن بقتال العدو إذا ما خلق بعض الموانع والعراقيل.

أمّا العبارات التى وردت فى بداية هذه الخطبة إنّما هى دليل واضح على دفاعية طبيعة الجهاد؛ فقد شبه فى موضع باللباس وفى آخر بالدرع وفى ثالث بالجنة، ونعلم بأنّ جميع هذه الامور من قبيل الوسائل الدفاعية. وأمّا العبارات القادمة فقد تضمنت إشارات إلى الهجوم الذى يختزن بعداً دفاعياً، ومن ذلك قوله عليه السلام:

«قلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم»

. ويمكن أن يكون هناك استثناء واحد لهذا القانون الكلى وهو الجهاد والقتال من أجل إزالة الصنمية والوثنية؛ وذلك لأنّ الإسلام يرى فى الوثنية أكبر خطر يهدد المجتمع البشرى من الناحية المعنوية والمادية، فيصرح بالجهاد من أجل القضاء على الوثنية فى حالة عدم جدوى التبليغ.

لاشك أنّ بعض الطغاة والجبابرة سيستغلون مسألة الدفاع عن المظلومين أو مواجهة الانحطاط الفكرى والثقافى كوسيلة للتغطية على أهدافهم العدوانية والتوسعية، إلّاأنّ ذلك لايحد من قيمة هذه المفاهيم أبداً. فاستغلال هذه المفاهيم المقدسة ليس بالشىء الجديد.

وللوقوف على أهداف الجهاد فى الإسلام يمكن مراجعة المجلد الثانى من تفسير الأمثل، الآية ۱۹۳ من سورة البقرة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۹۹

القسم الثانى: الموت كمداً

اشارة

«أَلا وَإِنِّى قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لَيْلًا وَنَهاراً، وَسِرّاً وَإِعْلاناً وَقُلْتُ لَكُمُ اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ، فَوَاللَّهِ ما غُزِىَ قَوْمٌ قَطُّ فِى عُقْرِ دارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا. فَتَواكَلْتُمْ وَتَخاذَلْتُمْ حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الْغاراتُ وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الْأَوْطانُ.

وَ هَذا أَخُو غامِدٍ وَقَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبارَ وَقَدْ قَتَلَ حَسّانَ بْنَ حَسّانَ الْبَكْرِىَّ وَأَزالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسالِحِها، وَلَقَدْ بَلَغَنِى أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَالْأُخْرَى الْمُعاهِدَةِ فَيَنْتَزِعُ حِجْلَها وَقُلْبَها وَقَلائِدَها وَرُعُثَها، ما تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالِاسْتِرْجاعِ وَالِاسْتِرْحامِ ثُمَّ انْصَرَفُوا وافِرِينَ ما نالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلْمٌ، وَلا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ، فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً، بَلْ كانَ بِهِ عِنْدِى جَدِيراً».

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من تلك المقدمة المقتضبة، تطرق إلى نموذج بارز من الافرازات المشؤومة لترك الجهاد فقال عليه السلام:

«ألا وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلًا ونهاراً، وسراً وإعلاناً وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم»

يذكر الإمام عليه السلام بأنّه أشار إلى طبيعة هؤلاء الظلمة المردة الذين ينطوون على الروح العدائية التى تبرز على السطح إذا ما سنحت الفرصة فلا يتورعون عن قتل الأبرياء وسبى النساء ونهب الأموال والثروات، وعليه فان العقل والشرع يجيز الوقوف بوجه هؤلاء الطغاة وقبر مؤامراتهم فى مهدها وكسر شوكتهم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۰۰

وإخماد فتنهم قبل أن يتأهبوا للقتال والعدوان.

ثم يعرض عليه السلام الدليل على ما أورده فقال:

«فواللَّه ما غزى قوم فى عقر[۱۴۵] دارهم إلا ذلوا»

. ومن الواضح أن من يتعرض للهجوم فى عقر داره إنّما يفقد معنوياته ويشعر بالهزيمة والفشل فى نهاية الأمر من جانب آخر فانّ

المهاجم الـذى يتعرض إلى قوم فى عقر دارهم لا يفكر أبـداً فى حفظ حرمة الدار، بل يدمر كل شـىء فيها، أضف إلى ذلك فان مثل هذه الدار تصبح مسرحاً للقتال؛ الأمر الذى يؤدى إلى سـفك دماء من فيها بما فيهم الصبية والنساء، وعليه فان مثل هذه الامور تشكل بمجموعها العناصر التى تؤدى إلى هزيمـة القوم الـذين يتعرضون للهجوم فى عقر دارهم. ومن هنا ورد التأكيد على المقاتلين فى كافة الغزوات الإسـلامية (باسـتثناء بعض الغزوات والمعـارك التى اكتنفتهـا بعض الظروف والملابسـات كمعركـة الأـحزاب) بترك المـدن والتصدى للأعداء خارجها. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة

«فتواكلتم ۱۴۶] وتخاذلتم حتى شنت ۱۴۷] عليكم الغارات وملكت عليكم الأوطان»

. التواكـل يعنى إيكـال كـل فرد عمله إلى آخر، بعبـارة اخرى هـو تخلى الفرد عن مسؤوليته والقائهـا على عـاتق الآـخرين بحيث تخلو الساحـة. والتخاذل يعنى عـدم مد يد العون إلى الآخرين، بما يؤدى فى خاتمة المطاف إلى تصدع عرى الاتحاد، بحيث لا يشـعر العدو بـأى رادع أو مـانع يحول دون شـنه لهجمـاته، وهـذه أحـد أبشع الصـفات التى تسود المجتمعـات البشـرية بحيث يتقاعس كل فرد عن مسؤوليته ويقلدها ربقة الآخرين وينهمك كل فى شؤونه الشخصـية دون أن يوفر الدعم والإسناد لأخيه إذا ما تعرض لحملات الأعداء المسـعورة، فلا يؤدى ذلك سوى إلى تلك النتيجة التى خلص إليها الإمام عليه السـلام فى أنّ العدو سيرى الميدان مفتوحاً أمامه فيشن حملاته- لتسـقط المدينة تلو الأخرى دون أن يجابه بأدنى مقاومة. ثم يستشـهد الإمام عليه السلام بمثال حى متطرقاً إلى واقعة الغامدى فيقول:

«وهذا أخو غامد وقد وردت خيله الأنبار وقد قتل حسان بن حسان البكرى وأزال خيلكم عن

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۰۱

مسالحها»

. ويبـدو أنّ الأنبار كانت منطقـة حدوديـة عراقيـة متاخمـة للشام، لأنّ مسالح جمع مسـلحة تعنى الحدود والثغور- وذلك لأنّ الأسـلحة تجمع هناك لتستخدم فى الدفاع عن الحدود- وقوله عليه السلام:

«أزال خيلكم عن مسالحها»

تفيد اجتياز العدود لهذه الحدود دون مقاومة وقد مرّ علينا شرح ذلك. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى الجنايات التى ارتكبها الغامدى بحق أهل الأنبار من المسلمين والمجاهدين من أهل الكتاب الذين ينبغى الدفاع عنهم من قبل الدولة الإسلامية، فقال عليه السلام:

«ولقـد بلغنى أنّ الرجـل منهم كـان يـدخل على المرأة المسـلمة، والأـخرى المعاهـدة فينتزع حجلها[۱۴۸] وقلبها[۱۴۹] وقلائدها[۱۵۰] ورعثها[۱۵۱] ما تمتنع منه إلّا بالاسترجاع والاسترحام»

، فالإمـام عليه السـلام أشار بوضوح إلى أنّ أحـداً من المسـلمين لم يهب للـدفاع عن هـذه النسوة المسـلمات أو تلك المعاهـدات. أمّا الاسترجاع فقد فسـرّه بعض شـرّاح نهج البلاغة بالبكاء المصـحوب بالعويل فى حين فسره البعض الآخر بكلمة «إنا للّهوإنا إليه راجعون» التى تقال عادة عند النوائب والشدائد التى يتعرض لها الإنسان. ثم قال عليه السلام

«ثُّم انصرفوا وافرين مانال رجلًا منهم كلم ولا أريق لهم دم»

آنذاك يخلص عليه السلام إلى هذه النتيجة

«فلو أن أمراً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندى جديراً»

فقـد كشف الإمام عليه السـلام عن عمق اللوعـة التى كانت تعتلـج فى صـدره مسـتغرباً ما حـدث، كيف يضـعف المسـلمون إلى هـذه الدرجة ولا تهتز لهم قصبة تجاه هذه الحملات المروعة التى أهلكت الحرث والنسل وقد طالت الأموال والأنفس والأعراض، وقد رجع المهاجمون غانمين سالمين دون أن يتكبدوا أية خسارة! أجل لا يسع المسـلم الغيور تحمل مثل هذه الحادثة المأساوية قط، بل لو مات كمداً من جرائها لما كانت عليه من لائمة. والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام لم يفرق بين المرأة المسلمة والمعاهدة لما تعرضت له

من انتهاك الحرمة والتطاول على حليها ووسائلها، كما يكشف عن مدى ضرورة التزام الدولة الإسلامية بالدفاع عن حقوق الأقليات الدينية التى تعيش ضمن المجتمع الإسلامى، مع ذلك فان غرض الإمام عليه السلام كان يكمن فى تصوير عمق

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۰۲

الفاجعة المأساوية. وبالطبع فان هذا الكلام لا يختص بزمان دون آخر، كما لا يقتصر على هجوم جيش معاوية على الأنبار، بل يتضمن قاعدة كلية يجب أن تسود الحياة الإسلامية على الدوام. وكأنّى بالإمام عليه السلام قد خاطب بهذه العبارات كافة المسلمين الذين يتعرضون اليوم لأبشع هجمات الشرق والغرب التى تنوى السيطرة على أموالهم وثرواتهم ومسخ قيمهم وضرورة التصدى لهم والدفاع عن حياض بلدانهم، بحيث لو مات أحدهم غصة وكمداً لما يرتكبه العدو الطامع من جرائم وجنايات لما كان ملوماً بل كان جديراً.

تأمّلات

۱- معادلات الهزيمة والانتصار

لقد أشار الإمام عليه السلام من خلال بصيرته الثاقبة وروحه السامية وخبرته الوافية فى ميادين الحرب والقتال إلى العناصر المهمّة التى تقف وراء الهزيمة والانتصار والتى ينبغى أن يجعلها المسلمون نصب أعينهم من أجل دحر الأعداء والحفاظ على بيضة الإسلام. فقد تطرق الإمام عليه السلام إلى أخلاء الساحة أمام العدو ومنحه الفرصة بشن هجماته بفضلها تشكل أحد عوامل الفشل والانهزام؛ الأمر الذى لا يختلف عليه إثنان وقد خضنا فى تفاصيله سابقاً.

العامل الآخر التواكل (بمعنى وكل كل الأمر إلى صاحبه، أى لم يتوله أحد بل أحاله كل على الآخر). فلو قام كل فرد فى المجتمع بوظيفته ولم يحمل الآخرين مسؤولية أعماله لما كان هناك من مجال للفشل والهزيمة، بينما ليس هنالك من سبيل للهروب من الفشل والهزيمة المنكرة أمام العدو اذا ما تخلى كل فرد عن مسؤولياته ووظائفه وأوكلها إلى الآخرين من أفراد المجتمع.

العامل الثالث التخاذل بمعنى ترك الآخرين ومشاكلهم دون معونتهم ومساعدتهم، فاذا تعرضت منطقة إلى غارة أو غزوة لم تنجدها سائر المناطق. وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى الخطبة ۱۶۶

«أيا الناس! لو لم تتخاذلوا عن نصرة الحق ولم تهنوا عن توهين الباطل لم يطمع فيكم من ليس مثلكم ولم يقو من قوى عليكم».

۲- حماية الأقليات الدينية

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۰۳

لعل البعض يتصور أن قضية احترام الأقليات الدينية التى تعيش فى كنف الإسلام وتكفل بحفظ أموالها وأرواحها إنّما هى شعار لا يرقى إلى العمل والتطبيق، إلّاأنّ أدنى نظرة إلى الفقه الإسلامى فى كيفية تعامله مع أهل الذمة وكلمات المعصومين عليهم السلام بما فيها كلام الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة، تكشف بجلاء أنّ الإسلام يرى نفسه السند والدعم الحقيقى لهم ما دامهم لم ينقضوا العهود ويشهروا السلاح ضد الإسلام والمسلمين، وعليه فأموالهم وأرواحهم محترمة ومحفوظة. فقد أعرب الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة عن بالغ حزنه وأسفه لما تعرضت له المرأة اليهودية أو النصرانية التى تعيش كمواطنة فى المجتمع الإسلامى ولم يفرق بينها وبين المرأة المسلمة قط، ثم ذم أهل العراق ووبخهم على ما أبدوه من ضعف وعجز حيال العدو وعدم الدفاع عن هذه النساء.

۳- الغيرة الدينية

المراد بالغيرة الدينية الحساسية تجاه أى خروج عن مسار الحق والعدل وتجاهل الأحكام الشرعية والتعامل بشدة وصرامة مع هذه الحالة بما يتناسب وحجمها والابتعاد عن اللامبالاة، ويفتقر لهذه الغيرة كل من تعامل ببرود مع هذه الامور ولم يبد أية حساسية تجاهها.

وقد صرح القرآن الكريم بخصوص بعض المقاتلين المؤمنين الذين لا يمتلكون المعدات التى تؤهلهم للاشتراك فى المعارك قائلًا «وَلا عَلى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلّايَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ»[۱۵۲].

فالآية تشير إلى مسألة تجعل الأفراد الذين لا يمتلكون الوسائل المطلوبة فى القتال وتحول دون التحاقهم بصفوف المقاتلين يتحولون إلى دموع غزيرة؛ القضية لا يمكن تفسيرها سوى بالغيرة الدينية. وقد أشارت الخطبة إلى أحد مظاهر هذه الغيرة، حين قال عليه السلام: «فلو أن امرأ مسلما مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندى جديراً»

. فالغيرة تشكل أحد العوامل المهمّة من أجل الدفاع عن حريم القوانين الإسلامية وإحياء الأمر بالمعروف

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۰۴

والنهى عن المنكر. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام عن بعض أصحابه قال: إنّ اللَّه بعث ملكين إلى أهل المدينة ليقلباها على أهلها فلما انتهيا إلى المدينة وجدا رجلًا يدعو اللَّه ويتضرع إليه، فقال أحدهما للآخر: أماترى هذا الداعى فقال: قد رأيته ولكن أمضى لما أمرنى به ربى فقال:

ولكنى لا أحدث شيئاً حتى أرجع إلى ربّى، فعاد إلى اللَّه تبارك وتعالى فقال: يا ربّ إنى إنتهيت إلى المدينة فوجدت عبدك فلاناً يدعوك ويتضرع إليك فقال: إمض لما أمرتك فان ذلك رجل لم يتغيّر وجهه غضباً لى قط.[۱۵۳]

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۰۵

القسم الثالث: الاجتماع على الباطل والفرقة عن الحق

اشارة

«فَيا عَجَباً! عَجَباً- وَاللَّهِ- يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ مِنَ اجْتِماعِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ عَلى باطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ! فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمى: يُغارُ عَلَيْكُمْ وَلا تُغِيرُونَ وَتُغْزَوْنَ، وَلا تَغْزُونَ وَيُعْصَى اللَّهُ وَتَرْضَوْنَ فَإِذا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِى أَيَّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ هذِهِ حَمارَّةُ الْقَيْظِ؛ أَمْهِلْنا يُسَبَّخْ عَنَّا الْحَرُّ. وَإِذا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِى الشِّتاءِ، قُلْتُمْ: «هذِهِ صَبارَّةُ الْقُرِّ أَمْهِلْنا يَنْسَلِخْ عَنَّا الْبَرْدُ! كُلُّ هذا فِراراً مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ فَإِذا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ تَفِرُّونَ؛ فَأَنْتُمْ- وَاللَّهِ- مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ!».

الشرح والتفسير

يتناول الإمام عليه السلام بالتحليل العوامل الاخرى لتقهقر أهل الكوفة وتراجعهم إلى جانب ذمهم ولومهم، بما يوقظ ضمائرهم ويدفع بهم باتجاه الصمود بوجه العدو والحؤول دون تسلله إلى البلاد، فقد قال عليه السلام

«فيا عجباً[۱۵۴] عجباً- واللَّه- يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم»

. إنّما يكون التعجب والاندهاش حيث الامور التى تخرج عن المسار الطبيعى أو تكتنفها العوامل المجهولة أو غير المألوفة؛ الأمر الذى يطالب أنصار الحق ويوازع من إيمانهم القوى بالدفاع والصمود والمقاومة، بينما يقف أتباع الباطل

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۰۶

مكتوفى الأيدى وعدم الدفاع عن الحق لافتقارهم للدوافع التى تؤدى إلى ذلك الدفاع، ومن هنا فاذا شوهد أصحاب الحق يعيشون الفرقة والاختلاف وضعف الإرادة، بينما تحكم الوحدة والأخاء أتباع الباطل، فان ذلك مدعاة للذهول والعجب. فإمام أهل العراق هو

على بن أبى طالب عليه السلام الذى نص رسول اللّه صلى الله عليه و آله على ولايته إلى جانب مبايعته من قبل أهل المدينة ومكة من المهاجرين والأنصار وسائر المسلمين من المناطق الإسلامية، كما كانت دلائل أحقيته من زهد وعلم وفضيلة وعدالة واضحة للجميع، بينما كان إمام الشام معاوية المعروف بطغواه وحبه للجاه والمنصب وسوابقه المشينة فى الإسلام والجاهلية والتى لم تكن خافية على أحد، أفليس من العجب أن يهب أهل الشام لنصرة باطلهم ويقفون بوجه الحق، وينفرج أهل الحق عن الإمام عليه السلام فينقضون ميثاقهم وينكثون بيعتهم؟! ومن هنا اشتد استياء الإمام عليه السلام عليهم فجعل يذمهم ويلومهم، بعد أن جعلوا أنفسهم فى هذه الحالة المزرية

«فقبحاً لكم وترحاً[۱۵۵] حين صرتم غرضاً يرمى، يغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزون ولا تَغزون، ويعصى اللّه وترضون»

. فالواقع يوجز الإمام عليه السلام ما يدعوه لذمهم فى أمر واحد يكمن فى الضعف والتواكل والخذلان إلى الحد الذى يمنح الأعداء الجرأة فى شن الحملات تلو الحملات والغارات تلو الغارات فيسفكون دماء الأبرياء، وليس لهؤلاء من ردود فعل سوى الصمت والسكوت تجاه هذه المجازر المروعة!

ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى دليل آخر دعاه لذم هؤلاء والذى أدى بهم إلى ذلك الضعف والذى يكمن فى التعلل بحر الجو وبرودته التى لا تلعب دوراً فى القتال، فقال عليه السلام:

«فاذا أمرتكم بالسير إليهم فى أيام الحر قلتم هذه حمارة[۱۵۶] القيظ[۱۵۷]؛ أمهلنا يسبخ ۱۵۸] عنا الحر. وإذا أمرتكم بالسير إليهم فى الشتاء، قلتم: هذه صبارة[۱۵۹] القر، أمهلنا ينسلخ ۱۶۰] عنا البرد؛ كل

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۰۷

هذا فراراً من الحر والقر[۱۶۱]، فاذا كنتم من الحر تفرون، فأنتم- واللّه- من السيف أفر!».

وكأنّ الميدان لا يصلح للقتال إلّافى أيّام الربيع وفى ظل الأرض المخضرة والحشائش النظرة والطيور المغردة والمياه المتدفقة، فيدحر الجند أعدائهم بعصا سحرية دون الحاجة إلى العدة والعدد.

وكأن هؤلاء الجهال قد تناسوا تأريخ الإسلام رغم عدم مرور فترة عليه بحيث زحف النبى صلى الله عليه و آله بصحبه من المدينة إلى تبوك بعد أن قطعوا تلك المسافة الشاسعة خلال الصحراء الجرداء وفى ظل حرارة الشمس المحرقة على تلك الرمضاء ولم يكن لديهم ما يكفى من الماء والغذاء، وهكذا تحملوا سائر الصعاب والمعضلات فى الحروب والغزوات ليقفوا كالليوث أمام الأعداء من خصوم الدعوة، ولو كانوا يأتون ما أتى جيش الكوفة ويتعللون بما تعللوا به لما نمت شجرة الإسلام ولا اخضر لها عوداً، بل لم يكتب النصر لأىجيش فى العالم حين يعيش الجنود حالة من الضعف والوهن والجبن، ولم يكن نصيبهم سوى الفشل والهزيمة والذلة والهوان. والواقع أنّ كلام هؤلاء ليشبه ما قاله الكفار والمنافقون من قبل فى صدر الإسلام «لا تنفروا فى الحر» فرد عليهم القرآن بالقول «قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ»[۱۶۲].

فأهل الكوفة كانوا يريدون بهذه الأعذار الواهية التهرب من مواجهة العدو وقتاله، حيث تسرب إليهم النفاق بفعل ضعف ايمانهم بمبادئ الإسلام وإمامهم على بن أبىطالب عليه السلام.

على كل حال فانّ المجاهدين الحقيقيين الذين يقتحمون الميدان ويخوضون غمار الجهاد ويسطرون الانتصارات إنّما هم اولئك الذين لا يبالون بمصاعب الطقس والمناخ ولا يكترثون إلى مشاكل الطريق وتحمل العناء فى هذا المجال، وممّا لاشك فيه ان العدو اذا شعر بأنّ خصمه يتحفظ عن القتال بسبب بعض المشاكل الطبيعية من قبيل حرارة الجو وبرودته فانّه سيستغل هذا الأمر كنقطة ضعف ويوظفها لصالحه بشن الحرب أملًا بتحقيق الانتصار.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۰۸

تأمّل: علة هذا الذم

إنّ أدنى نظرة إلى كلام أمير المؤمنين على عليه السلام فى هذه الخطبة تثير السؤال التالى: لم كل هذا الذم من الإمام عليه السلام لأهل الكوفة حتى خاطبهم لاحقاً

«لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم معرفة واللَّه جرت ندماً وأعقبت سدماً، قاتلكم اللَّه لقد ملأتم قلبى قيحاً وشحنتم صدرى غيظاً وجر عتمونى نغب التهام أنفاساً، وأفسدتم على رأيى ...»

. ولعل أدنى نظرة إلى تأريخ الكوفة وأهلها ونقض المواثيق ونكث البيعة والنفاق والضعف والوهن الذى سادها تفسر لنا فلسفة هذا الذم القاسى والشديد. وكأنّ الإمام عليه السلام سلك السبيل الأخير الذى من شأنه علاج مرضهم العضال حيث لم تعد لهم حساسية تجاه أى شىء، فقد لجأ الإمام عليه السلام إلى هذا الاسلوب لعله يثير ما تبقى لديهم من مشاعر وأحاسيس تجاه عدوهم، وقد أثبتت الدراسات أنّ هذا الاسلوب عملى جداً تجاه بعض الأفراد من الناحية النفسية. فهذه الكلمات فى الواقع تشير إلى مدى اليأس من تلك العناصر الضعيفة الهزيلة التى لم تجد معها النصائح والمواعظ أية فائدة.

بل الأعجب من ذلك أنّ كل هذه الكلمات اللاذعة لم تتمكن من إثارة يقظة وجدانهم، بحيث لم يلتحق به إلّاالنفر القليل حين تجهز للقاء الأعداء، ممّا اضطره إلى دعوة اولئك الأفراد الذين كانوا يقطنون القرى والمناطق المتاخمة لأطراف الفرات ويعبئها للقاء العدو. ولعل حالة أهل الكوفة تشبه إلى حد بعيد تلك الحالة التى سادت بنى اسرائيل حين حرضهم نبيّهم موسى عليه السلام على قتال عدوهم وتحرير بيت المقدس، فقد ردوا عليه بالقول: «قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبّارِينَ وَ إِنّا لَنْ نَدْخُلَها حَتّى يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنّا داخِلُونَ ... فَاذهَبْ أَنْتَ وَرَبُّکَ فَقاتِلا إِنّا هٰهُنا قاعِدُونَ»[۱۶۳]

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۰۹

القسم الرابع: إدماء القلب

اشارة

«يا أَشْباهَ الرِّجالِ وَلا رِجالَ! حُلُومُ الْأَطْفالِ، وَعُقُولُ رَبّاتِ الْحِجالِ! لَوَدِدْتُ أَنِّى لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً- وَاللَّهِ- جَرَّتْ نَدَماً، وَأَعْقَبَتْ سَدَماً، قاتَلَكُمُ اللَّهُ لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِى قَيْحاً وَشَحَنْتُمْ صَدْرِى غَيْظاً وَجَرَّعْتُمُونِى نُغَبَ التَّهْمامِ أَنْفاساً، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَىَّ رَأْيِى بِالْعِصْيانِ وَالْخِذْلانِ حَتَّى لَقَدْ قالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ ابْنَ أَبِى طالِبٍ رَجُلٌ شُجاعٌ وَلَكِنْ لا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ. لِلَّهِ أَبُوهُمْ! وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَها مِراساً، وَأَقْدَمُ فِيها مَقاماً مِنِّى؟ لَقَدْ نَهَضْتُ فِيها وَما بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ، وَها أَنا ذا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَى السِّتِّينَ وَلَكِنْ لا رَأْىَ لِمَنْ لا يُطاعُ!».

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بصب جام غضبه على أولئك الأفراد الضعاف الذين تواكلوا وتقاعسوا عن إداء وظائفهم عله يثير حفيظتهم فيلتفتوا إلى عظم المخاطر التى كانت تتربص بهم، ولاسيما أهل الشام الذين كانوا يشنون عليهم الغارات تلو الغارات دون أن يتورعوا عن سفك دمائهم وانتهاك حرماتهم وسلب أموالهم، حيث بالغ عليه السلام هذه المرة فى ذمهم فخاطبهم قائلًا:

«يا أشباه الرجال ولا رجال»

يامن يعيشون آمال الأطفال فيسرع فيهم الخداع

«حلوم ۱۶۴] الأطفال»

ويامن يحملون عقول ربات الحجال من العرائس اللائى لا يفكرن سوى برغد العيش ووسائل الزينة

«وعقول ربات ۱۶۵] الحجال ۱۶۶]»

فقد وبخهم الإمام عليه السلام فى العبارة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۱۰

الأولى بعدم امتلاكهم الشجاعة والحمية والغيرة والمروءة والرجولة التى كانوا يتمتعون بها ظاهرياً ولم يكن لهم من معانيها شيئاً على مستوى العمل. ثم اندفع فى ذمهم أكثر ليخاطبهم بقوله:

«لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم معرفة- واللَّه- جرت ندماً وأعقبت سدماً»

. فالتأريخ يشهد بأنّ ثمرة علاقة أهل الكوفة والعراق بالإمام عليه السلام طيلة فترة خلافته لم تكن سوى الهم والغم الذى تمخض عن ضعفهم ونقضهم العهود وتفرقهم عن الحق وتلبسهم بالنفاق والرياء، فكان من الطبيعى أن يتمنى الإمام عليه السلام عدم رؤيتهم والتعرف عليهم، حتى دعا عليهم

«قاتلكم اللَّه ۱۶۷] فقد ملأتم قلبى قيحاً وشحنتم صدرى غيظاً وقد جرعتمونى الهموم غصة بعد غصة، فجعلتمونى غرضاً لسهام الأعداء، حتى ذهبت بهم المذاهب أنى رجل شجاع، بينما ليست لى من دراية بالحرب «قاتلكم اللَّه لقد ملأتم قلبى قيحاً وشحنتم صدرى غيظاً وجرعتمونى نغب ۱۶۸] التهمام ۱۶۹] أنفاساً، وأفسدتم على رأيى بالعصيان والخذلان حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبى طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب»

. عادة ما تعزى الامم والشعوب ضعفها وتخلفها وفشلها إلى قلّة تدبير زعمائها، بينما قد تكون القضية بالعكس؛ أى أنّ الزعيم شخصية كفوءة بينما تعيش الأمّة حالة من التخلف الفكرى والثقافى والاجتماعى؛ الأمر الذى يعتبر مأساة حقيقية بالنسبة للزعيم والقائد الناجح الذى يبتلى بمثل هذه الجماعة المسلوبة الإرادة، وممّا يؤسف له أنّ مسؤولية النتائج المريرة التى تفرزها طبيعة هذه المسيرة قد يلقيها الناس على عاتق ذلك الزعيم.

ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالرد على قريش التى‌تخرصت بعدم علم الإمام عليه السلام بفنون القتال والحرب رغم شجاعته وبسالته:

«للَّه ۱۷۰] أبوهم وهل أحد منهم أشد لها مراساً[۱۷۱] وأقدم فيها مقاماً منى»

. فقد اقتحمت

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۱۱

ميادين الحرب وأنا ابن العشرين وها أنا ذا أخوض غمارها وقد ناهزت الستين من عمرى (وعليه فقد مارست تجربة ضخمة فى الحروب كقائد لمدّة أربعين سنة) ولكن ماذا عسانى أن أفعل وليس هنالك من يطيع

«لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرفت ۱۷۲] على الستين! ولكن لا رأى لمن لا يطاع».

تأمّلات

۱- الاتباع الطلحاء والقادة الأكفاء

لاشك أنّ معادلات الهزيمة والانتصار ليست عبثية، وأنّ اولئك الذين ينسبون النصر أو الهزيمة إلى بعض الأسباب المجهولة والعوامل الغامضة من قبيل المصادفة والحظ إنّما يسعون للقرار من الحقائق المريرة والابتعاد عن تحليلها والوقوف على كنهها. وعادة ما تذهب التحليلات إلى أنّ العامل الأصلى الذى يكمن وراء النصر والهزيمة إنّما يتمثل بقدرة القيادة وحكمتها فى إدارة شؤون الأمّة، بينما تكون القضية معكوسة فى بعض الحالات، فقد تتحلى القيادة بالقوة والاقتدار وارتفاع المعنوية والاحاطة بفنون الإدارة والتعامل مع الاحداث؛ الأمر الذى يفيد بما لا يقبل الشك أنّ العنصر الذى يقف وراء الهزيمة إنّما يتمثل بالاتباع الضعفاء الذين لا يتحلون بالارادة

إلى جانب سذاجتهم وقلّة تجربتهم بما يجعل من المتعذر عليهم مواكبة قيادتهم فى ادراك الأهداف فضلًا عن تطبيقها فى الواقع، وهنا تتلاشى قدرة الزعيم الكفوء فى ظل فساد وانحراف مثل هؤلاء الأتباع؛ الأمر الذى يؤرق فكر القائد ويقض مضجعه. وهذا هو السر فى تلك الكلمات الشديدة التى أطلقها الإمام عليه السلام بحق أهل الكوفة، فقد بلغت الفرقة والشقاق والنفاق حداً جعل حتى أصحاب الإمام عليه السلام- فضلًا عن أعدائه- من اولئك الذين شهدوا بطولات الإمام عليه السلام وصولاته فى الغزوات الإسلامية يتهمونه بعدم العلم بفنون القتال! فما كان منه عليه السلام إلّاأن ذكرهم بتأريخه المشرق ومواقفه المشهورة التى تنكفى فيها

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۱۲

الأبطال؛ لقد نهضت بأمر القتال ولم أبلغ العشرين وقد ذرفت الآن على الستين، فكيف اتهم بعدم العلم بالحرب؟ نعم قد بليت باتباع بعيدين عن الانضباط من أهل الهوى والطيش الذين يتصرفون على ضوء ما تمليه عليهم أهوائهم، وعليه فليست هنالك من نتيجة سوى الهزيمة والفشل. وأفضل شاهد على ذلك النتيجة المريرة لمعركة صفين والخدعة التى عمد إليها معاوية وعمرو بن العاص فى حمل المصاحف على أسنة الرماح، والأنكى من كل ذلك قضية التحكيم وترشيح أبى موسى الأشعرى وفرضه على الإمام عليه السلام. فيكاد يجمع الجميع اليوم بما فيهم المحققون وغيرهم أنّ النصر أصبح قاب قوسين أو أدنى فى صفين لولا حالة النفاق والفرقة والعصيان التى دبت فى جيش الإمام عليه السلام ولما وقعت تلكالأحداث التى سود بها الأمويون وجه التأريخ ومن هنا تعتبر موقعة صفين من أقسى الأحداث التى شهدها التأريخ الإسلامى وبالذات سيرة الإمام على عليه السلام. وليت ذلك الأمر اقتصر على زمان على عليه السلام، بل مازال هنالك اليوم الكثير من الجهال الذين يشككون فى السياسة الحربية لأمير المؤمنين عليه السلام وكيفية إدارة شؤون البلاد، وما هذا إلّادليل صارخ على عمق مظلومية الإمام عليه السلام، الإمام عليه السلام الذى جعل التأريخ يدين بالفضل لذلك العهد العظيم الذى عهده لعامله على مصر مالك الأشتر فى كيفية إدارة شؤون البلاد، فما زالت مبادئه وأسسه قائمة فاعلة رغم مرور أربعة عشر قرناً عليه، ليكون ذلك العهد مصداقاً لقوله سبحانه «كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ* تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها»[۱۷۳]. فقد أذعن العدو والصديق لعمق الأصول والتعاليم التى أوردها الإمام عليه السلام فى نهج البلاغة والتى تمثل عمق سياسة الإمام عليه السلام، مع ذلك ينبرى هذا وذاك من الحين إلى الآخر لاتهام الإمام عليه السلام. وقد أشار الإمام عليه السلام فى عدة مواضع إلى هذه الحقيقة المريرة المتمثلة بالغدر والخيانة ونقض العهود والمواثيق. فقد خطبهم عليه السلام بعد حادثة الأنبار وغارت أهل الشام قائلًا:

«واللَّه ما تكفوننى أنفسكم فكيف تكفوننى غيركم إن كانت الرعايا قبلى لتشكوا حيف رعاتها واننى اليوم لأشكو حيف رعيتى كأننى المقود وهم القادة أو الموزوع وهم الوزعة»[۱۷۴]

. كما قال عليه السلام فى موضع آخر:

«اريد أن أداوى بكم وأنتم دائى»

، ثم شكاهم عليه السلام بالقول:

«اللّهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوى وكلت النزعة بأشطان

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۱۳

الركى! أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه وقرأوا القرآن فأحكموه وهيجوا إلى القتال فولهوا وله اللقاح إلى أولادها»[۱۷۵].

۲- الإجابة على سؤال

لقد أثار بعض شرّاح نهج البلاغة سؤالًا وهو: هل كانت تلك السياسة التى انتهجها الإمام عليه السلام ازاء الأمّة (بتلك الشدة والحدة من الذم واللوم) صائبة؟ ألم تكن تدعو تلك الكلمات الأفراد إلى النفرة والشعور بالغربة والعزلة؟ ويبدو هذا الإشكال أعمق وأرسخ

إذا أخذنا بنظر الاعتبار مدى صبر الإمام عليه السلام وحلمه وعفوه وصفحه، فكيف ارتضى الإمام عليه السلام مخاطبتهم بتلك الكلمات؟ ويتضح الجواب على هذا السؤال من خلال ما ذكرناه سابقاً من أن ذلك الاسلوب كان يمثل الوسيلة الأخيرة التى من شأنها إثارة عواطف الأمّة وتفعيل حركتها ونشاطها واخراجها من حالة الضعف والوهن التى كانت تسيطر عليها، ولعل ذلك الاسلوب يشبه ما تعارف لدى عوام الناس حين تعجز عن اصلاح أحدهم فتقول لابدّ من العمل بما يثير غيرته ويوقظ ضميره. وعليه فان تلك الكلمات تكشف بدورها عن بلاغة الإمام عليه السلام فى ايراده الكلام الذى ينطبق ومقتضى الحال. وهنا لا ينبغى أن ننسى بأنّ الإمام عليه السلام عمد إلى ذلك الاسلوب بعد أن مارس كافة الطرق من قبيل حثهم على الجهاد وتذكيرهم بالقيم والمبادئ، واطرائهم والثناء عليهم- وعليه يبدو من المستبعد رأى بعض شرّاح نهج البلاغة[۱۷۶]، من أن الإمام عليه السلام أورد ذلك الكلام على ضوء

«لا يزيدنى كثرة الناس حولى عزة ولا تفرقهم عنى وحشة»

؛ لأنّ الكثرة المقتدرة فى الحروب والمعارك مطلوبة ولا يسع أحد بمفرده أن يهب القتال جيش جرار طمعاً بتحقيق النصر.

۳- سؤال آخر

لقد قال الإمام عليه السلام فى الخطبة المذكورة

«لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۱۴

قد ذرفت على الستين» فيقتدح إلى الذهن هذا السؤال: كان لعلى عليه السلام على الأقل ثلاث وعشرين عاماً حين الهجرة، واننا لنعلم بأنّ المعارك الإسلامية وقعت بعد الهجرة، فكيف ينسجم هذا الأمر وما ذكره الإمام عليه السلام ونقول فى الجواب صحيح أنّ الحروب والمعارك وقعت فعلياً بعد الهجرة، إلّاأنّ السنوات الأخيرة من الدعوة فى مكة قد شهدت تصعيداً فى مجابهة النبى صلى الله عليه و آله بما لا يقل شيئاً عن إعلان حالة الحرب. ونموذج ذلك محاصرة بيت النبى صلى الله عليه و آله من قبل كافة رجالات قريش حين بات الإمام عليه السلام على فراشه لينجو رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بنفسه، كما صرحت بعض التواريخ بأنّ المشركين كانوا قد أعدوا قبل ذلك بعض الخطط لقتل النبى صلى الله عليه و آله؛ الأمر الذى كان يثير قلق أبى طالب. حتى أورد صاحب البحار أنّ صبية المشركين كانوا يرمون رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بالحجارة حين يخرج من بيته فى مكة، فكان على عليه السلام يدافع عنه وينقض عليهم فيولون هاربين ۱۷۷].

فالواقع تشير مثل هذه الأحداث وما شابهها أنّ العهد المكى كان يعيش حالة الحرب رغم عدم نشوبها بصورة فعلية حيث كان المسلمون يشهدون أذى الكفار باستمرار، الأمر الذى كان يتطلب بعض التدبير والتفكير من أجل كسب المعركة.

ولعل قوله عليه السلام:

«نهضت فيها وما بلغت العشرين»

- الذى ورد فى الخطبة- إشارة إلى التأهب للحرب لا لنشوب الحرب.

۴- الخاتمة المريرة للواقعة

ذكر بعض شراح نهج البلاغة أن علياً عليه السلام حين اخبر عن غارة أهل الشام وقتلهم لعامله فخطب الناس.

ثم سكت عنهم رَجَاء أن يجيبوه أو يتكلم منهم متكلم، فلم ينبِس أحدٌ منهم بكلمة، فلما رأى صْيتَهم نزل، وخرج يمشى راجلًا حتى أتى النُّخَيْلة، والناس يمشون خَلْفَه حتى أحاط به قوم من أشرافهم، فقالوا: ارجع يا أميرَالمؤمنين ونحن نكفيك، فقال: ما تَكْفوننى ولا

تْفُون

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۱۵

أنفسكم. فلم يزالوا به حتى صرفوه إلى منزله، فرجع وهو اجم كئيب، ودعا سعيدبن قيس الهمْدانىّ، فبعثه من النُخَيلة فى ثمانية آلاف، وذلك أنّه أخبر أنّ القوم جاءوا فى جمع كثيف.

فخرج سعيدبن قيس على شاطئ الفُرات فى طلب سفيانبن عوف؛ حتى إذا بلغ. عانات، سرّح أمامه هانئبن الخطاب الهْمدانىّ، فاتبع آثارهم حتى دخل أدانِىَ أرض قِنّسرين وقد فاتوه، فانصرف.

وأتاه قوم يعتذرون، فقام حُجْربن عدىّ الكندىّ وسعيدبن قيس الهَمْدَانىّ، فقالا: لا يسوءك اللّه يا أميرالمؤمنين، مُرْنَا بأمرك نتبعه، فواللّه ما نَعظم جَزَعاً على أموالنا إن نفدت، ولا على عشائرنا إن قُتِلتْ فى طاعتك. فقال: تجهَّزوا للمسير إلى عدوّنا.

فلما دخل منزله ودخل عليه وجوه أصحابه، قال لهم: أشيروا علىّ برجل صَلِيب ناصح، يحشر الناس من السواد. فقال له: سعيدبن قيس: يا أميرالمؤمنين، أشير عليك بالناصح الأريب الشجاع الصليب، معقِلبن قيس التميمى، قال: نعم.

ثم دعاه فوجهه، فسار فلم يقدم حتى أصيب أميرالمؤمنين عليه‌السلام ۱۷۸].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۱۷

الخطبة[۱۷۹] الثامنة والعشرون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وهو فصل من الخطبة التى «الحمد للّه غير مقنوط من رحمة»

وفيه احد عشر تنبيها

نظرة إلى الخطبة

هذه من الخطب المعروفة لأمير المؤمنين على عليه السلام، وهى كما ذهب الشيخ المفيد فى الإرشاد من خطبه الخالدة التى حفظها أرباب الفهم والعقل، أو كما قال السيد الرضى: إنّه لو كان كلام يأخذ بالأعناق إلى الزهد فى الدنيا ويضطر إلى عمل الآخرة، لكان هذا الكلام وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال وقادحاً زناد الاتعاظ والازدجار. فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة القصيرة- والتى يراها بعض المحققين جزءاً من الخطبة الخامسة والعشرين- إلى عشرة جوانب مهمّة بشأن الآخرة والزهد فى الدنيا وعدم الاغترار بنعم الدنيا وزبرجها والاستعداد والتأهب للدار الآخرة، والتحذير من الأخطار التى تهدد سعادة الإنسان- فالحق أنّ الخطبة من الخطب العظيمة التى تسوق الإنسان إلى الزهد فى الدنيا وعدم الإكتراث لزخرفها والانتباه إلى الآخرة، وقد انطوت على عبارات واضحة صريحة توقظ الإنسان من غفلته ورقدته.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۱۹

القسم الأول: الدنيا والآخرة عند الإمام على عليه السلام

اشارة

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا أَدْبَرَتْ، وَآذَنَتْ بِوَدَاعٍ وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ، وَأَشْرَفَتْ بِاطِّلاعٍ، أَلا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمارَ وَغَداً السِّباقَ وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ

وَالْغايَةُ النَّارُ؛ أَ فَلا- تائِبٌ مِنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَنِيَّتِهِ أَلا عامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ! أَلا وَإِنَّكُمْ فِي أَيَّامِ أَمَلٍ مِنْ وَرائِهِ أَجَلٌ، فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ. فَقَدْ نَفَعَهُ عَمَلُهُ وَلَمْ يَضُرُّهُ أَجَلُهُ. وَمَنْ قَصَّرَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ فَقَدْ خَسِرَ عَمَلُهُ وَضَرَّهُ أَجَلُهُ».

الشرح والتفسير

أشرنا سابقاً إلى أنّ الإمام عليه السلام تطرق إلى عشرة امور مهمّة فى هذه الخطبة الغرّاء لدفع الناس باتجاه الزهد وعدم الاغترار بزخارف الدنيا؛ فقد ورد فى الأخبار- كما أثبتت ذلك التجربة طيلة التأريخ- أنّ حبّ الدنيا رأس كل خطيئة، وعليه فانّ عدم الإكتراث لهذه الدنيا والزهد فيها يمثل الخطوة الاولى المهمة لإصلاح النفوس ومواجهة الفساد الفردى والاجتماعى.

فقد استهل الإمام عليه السلام كلامه بتصدر الدنيا ووداعها لأهلها

«أما بعد فان الدنيا قد أدبرت، وآذنت ۱۸۰] بوداع»

. وهنا يطرح هذا السؤال: كيف آذنت الدنيا بالأدبار والوداع؟ هناك الشواهد والأدلة الحيّة على هذا الأمر ومن ذلك قبور الماضين التى تضم بقايا رفات وعظام الملوك والسلاطين والحكام والأمراء والكهول والفتيان والصبيان، والأظهر المحدودبة للكهول

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۲۰

واشتعال الرأس شيباً والأمراض الفتاكة التى تودى بحياة الأفراد، حقاً لقد أصيبت الدنيا بالصمت والسكوت، إلّاأنّه مازالت تتحدث بلسان العبرة! وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى احدى خطبه

«فكفى واعظاً بموتى عاينتموهم، حملوا إلى قبورهم غير راكبين وانزلوا فيها غير نازلين، فكأنهم لم يكونوا للدنيا عماراً وكأن الآخرة لم تزل لهم داراً».[۱۸۱]

ثم أشار عليه السلام فى النقطة الثانية إلى موضوع إقبال الآخرة

«وإن الآخرة قد أقبلت، وأشرفت باطلاع»[۱۸۲]

. إنّ الموت يعد المنزل الأول من منازل الآخرة والذى يبتلع أبناء الدنيا، وهذا بدوره من علامات إقبال الآخرة. ومن هنا فقد أوصى الإمام عليه السلام الجميع بالاستعداد إلى الآخرة ومغادرة الدنيا والتزود لتلك الدار المحفوفة بالخطر قبل فوات الأوان. وذكر عليه السلام فى النقطة الثالثة بالرابطة القائمة بين دارى الدنيا والآخرة فقال

«ألا وإن اليوم المضمار[۱۸۳] وغداالسباق ۱۸۴] والسبقة الجنّة والغاية النار»

فقد شبه عليه السلام بهذه العبارة الرائعة الإنسان بالخيال الذى يخوض السباق، فمن الواضح أنّ مثل هذا الإنسان وعلى غرار الخيال يحتاج إلى التمارين والتدريبات المسبقة، حيث تصطلح العرب بالمضمار على الموضع أو الزمان الذى يضمر فيه الحيوان، بل يطلق على الحيوان الذى ينحف إثر التمارين لا على كل حيوان كما صرح الراغب فى المفردات. آنذاك يبدأ السباق الذى يتضمن الفوز والخسارة وتسلم الجوائز من قبل الفائزين. فالإمام عليه السلام يرى الدنيا ميدان التأهب والاستعداد والآخرة ميدان السباق والجوائز، وسوف تكون جائزة الفائزين الجنّة ونصيب الخاسرين النار. ومن البديهى أنّ أحداً لا يسعه التمرين فى ميدان السباق، بل عليه أن يتمرن ويعد نفسه قبل السباق؛ وهكذا الحال فى المحشر،

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۲۱

فليس هنالك من مجال للحسنات والتوبة من السيئات وتهذيب النفوس وتطهيرها، ولابدّ من إعداد هذه الامور فى الحياة الدنيا. وعليه فلا ينبغى أن ينسى الأفراد هذه الحقيقة وهى إن عدم التزود فى الدار الدنيا والتأهب الروحى والمعنوى فانّ النتيجة النهائية للسباق فى الآخرة لن تكون سوى الفشل والخيبة والخسران التى تعنى هناك نار جهنم. والجدير بالذكر هنا أنّ الفائزين هناك يتفاوتون فى الدرجات، فهناك الفائز الأول والثانى والثالث وهكذا؛ الأمر الذى يتجسد بوضوح فى عالم الآخرة ودرجاتها. فيتضح ممّا تقدم أنّ السباق بمعنى المسابقة والسبقة بمعنى الهدف والغاية التى ينبغى للمتسابق أن يصل إليها، والسبقة على وزن لقمة بمعنى الجائزة وقد

علق المرحوم السيد الرضى (ره)- فى ذيل هذه الخطبة كما سيأتى- على تعبير الإمام عليه السلام:

«والسبقة الجنّة والغاية النار»

فقال: لم يقل عليه السلام السبقة النار كما قال السبقة الجنّة؛ لأنّ الاستباق إنّما يكون إلى أمر محبوب، وغرض مطلوب، وهذه صفة الجنّة وليس هذا العنى موجوداً فى النار، فخالف الإمام عليه السلام بين اللفظين لاختلاف المعنيين. ولا يبدو هنالك من تعارض بين كلامه عليه السلام والآية الشريفة «سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالأَرْضِ»[۱۸۵]؛ لأنّ «سابقوا» لا تعنى السباق فى هذا العالم، بل تعنى التأهب من أجل سباق الآخرة، والدليل على ذلك أنّها جعلت الجنّة هى الهدف النهائى لهذه المسابقة، بعبارة اخرى فان السباق هنا نحو الخيرات والصالحات، أمّا السباق هناك نحو الجنّة التى تمثل حصيلة الأعمال. ثم أشار عليه السلام فى النقطة الرابعة إلى واحدة من أهم أمتعة السفر الأخروى الخطير وهى التوبة فقال:

«أفلا تائب من خطيئته قبل منيّته ۱۸۶]، ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه»

فهذه التعبيرات- التى تهدف إلى إثارة العارفين والعمل على تشجيعهم إلى جانب تنبيه الغافلين وإيقاظهم- هى فى الواقع تمثل النتيجة المنطقية للعبارات السابقة، وذلك إذا كانت الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع وإنّ الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع، وإنّ اليوم المضمار وغداً السباق والسبقة الجنّة والغاية النار فلم لا يتوب أهل الحجى والعقل وينيبوا إلى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۲۲

اللّه ويغتنموا الفرصة بالأعمال الصالحة ويستعدوا لسفر الآخرة؟ ولعل هذا هو الذى أشار له الإمام عليه السلام فى خطبة اخرى

«فاعملوا وأنتم فى نفس البقاء، والصحف منشورة والتوبة مبسوطة»[۱۸۷].

أما تعبيره عليه السلام عن يوم القيامة بيوم البؤس فلما يكتنفه من أحداث مهولة وعذاب شديد وهلع وخوف عظيم. وقد أشارت أغب الآيات القرآنية لذلك العذاب لتحذر الإنسان وتحثه على اغتنام الفرصة والتزود لذلك اليوم العصيب الملىء بالمخاطر التى لا ينجى منها سوى العمل الصالح. أمّا فى النقطة الخامسة فقد أشار عليه السلام إلى الفرص التى تمر مرّ السحاب والتى يقود عدم اغتنامها إلى الندم

«ألا وإنكم فى أيام أمل من ورائه أجل، فمن عمل فى أيّام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ولم يضرره أجله»

ويخسر بالمقابل من يقصر فى العمل، كما أنّ أجله يصبح عليه وبال

«ومن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضرّه أجله»

. وتعبيره عن الحياة الدنيا بأيّام الأمل لهو تعبير لطيف يشير إلى قصر وإيجابية عالم الدنيا؛ لأنّ دقائق عمر الإنسان تمثل أعظم فرصة من أجل بلوغ السعادة والفوز بالفلاح الاخروى الخالد.

فلعل التوبة فى لحظة من اللحظات تطفئ بحاراً من نيران جهنم كانت تتربص بهذا الإنسان، ولعل العمل الصالح الخالص فى ساعة من عمره ينتهى به إلى جنان الخلود والرضوان.

تأمّلات

۱- الدنيا والآخرة فى الأحاديث

يرى الدين الإسلامى الحنيف وجميع الأديان السماوية أنّ الدنيا دار طارئة متبدلة جعلت ليتزود منها الإنسان ويكسب فيها السمو والكمال والمعرفة التى تحلق بها إلى عالم الخلود، ومن هنا فإنّ اللّه يبتلى العباد فيها بأنواع البلاء والامتحان من خلال العبادات والطاعات وترك الشهوات وتحمل المصائب والمشكلات التى من شأنها تربية الإنسان وصقل شخصيته

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۲۳

وتهيئته لعالم الآخرة المفعم بالخير والبركة. وقد تظافرت الروايات التى تعرضت لبيان حقيقة الدنيا بعدة تعبيرات مختلفة رائعة، ومن ذلك الخطبة التى نحن بصددها والتى شبّه فيها الإمام عليه السلام الدنيا بالدورة التدريبية التى يستعد فيها الإنسان لسباق الآخرة، الذى يحصل فيه الغالب على الجنّة والخاسر النار. وقد جاء فى الحديث أن

«الدنيا مزرعة الآخرة»[۱۸۸]

ومن الواضح أنّ المزرعة ليست مكاناً للحياة والاستقرار بل هى مكان للتزود من أجل مكان آخر، وقد عبّر عنها بالمتجر ودار الموعظة والمصلى، كما أورد ذلك الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغة فقال

«إنّ الدنيا دار صدق لمن صدقها ... ودار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد أحباء اللَّه ومصلى ملائكة اللَّه ومهبط وحى اللَّه ومتجر أولياء اللَّه»[۱۸۹]

. وروى عن الإمام السجاد عليه السلام أنّ المسيح عليه السلام قال للحواريين:

«إنّما الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها»[۱۹۰]

. كما عبر عنها الإمام على عليه السلام بأنّها

«دار ممر»[۱۹۱] و «دار مجاز»[۱۹۲]

. وأخيراً فقد وصفها الإمام الهادى عليه السلام بالسوق الذى يتضمن الربح والخسارة

«الدنيا سوق ربح فيها قوم وخسر آخرون»[۱۹۳]

. والخلاصة فانّ كل هذه العبارة ترشد إلى عدم النظر إلى الدنيا على أنّها هى الهدف النهائى، بل هى وسيلة لادخار العمل الصالح وكسب المعارف من أجل الظفر بالدار الآخرة. ولعل البعض يرى أنّ هذا الموضوع ساذج، إلّاأنّ الواقع هو أنّ أهم مسألة مصيرية فى حياة الإنسان فى أنّه كيف يتعامل مع الإمكانات المادية التى زود بها فى هذه الحياة وكيف ينظر إلى هذه الدار، هل يراها وسيلة وأداة من أجل الوصول إلى هدف معيّن، أم يراها هى الهدف النهائى وليس وراءها شىء. والواقع أنّ تأكيد الإمام عليه السلام فى بداية الخطبة على أن الدنيا ميدان الإستعداد لسباق الآخرة إنما يشكل الدعامة الأساسية الراسخة لسائر المواعظ المهمة التى وردت فى هذه الخطبة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۲۴

۲- الخسارة العظمى

النقطة التى تعرضت لها الخطبة والتى ينبغى الالتفات إليها، إنّما تكمن فى عدم إمكانية تدارك الخسران الذى يطيل الإنسان فى هذه الحياة وفقدانه للفرص التى كان من شأنها أن تجعله يفوز بالدار الآخرة، والواقع إنّ السباق الذى ينتظر الإنسان إنّما يقام لمرة واحدة فقط، فهناك ميدان للتمرين وآخر للسباق ليس للتكرار إليه من سبيل، ومن خسر فليس أمامه من فرصة لتدارك خسارته، ومن هنا قال الإمام عليه السلام:

«ومن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضره أجله»

. أمّا الندم فلا يداوى جرحاً ولا يصلح فاسداً هناك فليصرخ الصارخون: «رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّى أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ»[۱۹۴] فيأتى الجواب «كَلّا».

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۲۵

القسم الثانى: الرحيل الوشيک

اشارة

«أَلا فاعْمَلُوا فِي الرَّغْبَةِ كَما تَعْمَلُونَ فِي الرَّهْبَةِ! أَلا وَإِنِّي لَمْ أَرَ كالْجَنَّةِ نامَ طالِبُها، وَلا كالنَّارِ نامَ هارِبُها، أَلا وَإِنَّهُ مَنْ لا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْباطِلُ، وَمَنْ لا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى، يَجُرُّ بِهِ الضَّلالُ إِلَى الرَّدَى. أَلا وَإِنَّكُمْ قَدْ أُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ وَدُلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ وَإِنَّ أَخْوَفَ ما أَخافُ عَلَيْكُمُ اثْنَتانِ: اتِّباعُ الْهَوَى، وَطُولُ الْأَمَلِ، فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيا مِنَ الدُّنْيا ما تَحْرُزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَداً».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى مسألة مهمّة ربّما غفل عنها أغلب الناس:

«ألا فاعملوا فى الرغبة كما تعملون فى الرهبة»

فعبادة اللَّه وطاعته لا تعنى الفزع إليه فى الشدة والبلاء والتولى عنه فى اليسر والرخاء؛ ولو كان الأمر كذلك لكان مشركوا الجاهلية من خلص العباد، فقد وصفهم القرآن الكريم بالقول: «فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمّا نَجّاهُمْ إِلى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ»[۱۹۵] ثم خاطبهم فى آية اخرى «وَ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلّا إِيّاهُ فَلَمّا نَجّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً»[۱۹۶]. والواقع أنّ العبرة ليست فى الاقبال على اللَّه عند الفزع، بل العبرة أن يقبل العبد عليه حين الرخاء والرفاه والشعور بالقوة والاقتدار، فما كان مع اللَّه فى هذه الظروف كان اللَّه معه فى الظروف العصيبة.

فعلامة الإيمان الخالص أن يتوجه العبد إلى اللَّه ويذكره على كل حال فى العافية والسقم والفتوة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۲۶

والكهولة والفقر والغنى والهزيمة والانتصار والحرية والسجن وما إلى ذلك. ومن هنا نرى الأنبياء والأوصياء والأولياء لا ينفكون فى حال من الأحوال عن التضرع إلى اللَّه والتوجه إليه. فالمتتبع لسيرة الإمام على عليه السلام لا يرى فى عبادته من تفاوت بين جلوسه فى البيت حين زحزحت عنه الخلافة ونهوضه بالأمر وإدارته لشؤون البلاد الإسلامية، فالزهد والتهجد وإعانة الضعفاء والفقراء وطلاق الدنيا إلى غير رجعة كان من المعانى الواضحة فى عبادة الإمام عليه السلام: ثم قال عليه السلام:

«ألا وإنّى لم أر كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها»

. لقد رأينا عدّة أفراد من الذين يعيشون الأرق ليالى حين يهمون ببعض الأسفار القريبة التى تدر عليهم بعض الأرباح والفوائد، فكيف ينام طالب الجنّة الباقية- النعمة التى لا تفوقها نعمة أو الخائف من نار جهنم التى لا يتصور عذابها وأن رؤيته غير سماعه- ولا يكترث لهذه الامور؟! ولعل ذلك يعزى إلى ضعف ايمان الفرد بالعالم الآخر، أو إلى سكر النعم والمنافع التى يتمتع بها فى حياته، ومهما كان السبب فانّ الغفلة عن الآخرة لمن الظواهر المأساوية الاليمة التى ينبغى للإنسان التوقف عندها ومعالجتها. ولاشك أنّ من وظائف أئمة الدين وزعماء المسلمين ايقاظ الناس من غفلتهم وترسيخ دعائم ايمانهم ولفت أنظارهم إلى الدار الآخرة وتحذيرهم من الاغترار بالدنيا والذوبان فيها. وفى النقطة الثامنة يشير الإمام عليه السلام إلى مسألة ذات صلة بهذا الموضوع فيقول:

«ألا وإنّه من لا ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى، يجر به الضلال إلى الردى»

. طبعاً لا- يتضح عمق هذا الكلام مالم نقف على التعريف الصحيح للحق والباطل. فالحق عبارة عن الواقعيات، سواء كان هذا الحق تكوينياً أم تشريعياً. ويراد بالحق التكوينى واقعيات عالم الوجود، ويقابل ذلك الباطل المتمثل بالخيال والسراب الذى لا واقع له ولا وجود سوى فى عالم التصور والوهم. أما الحق التشريعى فيتمثل بالقوانين والتعاليم الإلهية التى شرعت من أجل الفرد أو مجموعة الأفراد على ضوء المصالح والكفاءات الذاتية أو الاكتسابية، ويقابله الباطل الذى يتجسد بعرقلة القوانين والتمرد عليها باسم القانون وتضييع العدالة وسلب الحريات وذبحها بمرأى ومسمع من الناس. ومن البديهى أنّ من يولى ظهره للحق سواء على مستوى التشريع أو

التكوين فانّه يقع فى حبائل الباطل من قبل الوهم والخيال والسراب الذى يحسبه الظمآن ماء؛ الأمر الذى لا يرتقى بالإنسان إلى الشىء، نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۲۷

والواقعيات هى التى تبلغ بالإنسان الهدف لا الوهم والخيال الذى لا يجر على الإنسان سوى الخذلان والخسران. ولعل الإنسان يستطيع عن طريق الباطل اغفال الآخرين مدّة من الزمان، إلّاأنّ مصيره المحتوم إنّما يؤول إلى البؤس والشقاء لا محالة فى خاتمة المطاف وعليه فان قوله عليه السلام:

«ألا وإنّه من لا ينفعه الحق، يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى، يجر به الضلال إلى الردى»

إنّما يمثل حقيقة واقعية واضحة. طبعاً صحيح أن الاقرار بالحق واقتفاء آثاره إنّما يقترن غالباً بتحمل الشدائد المريرة، إلّاأنّ هذه المرارة تبدو كمرارة الدواء التى تجعل السقيم يتماثل للشفاء، ولا يجنى من تلك المرارة سوى السلامة والصحة والعافية من المرض الذى ربّما يؤدى بصاحبه إلى الموت. ويتضح ممّا تقدم أنّ الحق والباطل ليسا من قبيل الوجودات الاصطناعية والامور الاعتبارية؛ فالحق فى عالم التكوين هو ذلك الوجود العينى وفى عالم التشريع هو عبارة عن الواجبات والمحظورات التى تستند إلى المصالح والمفاسد والتى تمثل بدورها واقعيات عينية، وسنتناول هذا الموضوع بالشرح فى الأبحاث القادمة.

على كل حال فانّ الإمام عليه السلام هدف بهذه العبارة إلى إفهام الآخرين- علاوة على تنبيههم إلى أصل كلى له بالغ الأثر فى مصير الناس- بأنّهم اذا لم يلتزموا بوصاياه المنسجمة والحق والعدل فانّهم سيقعون فى مخالب الظلم والجور والاضطهاد وإن أضرار الباطل ستجتاح حياتهم؛ الأمر الذى شهدوه فى حياتهم ومسيرتهم. ثم تعرض الإمام عليه السلام- فى النقطة التاسعة- إلى موضوع مهم يحكم حياة البشرية شاءت أم أبت

«ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن ۱۹۷] ودللتم على الزاد»

. والأمر بالظعن هو قانون الموت الذى يحكم حياة الناس، فالأطفال يسيرون نحو الشباب، والشباب يتجهون نحو الكهولة وهذه الأخيرة إنّما تنتهى بالموت. فهو قانون شامل جارى لا- يعرف الاستثناء والشواذ، كما أنّه قانون لا يقوى أحد على تجاوزه مهما كانت قوته وقدرته وعلمه ومعرفته فهو القانون الذى شرعته يد القدرة الإلهية لسمو الإنسانية وتكاملها وقد تعرضت أغلب آيات كتاب التشريع.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۲۸

لهذا الأمر التكوينى كالآية: «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ»[۱۹۸] والآية: «أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِى بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ»[۱۹۹]. وقد خوطب بهذا الأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله الذى يمثل أشرف كائنات عالم الخلقة «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ»[۲۰۰] والآية: «كُلُّ شَىءٍ هالِكٌ إِلّا وَجْهَهُ»[۲۰۱].

كما يحتمل أن يكون المراد بقوله عليه السلام

«أمرتم بالظعن»

الأمر بالاستعداد للرحيل من الدنيا، كما ورد ذلك فى الخطبة ۲۰۴

«تجهزوا رحمكم اللّه فقد نودى فيكم بالرحيل»[۲۰۲]

. وأمّا الأمر بالتجهز والتزود فانّه يمثل رسالة جميع الأنبياء إلى البشرية وتنبيهها إلى الطريق الخطير الذى ينتظرها؛ وهو طريق طويل يشمل الفاصلة بين الدنيا والآخرة ولا- يمكن السير عليه دون حمل الزاد، ولا- معنى للزاد هنا سوى الإيمان والتقوى والورع والعمل الصالح «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزّادِ التَّقْوى [۲۰۳] ولا- ينفع فى الآخرة سوى القلب السليم المفعم بالإيمان وحبّ اللّه «يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ* إِلّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»[۲۰۴].

وعليه فلا ينبغى أن يلتفت سالكوا هذا الطريق إلى الدنيا وما فيها وينخدعوا بزخارفها، بل عليهم الهم بالعمل الصالح الذى لا يبلغ بهم الهدف المنشود سواه «المالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَياةِ الدَّنْيا وَالباقِياتُ الصّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلًا»[۲۰۵].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۲۹

وأخيراً بعد أن لفت انتباه الأمة إلى الآخرة وزهدها فى الدنيا وأوصاها بالتزود لتلك الدار وحذرها من ذلك الطريق الخطير الذى ينتهى سالكه إلى السعادة والقرب الإلهى إذا سار عليه بعمله الصالح وورعه وتقواه، عاد عليه السلام ليحذر من عقبتين خطيرتين تصدان الإنسان عن السعادة والفلاح

«وإن أخوف ما أخاف عليكم إثنتان: إتباع الهوى، وطول الأمل»

وهو المعنى الذى ورد فى الخطبة ۴۲ بعد أن تناوله الإمام عليه السلام بشىء من التوضيح فقال:

«أيّها الناس وإن أخوف ما أخاف عليكم إثنان: إتباع الهوى وطول الأمل، فأما إتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسى الآخرة»

. وتفيد الإحاديث النبوية والأخبار والروايات أنّ هذه التعاليم قد احتذاها أمير المؤمنين عليه السلام من معلمه الأول الأكرم صلى الله عليه و آله؛ فقد وردت هذه المعانى فى بحار الأنوار نقلًا عن النبى صلى الله عليه و آله ۲۰۶].

والواقع هو أنّ هذين المرضين يعدان من أعظم عوامل الذنوب والمعاصى، لأنّ اتباع الهوى لا يعرف معنى للحدود والقيود، فاذا سيطر على الإنسان أعمى بصره وبصيرته وأصم سمعه بحيث لا يطيق سماع الحق من النبى صلى الله عليه و آله والإمام المعصوم عليه السلام ولا تعد لديه القدرة على رؤية الحقائق التى تحيط به، وعليه فهو يعيش حياته الدنيا كالصم البكم العمى الذين لا يفقهون؛ الأمر الذى يجعله عرضة للسقوط فى الهاوية. أمّا طول الأمل فانّه يزين الدنيا بما ينسى الآخرة ويقتصر بهمة الإنسان على الدنيا التى يرى فيها مقامه الأخير وهدفه النهائى. ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته بقوله

«تزودوا فى الدنيا من الدنيا ما تحرزون ۲۰۷] به أنفسكم غداً»

نعم فهناك سفر طويل على الأبواب، سفر يتطلب المتاع والزاد الكثير، وعليه فينبغى للعاقل أن يلتفت إلى نفسه ويجهزها بما يجعلها تجتاز ذلك السفر الطويل قبل فوات الأوان، ويبتعد عن الأخطار والمطبات التى يمكنها عرقلة هذه السفر، فيطويه بكل إيمان وثبات ليصل إلى هدفه المنشود.

تأمّلان

۱- خير الزاد

لا نرانا نبالغ إذا شبهنا الناس بالمسافرين الذين يغادرون منطقة صغيرة ملوثة نحو عالم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۳۰

كبير مفعم بالطهر والخير والعطاء، بل هذا هو السفر الواقعى والحقيقى الذى ينقل الإنسان من هذا العالم السفلى والمتهافت للدنيا إلى عالم الآخرة العلوى والسامى الخالد، كما أنّ لوازم السفر التى يهيئها المسافر، هى الأخرى لابدّ أن توفر فى هذا السفر الشاق من قبيل الزاد والمتاع والمركب ومعرفة نقطة الانطلاق والغاية ومطبات الطريق والمخاطر التى تعترض السبيل والتى ينبغى دراسة كل واحة منها بصورة مستقلة- فقد صرح القرآن الكريم بأنّ زاد هذا السفر إنّما يكمن فى الورع والتقوى فى اجتناب المعاصى وطاعة أوامر اللّه والإتيان بالأعمال الصالحة.

وهو المعنى الذى أكده أمير المؤمنين على عليه السلام كراراً فى نهج البلاغة، ومن ذلك ماورد فى الخطبة ۱۸۳ حيث قال عليه السلام:

«وأنتم بنو سبيل على سفر من دار ليست بداركم وقد أُوذنتم منها بالارتحال وامرتم فيها بالزاد»

وهن يبرز هـذا السؤال: إنّما يستفاد من الزاد والمتاع طيلـة السـفر لا فى المقصـد والغايـة، والحال إنّ الورع والتقوى تستفاد فى الآخرة وتشـكل مفتاح أبواب الجنان، فكيف اعتبرت التقوى هى الزاد والمتاع؟ وللإجابـة على هـذا السؤال لابدّ من القول بأنّ مبدأ هذا السـفر طويل يبتـدأ من لحظـة الموت وسـكراته ويسـتمر حتى عالم البرزخ وما يتخلله من مواقف القيامة ومنازل السؤال والحساب والصـراط- والتى تتسم بتعـددها وهول مطلعها- حتى تنتهى بالجنان. وممّا لاشك فيه أنّ التقوى هى زاد فى عالم البرزخ كما أنّها الزاد والمتاع فى مواقف القيامة ومنازلها قبل الدخول إلى الجنّة- نعم فانّ زاد التقوى هو الذى يجعل الإنسان يجتاز هذه المنازل الخطيرة بسـلام ويقوده إلى منزله الأخير المتمثل بالجنة.

جـدير بالـذكر أنّ الآيـة الشـريفة «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْـدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ» جعلت التقوى هى المعيار الرئيسـى لكرامة الإنسان وقيمته؛ الأمر الذى يؤكـد المعنى المذكور فى أنّ السبيل الوحيد للنجاة غداً إنّما يكمن فى التقوى والتى عبّر عنه أحياناً بالزاد وأحياناً اخرى بصـفتها تمثل ملاك الكرامة الإنسانية. وهذا ما وضحته بعض العبارات الواردة فى الخطبة ۲۰۴ من نهج البلاغة

«وانقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزاد فانّ أمامكم عقبة كؤودا ومنازل مخوفة مهولة لابدّ من الورود عليها والوقوف عندها»

. نسأل اللَّه سبحانه أن يوفقنا لتوفير هذا الزاد القيم قبل فوات الأوان، فلا نرد ذلك السفر بأيدى خالية، والحق أنّها خالية مقارنة بما عليه تلك الدار.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۳۱

۲- اتباع الهوى وطول الأمل من أعدى أعداء الإنسان

اشارة

لابـدّ من التعامل بصورة جادة مع التحـذير الـذى اختتمت به الخطبـة بشأن الأخطار الكبرى التى يفرزها إتباع الهوى وطول الأمل؛ فهما مكمن الخطر والمأساة التى تصـيب الإنسان. فاتباع الهوى يعد أعظم عقبة تعترض سبيل سـعادة الإنسان. فالاستسـلام المطلق للشـهوات والأهواء النفسـية يعـد العـدو اللدود لسـعادة البشـرية. القرآن الكريم من جانبه حذر حتى الأنبياء من هذا العدو الفتاك، ومنهم نبى اللَّه داود عليه السـلام الذى قال بشأنه «وَلا تَتَّبِعِ الهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ»[۲۰۸] كما صور هوى النفس فى موضع آخر بالصـنم الـذى يعبد من دون اللَّه «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ»[۲۰۹]. والحق أن إتبـاع الهوى ليعمى البصـيرة ويصم السـمع ويختم على العقـل والفكر ويحول دون الإنسان وتمييز بـديهيات الحياة، فهل هنالك من خطر أعظم وأفـدح منه؟! ومن هنا اقتصـر القرآن بوعده الجنّة لُاولئك الذين يخشون اللَّه ويسـيطرون على أهوائهم «وَأَمّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهى النَّفْسَ عَنِ الهَوى فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوى [۲۱۰].

طول الأمـل هو الآخر من أسوأ وأخطر العقبات التى تعترض سبيل السـعادة الإنسانيـة؛ فقـد دلت التجارب على مـدى التأريـخ أنّ آمال الإنسـان الخياليـة لا تقف عنـد حـدود، فلا يزداد نحوها إلّاتعطشاً. ومن الطبيعى أنّ مثل هـذه الآمال تشل حركـة الإنسان وتسـلبه جميع طاقاته الفكريـة والبدنيـة ولا تبقى له شـيئاً يشـده نحو الآخرة. فاننا نعرف بعض الأفراد الـذين عاشوا هـذه الآمال الكاذبة حتى اللحظات الأـخيرة من حيـاتهم دون أن يلتفتوا حتى لتربيـة فلـذات أكبـادهم. ومن عجـائب هـذه الآمال، أنّ الإنسان كلما تقـدم أكثر كانت هـذه الآمال أكـذب بحيث تضاعف غرور الإنسان وتصده عن الواقع. وهذا هو الوضع السائد لدى الكفّار والذى أشار إليه القرآن فى خطابه لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله

«ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۳۲

يَعْلَمُونَ»[۲۱۱]، المعنى الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى قصار كلماته فى نهج البلاغة

«من أطال الأمل أساء العمل»[۲۱۲].

ويبدو أن تلك الآمال متعذرة النيل من خلال الأسباب المشروعة، وهى لا تتيسر إلّامن خلال خلط الحلال بالحرام وهضم حقوق الآخرين ونسيان اللَّه والآخرة. ومن هنا حذر الإمام عليه السلام فى الخطبة ۸۶ من نهج البلاغة أولئك الذين ينشدون السعادة بالقول

«واعلموا أنّ الأمل يسهى العقل وينسى الذكر فأكذبوا الأمل فانه غرور وصاحبه مغرور»

ويبدو قصر الأمل على درجة من الأهمية بحيث اعتبره الإمام عليه السلام الركن الأصلى للزهد، وهذا ما أورده فى الخطبة ۸۱ من نهج البلاغة

«أيها الناس، الزهادة قصر الأمل والشكر عند المنعم والتورع عند المحارم»

. وآمال الإنسان كانت ومازالت أبعد وأطول من عمر الإنسان وإمكاناته وقدراته؛ الأمر الذى لا يجعل أهل الهوى وطلاب الدنيا يحققون تلك الآمال ويظفروا بها أبداً، وغالباً ما يودعون الدنيا بمنتهى الانزجار والاستياء فى لحظات نزع أرواحهم. وبالطبع لا ينبغى الغفلة عن الأمل بشكل الدافع الأساس لسعى الإنسان وجهده وانطلاقته فى هذه الحياة، وعليه فالأمل حسن وليس بقبيح ولا يمكن مواصلة الحياة من دونه، إلّاأنّ المذموم إساءته وطوله وبعده عن الواقع واستناده إلى الوهم والخيال. ومن هنا ورد فى الحديث

«الأمل رحمة لامتى ولولا الأمل ما رضعت والدة ولدها ولا غرس غارس شجراً»[۲۱۳].

وبناءً على ما تقدم فان وظيفة أساتذة الأخلاق خطيرة ثقيلة؛ وذلك لأنّهم لابدّ أن يضيئوا نور الأمل فى قلوب الناس من جهة ومن جهة اخرى ينبغى أن يبقوا عليه متوازناً بعيداً عن الإفراط. والآمال المنطقية هى تلك التى تنسجم ومتطلبات الإنسان وقدراته الواقعية بحيث لا تبعده عن هدفه المنشود. وبالطبع فانّ الإسلام لا يعارض التخطيط والبرمجة من أجل المستقبل والتطلع إلى الغد ولا سيما بالنسبة للأنشطة الاجتماعية التى تعود بالنفع على المجتمع الإسلامى وتضع حداً للتبعية لأعداء الإسلام، فانّ مثل هذه الأنشطة ليست مذمومة فحسب،

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۳۳

بل تعتبر عبادة والمذموم فى الإسلام أنّ الإنسان يغرق فى هالة من الآمال الفارغة التى تنسى الآخرة، وبالتالى لا يظفر الإنسان بها مهما جند طاقته وإمكاناته.

وفى الحياة الفردية مطلوب هو التفكير فى العاقبة والذى إصطلحت عليه الروايات بالحزم.

والمذموم فى الإسلام أن يغرق الإنسان فى الأمل حتى ينسى الآخرة، ويفنى كل طاقته وقواه فى ذلك الأمل الذى لن يبلغه قط.

تكملة

قال السيد الشرف (رض) وأقول: إنه لو كان كلام يأخذ بالاعناق إلى الزهد فى الدنيا ويضطر إلى عمل الآخرة، لكان هذا الكلام وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال وقادحاً زناد الاتعاظ والازدجار ومن أعجبه قوله عليه السلام: «ألا وإنَّ الْيوم المضمار وغداً السِّباق، والسّبقة الجنّة والغاية النّار»، فإن فيه- مع فخامةِ اللفظ وعظم قدر المعنى وصادق التمثيل، وواقع التشبيه- سرّاً عجيباً ومعنى لطيفاً، وهو قوله عليه السلام: «والسّبقة الجنّة، والغاية النّار» فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين ولم يقل: «السّبقة النّار». كما قال، «السّبقة الجنّة»؛ لأن الاستباق انما يكون إلى امر محبوبٍ وغرض مطلوبٍ وهذه صفة الجنّة وليس هذا المعنى موجوداً فى النار، نعوذ باللّه منها ...!

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۳۵

الخطبة[۲۱۴] التاسعة والعشرون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

بعد غارة الضحاك بين قيس- صاحب معاوية- على الحاج بعد قصة الحكمين، وفيها يستنهض أصحابه لما حدث فى الأطراف.

نظرة إلى الخطبة

كما ورد فى أسناد الخطبة فان بعض المحققين يرون أن هذه الخطبة جزء من الخطبة السابعة والعشرين؛ ويبدو أنّها كذلك، لأنّ مضامينها واحدة تفيد مدى ضعف أهل الكوفة والعراق تجاه حملات معاوية وأهل الشام، وكأنّهم لم يشعروا بما كان يدور حولهم والجرائم البشعة التى كان يرتكبها الشاميون. فقد جعل الإمام عليه السلام يمطرهم بوابل الذم والتشنيع لعلهم يفيقون إلى أنفسهم وينتبهوا إلى الأخطار التى كانت محدقة بهم. فقد قال ابن أبى الحديد:

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۳۶

كانت غارة الضّحاكبن قيس بعد الحكَمَيْن، قبل قتال النّهْرَوَان، وذلك أنّ معاويةَ لَمّا بلغه أنّ عليّاً عليه‌السلام بعد واقعة الحكمين تحمّل إليه مُقبلًا، هاله ذلك، فخرَج من دِمَشْق معسكراً، وبعث إلى كُور الشام، فصاح بها: إنّ عليّاً قد سار إليكم. وكتب إليهم نسخة وا حدة، فقرِئَتْ على الناس:

ج ج

فعند ذلك دعا معاوية الضحّاك بن قيس الفِهْرىّ، وقال له: سرْ حتى تمرَّ بناحية الكوفة وترتفعَ عنها ما استطعت، فمَنْ وجدْتَه من الأعراب فى طاعة علىّ عليه‌السلام فَأغِرْ عليه، وإن وجدتَ له مَسْلَحَةً أو خيلًا فأغِرْ عليها، وإذا أصبحتَ فى بلدة فأمْس فى اخرى، ولا تُقيمنّ لخيلٍ بلغك أنّها فقد سُرِّحت إليك لتلْقاها فتقاتلها. فسرّحه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف.

فأقبلَ الضّحاك، فنهب الأموال وقتل مَنْ لِقىَ من الأعراب، حتى مر بالثّعْلَبيّة فأغار على الحاجّ، فأخذ أمتعتهم، ثم أقبل فلقىَ عمرو بن عُمَيس بن مسعود الذُّهْلىّ، وهو ابن أخ عبداللَّه بن مسعود، صاحب رسول‌اللَّه صلى اللَّه عليه وآله، فقتله فى طريق الحاجّ عند القُطْقُطَانة.

وقتلَ معه ناساً من أصحابه.

استصرخ أميرالمؤمنين عليه‌السلام الناسَ عُقيبَ غارة الضحك بن قيس الفهرىّ على أطراف أعماله، فتقاعدُوا عنه، فخطبهم.[۲۱۵]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۳۷

القسم الأول: عوامل ضعف أهل الكوفة

«أَيُّها النَّاسُ الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدانُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْواؤُهُمْ! كَلامُكُمْ يُوهِى الصُّمَّ الصِّلابَ، وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ الْأَعْداءَ! تَقُولُونَ فِى الْمَجالِسِ: كَيْتَ وَكَيْتَ، فَإِذَا جاءَ الْقِتالُ قُلْتُمْ: حِيدِى حَيادِ! مَا عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعاكُمْ، وَلا اسْتَراحَ قَلْبُ مَنْ قاساكُمْ، أَعالِيلُ بِأَضالِيلَ وَسَأَلْتُمُونِى التَّطْوِيلَ، دِفَاعَ ذِى الدَّيْنِ الْمَطُولِ».

الشرح والتفسير

ذكرنا سابقاً أنّ الخطبة القيت فى ظروف عصيبة جدّاً، حيث شنت الغارات تلو الغارات على أهل العراق، جعلت الإمام عليه السلام يسعى جاهداً لا عداد الناس، إلّاأنّ الضعف والوهن كان قد بلغ مبلغه منهم بحيث لم تعد لهم من قوة تذكر، فلم يكن أمام الإمام عليه

السلام من سبيل سوى اللجوء إلى آخر حربة من أجل تعبئتهم واستنفار طاقاتهم وهى توبيخهم وذمهم علهم يلتفتون إلى أنفسهم ويبصروا الأخطار التى كانت تتربص بهم.

فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بالتعرض إلى العامل الرئيسى الذى يقف وراء ذلك الضعف والذلة والهوان والذى يعزى إلى عدم الانسجام بين الأقوال والأفعال الذى يستند إلى ضعف الاعتقاد الباطنى بالأهداف المقدسة النبيلة فقال عليه السلام:

«أيّها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم»

، أمّا كلامهم فقد كان شديد يخترق الصخور، أمّا أعمالهم فقد كانت هزيلة لا تنسجم وذلك الكلام

«كلامكم يوهى ۲۱۶] الصم ۲۱۷] الصلاب، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء»

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۳۸

أجل إنّ ذلكم وهوانكم إنّما أفرزه شقاقكم وفرقتكم. إنّكم متحدون ظاهراً، مختلفون باطناً، وهذا ما أدى بكم إلى الاكتفاء بالأقوال الطنانة الرنانة بدلًا من الأفعال والأعمال؛ الأمر الذى يؤدى إلى تآكل المجتمعات وانهيارها إذا ما عاشت هذه الحالة

«تقولون فى المجالس: كيت وكيت ۲۱۸]، فاذا جاء القتال قلتم: حيدى حياد[۲۱۹]».

فالواقع هذه بعض الصفات البارزة للمنافقين والأفراد الضعاف النفس المسلوبى الإرادة الذين يكثرون الحديث فى المجالس الخاصة والعامة ويستعرضون معانى الشجاعة والبسالة والعزم والإرادة الراسخة، وكأن قدرة هؤلاء لا تتجاوز هذه الأحاديث، فاذا وردوا ميدان القتال استحوذ عليهم الخوف والهلع وكأنّهم يصرخون، إليك عنّا أيّها القتال فارقنا وابتعد، بل هم مرعبون من ميدان الحرب والقتال ويختلقون مختلف الأعذار للفرار من الميدان. والعبارة «حيدى حياد» من مادة حيد بمعنى الميل والانحراف عن الشىء وتقابلها العبارة «فيحى فياح» بمعنى الرغبة فى الشىء. ولعل المخاطب بالعبارة «حيدى حياد» الجنود والمقاتلون الذين تدعوهم عناصر النفاق والانهزام إلى اعتزال الميدان، وعلى العكس من ذلك دعوة عناصر القوة والاقتدار إلى القتال بقولها «فيحى فياح». كما يحتمل أن يكون المراد قولهم للمعركة ابتعدى عنا؛ الأمر الذى يكشف عمق خوفهم من قتال العدو، كما يمكن أن يكون المراد أنّهم كانوا يخاطبون أنفسهم بهذه العبارة بغية الاسراع فى الابتعاد والاعتزال. وما أشبه هذه الطائفة المنافقة بمنافقى عصر الرسالة الذين صورتهم سورة الأحزاب: «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ المُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَلا يَأْتُونَ البَأْسَ إِلّا قَلِيلًا* أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلى الخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۳۹

أَعْمالَهُمْ وَكانَ ذ لِكَ عَلى اللَّهِ يَسِيراً»[۲۲۰]. لقد كانت هناك عدّة معدودة على هذه الشاكلة على عهد النبى صلى الله عليه و آله، غير أنّه من المؤسف أنّ الأكثرية الساحقة لأهل الكوفة- التى كانت تمثل جيش الإمام عليه السلام- كانت كذلك. ثم قال عليه السلام:

نفحات الولاية ؛ ج۲ ؛ ص۱۳۹

«ما عزت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم»

يبدون أنّ هذه العبارة تشكل رداً على أولئك الذين يشكلون على مثل هذه الخطب فى أنّ الإمام عليه السلام لم يكتف بالموعظة ولا يمارس الضغوط من أجل حشدهم للجهاد؛ الأمر المتعارف لدى الحكام فى كافة أرجاء المعمورة؟ فالإمام عليه السلام يقول: لو تركتكم وحالكم أحراراً ودعوتكم للجهاد لم تلبوا دعوتى، ولو شددت عليكم فى هذه الدعوة فأنتم كذلك، وما ذلك منكم بعجيب فأنتم أفراد ضعاف النفس والإرادة ولستم إلّاإلباً لأعدائكم على أوليائكم. وقد أثبت التأريخ أن هؤلاء الأفراد أصبحوا جنوداً مجندة لبنى أمية ومن كان على شاكلة ابن زياد والحجاج إثر خشيتهم من التهديدات التى تطيل أموالهم وأعراضهم، ولكن ليس لحكام

العدل ولا سيما على عليه السلام من اتباع هذا الاسلوب فى تعبئة الأفراد. ثم قال عليه السلام

«أعاليل بأضاليل ۲۲۱]»

كل ذلك قعوداً عن الجهاد ودفعاً بى إلى تأخيره، كالمدين الذى يناشد الدائن تمديد الأجل

«وسألتمونى التطويل دفاع ذى الدين المطول»

نعم هذا هو حال الأفراد الضعاف من أهل المزاعم والإدعاءات دون الأفعال، ليس لهم من هم سوى خلق الأعذار والتشبث بالذرائع من أجل التهرب من المسؤولية، القرآن من جانبه صور حالة المنافقين على عهد النبى صلى الله عليه و آله الذين كانوا يحاولون بشتى الطرق التملص من خوض القتال فعزى ذلك إلى حبهم للدنيا وإيثارها على الآخرة «يا أَ يُّها الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ اثّاقَلْتُمْ إِلى الأَرضِ أَرَضِيتُمْ بِالحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الآخِرَةِ فَما مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا فِى الآخِرَةِ إِلّا قَلِيلٌ».[۲۲۲]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۴۰

هنالك سؤال يطرح نفسه وهو: لم كل هذا الضعف الذى ساد أهل الكوفة مع وجود ذلك الإمام العادل والحكيم المعروف والمجرب فى ساحات الوغى، فى حين كان أهل الشام أكثر قوة وفاعلية منهم والحال كان حاكمهم معاوية؟ ويبدو أنّ الجواب على هذا السؤال كما أشرنا سابقاً يكمن فى الآلية الاجتماعية التى كانت عليها الناس آنذاك. فالكوفة لم تكن تتمتع بسابقة تأريخية تذكر، بل كانت منطقة حديثة ضمت أقواماً مختلفة ذات ثقافات متنوعة، عاشت حالة من التنافس الظاهرى والباطنى، خلافاً لأهل الشام الذين كانوا يتمتعون بالوحدة واللحمة. أضف إلى ذلك فانّ أغلب خصوم الدعوة من منافقى المدينة وسائر المناطق كانوا قد اتجهوا صوب الكوفة وأخذوا يمارسون دعاياتهم المغرضة التى تهدف إلى شق الصفوف وزرع بذور الفرقة والاختلاف فى صفوف أهل الكوفة، إلى جانب العمل على إضعافهم فى مجابهة العدو. من جانب آخر فان الفتوحات الإسلامية آنذاك قد جرت ثروات طائلة، ولا يخفى أن طبيعة الثروة إنّما تختزن الدعة والرفاه والعافية؛ الطبيعة التى لا تنسجم وروح القتال والجهاد.

ومن هنا كان أهل الكوفة يقتنصون الأعذار التى تمكنهم من أداء وظيفتهم الجهادية حتى فى أحلك الظروف التى شنت عليهم الغارات وجرعوا فيها غصص الذل والهوان من قبل بنى أمية وجيوش الشام. نعم إنّ الأمّة كانت تلهث وراء الحكام الذين عبثوا ببيت المال وأغدقوا مافيه على الرعية، ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام مستعداً للتفريط بصاع من بيت مال المسلمين لأقرب المقربين كائناً من كان. وهذه هى العلة الاخرى التى ساقها أمير المؤمنين فى كشفه النقاب عن روحية الأمّة

«وإنّى لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم ولكنى لا أرى صلاحكم بافساد نفسى»[۲۲۳].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۴۱

القسم الثانى

اشارة

«لا- يَمْنَعُ الضَّيْمَ الذَّلِيلُ وَلا- يُدْرَكُ الْحَقُّ إِلَّا بِالْجِدِّ! أَىَّ دارٍ بَعْدَ دارِكُمْ تَمْنَعُونَ، وَمَعَ أَىِّ إِمام بَعْدِى تُقاتِلُونَ؟ الْمَغْرُورُ- وَاللَّهِ- مَنْ غَرَرْتُمُوهُ، وَمَنْ فازَ بِكُمْ، فَقَدْ فازَ- وَاللَّهِ- بِالسَّهْمِ الْأَخْيَبِ، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ ناصِلٍ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى ركن مهم فى الحياة الإنسانية فقال

«لا يمنع الضيم ۲۲۴] الذليل، ولا يدرك الحق إلّابالجد»

ما أجدر أن تكتب هذه العبارة بماء الذهب وتتلى صباح مساء فى أفنية مستضعفى العالم حتى تصبح جزءاً من ثقافتهم وتترسخ فى

أعماقهم. نعم إن الطغاة جرعوا الأذلاء والعجزة صنوف العذاب والظلم والاضطهاد ولم ينصفوهم ويمنحوهم حقوقهم، فالحق يؤخذ بالقوة إستناداً لمعانى العمل والسعى الدؤوب والاثرة وحمل السلاح وخوض غمار القتال، فالطغاة الجبابرة لا يفهمون سوى لغة الحديد والنار ولابدّ من مجابهتهم بالقوة. ويبدو أنّ طبيعة العالم كذلك فى أن سبيل بلوغ الأهداف العليا المادية والمعنوية إنّما عبد بالمطبات والعقبات الكؤود، ولا يظفر بهذه الأهداف من لم يقاوم هذه العقبات. ثم يقطع الإمام عليه السلام كافة الأعذار على هؤلاء فيخاطبهم ماذا تنتظرون، وعن أى دار تدافعون، ومع من تقاتلون وأنا بين أظهركم

«أى دار بعد داركم تمنعون ومع أى إمام بعدى تقاتلون؟»

. نعم لن يسعكم الدفاع عن أى دار طالما تخاذلتم فى الدفاع عن داركم بصفتها دار الإسلام، وإذا لم تلتحقوا بى فى القتال

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۴۲

فلن يسعكم القتال مع أى أحد بعدى. وعليه فليس أمامكم سوى الأسر والعبودية للعدو فيسلبوكم الإرادة والاختيار- فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أراد حثهم على القتال من خلال بعض المعانى التى تثير فى نفوسهم الحمية والغيرة، فالوطن لا يسلم دون الدفاع عنه، وإن كانت لهم أدنى رابطة بإمامهم فهم مطالبون بالقتال فما عسى أن يكون الإمام من بعده والذى يسعهم القتال معه. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى عدم إمكانية خوض القتال بمثل هذه العناصر الضعيفة الهزيلة التى فقدت مقومات المقاومة والثبات

«المغرور- واللَّه- من غررتموه»[۲۲۵].

فالمحتال الخادع قد يتلاعب ببعض ممتلكات الناس ويمدّ يده إلى بعض حاجاتهم، أما أنتم فقد سلبتمونى كل شىء وقد وليتم ظهوركم للعدل والطهر والتقوى والعزة والرفعة فضيعتم حقوق المسلمين ولاسيما المستضعفين والمحرومين. ثم قال عليه السلام:

«ومن فاز بكم، فقد فاز- واللَّه- بالسهم الأخيب»[۲۲۶]

. إشارة إلى أنّ مساعدتكم ونصرتكم ليست بشىء، ومن يعتمد عليكم كمن يشترك فى اقتراح لا تنطوى نتيجته سوى على الخسران. فالإمام عليه السلام يرى فىنصرة أهل الكوفة الهزيمة الفشل وقد شبهها تشبيه رائع فى أنّ الفوز بهم كالفوز بالسهم الأخيب الخاسر. ثم أورد شبهاً آخر فقال عليه السلام:

«ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل»

فى إشارة إلى أنّ أهل الكوفة فاقدون لكافة مقومات الهجوم على العدو من قبيل قوة الإيمان التقوى والشجاعة، وقد فقدوا كافة القيم إثر تعلقهم بالحياة الدنيا والاغترار بزخارفها وزبرجها.

تأمّلان

۱- الحق يؤخذ ولا يُعطى

ما نفهمه من قوله عليه السلام

«لا يدرك الحق إلّابالجد»

أنّ الحق يؤخذ ولا يعطى؛ أى لا يمكن التطلع إلى الحصول على الحق فى ظل الحكومات الغاشمة التى تعتمد اسلوب القوة وتمارس الظلم والاضطهاد بحق الطبقات المحرومة والمستضعفة؛ ولا غرو فأساس قوتهم وقدرتهم إنّما

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۴۳

تكمن فى غصبهم لحقوق الآخرين، وعليه فلا تعنى إعادة هذه الحقوق المغتصبة سوى تجريدهم من هذه القوة؛ الأمر الذى لن يحدث قط. وهنا يحث الإمام عليه السلام كافة المحرومين والمستضعفين على الوحدة ورص الصفوف لاستعادة حقوقهم السليبة من الظلمة

والطواغيت وأنّهم غالبون لا- محالة، فالطغاة ليسوا مستعدين للتضحية، بينما يضحى المستضعفون بالغالى والنفيس من أجل إحقاق حقوقهم. طبعاً ملئت الدنيا اليوم بالشعارات التى تتبنى حقوق الإنسان وتطالب بإعادة حقوق المحرومين، غير أنّ التجربة أثبتت بالأدلة القاطعة أن هذه الشعارات لاتعد كونها مصائد تهدف اغفال الطبقات المسحوقة والمعدمة والاستسلام إلى ارادة الأقوياء؛ الأمر الذى يثبت أنّ الحق يؤخذ ولا يعطى. فالمؤمنون لا يسعهم الوقوف مكتوفى الأيدى حيال الظالمين الذين يتلاعبون بمقدراتهم. وعليهم أن يتعلموا الدروس والعبر التى لقّنها الإمام الحسين عليه السلام البشرية جمعاء فى الصبر والتضحية والفداء، فما زالت صرخاته تدوى فى الاسماع

«ألا- وإنّ الدعى ابن الدعى قد تركنى بين السلة والذلة! وهيهات له ذلك! هيهات منى الذلة! أبى اللّه لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحدود طهرت وحجور طابت، أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام»[۲۲۷]

. كما أكد القرآن الكريم على جانب الصبر والصمود والمقاومة لدى المؤمنين، ومن ذلك الآية ۲۱۴ من سورة البقرة «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَأْساءُ وَالضَّرّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ». وهى الحقيقة التى نلمسها بوضوح فى كافة الغزوات الإسلامية من قبيل بدر وأحد والأحزاب وتبوك وحنين، التى كان ينتصر فيها المسلمون بسلاح الإيمان والصبر، صحيح أنّ النصر من عند اللّه، إلّا أنّ الامداد الغيبى والعناية الإلهية كانت مكملة للأسباب الظاهرية والعدة والعدد التى كان عليها المسلمون. فهذا أحد القوانين التأريخية الثابتة، فلا يقتصر على صحب النبى صلى الله عليه و آله والإمام الحسين عليه السلام، كما لايرتبط بالأمس واليوم، بل يشمل المستقبل كالماضى على حد سواء.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۴۴

۲- الدفاع عن الوطن

لقد لجأ الإمام على عليه السلام إلى مختلف الأساليب من أجل إثارة مشاعر أهل الكوفة وتعبئتهم لقتال العدو، ومن ذلك تأكيده على مسألة الدفاع عن الوطن

«أى دار بعد داركم تمنعون»

؟ فى إشارة واضحة إلى علاقة كل فرد بوطنه وأنّه يهب للدفاع عن هذا الوطن إذا تعرض للخطر مهما كانت المدرسة والفكرة التى يؤمن بها وينتمى إليها، إلّاأنّ المؤسف له أنّ هذه الروح هى الاخرى قد ماتت فيهم. وهنا يبرز هذا السؤال: هل حرمة الوطن فى الإسلام بصفته يمثل دار الإسلام أم هناك شىء آخر؟ أى البلد الإسلامى يكتسب حرمته كونه بلداً إسلامياً، أم هناك حرمة ذاتية لكل بلد بحيث تتضاعف هذه الحرمة لو أصبح جزءاً من دار الإسلام؟ يمكن العثور على أجوبة هذه الاسئلة فى الآيات القرآنية والروايات الإسلامية؛ الأمر الذى يؤكده العقل أيضاً. فقد توالت الآيات التى ذهبت إلى أنّ الاخراج من الوطن إنّما يضاد القيم الإنسانية؛ الأمر الذى يعنى حرمة الوطن الذاتية، وهذا ما نلمسه بوضوح فى الآيات القرآنية الثامنة والتاسعة من سورة الممتحنة «لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ* إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ» فقد اعتبرت الآيتين الكريمتين الاخراج من الوطن بمثابة المقاتلة فى الدين، الأمر الذى يؤكد قيمة الوطن كما صرحت بذلك الآية ۲۴۶ من سورة البقرة على لسان بنى اسرائيل «قالُوا وَما لَنا أَ لّانُقاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا وَأَبْنائِنا» فهى تدل على أنّ دافعهم الجهادى إلى جانب حفظ الدين ينطوى على انقاذ الوطن، وقد أقر نبيّهم هذا الدافع دون أن يعترض عليه، ونوكل الحديث فى الآيات الاخرى الواردة بهذا المجال إلى محلها.

رسول اللّه صلى الله عليه و آله كان شديد التأثر اثر هجرته من مكة، طبعاً صحيح أنّ مكة كانت تمثل قيمة دينية كبيرة، إلّاأنّها كانت

تعنى إلى جانب ذلك بالنسبة للنبى صلى الله عليه و آله وطنه ومسقط رأسه، ومن هنا خفف عنه القرآن بقوله «إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ»[۲۲۸].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۴۵

وورد فى الحديث عن على عليه السلام:

«عمرت البلدان بحب الاوطان»[۲۲۹]

وقال أيضاً

«من كرم المرء بكائه على ما مضى من زمانه وحنينه إلى أوطانه»[۲۳۰].

وجاء فى الحديث المعروف

«حبّ الوطن من الإيمان»[۲۳۱].

فالذى نخلص إليه أنّ حبّ الوطن والتعلق به يستند إلى جذور قرآنية ونبوية إلى جانب تأييد العقل والمنطق. الا ان هذا لا يعنى تعلق الفرد بوطنه بصورة مطلقة بحيث لا يتركه طلب العلم والتكامل ونيل المنافع المعنوية والقيم الإلهية ومن هنا ورد الحديث عن على عليه السلام:

«ليس بلد بأحق بك من بلد، خير البلاد ما حملك»[۲۳۲]

. وأخيراً فان الوطن يكتسب قيمة مضاعفة إذا ما انضمت إليه الجوانب المعنوية علاوة على الجوانب المادية، فيصبح دار الإسلام، فيهب الفرد بكل ما أوتى من قوة للدفاع عنه والذود عن كيانه.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۴۷

القسم الثالث: اليأس من القوم

اشارة

«أَصْبَحْتُ وَاللَّهِ لا أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ، وَلا أَطْمَعُ فِى نَصْرِكُمْ، وَلا أُوعِدُ الْعَدُوَّ بِكُمْ. ما بالُكُمْ؟ ما دَواؤُكُمْ؟ ما طِبُّكُمْ؟ الْقَوْمُ رِجالٌ أَمْثالُكُمْ أَقَوْلًا بِغَيْرِ عِلْمٍ؟

وَغَفْلَةً مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ؟! وَطَمَعاً فِى غَيْرِ حَقٍّ؟»

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام هذه الخطبة- التى تعدّ من الخطب الأليمة للإمام عليه السلام بمعاودة ذم اولئك القوم الذين ماتت أرواحهم علهم يفيقون قليلًا فيعبئوا أنفسهم ويستغلوا إمكاناتهم ويهبوا للقاء عدّوهم فيريحوا الامّة الإسلامية من شر أهل الشام الذين يمثلون حثالات زمان الجاهلية، فقد قال عليه السلام:

«اصبحت والله لا أصدق قولكم، ولا أطمع فى نصركم، ولا أوعد العدو بكم».

نعم إنّ الإدارة الناجعة تتطلب ثقة متبادلة بين الامّة والقائد، وإنّ ثقة القائد بالامّة والعمل على تشجيعها وغض الطرف عن أخطائها وتذكيرها بنقاط قوتها من شأنه أن امال القائد وأحلامه قد تتبدد من جراد الامّة التى تعيش الخواء الروحى والضعف والتشتت والتمزق والجهل بحيث لا يعد للتشجيع والثقة من دور فى إثاوتها وحشد طاقاتها، بحيث يستفعل مرضها بما يجعل من الصعقة الاسلوب الامثل للشقاء.

- فالعبارة وإن كانت تصور الأوضاع المزرية لأهل الكوفة، إلّاأنّها تشير إلى مدى عمق المشاكل التى إستنزفت أميرالمؤمنين على عليه

السلام فى ذلك الزمان، فقد كان محقاً فى اعلانه عدم الوثوق بهم، فقد خالفوا كراراً وعودهم ونقضوا محارم عهودهم ونكثوا بيعتهم.

لم يكونوا يحسنون سوى الكلام فى المجالس وإطلاق الشعارات الرنانة والكلمات

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۴۸

الحساسة، فاذا دقت ساعة القتال ولوا زحفاً إلى مخادعهم وهربروا هرب الشاة من الذئب.

ثم قال عليه السلام:

«ما بالكم؟ مادواؤكم؟ ماطبكم؟ القوم رجال أمثالكم».

أو تعتقدون أنّ أهل الشام خلقوا من غير طينتكم، أم لهم بقية جسمية وروحية تختلف عنكم؟ كلا.

اللّهم الافارق واحد بينكما هو الاخلاق والمعنويات.

فهم يعملون ماذا يلزمهم من أجل القتال، إلّاأنكم لستم كذلك رعتم النعمة العظيمة التى من اللّه بها عليكم بان جعل لكم إماماً عادلًا مقتدراً ... لقد أرعبتكم إمكاناتهم حتى انتهى بكم ذلك إلى الذل والهوان.

يا للاسف أن يبتلى زعيم مثلى برعية مثلكم.

نعم دواؤهم كان فيهم كما ورد ذلك فى الشعر الذى يتسب إلى الإمام عليه السلام:

دواؤك فيك وما تبصروداؤك منك وما تشعر

ثم يختتم عليه السلام خطبته بالقول

«أقولًا بغير علم؟ وغفلة من غير ورع؟ وطمعا فى غير حق؟».

أجل هذه هى العناصر التى تقف وراء بؤسكم وتعاستكم، فأنتم ترسلون الكلام على عواهته دون أن تستندوا إلى علم أو معرفته، ثم وليتم ظهوركم للورع والتقوى وانهمكتم فى الدنيا وغفلتم عن الآخرة، وأخيرا فانّكم تحلمون بالنصر دون أن تعدوا له عدّته.

هذه هى العوامل الثلاث (القول دون العمل والجهل المشوب بعدم التقوى والأمل بالنصر دون إعداد مقدماته) التى تهدد بالفشل والهزيمة كل أمّة وقوم.

أسباب الهزيمة والفشل

لاشك أن جيش الإمام عليه السلام وبفضل زعيمه الربانى المعروف بالجهاد والشجاعة فى ميدان الحرب كان يمتلك كافة أسباب الانتصار على العدو من جميع النواحى، إلّاأنّه وللأسف قد شهد حالة من الضعف سلبته زمام المبادرة وزعزعت عوامل النصر، والمفروغ منه ان ذلك الضعف والوهن إذا دبّ فى أمّة فانّها لن تنتظر مصيراً أحسن من ذلك المصير الذى ساد جيش الكوفة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۴۹

وقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة التى نحن بصدرها إلى عناصر هذا الضعف والتى كان فى مقدمتها تركهم للعمل وتمسكهم بالقول.

فقد كانت مجالسهم عامرة بالكلام ولا سيما عن القتال والحرب دون أن يعدوا العدة اللازمة و يأخذوا للحرب اهبتها، يكثرون من الكلام خلف الجبهات دون أن يجرأ أحدهم على الاقتراب من الخطوط الأمامية.

وكأنّ قدرة الأفراد الضعاف العجزة تتركز عادة فى الأقوال والمزاعم، ولعل الإمام عليه السلام أشار إلى هذا المعنى بقوله:

«أقوالًا بغير علم؟»

سواء كان هذا العلم يعنى المعرفة أو الاعتقاد أو العمل، فالنتيجة واحدة لكل من هذه التفاسير الثلاثة، لأنّ المعرفة بالشىء والاعتقاد به تدعو إلى العمل، أما ضعف العمل فانما يستند إلى عدم المعرفة والاعتقاد، الأمر الذى صرح به الإمام عليه السلام بقوله

«العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل»[۲۳۳]

العامل الآخر هو الغفلة وفقدان الورع، وبعبارة اخرى فانّ عدم الالتفات إلى الحقائق والواقعيات- الذى تفرزه حالة عدم التقوى.

إنّما يؤدى إلى إختراق الصفوف من قبل العدو، فى حين لا تصيب سهام هذا العدو اذا ما تحلت الامّة بالفطنة والذكاء المشوب بالتقوى بدلًا من الغفلة والتحلل من الورع والتقوى.

والعامل الاخير هو الطمع فى ما لا يستحقون، أو بعبارة اخرى الطمع فى الشىء دون توفير أسبابه.

فاننا نعلم بأنّ هنالك الأسباب التى ينبغى توفرها لتحقيق بعض الأهداف.

فقانون العلة والمعلول إلى جانب الإرادة الإلهية هى التى تحكم الوجود برمته، وإن ظن بعض الجهال ببعض الاوهام والخيالات والمعادلات الساذجة كمقدمة لتحقيق الاهداف.

وقوله عليه السلام

«طمعاً فى غير حق»

يمكن أن يكون إشارة إلى هذا المعنى، فانّهم كانوا يطمعون فى شئ لايستحقونه، إلّاأنّ بعض شرّاح نهج البلاغة ذهبوا إلى أنّ المراد بهذه العبارة أنّهم كانوا يطمعون بالمزيد من عطائهم فى بيت المال، ويتمنون على الإمام عليه السلام أن يعطيهم من بيت

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۵۰

المال أكثر من إستحقاقهم، فلما لم يلب الإمام عليه السلام طلبهم غير المشروع صابهم الضعف والوهن فى القتال.

ومن الطبيعى أن يكون هذا التفكير المادى أينما كان عاملًا من عوامل الفشل والهزيمة، كما فشل الجيش الإسلامى فى معركة احد إثر انهماك الجنود فى جمع الغنائم واهتمامهم بالجوانب المادية فى ذلك الميدان الجهادى العظيم.

على كل حال فانّ هذه العوامل التى تؤدى إلى الهزيمة والفشل لاتقتصر على جيش الكوفة فحسب، بل تهدد بالفشل كافة الجيوش على مدى الدهور والعصور وأخيراً فالخطبة تصور مدى لوعة الإمام عليه السلام.

وذروة إستيائه، وهى كافية فى توضيح عمق الظروف العصيبة التى عاشها الإمام عليه السلام.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۵۱

الخطبة[۲۳۴] الثلاثون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

فى معنى قتل عثمان وهو حكم له على عثمان وعليه وعلى الناس بما فعلوا وبراءة له من دمه.

نظرة إلى الخطبة

نعلم بأنّ الآراء قد اختلفت فى قتل عثمان، فهناك من ذهب إلى تقصير عثمان وأنّه كان مستحقاً للقتل؛ فقد سلط بطانته على بيت المال وأغدق عليهم المناصب الحساسة فى الحكومة، حتى قام الناس ضده دون أن يهب أحد من المسلمين لنجدته فكان الجميع راضياً بقتله.

بينما هناك من يعتقد بعدم صوابية قتله وكان ينبغى أن يمنح فرصة التوبة ليتدارك بعدها ما فرط منه، وإن كان ولابدّ يخلعونه من الخلافة، أمّا قتله بتلك الصورة العلنية إنّما هو بدعة، أضف إلى ذلك فانّ قتله أصبح ذريعة للمنافقين من أجل بث الفرقة والشقاق فى

صفوف المسلمين.

و أخيراً هناك طائفة ضيقة النظر ممن لا تكلف نفسها عناء التحقيق والتفكير فى سيرة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۵۲

الخليفة الثالث تراه الخليفة المظلوم الذى قتل شهيداً، كما تنزه ساحته من كل نقص وعيب.

الإمام عليه السلام من جانبه وفى خضم هذه الآراء المتضاربة يكشف النقاب عن الحقيقة ويعرض بالتحليل للمسائل المرتبطة بقتل عثمان.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۵۳

«لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قاتِلًا أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، لَكُنْتُ ناصِراً، غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ، لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: «خَذَلَهُ مَنْ أَنا خَيْرٌ مِنْهُ» وَمَنْ خَذَلَهُ، لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ:

«نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّى» وَأَنا جامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ، اسْتَأْثَرَ فَأَساءَ الْأَثَرَةَ، وَجَزِعْتُمْ فَأَسْأَتُمُ الْجَزَعَ وَلِلَّهِ حُكْمٌ واقِعٌ فِى الْمُسْتَأْثِرِ وَالْجازِعِ».

الشرح والتفسير

عوامل قتل عثمان

كما ذكر فى بداية الخطبة فانّها تعالج قضية قتل عثمان والتعرض إلى العوامل التى دفعت إلى هذا القتل. فكلنا نعلم بان لقتل عثمان جذور معلومة نابعة من طبيعة أعماله وأفعاله، فقد أجمع المحققون على أنّ سوء تدبير عثمان فى ادارة دفة الحكم وتبديل الحكومة بموروث قبلى والتطاول على بيت المال والظلم والاضطهاد الذى مارسه أقربائه وبطانته بحق الناس قد أدى إلى غضب عام حتى انبرت طائفة مؤلفة من بضعة مئات لتحاصره فى داره وتهجم عليه وتقتله، وقد وقف ذلك الجيش الجرار الذى فتح مصر وبلاد الروم متفرجاً دون أن يحرك ساكنا؛ فقد كان ذلك الجيش ساخطاً عليه ويرى ضرورة قتله، غير أنّ الناس إنقسموا طائفتين بعد قتله:

طائفة- لعلها كانت تشكل الاكثرية- كانت راضية بهذا القتل أو على الأقل غير مكترثة له بينما ترى الطائفة الثانية أنّه قتل مظلوماً.

وفى ظل هذه الظروف إنتهز المنافقون الفرصة لبث بذور الفرقة فى صفوف المسلمين وحرف مسير الخلافة عن محورها الأصيل أمير المؤمنين على عليه السلام- والذى كان يخطى بتاييد كافة أفراد الامّة- واستغلوا قضية قتل عثمان كذريعة لتحقيق أطماعهم ومآربهم، وبعبارة اخرى فانّهم أحالوا قميص عثمان إلى مناورة سياسية هدفها إغفال الامّة وصدها عن الحق.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۵۴

وبالطبع فانّ أفراد من كلا الطائفتين كانوا من ضمن صحب الإمام عليه السلام واتباعه، وإن كانت الطائفة الثانية وعلى ضوء تصريحات بعضى المؤرخين تشكل الأقلية، وعليه فمن الطبيعى أن تكثر هذه الطائفة من سوالها لعلى عليه السلام عن قتل عثمان، فلم يكن أمام الإمام عليه السلام من بد سوى الاجابة التى تتضمن عكس الحقائق التأريخية من جانبه وعدم منح هذا وذاك الفرصة بغية إستغلالها ضد الدين.

فالخطية رد على مثل هذه الاسئلة الذى يتطرق فيه الإمام عليه السلام إلى بيان الحقائق التأريخية دون منح العناصر الفاسدة الحجج والذرائع فقد قال عليه السلام:

«لو أمرت به، لكنت قاتلًا، أو نهيت عنه، لكنت ناصراً».

فمفهوم هذه العبارة هى أنى كنت محايداً فلم ألطخ يدى بدمه ولم أدافع عن زلاته، فالأمران ينطويان على محاذير.

و هنا يبرز هذا السؤال: كيف يمكن التوفيق بين مضمون هذه العبارة والوقائع التأريخية؟

لاننّا نعلم جميعا (و قد ذكر ذلك أغلب المؤرخين) أنّ الإمام عليه السلام نهى الناس عن قتل عثمان و قد بعث بالحسن والحسين عليه

السلام إلى دار عثمان ليحولا دون زحف المعترضين، بل دخل عليه الإمام عليه السلام بالماء حين منعوه منه. وقد أورد الشرّاح جوابين على السؤال المذكور:

فقال البعض المراد من عدم النهى هو النهى العملى؛ أى أننى لم أشهر السيف عملياً ولم أقتحم الميدان دفاعاً عنه، وهذا لايتنافى ونهيه اللفظى عليه السلام وبعثه بالحسنين عليه السلام هناك.

بينما يرى البعض لاخر أنّ هذا الكلام يفيد أن الإمام عليه السلام لم يأمر قط بقتل عثمان، وإن كان يراه مستحقاً للعقاب على أعماله، وعليه وبغية عدم تردى الاوضاع لأسوأ ممّا كانت عليه فقد دعا الناس إلى ضبط النفس والتخلى عن العنف، إلّاأنّه لم يفعل ما من شأنه توفير الدعم الصريح لعثمان وأعماله وما يدر منه؛ وذلك لأنّه كما أن سفك دمه يخلق بعض المشاكل فى المجتمع الإسلامى، فانّ توفير الدعم له والدفاع عن أعماله هو الآخر يسبب مشاكل لاتقل عن سابقتها، وعليه فانّ الإمام عليه السلام لم ير فى أى من الأمرين (الأمر بالقتل والنهى عنه) ممّا تمليه عليه وظيفته الإسلامية.

و قد أراد الإمام عليه السلام أن يعلن موقفه الصريح ويحول دون تفاقم الخلافات بشأن قتل عثمان من قبل الطائفتين التى تذهب إحداهما لضرورة قتله وتلك التى لاتراه مستحقاً للقتل.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۵۵

ثم قال عليه السلام:

«غير أن من نصره، لايستطيع أن يقول خذله من أنا خير منه، ومن خذله لايستطيع أن يقول نصره من هو خير منّى»،

فالعبارتان تبينان موضوعاً واحداً وهو إتفاق الجميع على أن حماة عثمان آنذاك كانوا من طلحاء الامّة، بينما كان الأفراد الذين لم يمدوا له يد العون من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار.

فالشواهد التأريخية تفيد تواجد كبار صحابة رسول اللّه صلى الله عليه و آله من المهاجرين والأنصار حين هجم الناس على بيت عثمان، ولو كانوا يرتضون عثمان وأعماله لحالوا دون وصول الناس إليه، الأمر الذى يدل على تخليهم عنه وعدم تقديم أى دعم أو إسناد له.

أمّا الأفراد الذين هبوا للدفاع عن عثمان آنذاك فقد كانوا يمثلون أراذل المجتمع الإسلامى، و ما ذلك الدفاع إلّالمنافعهم اللامشروعة التى كانوا يحظون بها آنذاك.

وعليه فقد كانت هذه المسألة واضحة فى أنّ حماة عثمان من أمثال مروان لم يجرأوا على الزعم أنّهم خير من المهاجرين والأنصار الذين لم يدعموا عثمان.

ومن المسلم به أن أولئك الذين تخلوا عن دعم عثمان لم يكونوا يروون أن حاشية عثمان وبطانته أفضل منهم، ومن هنا فقد إتفقت الآراء على أن حماة عثمان لم يكونوا من أخيار الامّة.

فالعبارة غاية فى الروعة وقد أماطت اللثام عن أعمال عثمان بالشكل الذى أثار حفيظة كافة المسلمين.

ومن ذلك توزيعه أموال بيت المال على قرابته وبطانته وتسليطهم على رقاب الناس إلى جانب الظلم والجور والاضطهاد وتضييع العدل والقسط.

وقد صرح بعض شرّاح نهج البلاغة[۲۳۵] بان الكلام هو ردّ الإمام عليه السلام على من قال بحضرته أنّ الفتنة من اولئك الذين لم ينصروا عثمان، فلو نصره كبار الصحابة لما إجترأ جهال الامّة على سفك دمه، ولو رأى كبار الصحابة وجوب قتله لكان عليهم إعلان ذلك وإزالة الشبهات عن أذهان الامّة.

فعلم الإمام عليه السلام أنه المقصور بذلك الكلام، فاورد هذه الكلمات.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۵۶

على كل حال فانّ الخطبة تبين أنّ الإمام عليه السلام إذا لم ينصر عثمان فانه لم يكن وحيداً فى هذا الأمر، بل كان هذا موقف كبار

الصحابة، فلم الإشكال على الإمام عليه السلام؟ ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته بتحليل دقيق عن قتل عثمان، فقال عليه السلام:

«و أنا جامع لكم أمره، استأثر[۲۳۶] فأساء الاثرة، و جزعتم فأسأتم الجزع، ولله حكم واقع فى المستأثر والجازع».

لقد صرح أحد الادباء العرب المشهورين بأنّ عبارات الإمام عليه السلام إتصفت بقلة الألفاظ وسعة المعانى، فالعبارة على قلّة لفظها جامعة شاملة حيث أوضح الإمام عليه السلام فيها أنّ عثمان إرتكب خطأً جسيماً وأنتم كذلك.

فقد انتهج اسلوب الاستبداد والحكم الفردى وسلط بنى امية على رقاب الناس وأغدق عليهم بيت المال فلما تعالت أصوات المعارضة وقام المسلمون لم يعرهم آذانا صاغية، فحاصروه وهجموا عليه فتركه كبار الصحابة من الأنصار والمهاجرون، من جانب آخر فانّ الناس لم يكتفوا بهدا الحد، وبدلًا من خلعه من الخلافة وطرد أزلامه من مواقع الحكومة عمدوا إلى اراقة دمه فخلقوا فتنة إمتدت لسنوات فى التأريخ الإسلامى، إلى جانب استغلالها من جانب المنافقين الذين تذرعوا بالمطالبة بدم عثمان ليسفكوا كثيرا من الدماء.

وبناءاً على ما تقدم فانّ الفريقين قد سلكوا الافراط، وعليه فانّ الله جازى كل منها بأعماله.

لقد كثر الكلام بشأن خلافة عثمان وآثارها: إلّاأنّ كلام الإمام عليه السلام ورغم قصر عباراته إلّا أنه أوجز كبد الحقيقة إلى جانب اصداره الحكم العادل بشأنه وشأن الجماهير التى قتلته.

كما يستفاد من العبارة أن الاستبداد- رغم إنّه سيئ مهما كان- على أنواع بعضها أسوأ من البعضى الآخر، واستبداد عثمان كان من النوع الاخير.

كما أنّ التعبير بالجزع عن الناس يشير إلى مدى الغضب والاستياء الذى سيطر على الناس إثر الأعمال الشائنة لعثمان وبطانته.

ج‌ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۵۷

الخطبة[۲۳۷] الحادية والثلاثون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

لما أنفذ عبد اللَّه بن عباس إلى الزبير يستفيئه إلى طاعته قبل حرب الجمل.

«لا تَلْقَيَنَّ طَلْحَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ تَلْقَهُ تَجِدْهُ كَالثَّوْرِ عَاقِصاً قَرْنَهُ، يَرْكَبُ الصَّعْبَ وَيَقُولُ «هُوَ الذَّلُولُ» وَلَكِنِ الْقَ الزُّبَيْرَ فَإِنَّهُ أَلْيَنُ عَرِيكَةً فَقُلْ لَهُ: «يَقُولُ لَكَ ابْنُ خالِكَ: عَرَفْتَنِى بِالْحِجازِ وَأَنْكَرْتَنِى بِالْعِراقِ فَما عَدا مِمَّا بَدا»».

الشرح والتفسير

السعى لانقاذ الخاطئين

نعلم أنّ المعركة الاولى التى فرضت على أمير المؤمنين عليه السلام كانت معركة الجمل، حيث إتحد أنصار عثمان ومعارضيه بعد أن إصطحبوا معهم زوج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عائشة فنقضوا البيعة واشعلوا فتيل واقعة الجمل طمعاً فى الخلافة.

ثم انتهت المعركة بهزيمتهم وقتل مؤججى تلك النار طلحة والزبير.

وتفيد كافة الشواهد التاريخيه أنّ الإمام عليه السلام كان حريصاً على عدم وقوع القتال ليس فى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۵۸

الجمل فحسب، بل فى صفين والنهروان، وكان يسعى جاهدا لاطفاء نار الحرب.

والخطبة التى نحن بصددها تعد أحد تلك الشواهد، فقد بعث الإمام عليه السلام قبل نشوب القتال برسوله عبد الله بن عباس إلى الزبير بهذه الكلمات، فأثرت عليه وانسحب من المعركة، حتى أدركه إبن جرموز فى صحراء البصرة فقتله.

فقد خاطب الإمام عليه السلام ابن عباس قائلًا:

«لاتلقين طلحة فانك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً[۲۳۸] قرنه، يركب الصعب ويقول: هو الذلول».

تشبيهه لطلحة بالثور الذى يعقص قرنه إما أن يكون أراد به طغيانه وسوء خلقه، أو عدم سماعه للحق بفعل طاعته لهوى نفسه.

فالواقع أنّ العبارة تفيد تحليله لنفسية طلحة ويأسه من تأثير الكلام فيه بشأن الكف عن القتال وإلّا فانسعاب من المعركة، إلّاأنّه لم يقطع أمله من الزبير (و قد دلت الحوادث اللاحقة أنّ الإمام عليه السلام كان محقا فى أمله) فأضاف عليه السلام قائلًا:

«ولكن الق الزبير فانّه ألين عريكة».[۲۳۹]

فالعبارة: «ألين عريكة» واستنادا إلى «عريكة» التى تعنى الطبيعة، تفيد تسليم الزبير للحق إذا سمعه، ولا سيما إذا كان قد صدر من رسول الله صلى الله عليه و آله، على العكس من طلحة الذى كان يتصف بالأنانية واللجاجة والطغوى وحبّ الجاه والمقام الذى أعمى بصره وبصيرته وأصم سمعه عن سماع الحق.

ومن هنا ذكر المؤرخون أنّ الزبير أخذته رعدة شديدة حين دخل البصرة وعلم أنّ عمار فى جيش الإمام عليه السلام حيث تذكر حديث رسول الله صلى الله عليه و آله لعمار:

«و يحك يابن سمية تقتلك الفئة الباغية».

فخشى أن يقتل عمار فى المعركة، فيكون هو جزءاً من الفئة الباغية.

على كل حال قال الإمام عليه السلام لابن عباس:

«فقل له يقول لك ابن خالك: عرفتنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق؟ فما عدا ممّا بدأ؟».

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۵۹

فالعبارة إشارة إلى التأريخ الجهادى العظيم للإمام على عليه السلام على عهد النبى صلى الله عليه و آله والذى لم يكن خافياً على أحد بما فيهم الزبير الذى كان يقاتل إلى جانب رسول الله صلى الله عليه و آله.

فقد ورد فى الاخبار أنّ علياً عليه السلام برز بين الصفين حاسراً، وقال: ليبرز الىّ الزبير، فبرز إليه مدججاً، فقيل لعائشة: قد برز الزبير إلى على عليه السلام، فصاحت: وزبيراه!

فقيل لها: لا بأس عليه منه، إنّه حاسر والزبير دارع.

فقال له عليه السلام: ما حملك يا أبا عبدالله على ما صنعت؟ قال: أطلب بدم عثمان، قال: أنت وطلحة وليتماه، وإنّما نوبتك من ذلك أن تقيد به نفسك وتسلمها إلى ورثته، ثم قال له: نشدتك الله أتذكر يوم مررت بى ورسول الله صلى الله عليه و آله متكى على يدك، وهو جاء من بنى عمرو بن عوف، فسلم علىَّ وضحك فى وجهى، فضحكت إليه، لم أزده على ذلك، فقلت: لا يترك ابن أبى طالب يا رسول الله زهوه!

فقال لك

«مه إنه ليس بذى زهو، أما إنّك ستقاتله وأنت له ظالم»

فقال الزبير: إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد كان كذلك، ولكن الدهر أنسانيه، ولانصرفن عنك. فانصرف من المعركة[۲۴۰].

فالعبارة السابقة قد تكون إشارة إلى هذا الأمر. جدير بالذكر أن الزبير كان من محبى على عليه السلام وقد هب للدفاع عنه حتى فى حادثة السقيفة وشهر سيفه، فقام له القوم وكسروا سيفه، إلى جانب ذلك فقد منح رأيه لعلى عليه السلام فى الشورى التى شكلها عمر لانتخاب الخليفة من بعده.

على كل حال فان هذه العبارة أثرت فى الزبير وكان شكه يتزايد يوماً بعد آخر.

بمشروعية الطريق الذى سلكه حتى إتخذ قراره باعتزال القتال فاتجة الصحراء ليكمن له أحد الظلمة- ابن جرموز- فارداه قتيلًا ولم يسعه تدارك ما فرط منه.

أمّا قوله عليه السلام: «ابن خالك» فهو تعبير لطيف جدا، وهو من باب الاستمالة والاذكار بالنسب والرحم، فقد كان الزبير ابن صفية أخت أبى طالب، وعليه فالزبير ابن عمة على عليه السلام وعلى عليه السلام ابن خاله.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۶۰

والعبارة تهدف إلى بيان كافة الامور التى سمعها الزبير من رسول الله صلى الله عليه و آله بشأن على عليه السلام ومن هنا فقد كان شديد الحب لعلى، إلّاأنّ حب الجاه- الذى كان الدافع الرئيسى لحرب الجمل- كالحجاب الذى حال دون رويته لتلك الحقائق، فكان لهذه العبارة فعلها فى نفسه حيث أزالت عنه ذلك الحجاب وجعلته يعود إلى الحق.

قال المرحوم السيد الرضى فى ذيل هذه الخطبة:

«وهو عليه السلام أول من سمعت منه هذه الثلمة؛ أعنى فما عدا ممّا بدا».

وهى عبارة بعيدة المعنى، تشير إلى مسألة وهى: ما الذى صرفك عن الحق بعد أن اتضح لديك إلى الباطل ۲۴۱]. والعبارة من الروعة واللطافة بحيث أصبحت مثلًا فى الادب العربى.

تأمّلات

۱- رد فعل الزبير تجاه رسالة الإمام عليه السلام

ورد فى بعض الروايات أنّ ابن عباس قال: حين أبلغت الزبير رسالة الإمام عليه السلام أجابنى:

قل لعلى عليه السلام إنى اريد ما تريد.[۲۴۲]

أى إنّك تبتغى الحكومة، فلم لا أطلبها أنا. فقد بلغ به الطمع وحبّ الجاه درجة جعلته يعتقد بأنّ علياً عليه السلام إنّما نهض بالأمر طلباً للحكومة- ولكن وكما أوردنا سابقاً فانّ الزبير لم يستطع الوقوف بوجه الحق، فما كان منه إلّاأنّ إعتزل القتال وانصرف وإن كانت خطوته متأخرة.

۲- قطوف من سيرة طلحة والزبير

طلحة من قريش وأبوه عبدالله بن عثمان من السابقين فى الإسلام وقد شهد غزوات رسول الله صلى الله عليه و آله، ولم يشهد بدرا حيث وجهه رسول الله صلى الله عليه و آله حينها إلى الشام فلما عاد طالب بسهمه من الغنائم.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۶۱

فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله: لك سهمك وأجرك. وقيل آخى رسول الله صلى الله عليه و آله فى مكة بين طلحة و الزبير، وآخى بين طلحه وأبى أيوب فى المدينة. وروى عن طلحة أنّ النبى صلى الله عليه و آله أسماه يوم أحد طلحة الخير. أمّا قتاله مع رسول الله صلى الله عليه و آله فى حرو به فمما لا شك فيه مع ذلك فقد كان محباً للجاه و المقام حتى تغيير نهجه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه و آله، كما كانت تسمع منه بعض الكلمات ومن ذلك قوله أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله يأمر بنات أعمامنا بالاحتجاب منا، ويتزوج بنسائنا بعد إنفصالهن عنا: فما الذى يغنيه حجابهن اليوم وسيموت غدا فننكحهن، وهنا نزلت آية التحريم بالزواج من نساء النبى صلى الله عليه و آله ۲۴۳] فقد ذكر الفخر الرازى فى سبب نزول الآية أن طلحة قال:

«سأتزوج من عائشة إذا مات رسول الله صلى الله عليه و آله»

. فنزلت آية تحريم الزواج من نساء النبى صلى الله عليه و آله بعد وفاته.[۲۴۴]

وورد فى قصة الشورى التى شكلها عمر أنه أقبل على طلحة وقال: أقول أم أسكت؟ فقال طلحة: قل، فانّك لا تقول من الخير شيئاً. فقال عمر: لقد مات رسول الله صلى الله عليه و آله ساخطاً عليك بالكلمة التى قلتها يوم انزلت آية الحجاب.[۲۴۵]

على كل حال كان من أشد الناقمين على عثمان، ومن هنا كان يراه مروان من قتلة عثمان، وقد رماه بسهم فى الجمل فقتله، وقال: الآن أدركت دم عثمان من طلحة. وقد دفعه حبّ الجاه لاشعال فتيل الجمل وسفك دماء المسلمين ولم يظفر بالخلافة حتى قتل فى معركة الجمل. وذكر البعض أنّ الإمام عليه السلام حدثه ببعض الكلمات عى غرار الزبير فندم وانصرف من المعركة فرماه مروان بسهم فقتله. إلّاأنّ الخطبة تفند هذا الكلام، فهى تفيد يأس الإمام عليه السلام من هدايته وعودته إلى الحق. وفى رواية أنّ أمير المؤمنين عليه السلام مر يقتلى الجمل فقال بشأن طلحة هذا من نكث بيعتى و أشعل نار الفتنة وألب الناس على قتلى وأهل بيتى» ثم خاطبه عليه السلام: يا طلحة إنّى وجدت ما وعدنى ربّى حقاً فهل وجدت ما وعد ربك حقاً، ثم انصرف. فقال له بعض أصحابه: أتكلمه بعد الموت يا أميرالمؤمنين. فقال عليه السلام والله لقد سمعنى كما سمع الكفّار كلام رسول الله صلى الله عليه و آله وهم قتلى فى قليب يدر[۲۴۶].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۶۲

وهنا يبرز هذا السؤال وهو أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يثنى أحيانا على طلحة، حتى ذهب البعض إلى أنّه من العشرة المبشرة بالجنّة، فكيف يصح هذا الثناء؟ ونقول فى الجواب على فرض أنّ هذا الكلام صحيح، فانّ الإنسان يعيش بعض المراحل المتألقة فى سنى حياته بحيث يكون يوماً إلى جانب الحق ويستحق الجنّة، ويوماً يخرج من هذا الحق ويلتحق فى صفوف الباطل فيستحق غضب الله وسخطه. فالتأريخ الإسلامى حافل بالأفراد الذين كانوا على الحق وهجروه إلى الباطل أو بالعكس، وإلّا فمن يسعه القول بأحقية من أجج نار الحرب ضد إمام زمانه وسفك كل هذه الدماء؟ فهل من انسجام بين هذا الكلام والمنطق؟ والشاهد على ما قلنا ما صرح به القرآن الكريم بشأن السابقين فى الإسلام من المهاجرين والأنصار والتابعين، الذين وعدهم بالجنّة «وَالسّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهاجِرِينَ وَالأَنْصارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِى تَحْتَها الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذ لِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ».[۲۴۷]

فالآية تشمل جميع المهاجرين والأنصار، بينما نعلم هنالك من انحرف منهم عن الحق كعبد الله بن أبى سرح ۲۴۸] وثعلبة ابن حاطب الأنصارى ۲۴۹] فاستحقوا غضب الله وسخطه، وقد كانوا من المهاجرين والأنصار الذين وقفوا إلى جانب رسول الله صلى الله عليه و آله؟ كما نعلم أن بعض المنافقين الذين ذمّهم القرآن بشدّة كانوا من صحابة رسول الله صلى الله عليه و آله. وعلى هذا الضوء فلابدّ من تقييم أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله على ضوء أعمالهم حتى آخر أعمارهم، وإلّا شهدنا حالة من التناقض لا يمكن الخروج منها بتبرير وأما الزبير فهو الزبير بن العوام وامّه صفية عمة رسول الله صلى الله عليه و آله اسلم فى الخامسة عشرة من عمره وهو رابع أو خامس من أسلم، هاجر إلى الحبشة ثم قدم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۶۳

المدينة، وقد أخى رسول الله صلى الله عليه و آله بينه وبين عبدالله بن مسعود. شهد غزوات رسول الله صلى الله عليه و آله فى بدر وأحد والخندق وحنين وقد ابلى فيها بلاءً حسناً حتى أثنى عليه رسول الله صلى الله عليه و آله. وكان أحد أعضاء الشورى الذى بايع علياً عليه السلام ولم يبايعه طلحة. وللاسف فانّ حب الجاه وتأثير طلحة قد دفعه للانحراف عن الحق فاشترك مع طلحة فى تأجيج نار الجمل التى فرقت صفوف المسلمين وأراقت دمائهم بعد أن نقض البيعة. وقد ذكر المؤرخون انه إستمع لمواعظ على عليه السلام قبل بدء المعركة فعاد إلى الحق وانسحب من الميدان فاتجه صوب صحراء تعرف باسم «وادى السباع» فلما وقف للصلاة تقدم نحوه ابن جرموز فقتله حين الصلاة وانتزع خاتمه وسيفه فاتى بها إلى الإمام عليه السلام.

فاستاء الإمام عليه السلام وقال:

«هذا السيف طالما فرج الكرب عن وجه رسول الله»

وقيل إنّ الإمام عليه السلام لم يأذن لابن جرموز بالدخول عليه وقال:

«بشر قاتل ابن صفية بالنار»

وقال البعض أنّ ابن جرموز غضب غضباً شديداً فقتل نفسه. وقد صرحت بعض المصادر التأريخية أن معاوية هو الذى شجع طلحة والزبير على نقض البيعة والقيام ضد على عليه السلام ۲۵۰].

لا شك إنّ قضية طلحة والزبير بينبغى أن تكون لنا درساً وعبرة فلا ننغر بأعمالنا، وكيف أنّ الإنسان يعيش مع الحق ويجاهد فى سبيله ثم يستلل حب الدنيا والحياه إلى قلبه فيقوده إلى الباطل اللّهم إجعل عاقبة أمرنا خيراً.

۳- شروط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

لقد تضمنت رسالة الإمام عليه السلام الإشارة إلى أحد الشروط المهمّة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ألا وهو إحتمال التأثير.

فقد قال عليه السلام:

«لا تلقين طلحة فانك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً قرنه، ولكن إلق الزبير فانه ألين عريكة»

فمن الطبيعى أنّ طاقة الإنسان وقدرته محدودة ولابدّ له من استهلاكها فى محلها الذى يتوقع فيه التأثير.

فاذا أحتمل عدم التأثير فلا ينبغى له أن يصرف جهده عبثاً، وبالطبع فقد قلنا احتمال التأثير وليس اليقين فيتعلل بعدم الأمر لعدم وجود اليقين فى التأثير! كلا إلى جانب ذلك

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۶۴

ينبغى معرفة المعروف والمنكر وعدم وجود الخطر آنذاك تبرز وظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ويفهم من رسالة الإمام عليه السلام أنّ لبعض الناس طباع كطباع الحيوانات فالبعض كالثعلب أو الذئب وبعضهم شجاع كالأسد وآخر من أهل الشهوات كالخنزير وبعضهم جاهل كالبقر و ...

و قد شبه الإمام عليه السلام طلحة بالبقر العاقص القرن حيث يستكبر فى التسليم إلى الحق ويخطى فى إدراك الواقع وتمييزه، وإذا اتجه صوب الأعمال العصية ظنها سهلة حتى تؤدى به إلى الفشل.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۶۵

الخطبة[۲۵۱] الثانية و الثلاثون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وفيها يصف زمانه بالجور، ويقسم الناس فيه خمسة أصناف، ثم يزهد فى الدنيا.

نظرة إلى الخطبة

تتألف الخطبة من أربعة أقسام:

القسم الأول يتحدث عن الوضع المأساوى للمجتمع على عهد الإمام عليه السلام والمشاكل التى كانت تعترض سبيل الصلحاء

والأتقياء. ويصنف الإمام عليه السلام الناس فى القسم الثانى آنذاك (ولعله فى كل عصر ومصر) إلى أربعة أصناف:

أ- الصنف الأول من يقعد به عن طلب الإمرة قلّة ماله، وحقارته فى نفسه. فهو مغتم فى الواقع لعدم إمتلاكه الامكانات.

ب- الصنف الثانى من يشمر ويطلب الامارة ويفسد فى الأرض ويكاشف

ج- الصنف الثالث من يتظاهر بالدين ويطلب به الدنيا لا الآخرة

د- الصنف الرابع من لامال له أصلًا، ولا يكاشف، ويطلب الملك ولا يطلب الدنيا بالرياء والناموس، بل تنقطع أسبابه كلها فيخلد إلى القناعة، ويتحلى بحلية الزهادة فى اللذات الدنيوية، لاطلباً للدنيا، بل عجزاً عن الحركة فيها، وليس بزاهد على الحقيقة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۶۶

ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى بيان خصائص كل صنف من هذه الأصناف الأربعة- التى تعيش فى كل مجتمع، ويتحدث القسم الثالث عن صنف آخر ذكره الإمام عليه السلام بصورة مستقلة وهم الأبرار الأتقياء الذين أراق دموعهم خوف الآخرة.

ثم يقسمهم الإمام عليه السلام إلى عدّة أقسام ويذكر صفات كل قسم منهم، أمّا القسم الرابع والأخير من الخطبة فيدعو فيه الإمام عليه السلام الناس إلى الزهد وعدم الاغترار بالدنيا الذى يقود إلى الذنوب والمعاصى. وقد بين حق الكلام بعبارات قصيرة.

ججج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۶۷

القسم الأول: الدهر وضياع القيم

اشارة

«أَيُّها النَّاسُ إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنا فِى دَهْرٍ عَنُودٍ، وَزَمَنٍ كَنُودٍ، يُعَدُّ فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسِيئاً وَيَزْدادُ الظَّالِمُ فِيهِ عُتُوّاً. لا نَنْتَفِعُ بِما عَلِمْنا، وَلا نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنا وَلا نَتَخَوَّفُ قارِعَةً حَتَّى تَحُلَّ بِنا».

الشرح والتفسير

إستهل الإمام عليه السلام الكلام بخطاب عامة الناس ثم أشار الإمام عليه السلام فى الخطبة إلى الزمن الذى كان عليه الناس فقال:

«أيّها الناس أنا قد أصبحنا فى دهر عنود، وزمن كنود».

طبعا ليس المراد بالزمن الأيام والليالى والشهور والسنين بحيث توصف بالقبح والحسن والبغض والتنكر، بل أهل العصر والزمان الذين يتصفون بهذه الصفات، فاذا ما ذكر الزمان بالحسن والقبح فالمراد الناس، وإلّا فليس هنالك من تغيير فى شروق الشمس أو القمر ولا فى حركة القمر حول نفسه أو حول الشمس.

فالشمس تشرق والمطر ينزل والأرض تخرج بركاتها للبشر ولا من تغيير، إلّاأنّ الناس هم الذين يوصفون بسوء الأعمال وحسنها.

فقد عاش الإمام عليه السلام فى عصر لم يسع أغلب أفراده- سوى النزر اليسير- إدراك عظمة روحه وسعة فكره والاحاطة بفضائله ومناقبه، وقد أدت بهم الثروات العظيمة التى أفرزتها الفتوحات الإسلامية واتساع رقعة البلاد إلى التكالب على الدنيا والتهافت على زينتها والحرص على جمع الأموال وحب الجاه والمقام وتناسى القيم والمبادئ.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۶۸

ثم تناول الإمام عليه السلام بعض خصائص الزمان آنذاك والذى يتصف بعناد الناس وجحودهم ليصفه فى خمس عبارات فقال:

«يعد فيه المحسن مسيئاً ويزداد الظالم فيه عتوا»

أو يمكن أن يتهم المحسن بالاثم ويثنى على الظالم؟ بلى إذا تغيّرت قيم المجتمع عد المحسن مسيئاً والمسيىء محسناً.

فإذا كان المال والثراء والقوة هى القيم ومعايير الشخصية، فستكون الصدارة فى ذلك المجتمع للظلمة والطغاة والجبابرة، بينما تميع فى هذا المجتمع شخصية المحسنين الذين يمدون يد العون إلى الفقراء والضعفاء وينفقون عليهم الأموال وينعتونهم بالحماقة والبلاهة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض نماذج الفساد الذى طال المجتمعات البشرية بفعل فساد التعامل مع القيم والتنكر لها ومن ذلك ما أورده بشأن قوم لوط الذين عزموا على إخراج نبيّهم ومن معه من المؤمنين الصالحين ولا ذنب لهم سوى الطهر والعفاف «وَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ»[۲۵۲].

كما اعتبر الظلمة من قوم نوح تلك الثلة الخيرة التى آمنت باللّه والنبى بأنّها من أراذل القوم والسذج الذين ليس لهم من مزية على من سواهم « «ما نَراكَ إِلّا بَشَراً مِثْلَنا وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ».[۲۵۳]

نعم إذا فسد الناس وازداد حجم الظلم والاضطهاد تغير وجه المجتمع وغيبت فيه القيم، وازداد الظالم طغياناً وتجبرا وعدّ المحسن مجرما فيقصى من ذلك المجتمع.

وليس هنالك من نتيجة سوى ما أشار إليها الإمام عليه السلام:

«لاننتفع بما علمنا، ولا نسأل عمّا جهلنا».

والواقع أنّ هذه أسوأ حالة يعيشها الفرد أو المجتمع، أى أنّه لايستثمر علومه ومعارفه فى حل مشاكله ولايهم بالقضاء على الجهل و الاقبال على العلم، وليس هنالك من نتيجة لهذين الأمرين سوى العوم فى بحر الجهل والجريمة، وهذا هو حال كافة الأفراد الذين يغضون الطرف عن مفاسد المجتمع ولايرون لأنفسهم من مسؤولية فى ردعها سواء من خلال اليأس من

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۶۹

الإصلاح أو التعود على هذا الفساد والتكيف معه.

ثم قال:

«ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا.»

الجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام أورد العبارات الأخيرة بصيغة التكلم مع الغير وينسبها إلى نفسه ومن حوله؛ مع القطع بأنّه مبرأ من ذلك بفضل عصمته وورعه وتقواه، ولعل العبارة تهدف عدم جرح مشاعرهم وإثارة حفيظتهم فيجعل نفسه كأحدهم فى مثل هذه الامور.

تأمّلان

۱- ما مفهوم فساد الزمان؟

ذكرنا آنفا أنّ الزمان لايراد به هنا المدة الزمنية لحركة الشمس والقمر (أو دوران الأرض حول نفسها والشمس) فالأزمنة متشابهة ذاتاً، والأشخاص هم الذين يتغيرون والحوادث والواقائع التى تجعل العصر والحياة حلوة أو مرة.

و عليه فاذا قيل بفساد الزمان فالمراد فساد الناس.

ويصدق هذا الأمر على المكان أيضاً، فاذا قيل أنّ المنطقة الفلانية أو البلد الفلانى فاسد فالمقصود فساد أهل تلك المنطقة أو ذلك البلد.

وبالطبع فان هنالك من يحاول استغلال هذه العبارات ليجعل من فساد الزمان أو المكان ذريعة لفساده وانحطاطه.

فاذا سئل عن سبب فساده وانحرافه، إنبرى للجواب: وماذا أفعل فقد فسد العصر أو البيئة التى أعيش فيها، والحال هو ومن حوله مصدر

الفساد. ولعلنا نلمس هذا المعنى فى الاشعار التى تنسب إلى عبدالمطلب جد النبى صلى الله عليه و آله حيث أنشد قائلًا:

و يعيب الناس كلهم زماناوما لزماننا عيب سوانا

نعيب زماننا والعيب فيناولو نطق الزمان بنا هجانا

وان الذئب يترك لحم ذئبويأكل بعضنا بعضا عيانا[۲۵۴]

و من البديهى أنّ زوال فساد الزمان مرهون بتغيير الناس فيشملوا بلطف الله وعنايته «إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ»[۲۵۵]. وبذلك فالإنسان هو المقصر الأصلى على كل حال.

۲- التنكر للقيم

المسألة التى تلعب دوراً مهما فى مصير المجتمعات البشرية والتى قد يغفل عنها الأعم الأغلب من الناس إنّما تتمثل بنظام القيم والمبادى التى تسود المجتمع.

فالمجتمع إنّما ينطلق فى مسيرته نحو المثل والقيم التى يلهمها لأفراده والمقرة من قبلهم، وعليه فالمجتمع يتجه نحو التأكل والزوال إذا ما شهد تغيب القيم والمبادئ.

ونقصد بالمجتمع حركة جميع أفراده ولايقتصر ذلك على بعض الأفراد الذين يتحلون بالايمان والتقوى فيقفون دائما ضد حالات الفساد والانحراف.

وبناءاً على ما تقدم فانّ القيم المقرة فى المجتمع إذا كانت تتجسد فى المال والثروة فانّ كافة الأفراد سيتجهون نحو الثراء كهدف دون الإكتراث لمسائل الحلال والحرام.

والإنسان يتجه بوحى من طبعه إلى صنع الشخصية ولايأل جهدا فى السعى لتحقيق هذا الأمر، فاذا كانت القيم السائدة تتمثل بالشخصية الكاذبة فان الأفراد سيتحركون لامحالة لمثل هذه الشخصية.

والشباب عادة يلهثون خلف السمعة والشهرة ويعشقون الابطال، و عليه فلا يبدو غريباً تقليد الشباب لهؤلاء الابطال حتى فى الثياب واسلوب المشى، ولو كان هؤلاء الابطال هم العلماء والمفكرين فمن الطبيعى أن ينطلق الشباب نحو العلم والمعرفة.

بالمناسبة هنالك قصة طريفة مشهورة بشأن العلّامة الكبير الشيخ البهائى، حيث قرر الشاه عباس الصفوى مكافئة جهوده العلمية وخدماته العمرانية بتقديم هدية تليق بشأنه، فطلب الشيخ أن يستقل مركبه الخاص ويمشى الشاه خلفه لمسافة معينة فى الشوارع والازمة-

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۷۱

فالواقع أراد الشيخ بهذا العمل أن يثبت بأنّ القيم والمثل التى تسود المجتمع ينبغى أن تتمحور حول العلم والمعرفة.

و قد قيل أنّ إقبالًا منقطع النظير قد حدث للعلم بما لم يشهده أبداً فى السابق. جدير بالذكر أنّ القيم والمثل التى كانت تحكم المجتمع الجاهلى قبل الإسلام مصداقاً لقوله عليه السلام:

«بأرض عالمها ملجم وجاهلها مكرم».[۲۵۶]

حيث أبطالها هم أبوسفيان وأبوجهل وأمثالهما، حتى انبثق الإسلام ليرفع شعار التقوى «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ» فيقضى على اولئك الابطال الكاذبين ويستبدلها بالابطال من قبل أبى ذر وأمثاله. وممّا يؤسف له أن هناك بعض الأعمال الخاطئة التى وقعت فى عصر الخلافة الراشدة فادت إلى تغيب تلك القيم الإسلامية المثلى لتعود النعرة الجاهلية من جديد فتصدر المجتمع عمرو بن العاص وأبو موسى الاشعرى بدلًا من مالك الاشتر وأبى ذر وعمار بن ياسر؛ الأمر الذى كان يدمى قلب الإمام عليه السلام، وأدنى ذلك ما

أورده عليه السلام بقوله «يعد فيه المحسن، مسيئا ويزداد الظالم فيه عتواً».

ومن هنا كان هدف الإمام عليه السلام فى أغلب خطبه فى نهج البلاغة يكمن فى إحياء القيم والمثل التى كانت سائدة فى صدر الإسلام.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۷۳

القسم الثانى: الناس أربعة أصناف

اشارة

«فَالنَّاسُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنافٍ: مِنْهُمْ مَنْ لا يَمْنَعُهُ الْفَسادَ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَهانَةُ نَفْسِهِ، وَكَلالَةُ حَدِّهِ، وَنَضِيضُ وَفْرِهِ. وَمِنْهُمْ الْمُصْلِتُ لِسَيْفِهِ، وَالْمُعْلِنُ بِشَرِّهِ، وَالْمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ، قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ، وَأَوْبَقَ دِينَهُ لِحُطامٍ يَنْتَهِزُهُ، أَوْ مِقْنَبٍ يَقُودُهُ، أَوْ مِنْبَرٍ يَفْرَعُهُ. وَلَبِئْسَ الْمَتْجَرُ أَنْ تَرَى الدُّنْيا لِنَفْسِكَ ثَمَناً، وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ اللَّهِ عِوَضاً!

وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ، وَلا يَطْلُبُ الْآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيا قَدْ طامَنَ مِنْ شَخْصِهِ، وَقارَبَ مِنْ خَطْوِهِ وَشَمَّرَ مِنْ ثَوْبِهِ، وَزَخْرَفَ مِنْ نَفْسِهِ لِلْأَمانَةِ، وَاتَّخَذَ سِتْرَ اللَّهِ ذَرِيعَةً إِلَى الْمَعْصِيَةِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ الْمُلْكِ ضُئُولَةُ نَفْسِهِ، وَانْقِطاعُ سَبَبِهِ فَقَصَرَتْهُ الْحالُ عَلَى حالِهِ، فَتَحَلَّى بِاسْمِ الْقَناعَةِ، وَتَزَيَّنَ بِلِباسِ أَهْلِ الزَّهادَةِ، وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ فِى مَراحٍ وَلا مَغْدًى».

الشرح والتفسير

يعرض الإمام عليه السلام- فى هذا القسم من الخطبة- بالتحليل لطلاب الدنيا الذين يصنفهم فى أربعة أصناف وبالطبع فانّ هذه الأصناف لا تختص بمجتمع دون آخر ولا زمان دون آخر بل هى عامة شاملة فقال عليه السلام:

«فالناس على أربعة أصناف، منهم من لا يمنعه الفساد فى الأرض إلّامهانة نفسه،

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۷۴

وكلالة[۲۵۷] حده ونضيض ۲۵۸] وفره».

فالمشكلة فى عدم وجود الماء والا فهم سباحون ماهرون، فباطنهم مفعم بالشر والفساد الا أنهم يفتقرون للالة التى يمارسون بها الظلم والفساد، ومن الطبيعى أن مثل هولاء الأفراد إنّما يتربصون بظاهرهم الوديع الذى لايشوبه أذى.

كما يتوجب على قادة المجتمع إذا ما تعرفوا على هولاء الأفراد الحذار من تزويدهم بالا مكانات فيعيثوا فى الأرض فسادا، وقد أشار القرآن إلى ذلك «وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الحَياةِ الدُّنْيا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصامِ* وَ إِذا تَوَلّى سَعى فِى الأَرضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الفَسادَ».[۲۵۹]

ثم تطرق عليه السلام إلى الصنف الثانى

«و منهم المصلت ۲۶۰] لسيفه والمعلن بشره والمجلب بخيله ورجله»

فقد أعد هذا الصنف من الناس باطنه للظلم والفساد ومحق دينه

«قد أشرط[۲۶۱] نفسه وأوبق ۲۶۲] دينه».

ولكن ما هدف هولاء؟ لا شك أن هدفهم ما أشار إليه الإمام عليه السلام وليس ذاك سوى الحصول على شى من متاع الدنيا أو الأمرة على بعض الأفراد او إرتقاء المنبر ليظهر نفسه للناس بمظهر الخطيب الواعظ

«لحطام ۲۶۳] ينتهزه ۲۶۴]، أو مقتب ۲۶۵] يقوده، أو منبر يفرعه ۲۶۶]».

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۷۵

فالعبارة رغم قصرها فقد أشارت إلى أعمالهم الظاهرية إلى جانِب فسادهم الباطنى واهدافهم الرخيصة، فهؤلاء الأفراد يستفرغون ما فى وسعهم ليصبحوا على غرار فرعون أو قارون أو السامرى. وما اولئك الذين أججوا نيران الجمل وصفين إلّامصاديق بارزة لذلك الصنف من الأفراد، فالبفض اندفع من أجل المال وآخر من أجل المقام والمنصب والآخر من أجل الخلافة. ثم تطرق عليه السلام إلى نتيجة أعمال هؤلاء فقال

«و لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمنا، ومما لك عند اللَّه عوضا»

، ومن الطبيعى أنّ هذا الصنف من الناس الفاسد والشرير- الذى يخبط خبطا عشواء من أجل الظفر بالمال والمقام- لا يقيم لأحكام اللَّه وزنا ولا يصغى لصوت الضمير والوجدان ولا ينقاد لدليل العقل، فقد باع هذا الخزين الثمين بذلك الثمن البخس، باع الدين بالدنيا «أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَلالَةَ بِالهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ»[۲۶۷].

بينما تظافرت الروايات التى تؤكد على قيمة الإنسان وأنّه لا ينبغى له بيع نفسه إلّابثمنها وثمتها الجنّة. كما صرحت الآيه القرآنية بأن بيع النفس بغير الجنّة ورضى اللَّه لا يستبطن سوى الخسران المبين «وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤوفٌ بِالعِبادِ»[۲۶۸].

فالآية تفيد أنّ بعض الناس (كعلى عليه السلام الذى نام على فراش رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ليلة الهجرة) يبيعون أنفسهم من أجل رضى اللَّه سبحانه. وقد ورد عن الإمام على عليه السلام أنّه قال:

«إنّه ليس لأنفسكم ثمن إلّاالجنّة فلا تبيعوها إلّابها»[۲۶۹].

ثم تعرض عليه السلام للصنف الثالث الذى يتصف بالتزوير- وأوضح صفاته

«و منهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا».

فهدف هذا الصنف هو ذات الهدف الذى ينشده الصنف الثانى المذكور مع فارق بسيط هو أنّ اولئك يجنون حطام الدنيا من خلال المنطق الغاشم والظالم والجور، بينما يعتمد هؤلاء على التزوير والخداع والغرور.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۷۶

فالصنفان وإن كانا ضالين ظالمين وخاطئين، إلّاأنّ حال هذا الصنف أسوأ من الصنف الذى سبقة؛ وذلك لأنّه جعل دين الله جسراً لدنياه، وعليه فقد أهلكوا دنيا الآخرين إلى جانب إهلاك دينهم.

آنذاك خاض الإمام عليه السلام فى صفات هذا الصنف

«قد طامن ۲۷۰] من شخصه، وقارب من خطوه، وشمر[۲۷۱] من ثوبه، وزخرف من نفسه للامانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية.»

فالعبارة تشير إلى ظاهر متواضع وسكين ووقار وعدم إلتفات إلى الدنيا وحطامها والتزين بشعار الصالحين واستغلال ستر الله سبحانه للعيوب فى حين هنالك حركة نحو الذنب والمعصية.

وقد يؤمن هذا الصنف بالله واليوم الآخر على مستوى الظاهر، إلّاأنّ هذا الإيمان يقتصر على الظاهر ولم يخترق قلوبهم أبداً، وإلّا فكيف إرتضوا لأنفسهم هذه المعاملة المجحفة بحيث باعوا آخرتهم بدنياهم ومن هنا وردت الروايات التى تصرح بأنّ هؤلاء الخاسرين يوم القيامة- حين تطرح الحجب وتتضح حقيقة كل فرد كما هى- ينادون يا كافر!

يا فاجر! يا غادر! يا خاسر! وينادون

«حبط عملك وبطل أجرك فلا خلاص لك اليوم فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له»[۲۷۲].

وممّا لاشك فيه أن هذا الصنف- كسائر الأصناف الأربعة- لايقتصر فى وجوده على عصر الإمام عليه السلام، بل هو موجود فى كل

عصر و مصر وأنّه لأعظم خطراً من سائر الأصناف على دين المجتمع ودنياه.

وعليه فلابدّ لاتباع الحق من مراقبة هؤلاء والحذار من الوقوع فى فخهم ولحسن الحظ فانّ أغلب هولاء الأفراد يفتضحون عملياً فاذا بلغوا مفترق طرق بين الدين والدنيا ولوا ظهورهم للدين وتهافتوا على الدنيا وآثروا سخط الله على رضى خلقه طمعاً فى الدنيا

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۷۷

وحطامها، فأفكارهم منحطة وهمتهم وضيعة وروحهم ملوثة وباطنهم قبيح والازدواج هو الغالب على شخصيتهم.

وأخيرا يتعرض الإمام عليه السلام للصنف الرابع- أهل التقى الكاذب والزهد الفارغ- فيقول

«ومنهم من أقعده عن طلب الملك ضؤولة[۲۷۳] نفسه، وإنقطاع سببه فقصرته الحال على حاله، فتحلى باسم القناعة، وتزين بلباس أهل الزهادة وليس من ذلك فى مراح ۲۷۴] ولا مغدى».[۲۷۵]

فهم أفراد ضعفاء عجزة لا كفاءة لهم يحاولون التستر بالزهد للتغطية على عجزهم وانعدام جدارتهم والتظاهر بالقوة لاخفاء ضعفهم، والحال ليس لديهم شمة من الزهد والقناعة باطنهم وهم على قسمين: فمنهم من يتستر لخداع النفس ومنهم يخدع نفسه محاولًا إقناع نفسه بأنّه من أهل الزهد والتقوى لا الضعف والعجز يدفعه للتظاهر بذلك. أمّا المراح والمغدى فقد ذهب أغلب أرباب اللغة وشرّاح نهج البلاغة إلى أنّها اسم مكان لاستقرار الماشية فى الصباح والمساء بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّها اسم زمان بمعنى الذهاب والاياب ليل نهار.

كيفما كان فان المفردتين تعبران عن حماقة هؤلاء الأفراد وبلاهتهم التى تجعلهم بهيئة الزهد والقناعة. هناك كلام كثير بين بين المفسرين بشأن فارق الصنف الرابع والأول من جهة والصنف الرابع والثالث من جهة اخرى.

ويبدو أنّ الصنف الأول الذى ينشد الدنيا قد قبع فى زاوية إثر ضعفه وعجزه ولم ينطلق نحو المال والحياه والمقام، وهو لا يصر على ابراز ضعفه وعجزه على أنّه قوة وإقتدار، فى حين يحاول الصنف الرابع أستغلال ضعفه وعجزه بغية الظفر بمكانته فى المجتمع على أنّ ذلك الضعف زهد وقناعة. أمّا فارق الصنف الرابع مع الصنف الثالث هو أنّ الصنف الثالث يعتمد النفاق والتزوير لتحقيق أطماعه ومآربه، بعبارة اخرى ما يجنيه الظلمة من حطام الدنيا بواسطة الظلم والجور يحصل عليه هؤلاء من خلال الرياء وخداع الناس.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۷۸

فهم يبيعون دينهم بدنياهم ويحصلون على الدنيا ومتاعها من خلال الدين، أمّا الصنف الرابع فهو لا يحصل على جاه ومقام، ويكتفى بأن المجتمع ينظر إليه كزاهد قانع.

وأخيراً يشترك الصنف الأول والرابع فى أنّه ليس أقل تكالباً من الصنفين الآخرين إذا ما توفرت الأرضية الخصبة أمامهما للظلم والفساد.

الأصناف الأربعة فى كل مجتمع.

لقد أماط اللثام عن حقيقة هذه الأصناف الأربعة ولفت إنتباه المجتمع إلى الأخطار التى تفرزها حركتها فى المجتمع بفعل فسادها وظلمها ورياءها وزهدها الكاذب، ثم خاض عليه السلام فى صفات كل صنف ليتعرف عليه أفراد المجتمع فلا يقعوا فى شباكهم.

وتشترك هذه الأصناف جميعاً فى الفساد العقائدى والتعلق بالدنيا والجاه والمقام، إلّاأنّها تختلف فى إعداد الأسباب والمقدمات التى تمكنها من الوصول إلى أهدافها، وبعبارة اخرى فانّ الأصناف الأربعة يمكن تقسيمها إلى طائفتين:

طائفة تحقق أهدافها الرخيصة عن طريق الرياء والتزوير: وطائفة لا تحقق أهدافها إلّاأنّها تخفى هذا الفشل فى الزهد والقناعة، ولو تأملنا التأريخ لرأينا هذه الأصناف فى كل عصر ومصر.

وممّا يؤسف له اليوم أنّ المجتمعات الإسلامية هى الاخرى تشهد تغلغل هذه الأصناف؛ الأمر الذى جر عليها الويلات والمصائب.

والحق ليس هنالك من وسيلة للحد من أخطار هذه النماذج سوى فى اتباع كلام الإمام عليه السلام وتشخيص هولاء الأفراد وفضح مخططاتهم وموامرتهم وتحذير الامّة من الوقوع فى شباكهم أو الاغترار بزهدهم الكاذب.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۷۹

القسم الثالث: الصنف الخامس: أولياء الله

«وَبَقِيَ رِجالٌ غَضَّ أَبْصارَهُمْ ذِكْرُ الْمَرْجِعِ وَأَراقَ دُمُوعَهُمْ خَوْفُ الْمَحْشَرِ، فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نادٍّ، وَخائِفٍ مَقْمُوعٍ وَساكِتٍ مَكْعُومٍ وَداعٍ مُخْلِصٍ وَثَكْلانَ مُوجَعٍ قَدْ أَخْمَلَتْهُمُ التَّقِيَّةُ وَشَمِلَتْهُمُ الذِّلَّةُ فَهُمْ فِي بَحْرٍ أُجاجٍ أَفْواهُهُمْ ضامِزَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ قَرِحَةٌ، قَدْ وَعَظُوا حَتَّى مَلُّوا وَقُهِرُوا حَتَّى ذَلُّوا، وَقُتِلُوا حَتَّى قَلُّوا».

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من ذكر الأصناف الأربعة، تطرق إلى الصنف الخامس، وهم أولياء الله وجنود الحق وأخيار الامّة الذين اقصوا عن المجتمع وعادوا غرباء فيه بفعل تسلم زمام الامور من قبل الأصناف الأربعة المذكورة.

وقد لفت الانتباه إلى عظمتهم بالتعبير عنهم بالرجال، بينما عبر عن الأصناف الأربعة بالناس.

والحق أنّ الإمام عليه السلام يرى الصنف الخامس هو محور المجتمع ويحث أتباعه لان يكونوا ضمن هذا الصنف. فقد قال عليه السلام:

«وبقى رجال غض أبصارهم ذكر المرجع وأراق دموعهم خوف المحشر».

وقوله:

«غض أبصارهم»

لايراد به إغماض العين، بل النظرة الشمولية والشعور بمسؤوليتهم تجاه الله سبحانه ويوم القيامة، الشعور الذى إرعش قلوبهم وأراق دموعهم.

فليس هنالك أكثر خشية من ذلك اليوم لمن آمن باللَّه واليوم الآخر ومحكمة العدل الإلهى،

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۸۰

كيف لا- وهو اليوم الذى تطرح فيه الحجب وتبلى فيه السرائر وتتمثل الأعمال التى صدرت من الإنسان طيلة عمره فتنتظر الحساب والجزاء.

ويرى بعض شرّاح نهج البلاغة[۲۷۶] أنّ المرجع فى العبارة المذكورة بمعنى القبر والمحشر القيامة، ولكن بالاستناد إلى التعبيرات القرآنية فان المفردتين وردتا بمعنى واحد، وعليه فيبدو الفارق فى عدم تكرار اللفظ لا المعنى.

والواقع أنّ هذه التعبيرات قد اقتبست من الآية القرآنية الشريفة «رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقامِ الصَّلاةِ وَ إِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصار».[۲۷۷]

ثم تطرق عليه السلام إلى مصير هذا الصنف فى المجتمعات التى تسودها الأصناف الأربعة، بحيث لاينجو كل فرد فيه من خمس: النزوح من البلد والتشريد والتغريب، الخوف واللواذ فى زاوية، السكوت والصمت، الاشتباك بفعل عدم إعارتهم الاذان الصاغية وسماع كلماتهم الحق أو الدعوة إلى اللَّه باخلاص بعيون باكية وقلوب حرى أملا فى التأثير

«فهم بين شريد[۲۷۸] ناد[۲۷۹] وخائف مقموع ۲۸۰] وساكت مكعوم ۲۸۱] وداع مخلص وثكلان ۲۸۲] موجع».

وبالالتفات إلى «شريد» وناد من مادة فد بمعنى المنفرد الهارب من الجماعة إلى الوحدة[۲۸۳] فانّ العبارات المذكورة إشارة إلى أنّ هولاء الأفراد ليسوا مع بعضهم حتى فى المنفى، وكل واحد منهم قد قذف فى بقعة؛ فالطغاة يخشون حتى اجتماعهم فى المهجر

والعبارة «خائف مقموع» إشارة إلى أنّ الطغاة لايكتفون بتهديد هؤلاء الأفراد وإرعابهم، بل لايتورعون عن التضييق

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۸۱

عليهم واستئصال شأفتهم واجتثاث جذورهم.

والعبارة «ساكت مكعوم» أنّ الظلمة لايقتنعون بصمت هؤلاء الأفراد وسكوتهم، بل يسعون دائما لكم أفواههم دون أن ينبسوا ببنت شفة.

والعبارة «داع مخلص» لا تفيد دعوة الناس من أجل نيل المقام والثروة أو ليست هى دعوة دنيوية، بل الدافع من هذه الدعوة هو رضى اللَّه وقيل بل المراد بالعبارة والداعى المخلص من يدعو الناس إلى اللَّه والارتقاء بالمجتمع.

وأخيراً تشير العبارة «ثكلان موجع» إلى أنّ الحزن والآسى يخترق ظاهرهم ليعيشوه فى قلوبهم وأرواحهم. ثم عرض عليه السلام إلى سائر صفاتهم بعبارات قصيرة بعيدة المعانى يتخللها الاسى والأسف فقال عليه السلام:

«قد أخملتهم ۲۸۴] التقية».

فهؤلاء وإن كانوا مجاهدين أشداء، ولكن لما كان جهادهم لاينطوى سوى على أبادتهم فلم يعد أمامهم من سبيل سوى اللجوء إلى التقية؛ التقية التى تؤدى بهم فى خاتمة المطاف إلى العزلة والانطواء ليراهم الأعداء على أنهم أفراد جبناء، كما يراهم الأصدقاء خاملين ليسوا بذات قيمة، والحال أنّ الظروف تجعل من تقيتهم جهاداً ونهوضاً بالوظيفة

«وشملتهم الذلة» هم أعزة عند اللَّه وفى أنفسهم إلّاأنّ غياب القيم والمثل فى المجتمع جعله يراهم ضعفاء أذلة «فهم فى بحر أجاج».[۲۸۵]

كيف لايعومون فى بحر مالح لايسعهم شرب ماء والامّة لم تقف إلى جانبهم وتدعم نهضتهم

«أفواههم ضامزة[۲۸۶]، وقلوبهم قرحة».

ليس هنالك من قلق لدى الأفراد الذين يعيشون اللاابالية فى مثل هذه المجتمعات، ولايقلقهم سوى منافعهم الشخصية، أمّا المجاهدون الذين تكف أفواههم بالقوة، إنّما يتحرقون الماً وقلوبهم تشعر عمق الفاجعة ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة[۲۸۷] إلى أنّ المراد بقلوبهم قرحة أنّها تخاف اللَّه، بينما تشير قرينة الكلام إلى أنّ قروح قلوبهم إنّما تعزى الى الفساد الذى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۸۲

لايستطيعون القضاء عليه ولعل هناك من ينسب هذه المفردات من قبيل الضعف والعجز والسكوت والتقية إليهم كنتيجة لأعمالهم وعدم قيامهم فى الوقت المطلوب، ومن هنا نبه الإمام عليه السلام إلى إزالة هذا الظن فقال عليه السلام:

«قد وعظوا حتى ملوا، وقهروا حتى ذلوا، وقتلوا حتى قلّوا».

فقد خاضوا الجهاد على كافة المستويات وبشتى الطرق والاساليب، من خلال الوعظ باللسان إلى جانب النهضة المسلحة وتقديم الضحايا حتى كثر القتل فى صفوفهم فقل عددهم، وذلك لأنّه لم يكن لهم نصير و لم يكن هنالك من توازن فى القوى مع أعدائهم الذين يفوقونهم عددا وعدة. فقد قاتلوا على أمل تحقيق النصر وإجتثاث جذور الفساد ولم تبق منهم إلّاقلّة لم يكن أمامها سوى التقية حفظا لنفسها ودينها.

والعبارة «قتلوا حتى قلوا» لا- تعنى أنّهم وتروا ولم يبق منهم إلّاالقليل، بل تعنى أستشهد فريق منهم وبقى فريق آخر، والعبارة من قبيل إسناد أوصاف الجزء إلى الكل.

وهنا يطرح هذا السؤال: الاستضعاف المذكور يتعلق بأى زمان، والإمام عليه السلام كان هو الذى يحكم المجتمع؟ وتأمل تأريخ عصر الإمام عليه السلام يوضح الاجابة على هذا السؤال، كما ورد ذلك فى بعض كلماته من أنّ الفساد الاجتماعى كلمة فى عصره بلغ درجة بحيث خفت شعاع شمس حكومة الإمام عليه السلام فى الكوفة وأطرافها، وقد اجتمعت لكمة سائر المناطق من قبيل الشام ومصر

التى عاشت ذروة الشر والفساد والانحراف على إقصاء الصالحين عن مرح الأحداث.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۸۳

القسم الرابع: الاتعاظ بالماضين

«فَلْتَكُنِ الـدُّنْيا فِي أَعْيُنِكُمْ أَصْـغَرَ مِنْ حُثالَـةِ الْقَرَظِ وَقُراضَـةِ الْجَلَمِ وَاتَّعِظُوا بِمَنْ كـانَ قَبْلَكُمْ، قَبْـلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْـدَكُمْ، وَارْفُضُوها ذَمِيمَةً، فَإِنَّهَا قَدْ رَفَضَتْ مَنْ كَانَ أَشْغَفَ بِهَا مِنْكُمْ».

الشرح والتفسير

يـدعو الإمام عليه السـلام الناس فى ختام هذه الخطبة بعبارات مقتضـبة بعيده المعانى إلى الزهد فى الدنيا بصـفته مفتاح سـعادة الإنسان بعد أن ذكر صـفات الأصناف الأربعة الأثيمة والصنف الخامس الذى يمثل الاتقياء من أولياء اللّه، مؤكدا على أن البؤس والشقاء الذى طال الأصناف الأربعة إنّما يستند إلى حب الدنيا والتعلق بزخارفها.

فقال عليه السلام:

«فلتكن الدنيا فى أعينكم أصغر من حثالة[۲۸۸] القرظ وقراضة[۲۸۹] الجلم ۲۹۰]».

والتشبيهات رائعـة غايـة فى الدقـة، فالقرظ (على وزن مرض) بمعنى ورق الأشـجار الذى يسـتفاد منه لدبغ الجلود حتى يشدها ويجعلها أكثر فائـدة، وبالطبع فإن الحثالة التى تطرح بعد الاسـتفادة تكون قذرة ومتعفنة ومدعاة للنفرة، وكذلك حين تقص أصواف الحيوانات تطرح بعض القطعات الصغيرة منه على الأرض دون أن يكون لها أدنى فائدة. فالتشبيه الأول

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۸۴

اسـتبطن النفرة والثانى التفاهة وعدم القيمة والاعتبار، والإمام عليه السـلام يوصـى بأن تكون الدنيا أهون من هذا فى الأعين، الدنيا التى أدى عشق أموالها إلى ظهور القوارين، وعشق مناصبها إلى ظهور الفراعنة والطواغيت الظلمة، وأنّ حبّها رأس كل خطيئة.

من جانب آخر فقد أشار عليه السلام إلى قصر مدة الدنيا وضرورة الاتعاظ بها

«واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من بعدكم».

لقـد جمعوا لها وجهـدوا من أجلها وانصـرفوا، ولم تعـد قصورهم الخاويـة وتيجانهم الباليـة وقـدرتهم الجوفاء التى خلفوها هنا وهناك سوى عبرة لمن اعتبر، فان اعتبربها فهو المطلوب، وإلّا ستكونون أنتم عبرة يعتبر بكم من يأتى بعدكم.

القرآن الكريم من جـانبه لم ينفـك عن دعوةالنـاس للاعتبار بالماضـين، فقـد أورد عبارات توقظ الضـمير وتهز الاعماق بشأن الفراعنة وضرورة الاتعاظ بهم «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ* وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ* كَذ لِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ* فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ».[۲۹۱]

غير أنّه من المؤسف أن بنى إسرائيل لم يعتبروا بهذه الدروس حتى أصبح مصيرهم عبرة لغيرهم.

ثم قال عليه السلام: وارفضوها ذميمة، فانّها قد رفضت من كان أشغف ۲۹۲] بها منكم».

ومن الطبيعى أن يكون مراد الإمام عليه السـلام بهـذه الدنيا المذمومة هى الدنيا التى تقود صاحبها إلى الظلم والطغيان والهوى والفساد لا الدنيا التى تشكل الجسر لعبور أولياء الله إلى الآخرة.

كلام السيد الرضى

قال الشـريف الرضـى: وهذه الخطبة ربما نسـبها من لاعلم له إلى معاوية، وهى كلام أميرالمؤمنين عليه السلام الذى لايشك فيه، وأين الـذهب من الرغام، وأين العـذب من الاجاج! وقد دل على ذلك الدليل الخريت ونقده الناقد الباصـر عمرو بن بحر الجاحظ، فانّه ذكر هذه الخطبة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۸۵

فى كتاب البيان والتبيين وذكر من نسبها إلى معاوية، ثم تكلم من بعدها بكلام فى معناها، جملته أنّه قال: وهذا الكلام بكلام على عليه السلام أشبه، وبمذهبه فى تصنيف الناس، وفى الأخبار عما هم عليه من القهر والاذلال، ومن التقية والخوف، أليق. قال: ومتى وجدنا معاوية فى حال من الأحوال يسلك فى كلامه مسلك الزهاد ومذهب العباد.

الدنيا فى عين أولياء الله.

ماورد فى الخطبة بشأن الأصناف الخمسة فى عصر الإمام عليه السلام (من يقعد به عن طلب الإمرة قلّة ماله، ومن يطلب الامارة ويفسد فى الأرض، ومن يظهر ناموس الدين ويطلب به الدنيا، ومن لامال له أصلًا ويطلب الملك ولايطلب الدنيا، وأولياء اللَّه الاتقياء الأبرار) لا يقتصر على عصر الإمام عليه السلام وزمانه، وهم متواجدون فى كافة المجتمعات الماضية والمعاصرة والآتية، وإنّ كافة المشاكل التى تعانى منها المجتمعات إنّما تنشا من الأصناف الأربعة المذكورة، التى سفكت الدماء وأحرقت الاخضر واليابس وجرعت اتباع الحق صنفوف الأذى والعذاب.

مع ذلك فان الدنيا لم تف لهم وقد أتت عليهم حتى آخرهم ليكونوا عبرة لمن بعدهم.

أما العبارات التى أوردها الإمام عليه السلام بشأن كل صنف وعلاماته وصفاته جعلت من اليسير التعرف عليهم.

ولما كان حبّ الدنيا والتعلق بحطامها هو مصدر الشر والفساد الذى سلكته هذه الأصناف، فانّ الإمام عليه السلام إختتم خطبته بتصوير حقيقته الدنيا بما يجعل العاقل لا يعيرها أدنى أهمية، فقد وصفها بادى ذى بدء بانها اتفه من حثالة القرظ (و هو ما يسقط من ورق السلم أو ثمر السط يدبغ به ممّا لاخير فيه ولاقيمته له)، ثم أشار إلى تقلب حال الدنيا وعدم دوامها وكيف قضت على الماضين وجعلتهم عبرة للآخرين.

فقد ورد فى حديث أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مر بجثة حيوان متعفنة ملقاة على الطريق فأومأ إليها قائلًا: أترون هذه هنية على أهلها؟ فو اللَّه الدنيا أهون على اللَّه من هذه على أهلها» ثم واصل صلى الله عليه و آله حديثه عن الدنيا قائلًا: الدنيا دار من لادار له ومال من لامال له ولها يجمع من لاعقل له وشهواتها يطلب من لافهم له وعليها يعادى من لا علم له وعليها يحسد من لا فقه له ولها يسعى من لايقين له»[۲۹۳].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۸۶

وجاء فى حديث أن الدنيا مثلت للمسيح عليه السلام كعجوز شمطاء فسألها: كم تزوجت.

قالت: كثير. كلهم طلقت. قالت: بل كلهم قتلت. قال عليه السلام: يا ويح أزواجك الباقين، ألا يتعظون بازواجك الماضين ۲۹۴]».

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۸۷

الخطبة[۲۹۵] الثلاثة و الثلاثون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

عند خروجه لقتال أهل البصرة، وفيها حكمة مبعث الرسل، ثم يذكر فضله ويذم الخارجين.

قال عبد اللَّه بن عباس: دخلت على أميرالمؤمنين عليه السلام بذى قار وهو يخصف ۲۹۶] نعله فقال لى:

«ما قيمة هذا النعل؟».

فقلت:

«لا قيمة لها!»

فقال عليه السلام:

«و اللّه لهى أحب إلىّ من أمرتكم ۲۹۷] إلّاأنت أقيم حقا أو أدفع باطلًا»

. ثم خرج فخطب الناس.

نظرة إلى الخطبة.

أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة فى ظل ظروف دعا فيها أصحابه للتعبئة وإطفاء نار الفتنة التى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۸۸

أشعلها طلحة والزبير فى البصرة.

وقد أطلق الإمام عليه السلام- قبل إيراد الخطبة- تلك العبارات التاريخية الخالده لابن عباس؛ العبارات التى تتحدث عن سمو روح الإمام عليه السلام ومقامه الشامخ ومدى معرفته بالله سبحانه، فقد قال عليه السلام

«واللّه لهى- النعل- أحب إلى من إمرتكم الا أن اقيم حقا أو أدفع باطلًا».

هذه هى أهداف الإمام عليه السلام من الامرة والخلافة. ثم ينتقل الإمام عليه السلام إلى بيان خصائص العصر الجاهلى وانبثاق الدعوة الإسلامية، فى اشارة إلى بروز مبادى العصر الجاهلى ثانية وانه لابدّ أن يقتفى آثار رسول اللّه صلى الله عليه و آله ويقتدى بهديه فيقبر الفتن ويبقر الباطل ليخرج منه الحق.

ثم إختتم عليه السلام الخطبة بذم طائفة من قريش ممن أشعلوا نار الجمل ولم تكن دوافعهم من تلك المعركة سوى الحسد والبغض وحب الدنيا.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۸۹

القسم الأول: دحر الباطل

اشارة

«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه و آله وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً وَلا يَدَّعِي نُبُوَّةً فَساقَ النَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ وَبَلَّغَهُمْ مَنْجاتَهُمْ فاسْتَقامَتْ قَناتُهُمْ وَاطْمَأَنَّتْ صَفاتُهُمْ- أَما وَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَفِي ساقَتِها حَتَّى تَوَلَّتْ بِحَذافِيرِها ما عَجَزْتُ وَلا جَبُنْتُ وَإِنَّ مَسِيرِي هَذا لِمِثْلِها: فَلَأَنْقُبَنَّ الْباطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام- كما ذكرنا- إلى بعثة النبى الإكرم صلى الله عليه و آله وظهور الدعوة الإسلامية فى الجزيرة العربية وكيف كانت حياة الناس فى العصر الجاهلى وكيف أصبحت إبان انطلاقه الدعوة، ومدى السعادة التى ظفروا بها، فقال عليه السلام:

«إنّ الله بعثت محمداً صلى الله عليه و آله وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً ولا يدعى نبوة».

أثار بعض شرّاح نهج البلاغة هذا السؤال: كيف يقال لم يكن لاحد من العرب كتاباً سماوياً ولم يكونوا يتبعون نبياً من الأنبياء، والحال كانت طائفة من اليهود والنصارى تعيش هناك ولديها التوراة و الانجيل؟ ثم أجابوا على السؤال من خلال الاشارة إلى تحريف التوراة والانجيل، وعليه فلم يكن لديهم كتاباً بالحق، كما أن اليهود والنصارى كانوا أتباعاً كاذبين، ثم إستدلوا على ذلك بالاية الكريمة «قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَهُدىً لِلنّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً».[۲۹۸]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۹۰

كما إحتمل البعض أن يكون المراد بذلك العرب الذين كانوا يشكلون الأكثرية وكانوا على الشرك والوثنية.

الإجابة الاخرى التى يمكن الرد بها على ذلك السؤال أنّ اليهود لم يكونوا من سكنة الجزيرة العربية بمعنى المواطنة، بل تفيد السير التأريخية أنّهم حين قرأوا فى كتابهم البشارة بظهور نبى الإسلام وأنّ ظهوره بات وشيكا قدموا هناك لدركه، وإن شعروا فى ما بعد بالخطر على مصالحهم فسلكوا سبيل النفاق وعادوا النبى صلى الله عليه و آله، النصارى أيضاً كانوا من المهاجرين ويشكلون الاقلية هناك.

على كل حال فانّ الإمام عليه السلام أشار إلى إبتعاد الأقوام الجاهلية عن أجواء الوحى والنبوة، الأمر الذى يصور مدى غرقهم فى وحل الشرك والفساد.

ثم تطرق عليه السلام إلى الأوضاع التى بلغوها فى ظل إنبثاق الدعوة والاستضاءة بنور الوحى وبزوغ شمس الإسلام

«فساق الناس حتى بوأهم محلتهم وبلغهم منجاتهم»[۲۹۹]

فهو لم يخلصهم من الشرك والكفر و الانحراف العقائدى وينقذهم من الفساد الأخلاقى والظلم والجور وسوء العدل فحسب، بل أخذ بيدهم إلى حيث القوة والعزة والحكومة والحضارة والمدنية، ومن هنا قال عليه السلام

«فاستقامت قناتهم ۳۰۰] واطمأنت صفاتهم ۳۰۱]».

وعليه فقد ظفروا بالنصر المعنوى إلى جانب شمولهم بالنعم المادية و ما ذلك إلّابركة النبى صلى الله عليه و آله ونزول القرآن الكريم والتعبير بمحلتهم إشارة إلى المنزلة الراقية التى ينبغى أن يبلغها الإنسان الفاضل، ومنجاتهم إشارة إلى نقطة النجاة التى ليس معها خوف وخشية ولا قستبطن سوى الفلاح والصلاح.

والعبارة «إستقات قناتهم» وعلى اضواء الاستقامة التى تعنى الاستواء والثبات والقناة بمعنى الرمح تعنى القوة والقدرة والانتصار على العدو.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۹۱

أمّا بعض شرّاح نهج البلاغة فقد ذهب إلى أنّ الاستقامة هنا تشير إلى الرمح كناية عن أنتظام الامور ونظم الحكومة والدولة والمجتمع والقوة والمنعة، ولكن لما كان الرمح عادة مستقيم وإذا إعوج كسر ولا يمكن تسويته (لأنّه يصنع عادة من الخشب لا الفزات)، فانّ العبارة يمكن أن تكون إشارة إلى اطمينان البال واستقرار الذهن؛ لانّ الجنود يغرسون حرابهم فى الأرض وتبقى مستوية مستقيمة حين الهدوء والاستقرار؛ الأمر الذى يفيد أنّهم كانوا آمنين من حملات العدو.

أمّا العبارة «إطمأنت صفاتهم» فهى تشير إلى إستحكام منزلتهم فى ظل ظهور الإسلام ونهضة رسول اللّه صلى الله عليه و آله بحيث إستقرت حياتهم الفردية والاجتماعية.

فالصحارى التى كانت تردد عليها العرب، كانت مليئة بالرمال والحصى المتحركة بحيث يصعب إجتيازها، بينما تسهل حركته وذهابه وايابه وجلوسه إذا إستقر على حجر كبير واسع ومحكم ومستقيم.

ثم قال عليه السلام:

«أمّا واللّه إن كنت لفى ساقتها[۳۰۲] حتى تولت بحذا فيرها[۳۰۳]».

ففى الاوضاع التى يكون فيها الجيش مستجد أو العدو قوى بحيث يحتمل التقهقر والانسحاب، فان آمر الجيش يجعل بعض مساعديه الشجعان فى المؤخرة ليسوقوا الجيش إلى الإمام ويحثونهم على التقدم كما يحولوا دون تراجعهم.

وكأنّ الإمام عليه السلام أشار إلى هذه المسألة فى أن النبى صلى الله عليه و آله قلدنى مسئوؤلية فى سوق الجيش إلى الإمام وتجاوز المخاطر والمشاكل التى تواجهه، أو المراد أنّى والنبى صلى الله عليه و آله فى موخرة هذا الجيش ونسوقه إلى الإمام وقرينة ذلك قوله

فساق الناس» على كل حال فانّ كل هذه إشارات إلى عصر نهضة النبى الإكرم صلى الله عليه و آله والدور الهام الذى لعبه الإمام على عليه السلام فى إنتصار الجيش الإسلامى على معسكر الكفر والشرك.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۹۲

وفى إشارة إلى قيامه بوظيفته على أحسن وجه وبلائه الحسن قال «ما عجزت ولاجبنت» فمن البديهى أنّ الانسحاب إنّما يستند إلى الضعف والعجز أو الخوف والرعب، فقوله عليه السلام

«ما عجزت ولا جبنت»

يتضمن نفيه لعوامل الضعف والتقهقر.

ثم يربط عليه السلام هذه المقدمة بذى المقدمة فالإمام عليه السلام أشار إلى نقطة مهمّة وهى أنّ الامّة الإسلامية آنذاك بدأت تعود إلى الافكار والسنن الجاهلية وهى تبتعد كل يوم أكثر من ذى قبل عن مسيرة النبى صلى الله عليه و آله والقرآن والإسلام، ونموذج ذلك الحركة الظالمة لمشعلى نار الجمل من أجل الحصول على المناصب من خلال نكث البيعة وسفك دماء المسلمين.

فقد أراد الإمام عليه السلام الوقوف بوجه هذه العودة إلى الجاهلية وتجديد رسالته ووظيفته التاريخية فى الحفاظ على المسيرة الإسلامية.

ومن هنا قال

«فلا نقبن ۳۰۴] الباطل حتى يخرج الحق من جنبه.»

وبالالتفات إلى أن «أنقبن» من مادة «نقب» بمعنى ثقب الشئ وشقه، فانّ العبارة تشير إلى حقيقة هى أنّ الحق لايظهر ما لم تتبدد حجب الباطل، بعبارة اخرى فانّ الباطل يسعى على الدوام ليغطى على الحق وبكتمه، فاذا شقت حجب الباطل، تنفس نور الحق واتضح عياناً للجميع. ويمكن أن تكون العبارة إشارة الى قيام أساس العالم على الحق، وإنّ الحق كامن فى باطن كل موجود، ولاسيما فى الفطرة البشرية، بينما الباطل أمر عارض طارىء على الإنسان.

فاذا زال هذا العارض ظهر الحق من باطن الأشياء. وقد ورد مثل هذا المعنى فى الخطبة ۱۰۴

«وآيم الله لابقرن الباطل حتى أخرج الحق من خاصرته».

تأمّلات

اشارة

نفحات الولاية ؛ ج۲ ؛ ص۱۹۲

۱- من أخبار يوم ذى قار

كما ورد فى شرح الخطبة فان «ذى قار» موضع بين البصرة والكوفة شهد معركة قبل

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۹۳

الإسلام بين العرب والجيش الساسانى الذى هزم فى المعركة وانتصر فيها العرب.[۳۰۵] وقيل فى تسميته أنه كان فيها بئراً ماؤه أسود كالقير.

عن ابن عباس، قال: لما نزلنا مع علىّ عليه‌السلام ذا قار، قلتُ: يا أميرالمؤمنين، ما أقلّ مَنْ يأتيك من أهل الكوفة فيما أظنّ! فقال: واللّه

لَيأتينّى منهم ستة آلاف وخمسمائةٍ وستون رجلًا؛ لا يزيدون ولا ينقصون.

قال ابن عباس: فدخلَنى واللَّه من ذلك شكٌّ شديد فى قوله، وقلت فى نفسى: واللَّه إن قدِمُوا لأعَدّنّهم.

ثم نفَر إلى علىّ عليه السلام إلى ذِى قار من الكوفة فى البحر والبرّ ستةُ آلاف وخمسمائة وستون رجلًا. أقام علىّ بذى قار خمسة عشر يوماً، حتى سمع صهيل الخيل وشحيج البغال حوله. قال: فلما سار بهم منقلة، قال ابنُعباس: واللَّهِ لأعُدّنّهم، فإن كانوا كما قال، وإلّا أتممتُهم من غيرهم؛ فإنّ النّاس قد كانوا سمعوا قوله. قال: فعرضتُهم فو اللَّه ما وجدتُهم يزيدون رجلًا، ولا ينقصون رجلًا، فقلت: اللَّه أكبر! صدق اللَّه ورسوله! ثم سرنا.

لعل كلام إبن عباس إشارة إلى أن الإمام عليه السلام سمع هذه الأمور من رسول الله صلى الله عليه و آله ثم أخبر بها.

قال ابن أبى الحديد بعد ذلك: فلما قدم أهلُ الكوفة على علىّ عليه السلام، سلّما عليه، وقالوا: الحمدُللَّه يا أميرالمؤمنين، الَّذى اختصَّنَا بموازرتك، وأكرَمنا بُنصرتك؛ قد أجبناك طائعين غيرَ مكرهين، فمرْنا بأمرك.

قال: فقام فحمداللَّه وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال:

مرحباً بأهل الكوفة، بيوتاتِ العرب ووجُوهها، وأهل الفضل وفرسانها، وأشدِّ العرب مودّة لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه ولأهل بيته.[۳۰۶]

۲- جاهلية العرب

مهما قيل ويقال بشأن عظمة الإسلام وانبثاقه وسط امّة متخلفة ومتعصبة فهو قليل. فقد

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۹۴

إنطوت الامّة فى العصر الجاهلى على سلسلة من الانحرافات والصفات الرذيلة، ونكتفى هنا بالاشارة فقط إلى التعصب الذى كان سائدا آنذاك والذى لم يكن يسمح لأفكار الآخرين باختراقه.

ويعتقد أحد المحققين المسيحيين بالارتباط الوثيق بين التعصب الجاهلى ومناخ الحجاز، فيقول:

«تتصف تلك المنطقة بالجفاف، فكانت طبيعة الناس هى الاخرى الصلابة والشدة، وكان من الاعجاز تسلل الأفكار الإسلامية إليه».

وإذا أضفنا إلى ذلك الجهل والابتعاد عن العلم وهبوط المستوى الفكرى والضحالة الثقافية والتلوث بأنواع الخرافات التى تدعو إلى التعصب والعناد لأدركنا حجم الاعجاز فى هدايتهم وانتشالهم من تلك الدوامة.

وقد تعرض القرآن الكريم إلى جانب من تلك العصبية، ومن ذلك قوله «سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ»[۳۰۷] وقوله «وَ إِذ قالُوا اللّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً ...».[۳۰۸]

وتشير أسباب نزول مثل هذه الآيات إلى عمق التعصب الذى كان يحكمهم بحيث كانوا مستعدين للتضحية بانفسهم تعصبا حقا إن هداية مثل هذه الاقوام تبدو من المعاجز الكبرى؛ الأمر الذى أشيرله فى الخطبة المذكورة، وإن عادت تلك الامّة للأسف بعد رحيل النبى الإكرم صلى الله عليه و آله بمدّة قصيرة إلى جاهليتها الاولى وتسلمت بعض المناصب الحساسة فى الحكومة الإسلامية لتذهب جهود النبى صلى الله عليه و آله أدارج الرياح، ومن هنا فقد سعى الإمام عليه السلام جاهداً لاعادة الامّة إلى عصر الرسالة.

۳- حديث خاصف النعل

لقد ورد فى بداية الخطبة عبارة «يخصف نعله» التى تذكرنا بحديث النبى صلى الله عليه و آله بشأن فضائل على عليه السلام خاصف النعل. حيث جاء فى سنن الترمذى أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله كان يكلم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۹۵

مشركى قريش فخاطبهم قائلًا:

«لتنتهن أو ليبعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين قد إمتحن الله قلبه للايمان»

فسأله من حضر: ومن ذاك؟ وسأله أبوبكر: من هو؟

وسأله عمر: ومن هو؟ فقال صلى الله عليه و آله: هو خاصف النعل: حيث كان على عليه السلام يخصف نعلى رسول الله صلى الله عليه و آله ... ثم نقل الترمذى عن أبى عيسى أنّه حديث صحيح.[۳۰۹]

ومن الطبيعى أنّ ذلك العمل الذى صدر من الإمام عليه السلام على عهده وعهد النبى صلى الله عليه و آله إنّما يفيد تواضع الإمام عليه السلام للناس وانصرافه عن الدنيا.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۹۷

القسم الثانى: مالى ولقريش؟

اشارة

«ما لِي وَلِقُرَيْشٍ؟ وَاللَّهِ لَقَدْ قاتَلْتُهُمْ كافِرِينَ وَلَاقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ وَإِنِّى لَصاحِبُهُمْ بِالْأَمْسِ كَما أَنا صاحِبُهُمُ الْيَوْمَ! وَاللَّهِ ما تَنْقِمُ مِنَّا قُرَيْشٌ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ اخْتارَنا عَلَيْهِمْ، فَأَدْخَلْنَاهُمْ فِى حَيِّزِنَا فَكَانُوا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ:

أَدَمْتَ لَعَمْرِى شُرْبَكَ الْمَحْضَ صابِحاًوَأَكْلَكَ بِالزُّبْدِ الْمُقَشَّرَةَ الْبُجْرا

وَنَحْنُ وَهَبْناكَ الْعَلاءَ وَلَمْ تَكُنْعَلِيّاً وَحُطْنا حَوْلَكَ الْجُرْدَ وَالسُّمْرا».

الشرح والتفسير

يشير الإمام عليه السلام هنا إلى طبيعة علاقته فى السابق والحاضر بقريش، لأنّه أورد هذه الخطبة على هامش موقعة الجمل: حيث نعلم بأنّ مؤججى نار الجمل هم طلحة والزبير وسائر الأفراد من قريش الذين خططوا لهذه المعركة بدافع من أحقادهم تجاه الإمام عليه السلام. فقد كانوا يديرون هذه المعركة علانية أو خفية ومن هنا فانّ كلمات الإمام عليه السلام تضمنت تحذير الامّة من عدم الوقوع فى شباكهم إلى جانب تنبيهها إلى الدوافع الأصلية لهذه المعركة، فاستهل عليه السلام كلامه قائلًا:

«مالى ولقريش؟ والله لقد قاتلتهم كافرين ولا قاتلتنهم مفتونين ۳۱۰]»

نعم فهؤلاء كانوا على الشرك، وقد التحقوا بالمسلمين بسيف على عليه السلام ودعوة النبى صلى الله عليه و آله، إلّاأنّهم وبعد وفاة النبى صلى الله عليه و آله وبدافع من حب الجاه قد إبتعدوا عن الحق حتى هبوا لقتال وصى رسول الله صلى الله عليه و آله بعد أن بايعوه طواعية.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۹۸

مفتون من مادة فتن بمعنى الانحراف كما تأتى بمعنى الشرك والكفر، ولعلها تشير فى العبارة إلى انحرافهم عن الإسلام نحو الكفر وقد ورد فى الرواية عن رسول الله صلى الله عليه و آله أنّه قال لعلى عليه السلام:

«يا على حربك حربى وسلمك سلمى»[۳۱۱]

. وعلى ضوء هذا الحديث فقد خرج من ربقة الإسلام من قاتل علياً عليه السلام فى الجمل وصفين ونهروان؛ لأن ممّا لاشك فيه هو كفر من قاتل النبى صلى الله عليه و آله. وهنا يمكن أن يطرح هذا السؤال: لو كان الأمر كذلك لوجب على جيش على عليه السلام فى الجمل أن يأسر من هب لقتاله ويستولى على أموالهم كغنائم، بينما لم يعاملهم الإمام عليه السلام كذلك؟

قيل فى الجواب لقد كان للاماماً عليه السلام الحق فى أن يفعل هكذا، إلّاأنّ بعض الامور من قبيل شرائط الزمان والمكان جعلته ينصرف عن هذا الأمر. أضف إلى ذلك فانّه ليس هنالك من ضرورة فى تكافى أحكام جميع الكفار، فممكن أن يستثنى من حكم الأسر ومصادرة الأموال كغنائم حربية هذه الطائفة من المسلمين التى خرجت على إمام زمانها ودخلت الكفر. فقد جاء فى بعض الروايات أن مروان بن الحكم.

قال: إنّ علياً عليه السلام أعاد الأموال إلى أهلها لما غلبنا فى البصرة، فكان يعيد أموال كل من أقام البينة أو يأتى بالشهود، ويحلف من ليس له بينة. ولما سئل عن توزيع الغنائم سكت ثم قال:

أيّكم يأخذ أُمّه فى سهمه ۳۱۲].

وتفيد بعض الروايات أنّه عفى عن أهل البصرة كما فعل رسول الله صلى الله عليه و آله حين فتح مكة. كما يستفاد أنّه لم يرد أن تكون هذه المسئلة سنة، لأنه كان يعلم بان شيعته ستخضع لضغوط الظلمة ولعلها تعاملهم بهذه المعاملة[۳۱۳].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۹۹

على كل حال فان مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة أنّه لا يكن أى بغض أوعداء لقريش، أما بذور حسدهم للإمام عليه السلام فسببها وقوف الإمام عليه السلام بوجههم فى ميادين صراع الحق ضد الباطل إبان إنبثاق الدعوة الإسلامية، ولم يكن ذلك سوى إمتثالا لأوامر الله. ثم قال عليه السلام:

«وإنى لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم»

فما زال السيف الذى جندلت به الابطال فى بدر وأحد والاحزاب بيدى، فالوا قع هذا تهديد صريح لمؤججى نار الجمل.

وتساءل البعض أن مثل هذا الكلام يصدق على معاوية و عمرو بن العاص ومروان وأمثالهم الذين هبوا لقتال رسول الله صلى الله عليه و آله، إلّاأنّه لا يصدق على طلحة والزبير، فقد وقفا إلى جانب رسول الله صلى الله عليه و آله فى معاركه. وقد أجيبب على هذا السؤال بأن الإمام عليه السلام لم يرد شخصاً معيناً، إلّا أنّ الهدف بيان حقيقة أنّه كان يقاتل فى سبيل الحق ضد الباطل على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله ومازال بعد النبى صلى الله عليه و آله يقاتل فى هذا السبيل (ونعلم أن قريشاً كانت تقاتل آنذاك ضد المسلمين). أضف إلى ذلك صحيح أنّ طلحة والزبير كانا مع رسول الله صلى الله عليه و آله، إلّاأنّ أغلب أصحابه الجمل ومنهم مروان كانوا من قريش. ثم أشار عليه السلام إلى أحد دوافع أصحاب الجمل فقال

«والله ما تنقم منا قريش إلّاأنّ الله إختارنا عليهم، فأدخلناهم فى حيزنا»

ثم وصفهم بأنّهم أصبحوا كما قال الشاعر[۳۱۴].

أدمت لعمرى شربك المحض ۳۱۵] صَابحا

وأكلك بالزبد[۳۱۶] المقشرة[۳۱۷] البجرا[۳۱۸]

ونحن وهبناك العلاء ولم تكن عليا وحطنا حولك الجرد[۳۱۹] والسمرا[۳۲۰]

نعم فهؤلاء يحسدوننا ويبغون علينا، إلّاأنّ إرادة الله هى التى إختارتنا للنبوة والإمامة،

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۰۰

مع ذلك لم نعاملهم بالمثل فقد عفونا عن أخطائهم وحفظنا هم من الاعداء، إلّاأنّهم لم يتنكروا لهذه النعمة فحسب، بل شهروا سيوفهم علينا وهبوا لقتالنا، فقد قطعوا الرحم وقابلوا الاحسان بالجحود وأشعلوا نار حرب الجمل فسفكوا الدماء وزرعوا الفرقة فى صفوف المسلمين.

فقريش تشبه بعملها هذا ذلك الحسود الذى يعترض على حكمة الله، فقد قال سبحانه «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ»[۳۲۱].

وقال «أَمْ يَحْسُدُونَ النّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَآتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً»[۳۲۲].

وقال «قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلَّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ»[۳۲۳].

ومن الطبيعى أنّ الإنسان المؤمن بالمفاهيم القرآنية والاصول الإسلامية لا يشعر بالحسد تجاه من يشمله الله على ضوء حكمته بالنبوة والإمامة، فلا يرى نفسه سوى مسلهم لهذه الحكمة.

الحسد مصدر الاضطراب الاجتماعى

قلما نجد صفة رذيلة كالحسد كانت السبب وراء هذه الأحداث الأليمة والفجائع المأساوية التى شهدتها المجتمعات البشرية طيلة التأريخ. فأغلب الناس إثر قلّة العلم وهبوط المستوى الثقا فى وضعف الإيمان وعدم الثقة بالنفس ما إن يرى بعض النجاحات التى يحققها أقرانه أو أمثاله حتى تشتعل فى قلبه فتائل الحسد فلا يهم سوى فى كيفية تحطيم نفسية المقابل عن طريق الاتهام والتحقير والذم ومحاولة الانتقاص أو إيجاد بعض الموانع والمعوقات فى طريقه، بدلًا من الشعور بالفرح والسرور والاحتذاء به من أجل تحقيق النجاح والتغلب على الصعاب

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۰۱

والانفتاح على تجاربه وارشاداته. وقد يشتد هذا الحسد حتى يبلغ درجة تدعو إلى إراقة دم المحسود من قبل الحاسد. ولا ننسى هنا أنّ أول دم إريق كان سببه الحسد، الذى دفع بقابيل لقتل أخيه هابيل حيث قبل قربان الثانى ولم يقبل قربان الأول، الأمر الذى تكرر كثيرا فى التأريخ حتى قتل الأخ أخاه والابن أباه وبالعكس.

وهكذا تعود أغلب الحوادث الأليمة التى وقعت فى صدر الإسلام ولا سيما فى عصر خلافة أمير المؤمنين على عليه السلام إلى الحسد؛ الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة. وقد تعرضت أغلب الروايات إلى ذم هذه الرذيلة التى لا تجر سوى الفساد على المجتمع، فقد قال على عليه السلام:

«إذا أمطر التحاسد نبت التفاسد»[۳۲۴]

. أما النقطة المهمة التى أرشدت إليها الخطبة فتكمن فى ضرورة عدم مقابلة المحسود للحاسد بالمثل، بل يسعى جاهدا لاطفاء نار الحسد من قلبه من خلال شكر النعمة ومداراة الحاسد وإطفاء حسده بمعاملته بالحب والإحسان، وما أحسن ما قال الشاعر:

إصبر على حسد الحسود فان صبرك قاتلهالنار تاكل نفسها إن لم تجد ما تأكله ۳۲۵].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۰۳

الخطبة[۳۲۶] الرابعة والثلاثون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

فى إستنفار الناس الى أهل الشام بعد فراغه من أمر الخوارج. وفيها يتأفف بالناس، وينصح لهم بطريق السداد.

مناسبة الخطبة

خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة كما ورد آنفا بعد فراغه من معركة النهروان. ويستفاد من ظاهر كلام ابن أبى الحديد أن الإمام

عليه السلام خطبها فى النهروان، بينما نقل عن نصر بن مزاحم أنّها أول خطبة خطبها بعد قدومه من النهروان لما كره القوم المسير إلى الشام عقيب واقعة النهروان، وأقبلوا يتسللون ويدخلون الكوفة، فلما رأى ذلك دخل الكوفة فخطبهم ۳۲۷].

وصرح البعض من شرّاح نهج البلاغة أن الإمام عليه السلام كان حريص فى النهروان على الحركة إلى الشام دون ضياع الفرصة، لأنّه كان يرى أنّ العودة إلى الكوفة تعنى إسترخاء الجيش وصعوبة تجهزه ثانية، إلّاأنّهم كانوا يتعللون ببرودة الجو ووجود الجرحى وعدم كفاية الأسلحة فلم يطيعوا أوامر الإمام عليه السلام. فاضطر الإمام عليه السلام إلى دخول الكوفة ليجهزهم للقاء

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۰۴

العدو، ولكن (وكما تكهن سابقاً) تشبثوا بالحجج، فتأثر الإمام عليه السلام وخطب الناس بهذه الخطبة[۳۲۸].

نظرة إلى الخطبة

تعالج هذه الخطبة ثلاثة مواضيع وهى:

۱- التأكيد على جهاد العدو والعواقب الوخيمة لترك الجهاد. والذى يمثل أطول جانب من الخطبة فالإمام عليه السلام يعرض باللوم لأهل الكوفة- فى هذا القسم من الخطبة الذى يشكل معظمها- ويذمهم بمختلف العبارات الشديدة القسوة. وبالطبع فانّ ذلك جاء بعد عدم جدوى كافة الأساليب عن طريق الاستدلال والبرهان والمنطق والمحبة لتعبئتهم للجهاد ومواجهة العدو، فلم يكن أمامه سوى هذا الاسلوب، فقد كان يشبههم أحياناً بالمجانين الذين فقدوا شعورهم وأحاسيسهم فلم يعودوا يدركوا ما يضرهم وينفعهم، وأحياناً اخرى يشبههم بالابل التى ضل رعاتها، ثم يسعى لتعبئتهم من خلال تنبيههم إلى قسوة عدوهم.

۲- عزمه الراسخ فى مجابهة العدو سواء كان هناك من يهب لنصرته أم لم يكن.

۳- الحقوق المتبادلة بين الإمام والامّة، فيعرض بادىء ذى بدء إلى حقوق الامّة على الإمام، فيلخصها فى أربع عبارات، ثم يبين باربع عبارات اخرى حقوق الإمام على الامّة.

وكأن الإمام عليه السلام أراد أن يختتم الخطبة بما يحيل مرارة ذمه حلاوة عل ذلك يجدى نفعاً فى علاج ضعفهم وتقاعسهم.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۰۵

القسم الأول: لم الخشية من الشهادة؟

اشارة

«أُفٍّ لَكُمْ لَقَدْ سَئِمْتُ عِتابَكُمْ! أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ عِوَضاً وَبِالذُّلِّ مِنَ الْعِزِّ خَلَفاً؟ إِذا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهادِ عَدُوِّكُمْ دارَتْ أَعْيُنُكُمْ، كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِى غَمْرَةٍ وَمِنَ الذُّهُولِ فِى سَكْرَةٍ يُرْتَجُ عَلَيْكُمْ حَوَارِى فَتَعْمَهُونَ، وَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ فَأَنْتُمْ لا تَعْقِلُونَ! مَا أَنْتُمْ لِى بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيالِى، وَما أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمالُ بِكُمْ، وَلا زَوافِرُ عِزٍّ يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ».

الشرح والتفسير

يستهل الإمام عليه السلام خطبته بامطار أهل الكوفه بوابل عتابه ولومه وذمه لتجاهلهم المخاطر التى كانت تهدد البلد الإسلامى وعدم إكتراثهم لها، لعل قصبتهم تهتز فيحولوا دون تفاقم تلك المخاطر. فقد كان أهل الشام يشنون الغارة تلو الغارة على مختلف المناطق الإسلامية ويسفكون دماء المسلمين وينهبون أموالهم وثرواتهم. فقد قال الإمام عليه السلام

«أف لكم ۳۲۹] لقد سئمت ۳۳۰] عتابكم»

ودليل ذلك واضح، فالعتاب ولاسيما من شخص كعلى عليه السلام لابدّ أن يكون له تأثيراً واضحاً فى نفس المعاتبين ودفعهم لاعادة

النظر فى أعمالهم الطالحة، إمّا إذا لم يحصل هذا

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۰۶

التأثير بسبب غفلة المقابل فان تكراره لا ينطوى سوى على الملل والتعب. ثم قال عليه السلام:

«أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضا؟ وبالذل من العز خلفا؟»

إنّ هذا سكوتكم المميت وفراركم من الجهاد يدل على أنكم أوبقتم آخر تكم واستبدلتموها ببضعة أيام من الدنيا من جانب، ومن جانب آخر فقد أفريتم دنياكم، وذلك لانكم استبدلتم العزة والرفعة بالذلة والضعة؟ والحال إن موتاً بعزة أشرف بكثيرمن حياة بذلة؛ الرسالة التى لقنها أولياء الله والزعماء الربانيين أتباعهم على مدى العصور والدهور. فقد قال على عليه السلام فى نهج البلاغة

«فالموت فى حياتكم مقهورين والحياة فى موتكم قاهرين»[۳۳۱]

وقال سيد الشهداء

«ألا وإنّ الدعى بن الدعى قد ركزنى بين إثنتين بين السلة والذلة وهيهات منا الذلة»

ثم خاطب جيش الكوفة

«إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخشون المعاد فكونوا أحراراً فى دنياكم»

فالواقع أنّ عبارات الإمام عليه السلام كانت تمثل دليل سئمه عتابهم وكأنّهم عقدوا العزم على إيثار الذلة والحقارة وغضب الله على العزة والشرف ورضى الله، ومن هنا لم يعد للعتاب من أثر عليهم، حتى سئم الإمام عليه السلام عتابهم. أمّا فى العبارة اللاحقة فيشير الإمام عليه السلام إلى ضعفهم ليلتفتوا إلى أنفسهم فيزيلوا ذلك الضعف فقال عليه السلام:

«إذا دعوتكم إلى جهاد عدوكم دارت أعينكم، فأنّكم من الموت فى غمرة[۳۳۲] ومن الذهول فى سكرة. يرتج عليكم حوارى ۳۳۳] فتعمهون ۳۳۴]»

. قوله عليه السلام «يرتج عليكم حوارى»- بالنظر إلى الحوار الذى يعنى الكلام المكرر ويرتج من مادة (رت ج) بمعنى يغلق- له معنيان: الأول ما ذكر سابقاً، أى أنّ كلامى المكرر لا يؤثر فيكم فأنكم لا تدركوه، لأنّ باب الفهم أغلق بوجوهكم. والثانى أنّ لسانكم عقد عن جوابى، وذلك لأنّكم لا تمتلكون الرد المنطقى على كلامى- على كل حال فانّ نتيجة المعنيين واحدة تضمنتها العبارة اللاحقة وهى حيرتهم وضلالهم

«وكأن قلوبكم مألوسة[۳۳۵] فانتم لا تعقلون».

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۰۷

ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة

«ما أنتم لى بثقة سجيس ۳۳۶] الليالى»

. وبالنظر إلى أن سجيس الليالى»

تعنى ظلمة الليل فانّ معنى العبارة مادامت الليالى بظلامها فليس لى من ثقة بكم، وهى كناية عن الأبدية والخلود، لأن الظلمة لا تفارق الليل أبداً. أما اختيار ظلمة الليل فينطوى على منتهى البلاغة إستنادا إلى أفكار أهل الكوفة وأعمالهم السوداء المظلمة. ثم أكد ذلك بقوله

«وما أنتم بركن يمال بكم ولا زوافر[۳۳۷] عز يفتقر إليكم»

وهكذا أعلن الإمام عليه السلام بهذه العبارات عدم ثقته واعتماده على هذه العناصر الضعيفة بعد أن تطرق لنقاط ضعفهم، أملا فى إثارتهم وتعبئتهم لتوحيد الصف ومجابهة العدو. ودخولهم الميدان بكل قوة وشجاعة.

جدوى الذم واللوم

نرى أنفسنا مضطرين مرة اخرى لملاحقة هذا السؤال: لم كل هذا العتاب واللوم من قبل الإمام عليه السلام- وهو ما هو عليه من العلم والحكمة فى إدارة شؤون الناس- لأهل الكوفة وامطارهم بوابل من الكلمات القاسية العنيفة؟ أفلا يؤدى هذا الكلام الذى ينطوى على العتاب والذم وانعدام الثقة إلى نفرتهم وشدة تعصيّهم وابتعادهم عن الحق؟ ولابدّ من القول فى الجواب أنّ الإمام عليه السلام قد خبر نفسية وروحية أهل الكوفة، وقد أثبت التأريخ أن اهل الكوفة لم يكونوا يتحركون إلّاإذا داهمهم الخطر وعرضهم للزوال بالمرة، بعبارة اخرى فانّ العتاب لايجدى معهم نفعا ما لم يجرح مشاعرهم ويثير أحاسيسهم.

ويبدو أنّ المجتمعات البشرية إنّما تشتمل دائما على طائفة- وإن كانت ضئيلة- لا تفيق إلى نفسها ما لم تتلق ضربات موجعة متتالية.

ولا يفهم من كلام الإمام عليه السلام إننا ينبغى أن نعتمد هذا الاسلوب تجاه من عاش الغفلة وتخلى عن وظيفته ومسؤوليته؛ لأنّ الأفراد على أنواع: بعضهم يعود إلى نفسه بأدنى إشارة فيستقيم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۰۸

على الطريق، وبعضهم لايتحرك ما لم توخزه بابرة.

وبناءاً على هذا فان ذلك الاسلوب إنّما يختص بتلك الجماعة بفضله العلاج الأخير لدائهم.

وقد أثبت التاريخ أن ذلك الاسلوب كان قد أثر فى أغلب أهل الكوفة فاندفعوا إلى النخيلة وتأهبوا لقتال أهل الشام، غير أنّ شهادة أميرالمؤمنين عليه السلام على يد عبدالرحمن بن ملجم أشقى الآخرين حالت دون ذلك.

والشاهد الآخر على ذلك أنّ الإمام عليه السلام كان كثيراً ما يثنى على أهل الكوفة أوائل حكومته ۳۳۸]، إلّاأنّهم حين ضعفوا واستقوى عليهم أهل الشام فكانوا يهجمون كل يوم على منطقة من مناطق البلاد الإسلامية، لم ير عليه السلام بداً من مخاطبتهم بهذا الاسلوب.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۰۹

القسم الثانى: يقظة العدو وسيات النصير

اشارة

«ما أَنْتُمْ إِلَّا كَإِبِلٍ ضَلَّ رُعَاتُهَا فَكُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ انْتَشَرَتْ مِنْ آخَرَ لَبِئْسَ لَعَمْرُ اللَّهِ سُعْرُ نارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ! تُكادُونَ وَلا تَكِيدُونَ وَتُنْتَقَصُ أَطْرافُكُمْ فَلا تَمْتَعِضُونَ!

لا يُنامُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ فِى غَفْلَةٍ ساهُونَ، غُلِبَ وَاللَّهِ الْمُتَخاذِلُونَ! وَايْمُ اللَّهِ إِنِّى لَأَظُنُّ بِكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَى، وَاسْتَحَرَّ الْمَوْتُ، قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِى طالِبٍ انْفِراجَ الرَّأْسِ».

الشرح والتفسير

يواصل الإمام عليه السلام عتابه وذمه لعسكر الكوفة

«ما أنتم إلّاكابل ضل رعاتها فكلما جمعت من جانب إنتشرت من آخر»

فالمراد أنّ إرادتكم ضعيفة وأفكاركم مشتتة ولا تميزون مصالحكم، فقد شبههم عليه السلام بالابل لضيق أفقهم وضحالة أفكارهم، وقوله «ضل رعاتها» اشارة إلى عدم طاعتهم لائمتهم وأوليائهم.

ومن البديهى أن هؤلاء الأفراد لايسعهم أن يكونوا قوة أمام العدو ولذلك قال عليه السلام:

«لبئس لعمر[۳۳۹] الله سعر[۳۴۰] نار الحرب أنتم».

فالحرب ظاهرة ممجوجة غير محببة وآثارها خراب البلدان وقتل الإنسان والفقر والجهل

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۱۰

والبؤس والشقاء والتخلف، إلّاأنّ نفس ظاهرة اللوم هذه قد تكون دواءاً حيوياً للمجتمع وذلك حين ينهض العدو ليهضم حقوق الامّة وينشر فى ربوعها الذعر والفساد والانحراف.

فلا يمكن إعادة الأمن والسلام والعدل إلى المجتمع إلّامن خلال الحرب. ومن هنا صرح القرآن الكريم قائلا: «اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير»[۳۴۱] وقال فى موضع آخر «وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَلاتَعْتَدُوا إِنَّاللَّهَلايُحِبُّ المُعْتَدِينَ»[۳۴۲].

وعليه فانّ الإمام عليه السلام إذا أشار إلى الحرب، فانّما ذلك لتكرر إعتداءات وحملات أهل الشام وسفكهم للدماء ونهبهم للأموال بل هبوا فى الواقع لمحاربة وصى رسول الله صلى الله عليه و آله من بايعته الأمّة برمتها.

ومن هنا خاطبهم

«تكادون ولاتكيدون، وتنتقض أطرافكم فلا تمتعضون،[۳۴۳] لا ينام عنكم وأنتم فى غفلة ساهون».

ومن الواضح أنّ من لايستعد لمواجهة العدو ويتأهب لخططه التدميرية فانّ قراه ومدنه الحدودية إنّما تكون على الدوام مسرحاً لعمليات العدو ليمارس بحق أهلها القتل والدمار ونهب خيراتهم وثرواتهم، وليس هنالك من مصير بافضل من هذا المصير ينتظر اولئك الذين يعيشون الغفلة عن عدوهم.

وما أعظم قساوة إصدار الأحكام بشأن الإمام على عليه السلام واتهامه بالضعف وقلّة التدبير فى الحروب إذا لم يحط بحقيقة أهل الكوفة والضعف والوهن الذى كان سائدا لديهم إلى جانب عدم الطاعة والتمرد الذى طبعت عليه سجيتهم.

بعد ذلك يخلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة أعمالهم فيقول

«غلب والله المتخاذلون»

نعم فالفشل والهزيمة لا تقتصر على هولاء الذين تصدعت وحدتهم وتخلوا عن مجابهة العدو، بل الهزيمة من القوانين الثابتة التى يمنى بها كل من يعيش هذه المفردات من قبيل الفرقة والنفاق والضعف والوهن وعدم الطاعة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۱۱

ثم قال عليه السلام:

«وآيم الله ۳۴۴] انى لاظن بكم أن لو حمس ۳۴۵] الوغى ۳۴۶] واستحر[۳۴۷] الموت، قد انفرجتم عن إبن أبى طالب إنفراج الرأس».

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى عدّة امور بهذا التشبيه: الأول إنّ مكانته وإن كانت بمثابة الرأس من الجسد، ولكن هل للرأس- الذى يعتبر مركز الفكر ويضم العين والاذن واللسان- أن يفعل شيئا دون سائر الاعضاء؟ والثانى: هل من حياة ووجود لهذا الجسد إن فصل عنه الرأس، وإن كان فيه فهل له فعل شئ دون معونة العقل والفكر والسمع والبصر.

وأخيرا يتعذر التئام الرأس بالجسد إذا ما فصل عنه، بينما ليست هنالك مثل هذه الصعوبة فى إلتئام سائر أعضاء البدن.

وعليه فان مراد الإمام عليه السلام هو أنكم تنفرجون عنى وليس لكم العودة إلى اذا حمى الوطيس وأخذكم الخوف فهربتم منى كما احتمل بعض الشرّاح أنّ المراد بقوله:

«أنفراج الرأس»

هو فلق الرأس بضربة السيف التى تأبى الالتئام.[۳۴۸]

عوامل اخرى للضعف والهزيمة

يتطرق الإمام عليه السلام بفضله زعيماً إنسانياً وسياسياً وعسكرياً- فى هذا القسم من الخطبة- إلى العوامل التى تقف وراء الضعف

والفشل والهزيمة، فيجملها بعبارات قصيرة بعيدة المعانى وفى مقدمتها التشتت والفرقة وعدم إمتلاك الزعيم الأوحد، الأمر الذى يشاهد بوضوح اليوم فى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۱۲

البلدان الإسلامية، حيث تؤدى الفرقة والانفسام إلى هذه الفوضى والانفلات فى صفوف الامّة.

والطريف فى الأمر أن الجميع يتحدث عن الوحدة، بينما يسهم كل حسب قدرته بتأجيج نيران الفرقة والاختلاف.

والثانى عدم وجود الخطط والمشاريع الصحيحة التى يمكنها مواجهة مخططات العدو الخبيثة والتى أشير إليها بالعبارة «تكادون ولا تكيدون». الثالثالاستهانة ببعض الحوادث الصغيرة- وهى كبيرة فى الواقع- والتى تعرض لها الإمام عليه السلام بقوله

«وتنتقص أطرافكم فلا تمتعضون»

فاغلب الحوادث الصغيرة تكشف عن عمق بعض المسائل المهمة الخفية، فتغيير بسيط فى البدن قد يعكس حالة مستعصية فى باطنه، وهذا ما عليه الحال بالنسبة للقضايا الاجتماعية والسياسية والعسكرية.

فاذا رأينا العدو قد هجم على منطقة حدودية صغيرة، أو إغتال شخصية من البلد، لابدّ أن نعلم بأنّه إنّما يعدّ نفسه لمعركة أكبر وأعنف، وإلّا لما تجاسر وارتكب ذلك العمل.

وعليه لابدّ من الالتفات إلى الأعمال فى بدياتها وعدم الغفلة عن القضايا العضال التى تستبطنها وتختزنها. الرابع يقظة العدو وغفلتنا، فالعدو منهمك على الدوام فى إعداد العِدّة والعُدة، بينما ننظر بكل سذاجة إلى الاوضاع القائمة على أنها تمثل السلام العادل والمشرف، فاذا قدر لنا أن نفيق من غفلتنا، رأينا زمام المبادرة قد سلبت من أيدينا. الخامس خوف الموت والفرار من الشهادة فى سبيل الله والتى أشار إليها الإمام عليه السلام بقوله

«وآيم الله! انى لأظن ...».

والواقع إن الإنسان ليغفل عن حقيقة مفادها أن خشية الموت سبب الموت: والاستعداد للتضحية والفداء يعد من أسباب حفظ النفس.

كانت هذه بعض النقاط المهمة المرتبطة بالضعف والهزيمة التى أوردها الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة وسنتابع تفاصيل هذه المسألة فى الابحاث القادمة ذات الصلة. فقد تطرق الإمام عليه السلام فى الخطبة الخامسة والعشرين إلى سائر عوامل الضعف والفشل والهزيمة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۱۳

القسم الثالث: الانفراد فى مجابهة العدو

اشارة

«وَاللَّهِ إِنَّ امْرَأً يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ يَعْرُقُ لَحْمَهُ وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ وَيَفْرِى جِلْدَهُ لَعَظِيمٌ عَجْزُهُ، ضَعِيفٌ ما ضُمَّتْ عَلَيْهِ جَوانِحُ صَدْرِهِ. أَنْتَ فَكُنْ ذاكَ إِنْ شِئْتَ فَأَمَّا أَنَا، فَوَاللَّهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ ضَرْبٌ بِالْمَشْرَفِيَّةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَراشُ الْهامِ، وَتَطِيحُ السَّواعِدُ وَالْأَقْدامُ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ ما يَشاءُ».

الشرح والتفسير

يتحدث الإمام عليه السلام عن العناصر الضعيفة والهزيلة التى تمكن عدوها من نفسها فيقول

«والله إن إمرء يمكن عدوه من نفسه يعرق ۳۴۹] لحمه ويهشمّ ۳۵۰] عظمه و يفرى ۳۵۱] جلده لعظيم عجزه، ضعيف ما ضمت عليه جوانح ۳۵۲] صدره»

فالعبارة تبين بصراحة أنّ الضعف والوهن بلغ ذروته فى جيش الكوفة بحيث اندفع العدو يكل ما اوتى من قوة ليسدد له الضربات التى تحز اللحم وتطحن العظام، وهى أروع عبارة تجسد تسلط العدو وتحكمه فى مصير الضعفاء العجزة، كما تضمنت قمة الفصاحة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۱۴

والبلاغة بحيث تكفى لا ثارة من بقى لديه ثمة إحساس وشعور.

نعم هكذا كانت سيطرة أهل الشام ومعاملتهم لأهل العراق، لم يرعوا إلّاولا ذمة فى أحد، فكانوا يقتلون الأبرياء ولا يرحمون الضعفاء وينهبون الأموال والثروات ويخربون البيوت.

فالواقع عمل هؤلاء أشبه بفعل القصابِ بالذبيحة يسلخ جلدها ويحز لحمها عن عظمها ويعدها لقمة سائغة للأكل. أمّا بعض المفسرين فقد ذهبوا إلى أنّ كل عبارة من هذه الجمل الثلاث مستقلة، فقوله «يعرق لحمه» تعنى نهب الأموال و «يهشم عظمه» قتل الناس و «يفرى جلده» إشارة إلى الاخلال بنظام المجتمع ۳۵۳]، وبالطبع ليست هنالك من قرينة واضحة على هذا التفسير. أمّا الشيخ المرحوم مغنية قد علق فى شرحه على هذه العبارة فى أننا سمعنا كثيراً عن المقاومة السلبية تجاه الطواغيت والظلمة كأن ينتحر الفرد أو يحرق نفسه إلّااننا لم نسمع من يستسلم للعدو إلى الحد الذى يعرق لحمه ويهشم عظمه ويفرى جلده دون أن يدافع عن نفسه، فليس هنالك أرعب وأشنع من هذا الخوف بحيث يلقى الجبان الضعيف بنفسه إلى قصابى البشرية ليذبحوه بهذه الطريقة ويجعلوه لقمة سائغة لهم ۳۵۴].

كما يحتمل إلّاتكون العبارات الثلاث المذكورة بشأن فرد واحد، بل يفعل العدو هذه الامور بشأن عدة أفراد كأن يعرق لحم البعض ويهشم عظم الآخر ويفرى جلد الثالث وعلى ضوى هذا التفسير يمكن حل السؤال الوارد بشأن ترتيب العبارات فى أنّ الإمام عليه السلام لم جعل فرى اللحم فى آخر العبارة. فكأنّ جواب الإمام عليه السلام أنّ جنايات العدو تجاهكم فى مرحلة هى فصل اللحم عن العظم، ثم يتقدم فى مرحلة اخرى ليهشم العظم وأخيراً لا يبقى أمامه سوى فرى جلد البدن. وذهب بعض المفسرين إلى أنّ هذه العبارات إشارات إلى بعض الحوادث التى وقعت بعد شهادته عليه السلام وسيطرة معاوية وأهل الشام على العراق ولم يرحموا صغيراً ولا كبيراً ولا صحيحاً ولا مريضاً ولا فقيراً ولا غنياً ولا رجالًا ولا نساءاً[۳۵۵]. ولكن يبدو أنّها ليست مختصة بذلك الزمان، وإن كانت أشد وأقسى آنذاك.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۱۵

أمّا العبارة

«ما ضمت عليه جوانح صدره»

- بالالتفات إلى أن الجوانح جمع جانحة بمعنى الاضلاع- فالمراد بها القلب، وهدف الإمام من قوله

«ما ضمت عليه جوانح صدره»

بيان روحية جيش الكوفة ومدى عجزه. ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى نقطة مهمّة وأساسية يكشف فيها عن إتخاذه القرار الحاسم بشأن المستقبل وما يحمله من أحداث

«أنت فكن ذاك إن شئت فأمّا أنا فوالله دون أن أعطى ذلك ضرب بالمشرفية تطير منه قراش ۳۵۶] الهام، وتطيح ۳۵۷] السواعد والأقدام، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء».

وأمّا من المخاطب بقوله عليه السلام أنت فكن ذاك؟ هنالك احتمالان: الأول أن إنّما خاطب من يمكن عدود من نفسه كائنا من كان، غير معين ولا مخصص، والاحتمال الاخر أنّه خاطب بذلك الأشعث بن قيس، فانّه روى أنّه عليه السلام قال وهو يخطب ويلوم الناس على تثبيطهم وتقاعدهم:

هلّا فعلت فعل ابن عفان! فقال له:

«إن امراً مكن عدوه من نفسه، يعرق لحمه ويهشم عظمه ويفرى جلده. أنت فكن ذاك ...»

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام فصل نفسه عنهم بعد أن يأس منهم، فافهمهم أنكم إن آثرتم الاستسلام للعدو فسبيلى غير سبيلكم وليس للعدو عندى إلّا السيف وسأقاتله بمفردى، فلكل وظيفة وليس أنا من يتقاعس عن إداء وظيفته، فان تخليتم عن وظيفتكم ورضيتم لأنفسكم الذل والهوان والاستسلام للعدو وعرضتم البلد الإسلامى للدمار والابتزاز وخليتم وأهل الشام لينهبوا الأموال ويعتدوا على الاعراض، فليس لى إلّا أن أقاتلهم وحدى وأنا مستعد للشهادة التى لا أوثر عليها شيئاً ولن أشعر بالضعف أبداً. وكأنّ الإمام عليه السلام أراد أن بهذه الكلمات أن يشد أزر ذلك النزر اليسير من الأفراد الشجعان الذين لا يخلو منهم جيش الكوفة، كما يزيل الشك عن قلوب بعض المترددين ليلتحقوا به، ويرشد التأريخ إلى مدى الأثر الذى لعبه كلام الإمام عليه السلام فيهم. فقد شعروا بقوتهم من جديد وتأهبوا لمنازلة العدو.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۱۶

العزم النهائى للزعيم الشجاع

قد تشهد الحياة الاجتماعية والسياسية بعض اللحظات الحساسة التى تجعل الزعماء فى موضع لا يحسدون عليه، وتتفعل هذه اللحظات حين يشتد الضعف والخلاف والترديد فى إتخاذ القرار؛ الأمر الذى يمنح العدو بعض عناصر القوة فى المباغتة.

وهنا لابدّ أن ينبرى الزعيم الشجاع ليعلن قراره الحاسم بهذا الشأن ليفهم الجميع بأنّه مستعد للقتال وخوض غمار الحرب بمفرده سواءاً كان هناك من يقف إلى جانبه أم لا، فليس هنالك سوى الشهادة التى تأبى المقارنة بالخضوع والاستسلام. وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى الخطبة، وقد وقفنا على مثيله من أبى الضيم والأحرار الإمام الحسين عليه السلام. فقد إتفقت كلمة الأصحاب ليلة عاشوراء فى مواكبة إمامهم عليه السلام ولا سيما حين رفع الإمام عليه السلام بيعته عن الجميع وأذن لهم بالانصراف، حيث انصرف أغلب الضعفاء والعجزة وانفرجوا عن الإمام عليه السلام وهربوا من خوض الجهاد، ولم يبق معه إلّاقلّة قليلة، لينهض كل واحد منها ويعبر عن موقفه ومساندته للإمام عليه السلام وان قتل سبعين قتله، وآخر قال لو اقتل واحرق ثم اقتل ويفعل بى ذلك سبعين مرة لما تركتك، وما شابه ذلك من المواقف التى عبر عنها صحبه الاوفياء[۳۵۸].

وقد أشار أمير المؤمنين على عليه السلام- فى الرسالة ۳۶ من رسائله فى نهج البلاغة- إلى هذا المعنى، حيث قال لأخيه عقيل

«وأما ما سألت عنه من رأيى فى القتال: فان رأيى قتال المحلين حتى ألقى الله لا يزيدنى كثرة الناس حولى عزة ولا تفرقهم عنى وحشة ولا تحسبن ابن أبيك- ولو أسلمه الناس- متضرعاً متخشعاً ولا مقراً للضيم واهناً»

. كما نصطدم فى قصة موسى عليه السلام بقومه الذين أعربوا عن خوفهم من مجابهة العمالقة لما بلغوا بوابة بيت المقدس فضعفت إرادتهم وترددوا فى إتخاذ القرار، حتى تمردوا على نبيّهم موسى عليه السلام وأخيه هارون عليه السلام واعلنوا موقفهم.

المخزى بكل صراحة «قالُوا يا مُوسىٰ إِنّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها فَاذهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنّا هٰهُنا قاعِدُونَ»[۳۵۹].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۱۷

فما كان من موسى عليه السلام إلّاأن أعلن موقفه منهم وانفصاله عنهم «قالَ رَبِّ إِنِّى لا أَمْلِك إِلّا نَفْسِى وَأَخِى فَافْرُقْ بَيْنَنا وَبَيْنَ القَوْمِ الفاسِقِينَ»[۳۶۰].

وهذا هو موقف نبى الله نوح عليه السلام «وَا تْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِن كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِى وَتَذكِيرِى بِآياتِ اللّٰهِ فَعَلى اللّٰهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَىَّ وَلا تُنْظِرُونَ»[۳۶۱].

ولا شك إنّ لهذا الموقف الصادم الذى يتخذه الزعيم أثره الكبير فى نفوس أتباعه، حيث يشعر الأفراد بارتفاع معنوياتهم وقوة شوكتهم إلى جانب عودة الضعفاء إلى الحق والشعور بالقوة والاقتدار ويضطرها لاتخاذ ذات الموقف.

وأدنى معطيات ذلك الموقف أنه يشكل وثيقة تأريخية حية فى سيرة هؤلاء الزعماء الابطال والذى يلهم الأجيال العزم والإرادة والقوة، وهـذا ما نلمسه بوضوح فى الملحمـة الحسينية فى كربلاء والتى مازالت تلهم الامم والشـعوب كل عناصـر القوة والاقتـدار فى مواجهة الظلم والاضطهاد والطغيان.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۱۹

القسم الرابع: حقى عليكم وحقكم على

اشارة

«أَيُّها النَّاسُ إِنَّ لِى عَلَيْكُمْ حَقّاً وَلَكُمْ عَلَىَّ حَقٌّ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَىَّ: فالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلا تَجْهَلُوا، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْما تَعْلَمُوا وَأَمَّا حَقِّى عَلَيْكُمْ: فالْوَفاءُ بِالْبَيْعَةِ وَالنَّصِيحَةُ فِى الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ، وَالْإِجابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ».

الشرح والتفسير

يختتم الإمـام عليه السـلام خطبته بـالتعرض لاـهم القضايـا المرتبطـة بالحكومـة والتى تكمن فى حق الإمام على الامّـة وحق الامّـة على الإمام، فيوجزها بعبارات مقتضـية عظيمة المعانى، حيث يشير إلى أربعة متبادلة لكل منهما. فقد تحدث بادى زى بدء عن حقوق الامّة، ومن شـأن تقـديم حقوق الامّـة على الإمـام على العكس، أنّه مـدعاة للتـأثير فى نفوس السـامعين، إلى جانب كشـفه عن البعـد الشـعبى والجماهيرى للحكومـة الإسـلامية، كما يفيـد عمق فارق هـذه الحكومـة مع الحكومات المسـتبدة الغاشـمة والحكام الطغاة الذين يرون أنفسهم ما لكى رقاب الامّة فيعاملونها معاملة المالك والمملوك أو الاقطاع والمزارع.

فقد قال عليه السلام:

«أيها الناس إنّ لى عليكم حقاً، ولكم على حق».

والحق وإن ذكر بصورة مفردة إلّاأنّه يفيـد معنى جنس الحق الـذى ينطوى على مفهوم عام، أما تنكيره فيشـير إلى عظمـة هذه الحقوق، لأنّ الاتيان بالنكرة قد يفيد التعظيم أحياناً.

فيتطرق الإمام عليه السلام إلى الحق الأول للُامّة فيقول

«فأمّا حقكم على: فالنصحية لكم».

النصيحة تعنى الخلوص ومن هنا يصطلح على العسل الخالص بالناصح.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۲۰

كما وردت بمعنى الخياطة، ولذلك يطلق الناصح على الخياط، ثم اطلقت على كل عمل خير خالص خال من الغل والغش.

وتسـتعمل هـذه المفردة بشأن اللّه والنبى والقرآن وأفراد الامّة والإمام والأمّة، حيث تتمتع بالإشارة إلى أحد مصاديقها الواسـعة حسـب مقتضى الحال ومورد الاستعمال.

وقد ورد فى بعض المصادر اللغوية أنّ النصـيحة تشـتمل على معان متفرقة، فمثلًا النصـيحة لله تعنى الاعتقاد بوحدانيته واخلاص النيّة له فى العبادة ونصـرة الحق، والنصـحية للقرآن تعنى التصديق به والعمل بأحكامه والدفاع عن آياته، تجاه تأويل الجهلاء وتحريف الغلاة، والنصحية للنبى هى التصديق بنبوته ورسالته وطاعة أوامره.

ومن هنا يبـدو أنّ المراد بالنصـيحة فى العبارة العمل من أجل الارتقاء بالجوانب الماديـة والمعنويـة للُامّـة من خلال البرامـج والمشاريع الصـحيحية، حيث تشكل هذه المشاريع الخطوة الاولى لتحقيق خير الامّة، وعليه فلابدّ أن يكون للإمام والولى والزعيم مشروعاً صحيحاً

وجامعاً يتضمن تأمين المصالح المادية والمعنوية لأفراد الامّة ويأخذ بايديهم إلى الكمال المنشود.

والحق إن هذه المسألة لمن المسائد الحيوية المهمّة فى عالمنا المعاصر والتى تحظى بأهمية فائقة، حيث يعتقد أغلب العلماء والمنكرين أن العراقيل التى تنطوى عليها المسيرة الاجتماعية إنّما أفرزتها بالدرجة الأساس مشكلة عدم وجود المشاريع والخطط الصحيحة.

ثم يشير عليه السلام إلى الحق الثانى- ذات الصلة بالجانب الاقتصادى- فيقول

«وتوفير فيئكم عليكم.»

فالعدالة الاجتماعية فى المجال الاقتصادى تعد من أهم مشاكل المجتمعات البشرية، فأغلب الحروب والنزاعات الدموية ومعظم المفاسد الاجتماعية إنّما تعزى إلى تغييب العدالة الاجتماعية.

ومن هنا فانّ إعادة الأمن والسلام والنظام والاستقرار والوقوف بوجه المفاسد الاخلاقية ومختلف الانحرافات إنّما تتطلب بادىء ذى بدء إحياء العدالة الاجتماعية وتفعيلها فى المجتمع.

وإستناد إلى أنّ المفردة «فىء» حسب أرباب اللغة أنّها العودة والرجوع إلى حالة الخير

نفحات الولاية، ج٢، ص: ٢٢١

والاحسان، فانّها تطلق إيضاً على الظل حين يرجع من طرف الغرب إلى الشرق.

وتطلق هذه المفردة فى الآيات القرآنية والاحاديث النبوية على الأموال التى تصل المسلمين من الكفار، فقد تطلق على الأموال التى تصل دون القتال، وحتى على مثل هذه الأموال والانفال التى تعنى الثروات الطبيعية للحكومة الإسلامية التى ليست لها ملكية شخصية.

والفيئ فى العبارات المذكورة تعنى جميع أموال بيت المال، فقوله عليه السلام توفير فيئكم تعنى أنّ وظيفة الحاكم الإسلامى تعنى إداء الأموال العامة إلى المحتاجين والمعوزين وأصحاب الحق، أى تنظيم الامور الاقتصادية والمعاشية لُلامّة أما الحق الثالث الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فيرتبط بالتعليم والشؤون الثقافية

«وتعليمكم كيلا تجهلوا».

نعم فالإمام لابدّ أن يعتمد الاسلوب التعليمى الصحيح ويهب لمكافحة الجهل والامية ويرفع المستوى الثقافى لدى الناس ويستأصل جذور الجهل التى تقود الامّة إلى التخلف والانحطاط. وأمّا الحق الرابع والأخير فهو

«وتأديبكم كيما تعلموا».

فالواقع أنّ الإمام عليه السلام أوجز الحقوق المهمّة لُلامة فى أربع هى:

١- المشاريع والخطط الصحيحة

٢- العدالة الاجتماعية فى المجال الاقتصادى

٣- التعليم

٤- التربية والتهذيب والقضاء على الفساد الاخلاقى

جدير بالذكر أنّ الإمام عبر عن الحق الثالث بقوله

«وتعليمكم كيلا تجهلوا» والحق الرابع «وتأديبكم كيما تعلموا».

والحال أنّ نتيجة التعليم هى العلم والمعرفة، بينما يقود التأديب إلى تربية الخصال الأخلاقية لا العلم والمعرفة، إلّاأنّ مراد الإمام عليه السلام:

لابدّ أن تقفوا على آثار الفضائل وأضرار الرذائل، لتتحلوا بالاولى وتواجهوا الثانية- فالحق الثالث يشير فى الواقع إلى العقل النظرى بينما يشير الحق الرابع إلى العقل العملى ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى حقوق الإمام على الامّة الإسلامية وأوجزها هى الاخرى فى أربع

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۲۲

فقال عليه السلام:

«وأما حقى عليكم: فالوفاء بالبيعة».

والبيعة هى العهد بين الامّة والإمام؛ العهد الموثق الذى يجب العمل به، وعلى ضوء هذا العهد فانّ الإمام والحاكم لابدّ أن يأخذ بنظر الاعتبار مصالحة الامّة ويرسى دعائم الأمن والاستقرار ويقاتل العدو ويمهد السبيل أمام الامّة للسمو والتكامل، كما يجب على الامّة أن تشد أزره وتقف إلى جانبه وتتجنب كل ما من شأنه تشد أزره وتقف إلى جانبه وتتجنب كل ما من شأته المساس بهذا العهد والميثاق الحق الثانى الذى ذكره الإمام عليه السلام:

«والنصيحة فى المشهد والمغيب»

فلا يكونوا منافقين يظهرون المحبّة والاخلاص فى حضوره، فان غاب عاثوا الفساد وسلكوا الخيانة.

فقد لايكون الإمام حاضراً بينهم على الدوام، إلّاأنّ اللّه حاضرا لا يخفى عليه شئ ولا ينبغى أن يعيش المومن الغفلة عن هذا الأمر أمّا الحق الثالث الذى ذكره الإمام عليه السلام:

«والإجابة حين أدعوكم»

فلا ينبغى أن تتعللوا ببعض الذرائع فراراً من مواكبتى، لابدّ أن تطيعوا أوامرى وتقتفوا أثرى، والحق الرابع والاخير «والطاعة حين آمركم» فلعل البعض يلبى دعوة الإمام، إلّا أنّه لايطيع مايصدره من أوامر، وعليه فاجابة الدعوة لابدّ أن تكلل بطاعة الاوامر.

وبالطبع فانّ حقوق الإمام على الامّة إنّما تعود بالنفع مباشرة على الامّة، وعليه فلا ينبغى لهم أن يمنوا على الإمام، بل الإمام يمن على الامّة بانه يعتمد هذه الحقوق لاعادة الأمن والاستقرار إلى الامّة واعمار بلادها. وقد صرح بعض شرّاح نهج البلاغة بأنّ هذه الحقوق المتبادلة إنّما تختص بالإمام العادل المنصوب من جانب اللّه سبحانه، لا لكل إمام صالح كان أم طالح، ومن هنا قال الإمام عليه السلام: «إنّ لى عليكم حقاً»[۳۶۲].

لكن يبدو أنّ عبارة الإمام شاملة عامة وهذا ما يفهم من قوله عليه السلام

«لابدّ الناس من أمير بر أو فاجر»[۳۶۳]

فكل من تزعم أمور المجتمع وأراد أن ينهض بالامّة لابدّ أن يحترم الحقوق الأربع التى ينبغى أن تتمتع بها الامّة والتى أشار إليها الإمام عليه السلام ويبدو أن العقل والمنطق يرشد إلى ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطبة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۲۳

تأمّلان

۱- الحقوق المتبادلة للإمام والامّة

إنّ الحكومة رابطة بين الإمام والامّة على غرار رابطة الرأس بالجسد، حيث يتعذر القيام بالوظائف دون تظافر جميع الجهود، بعبارة اخرى فانّ أولياء الله فى الوقت الذى يكوتون فيه خلفاء الله فى الخلق، فهم خلفاء الامّة من أجل ضمان مصالحها، ومن هنا كانت الحقوق المتبادلة بين الإمام والامّة من أثقل الحقوق وأعظمها.

وقد وردت الأبحاث المسهبة فى الروايات بشأن هذه الحقوق، والتى تفيد مدى إهتمام الإسلام بهذا الموضوع الحيوى.

فقد افرد المرحوم الكلينى باباً فى المجلد الأول من كتابه أصول الكافى بهذا الخصوص وقد نقل أول حديث فيه عن أبى حمزة انه سأل الإمام الباقر عليه السلام:

«ما حق الإمام على الناس»؟

قال عليه السلام:

«حقه عليهم أن يسمعوا له ويطيعوه»

قال فقلت له:

«وما حقهم عليه».

قال:

«يقسم بينهم بالسوية ويعدل فى الرعية».

ولا يستبعد أن تكون الجملة الاولى إشارة إلى المسائل الاقتصادية والثانية إلى القضايا الاجتماعية والسياسية. ثم قال عليه السلام آخر الحديث:

«فاذا كان ذاك فى الناس فلا يبالى من أخذ هاهنا وهاهنا»[۳۶۴]

فى إشارة إلى أنّ الناس على كل حال إنّما يحصلون على حقهم. سواء كان مصداقه هنا أم هناك.

حقاً أن سيرة أمير المؤمنين عليه السلام انموذج مهم لابدّ من اعتماده كقدوة فى الحكومة الإسلامية.

فقد كان عليه السلام شديداً فى أمر العدالة حتى وقف نفسه وضحى بها من أجلها. قال ابن أبى الحديد:

روى على بن محمد بن أبى‌يوسف المدائنى عن فضيل بن الجْعد، قال: آكدُ الأسباب فى تقاعد العرب عن أميرالمؤمنين عليه‌السلام أمْر المال، فإنّه لم يكُنْ يُفَضِّلُ شريفاً على مشروف، ولا عربيّاً على عَجَميّ، ولا يُصانع الرؤساء وأمراء القبائل، كما يصنع الملوك، ولا يستميلُ أحداً إلى نفسه. وكان معاوية بخلاف ذلك، فترك الناس علياً والتحقوا بمعاوية؛ فشكى على

عليه السلام إلى الأشتر تخاذُلَ أصحابه، وفرار بعضهم إلى معاوية، فقال الأشتر: يا أميرالمؤمنين؛ إنا قاتلنا أهل البَصْرة بأهلِ البصرة وأهل الكوفة، ورأى الناس واحد، وقد اختلفوا بعد، و وضعفت النيّة، وقلّ العدد، وأنت تأخُذُهم بالعدل، وتعمل فيهم بالحق، وتُنْصِف الوضيع من الشريف؛ فليس للشريف عندك فَضْلُ منزلةٍ على الوضيع، فضجّت طائفة ممّن معك من الحقّ إذ عُمُّوا به، واغتمُّوامن العدل إذ صاروا فيه، ورأوا صنائعَ معاوية عند أهل الغَناء والشرف، فتاقَتْ أنفُس النّاس إلى الدنيا، وقَلّ مَنْ ليس للدنيا بصاحب، وأكثرهم يَجْتوى الحقّ ويشترى الباطل، ويؤثر الدنيا، فإن تَبْذُلِ المال يا أميرَالمؤمنين تَمِلْ إليك أعناقُ الرجال، وتَصْف نصيحتُهم لك، وتَسْتَخْلِصْ وُدّهم؛ صنع اللّه لك يا أميرالمؤمنين! وكَبتَ أعداءك، وفضّ جمعهم، أوهن كيدَهم، وشَتّت أمورَهم، إنّه بما يعملون خبير.

فقال علىّ عليه السلام: أمّا ما ذكرت من عَمَلنا وسِيرتنا بالعَدْل؛ فإنّ اللّه عزّوجلّ يقول:

«مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلّامٍ لِلْعَبِيدِ»؛ وأنا من أن أكون مُقَصِّراً فيما ذكرتَ أخْوَفُ.

وأما ما ذكرت من أنّ الحق ثَقُل عليهم ففارقونا لذلك، فقد علم اللّه أنّهم لم يُفارقونا من جَوْر، ولا لجُاوا إذ فارقونا إلى عَدْل، ولم يلتمسوا إلّادنيا زائلة عنهم كان قد فارقوها؛ وَلَيُسْأَلُنَّ يوم القيامة: أللدنيا أرادوا أم للّه عملوا؟

وأمّا مَا ذكرْتَ من بَذْل الأموال واصطناع الرجال؛ فإنّه لا يَسَعُنا أن نؤتىَ أمراً من الفيء أكثرَ من حقّه، وقد قال اللّه سبحانه وتعالى وقوله الحق: «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصّابِرِينَ»، وقد بعث اللّه محمّدا صلى اللّه عليه وحْدَه؛ فكثّره بعد القلة، وأعَزَّ فئته بعد الذِّلَّة؛ وإنْ يُرِدِ اللّه أنْ يولِيَنا هذا الأمرَ يذلّل لنا صَعْبَه، ويُسَهِّل لنا حَزْنه، وأنا قابل من رأيك ما كان للّه عزّوجلّ رضاً؛ وأنت من آمن الناس عندى، وأنصحِهم لى، أوْثَقِهم فى نفسى إنْ شاء اللّه.

۲- تعارض الحق والمصلحة!

عادة ما يحدث تعارض بين الحق والمصلحة ليكون أحدهما مقابل الآخر. وغالباً ما يميل

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۲۵

ساسة الدنيا فی هذه الحالة إلی المصلحة ويقدمونها علی الحق. والتأريخ مليیء بنماذج هذا التعارض وما أكثره فی عصرنا الراهن حيث نشاهده كل يوم- أما أولياء الله والقادة الربانيين فهم لا يترددون فی إيثار الحق. وفی مقدمتهم أميرالمؤمنين علی عليه السلام الذی سلك الحق مع أعدائه فضلًا عن أصحابه فقد قيل بأن العدل فی تقسيم بيت المال حقاً لكنه لا يتفق مع المصلحة ولابد من تقديم الأشراف والأثرياء علی غيرهم فی مقابل الحد من سهم الضعفاء، بينما كان الإمام عليه السلام لا يتهاون فی إجراء العدل وإن شقّ علی صحبه وإنفرجوا عنه وإلتحقوا بعدوه، ولعلنا نلمس ذلك فی هذه الخطبة وسائر خطب نهج البلاغة. ولعل أغلب هذه المشاكل لم تكن لتظهر علی السطح لو تسلم الإمام عليه السلام ذمام الأمور بعد رحيل رسول الله صلی الله عليه و آله كما أمر الله ورسوله بذلك، إلا أن قضية التميز فی العطاء قد ظهرت علی عهد الخلفاء وبلغت ذروتها علی عهد عثمان الذی كان ينفق المال علی بطانته وقرابته دون حساب، حتی طبعوا علی هذه الإمتيازات فصعب إعادتهم إلی الحق وجادة الصواب. أضف إلی ذلك فإن إزدياد حجم الغنائم وكثرة أموال بيت المال هی الأخری كانت سبباً لأن يضحی البعض كطلحة والزبير- وهما من السابقين إلی الإسلام وصحابة رسول الله صلی الله عليه و آله- بالحق من أجل مصالحهم الشخصية، ومن هنا تعقدت المشاكل التی إعترضت حكومة الإمام عليه السلام- إلا أن أميرالمؤمنين عليه السلام ورغم علمه بظهور ما لا يحصی من المشاكل إن هو آثر الحق علی المصلحة، لكنه لم يتخل عن سياسته المعهودة لعلمه بأن الهزيمة والخذلان تكمنان فی إيثار المصلحة علی الحق، ناهيك عن كون نفس هذا الإيثار يعنی تعطيل أحد القيم الإسلامية، فی حين إحياؤها ونقلها للأجيال المستقبلية يفوق أهمية تحقيق بعض الإنتصارات الوقتية ولعل هذا الأمر يشكل ردا علی أكثر الأسئلة التی تطرح بشأن حكومة علی عليه السلام- وهذا ما سنتحدث عنه فی حينه فی الأبحاث القادمة إن شاء الله.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۲۷

الخطبة[۳۶۵] الخامسة و الثلاثون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

بعد التحكيم وما بلغه من أمر الحكمين وفيها حمد الله علی بلائه، ثم بيان سبب البلوی.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ وَإِنْ أَتَی الدَّهْرُ بِالْخَطْبِ الْفادِحِ وَالْحَدَثِ الْجَلِيلِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَيْسَ مَعَهُ إِلَهٌ غَيْرُهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ الْمُجَرِّبِ تُورِثُ الْحَسْرَةَ، وَتُعْقِبُ النَّدامَةَ. وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِی هَذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِی، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِی، لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ!

فَأَبَيْتُمْ عَلَیَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُفَاةِ، وَالْمُنَابِذِينَ الْعُصَاةِ حَتَّی ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ، وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ، فَكُنْتُ أَنَا وَإِيَّاكُمْ كَما قالَ أَخُو هَوازِنَ:

أَمَرْتُكُمْ أَمْرِی بِمُنْعَرَجِ اللِّوَیفَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إِلَّا ضُحَی الْغَدِ»

نظرة إلی الخطبة: نتيجة العصيان

كما ذكرنا سابقا فقد أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة بعد إنتهاء قضية التحكيم. فقد كانت نتيجة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۲۸

التحكيم شاقة على العالم الإسلامى. وقد دلت على أن الإمام عليه السلام نهى عن التحكيم وحث على مواصلة القتال خشية تلك النتيجة- ومن هنا شدّد الإمام عليه السلام فى ذمه لأهل الكوفة وحملهم مسؤولية تلك النتيجة بسبب تمردهم وعدم طاعتهم.

الشرح والتفسير

خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة فى ظل ظروف عصيبة ومأساة عظيمة، فقد أثمرت مؤامرة معاوية وعمرو بن العاص إثر استغلال جهل أبو موسى الأشعرى ومن وقف إلى جانبه، فقد تمكن ابن العاص من حسم التحكيم لصالحه، ظاناً أنّه عزل الإمام على عليه السلام عن الخلافة ونصب معاوية مكانه!

طبعاً الإمام عليه السلام كان قد شعر ببالغ الآسى والحزن لأنّه تكهن بهذه النتيجة وقد أطلع أهل الكوفة عليها، إلّاأنّ الجهل والعصبية والأنانية والتخاذل حال دون الاتعاظ بإرشادات الإمام عليه السلام ومواعظه الحكيمة.

على كل حال إستهل الإمام عليه السلام الخطبة- كما درج عليه فى سائر الخطب- بحمد الله والثناء عليه، الحمد والثناء الذى يستبطن نكهة خاصة، فقد أورده الإمام عليه السلام حتى فى ظل هذه الحادثة الأليمة والبلاء العظيم

«الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب ۳۶۶] الفادح ۳۶۷] والحدث الجليل».

فالطريف أنّ الإمام عليه السلام أولًا يحمد الله على هذه الحادثة ليعلم أنّ حمد اللّه والثناء عليه لا- يقتصر على الحوادث المسرة والتوفيقات والنجاحات والفيوضات المعنوية والمادية، بل يجب حمده على كل حال فى السراء والضراء والعافية والبلاء والغلبة والفشل، حتى الحوادث المريرة تشتمل على فلسفة لو سبر غورها لتبيّن أنّها جزء من النعم الإلهية.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۲۹

ثانياً: أنّه ينسب هذه الحادثة المريرة إلى الدهر، ونعلم أن الدهر لايعنى سوى أهله، وإلّا فبزوغ الشمس والقمر وهطول المطر وهبوب الرياح وسائر الظواهر الطبيعية ليست على شئ حتى تخلق مثل هذه الحوادث فالناس وبفعل أعمالهم الشائنة هم الذين يكونون السبب لمثل هذه الحوادث!

ولا شك إنّ هذه الحادثة لم تكن لتقع لوطاع أهل العراق الإمام عليه السلام والتفتوا إلى تحذيراته واتعظوا بنصائحه. والمراد بالخطب الفادح قضية التحكيم التى جرت الويلات على العالم الإسلامى.

صحيح أنّ قضية التحكيم- كما سيمر علينا فى البحث القادم- لم تغير من حقيقة الأمر شيئاً، الا أنّها كانت ذريعة كبرى لمعاوية ورهطه من أجل إغواء الجهال وتحريف الأفكار، كما أدت إلى ظهور البدع فى العالم الإسلامى.

وقوله عليه السلام

«حدث جليل»

هو تأكيد آخر لاثار السوء لتلك البدعة المشؤومة.

ثم يردف عليه السلام الحمد والثناء بالشهادة لله بالوحدانية ولمحمد صلى الله عليه و آله بالعبودية والنبوة

«وأشهد أن لا اله إلّاالله لا شريك له، ليس معه إله غيره، وأنّ محمّداً عبده ورسوله»

فالاتيان بالشهادتين فى مطلع الخطبة وأن تضمن التأكيد من جديد على لزوم تقوية دعائم التكامل الإنسانى وإحياء الاصول العقائدية الإسلامية، إلّاأن يشير إلى قضية الحكمين، وذلك أن الامّة قد جاوزت أصل التوحيد واتجهت صوب أفعال الشرك وتجاهلت التأسى برسول الله صلى الله عليه و آله فاستسلمت لاهوائها.

ثم تطرق عليه السلام إلى الهدف الأصلى من الخطبة

«أما بعد، فان معصية الناصح الشفيق العالم المجرب ۳۶۸] تورث الحسرة وتعقب الندامة».

فالعبارة بمنزلة الكبرى وبيان قاعدة كلية فى أنّ المستشار إذا تحلى بأربع صفات فانّ مخالفته توجب الندامة والحسرة لا محالة. الاولى صفة النصح وارادة الخير ومقتضى ذلك السعى لاحقاق الحق.

الثانية القلب المفعم بالعطوفة والرأفة والحب وإرادة السعادة والخير النابعة من أعماق

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۳۰

القلب لمن يطلب الاستشارة. الثالثة العلم والوقوف على كافة جوانب الأمر وتحليل جميع الملابسات ودراسة الحوادث والنتائج المتمخضة عنها الرابعة التجربة الكافية فى القضايا الفردية والاجتماعية المهمة؛ أى التحلى بالعقل العملى إلى جانب العقل النظرى فاذا كان هنالك مثل هذا الفرد يتمتع بمثل هذه الصفات فانّه يبلغ بالإنسان واقع الأمر لا محالة، كما أنّ مخالفته لاتقود سوى إلى الحيرة والضلال والندم والخسران الذى يفرزه الجهل والغرور.

وما إنّ يفرغ الإمام عليه السلام من بيان الكبرى (القاعدة الكلية) حتى يتطرق إلى الصغرى والمصداق المطلوب فيقول

«وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة أمرى، ونخلت ۳۶۹] لكم مخزون رأيى، لو كان يطاع لقصير أمرا!»

فقد كشف الإمام عليه السلام عن مخالفته لاصل التحكيم فضلا عن كيفيته والطريقة التى تم فيها.

ولقد أخيرهم عن آثار هذه القضية المشؤومة، إلّاأنّ تعصبهم ولجاجتهم حالت دون سماعهم لرأى الإمام عليه السلام فاصروا على باطلهم والآن يجنون ثمار جهلهم والعبارة

«لو كان يطاع لقصير أمر»

مثل مشهور عند العرب، فهو قصير صاحب جذيمة، وحديثه مع جذيمة ومع الزياء مشهور فضرب المثل لكل ناصح يعصى بقصير، ويطلق على الأفراد الذين لايصغون إلى الناصح المجرب الشفيق والذى لا يعقب سوى الندم.

فالإمام عليه السلام يشبه نفسه بقصير وأهل الكوفة بجزيمة الجاهل ومستشاريه البلهاء، حتى وقعوا فى شباك عمرو بن العاص ومعاوية.

ثم قال عليه السلام:

«فأبيتم على إباء المخالفين الجفاة والمنابذين ۳۷۰] العصاة، حتى إرتاب الناصح بنصحه، وضن ۳۷۱] الزند[۳۷۲] بقدحه ۳۷۳]».

لقد حذرتكم من أنّ رفع المصاحف على الحراب مكر وخديعة، فقد بلغ القتال مرحلة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۳۱

خطيرة وأو شك على نهايته وقد لاحت بوادر النصر، إلّاأنّكم لم تسمعوا كلامى وتركتم القتال وإذ عنتم للتحكيم. وقد قلت لكم إن كان ولابدّ فابعثوا ابن عباس حكما، فلم تقبلوا، ثم أشرت عليكم بما لك الأشتر فلم تستجيبوا وأبيتم إلّاأبى موسى الأشعرى الاحمق الجاهل الذى لايقوى على ابن العاص فلم تكن النتيجة سوى خيبتكم وخسرانكم وندمكم ۳۷۴].

والعبارة

«المخالفين الجهاة»

ان مخالفتكم لى لم تقتصر على سوء تشخيصكم، بل كان ذلك بدافع من جفائكم وعصيانكم وطغيانكم. وقد أكد هذا المعنى بقوله «المنابذين العصاة».

وأمّا قوله

«ضمن الزند بقدحه»

فهو مثل أيضاً يقال لمن يكف عن الافصاح بالحقايق لعدم وجود من يسمع، فقد إراد عليه السلام خالفتمونى حتى ظننت أنّ النصح الذى نصحتكم به غير نصح، لا طباقكم واجماعكم على خلافى، وتعنى العبارة الأخيرة أنّه لم يقدح لى بعد ذلك رأى صالح لشدة ما لقيت منكم من الاباء والخلاف والعصيان. ثم قال عليه السلام فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن:

أمرتكم أمرى بمنعرج اللوىفلم تستبينوا النصح إلّاضحى الغد

وأخو هوازن صاحب الشعر هو دريد بن الصمة، وأبياته مذكورة فى الحماسة. وكان من خير هذا الشعر أنّ عبدالله وهو اسم أخر لعارض وهو أخو دريد- كان أسود إخوته، فغزا ببنى جشم وبنى نصر إبنى معاوية بن بكر بن هوازن؛ وغنم مالًا عظيماً بمنعرج اللوى فمنعه دريد عن اللبث، وقال: إنّ غطفان ليست بغافلة عنا، فحلف أنّه لايريم حتى يقسم، وأوقعوا بعبدالله وقتلوه فهرب دريد بعد أن نجى منهم، فانشد هذا البيت الذى إستشهد به الإمام عليه السلام فى الخطبة[۳۷۵].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۳۲

تأمّلان

۱- قصة التحكيم

إن الذىدعا إليه طلب أهل الشام له وإعتصامهم به من سيوف أهل العراق، فقد كانت أمارات القهر والغلبة لاحت، ودلائل النصر والظفر وضحت. وفى هذه الأثناء رفع أهل الشام المصاحف على الرماح. فسأل مالك الإمام عليه السلام مواصلة القتال. فقام الأشعث بن قيس مغضباً فقال: يا أميرالمؤمنين أجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحق به منهم، وقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال- فقال عليه السلام: هذا أمر ينظر فيه.

فنادى الناس من كل جانب: الموادعة. فقال عليه السلام: أيها الناس إنى أحق من أجاب إلى كتاب الله، ولكن معاوية وعمرو بن العاص وصحبهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إنى أعرف بهم منكم، صحبتهم صغاراً ورجالًا، فكانوا شر صغار وشر رجال، ويحكم إنها كلمة حق يراد بها باطل، إنهم ما رفعوها أنهم يعرفونها ويعملون بها، ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة، أعيرونى سواعدكم وجماجكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبق إلا أن يقطع داير الذين ظلموا. فجاءه من أصحابه زهاء عشرين ألفا مقنعين فى الحديد، شاكى سيوفهم على عواتقهم وقد اسودت جباههم من السجود فنادوه باسمه لا بأمير المؤمنين: يا على أجب القوم إلى كتاب الله إذا دعيت إليه، وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم. فقال لهم: ويحكم أنا أول من دعا إلى كتاب الله، وأول من أجاب إليه. إنى إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم القرآن، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم، ونقضوا عهده، ونبذوا كتابه، ولكنى أعلمتكم أنهم قد كادوكم، وإنهم ليس العمل بالقرآن يريدون. قالوا: فإبعث إلى الأشتر ليأتينك- فقال الأشتهر:

قل لعلى عليه السلام ليس هذه بالساعة التى ينبغى لك أن تزيلنى عن موقفى. فارتفع وهج القوم وعلت الأصوات وقالوا لعلى عليه السلام: والله ما نراك أمرته إلاـ بالقتال، فابعث إليه يأتيك وإلا فوالله إعتزلناك. فبعث له الإمام عليه السلام ثانية. فقال الأشتر: أبرفع هذه المصاحف؟ قال: نعم. قال:

ألاترى إلى الفتح. ثم أقبل الأشتر حتى إنتهى إليهم فصاح فيهم أمهلونى فواقا فإنى قد أحسست بالفتح. فلم يجيبوه. فلما إنتهى الأمر إلى الحكمين قال عليه السلام هذا إبن عباس أوليه ذلك فهو لابن العاص. فلم يوافق الأشعث ورهطه. فقال عليه السلام: فإنى أجعل الأشتر. فقال الأشعث:

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۳۳

وهل سعرّ الأرض علينا إلا الأشتر. ثم إضطر الإمام عليه السلام لقبول أبوموسى. فاتفق معه عمرو بن العاص على أن يخلع كل صاحبه ويدعون الناس للشورى. فتقدم أبوموسى ثم قال: أيها الناس أجمع رأيى ورأى صاحبى على خلع علىّ ومعاوية ويكون الأمر شورى بين المسلمين.

فقام عمرو بن العاص وقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلعه كما خلعه، وأثبت صاحبى معاوية فى الخلافة، فإنه ولى

عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه.[۳۷۶]

۲- الاستفادة من آراء الآخرين

لاشك أنّ الشورى تشكل أحد اسس التعاليم الإسلامية التى حظت بأهمية فائقة فى الآيات القرآنية والروايات والأخبار. فالقرآن يرى أنّ المشورة من علامات الإيمان، ويجعلها فى مصاف الصلاة والزكاة- التى تعد من أركان الإسلام- «والَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَمِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ».[۳۷۷]

كما أمر الله سبحانه صراحة باستشارة المؤمنين فى الامور المهمة، رغم إتّصال رسول الله صلى الله عليه و آله بالوحى وكونه العقل الكامل «وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ»[۳۷۸] والمهم فى قضية المشورة إنتخاب المستشار الذى يتحلى ببعض خصائص الصفات التى وردت فى الخطبة التى نحن بصددها:

«الناصح الشفيق العالم المجرب»

، والحق أنّ مخالفة الفرد الذى يتصف بهذه الصفات لا تفضى سوى إلى الحسرة والندامة.

صحيح أنّ المتعصبين فى صفين لم يستشيروا الإمام عليه السلام إلّاأنّ الإمام عليه السلام أبدى رأيه الذى يمثل رأى الناصح الشفيق والعالم المجرب، إلّاأنّهم وللاسف الشديد لم يستجيبوا لرأى الإمام عليه السلام وهبوا لمجابهته وهددوه بالقتل، فلم تتمخض النتيجة سوى عن ندمهم التاريخى الذى جر الويلات على العالم الإسلامى.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۳۵

الخطبة[۳۷۹] السادسة و الثلاثون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

فى تخويف أهل النهروان

«فَأَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ أَنْ تُصْبِحُوا صَرْعَى بِأَثْنَاءِ هَذَا النَّهَرِ، وَبِأَهْضَامِ هَذَا الْغَائِطِ، عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَلا سُلْطَانٍ مُبِينٍ مَعَكُمْ: قَدْ طَوَّحَتْ بِكُمُ الدَّارُ وَاحْتَبَلَكُمُ الْمِقْدارُ. وَقَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هَذِهِ الْحُكُومَةِ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُنابِذِينَ، حَتَّى صَرَفْتُ رَأْيِي إِلَى هَوَاكُمْ وَأَنْتُمْ مَعَاشِرُ أَخِفَّاءُ الْهَامِ، سُفَهاءُ الْأَحْلامِ؛ وَلَمْ آتِ- لا أَبا لَكُمْ- بُجْراً وَلا أَرَدْتُ لَكُمْ ضُرّاً».

نظرة إلى الخطبة

واضح أنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة فى النهروان جنب النهر فى يوم القتال عام ۳۷ ه.

وقد أشار عليه السلام ألى ثلاثة امور:

۱- عدم خوض القتال دون قيام الدليل الشرعى والبينة من الله، وإلّا فأنّهم يقضون على أنفسهم.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۳۶

۲- أنّ القوم تذرعوا بقضية التحكيم، والحال أنّ الإمام عليه السلام كان يرفضها منذ البداية.

۳- أنّهم يقاتلون الإمام عليه السلام دون أن يصدر عنه ما يدعو لذلك من معصية، فانّ كان هنالك من خلاف فقد صدر منهم ومن بعض الأفراد، ومن الجهل تحميل الإمام عليه السلام مسؤولية ذلك الخلاف، وهكذا أتم عليهم الإمام عليه السلام الحجة.

الشرح والتفسير

إتمام الحجة على الخوارج

كما أشرنا سابقاً فان الإمام عليه السلام خطبها قبل بدأ معركة النهروان التى أفرزتها قضية التحكيم.

فقد خرجت تلك الطائفة الجاهلة على الإمام بعد التحكيم لتعتبره هو المسؤول عنه، فى حين كان الإمام عليه السلام يعارض أصل التحكيم من الأساس إلى جانب رفضه الحكم. فالواقع أنّ الخطبة إتمام الحجة عليهم. فقد إستهل خطبته بالقول

«نحن أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة وعنصر الرحمة ومعدن العلم والحكمة- نحن أفق الحجاز، بنا يلحق البطىء وإلينا يرجع التائب»[۳۸۰]

ثم خاطبهم قائلًا:

«فانا نذير لكم أن تصبحوا صرعى ۳۸۱] باثناء هذا النهر، وبأهضام ۳۸۲] هذا الغائط[۳۸۳] على غير بينة من ربّكم، ولا سلطان مبين معكم»

. فعبارة الإمام عليه السلام نبوءة صريحة بشأن عاقبة معركة النهروان حيث أخبرهم بأنّهم سيصرعون دون النهر، والافضع من ذلك موقفهم العسير يوم القيامة واسوداد وجوههم، حيث ليس لهم من دافع للقتال سوى العصبية والجهل دون وجود أية بينة.

شرعية يمكنهم الاستناد إليها وعليه فهم يهلكون أنفسهم فى الحياة الدنيا وليس لهم فى الآخرة إلّاالنار. ثم قال عليه السلام

«قد طوحت ۳۸۴] بكم. الدار وأحتبلكم ۳۸۵] المقدار»

والمفردة (دار) إشارة

إلى دار الدنيا أو بعبارة اخرى الاغترار بالدنيا والعبودية لها و «احتيل» من مادة حيل بمعنى الفخ، والمراد بالمقدار حسب بعض شرّاح نهج البلاغة الفكر الخاطىء والتحليل العبثى لمختلف الحوادث، وقال البعض الآخر تعنى القدر الإلهى. وإذا تأملنا تأريخ الحادثة سيتضح لدينا الأثر البالغ الذى لعبه كلام الإمام عليه السلام فى هذه الطائفة، فقد كانت طائفة متعصبة لجوجة جاهلة هزيلة. ثم أشار عليه السلام إلى قضية التحكيم فقال

«وقد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة فابيتم على إباء المخالفين المنابذين، حتى صرفت رأيى إلى هواكم»

إنكم لتحملونى مسؤولية عمل أنتم إرتكبتموه، بل أبعد من ذلك جعلتم تهددونى بالقتل على قبوله، والآن بعد أن تبيّن لكم فداحة خطأ العمل تحاولون إلقاء تبعته علىَ

«وأنتم معاشر أخفاء الهام ۳۸۶] سفهاء الأحلام»

. يمكن أن تكون هذه العبارة تأكيد لسفاهة وبلاهة أصحاب النهروان.

كما يمكن أن تكون العبارد السابقة- كما ذكر ذلك بعض شرّاح نهج البلاغة- إشارة إلى خفة أهل النهروان الذين تتغير أفكارهم وحركتهم لأدنى شى، فهم يتعصبون يوماً للتحكيم، وآخر يعادونه أشد العداء، أمّا العبارة الأخيرة فهى تشير إلى ضحالة فكرهم، وذلك لأن مؤامرات العدو كانت تتكشف يوماً بعد آخر ولم تكن خافية على أهل البصائر إلّاأنّهم لم يكونوا يرونها أو يدركونها؛ الأمر الذى جعلهم يخدعون أكثر من مرة بحيل معاوية وبطانته، فيرتكبون ما يؤدى إلى بؤسهم وشقائهم وجر الويلات والمصائب على المسلمين. ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالتأكيد على هذه الحقيقة بأنّ كل ما يصيبكم من بلاء ممّا إرتكبته أيديكم ولست طرفا فيه أبداً، بل خالفتمونى وشهرتم سيوفكم لتهددونى بالقتل

«ولم آت- لا أبا لكم!- بجرا ولا أردت لكم ضراً».

العبارة لا أبا لكم يمكن أن تكون سباً ولعناً، تشير إلى أنّكم لم تحظوا بتربية أسرية إسلامية صحيحة، ومن هنا فانّكم تفعلون الأفعال الشائنة وتنسبوها إلى الآخرين، ويمكن أن تكون دعاءا عليهم؛ أى أمات الله آبائكم وهى فى الواقع كناية عن ذلتهم وهوانهم؛ لأنّ فقدان الأب فى ريعان الشباب تدعو إلى الذلة والهوان.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۳۸

قصة التحكيم ثم ظهور أمر الخوارج

ذكرنا حين شرحنا للخطبة الشقشقية فى المجلد الأول أنّ الخوارج فئة متعصبة وجاهلة قد ظهرت من بطن صفين وقضية التحكيم. فقد أقرت مسألة التحكيم (عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعرى) وفرضوها على الإمام عليه السلام. ولم يصفوا إلى قول الإمام عليه السلام أنها خدعة ولم يبق إلا القليل على ختم فتنة أهل الشام وزعيمهم معاوية. لكنهم تدموا بعد نتيجة التحكيم وتابوا لكنهم أفرطوا هذه المرة حيث حكموا يكفر قبول التحكيم وشعارهم الحكم لله فلابد أن يتوب على عليه السلام من هذه المعصيته. قال الإمام عليه السلام أن التحكيم ليس كفرا، فقد أشار القرآن إلى هذه المسألة فى حل الخلافات العائلية «فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها» وفى كفارة الإحرام «يحكم به ذوا عدل منكم» لكن التحكيم الذى أقررتموه كان خاطئا- على كل حال إقتنع هؤلاء- وكان من بينهم بعض المتظاهرين بالعبادة والإتيان بالمستحبات- بقشور الإسلام وتركوا جوهره فاجتمعوا ضد أميرالمؤمنين عليه السلام فى منطقة قرب الكوفة تدعى الحروراء قرب النهروان. فبالغ الإمام عليه السلام فى وعظهم ونصحهم حتى عاد أكثرهم إلى رشده بينما بقى أربعة آلاف منهم فلما تثبت المعركة صرعوا جنب النهر ولم ينج منهم إلا القليل كما أخبر الإمام عليه السلام.

وقد شهدت حياة الخوارج وسيرتهم العديد من التناقضات العجيبة ومن ذلك:

۱- لقيهم عبدالله بن الخباب فى عنقه مصحف، على حمار، ومعه إمرأته وهى حامل، فقالوا له: إن هذا الذى فى عنقك ليأمرنا بقتلك، فقال لهم: ما أحياه القرآن فأحيوه،

وما أماته فأميتوه، فوثب رحيل منهم على رطبة سقطت من نخلة فوضعها فى فيه، فصاحوا به، فلفظها تورعا. وعرض لرجل منهم خنزير فضربه فقتله، فقالوا: هذا فساد فى الأرض، ثم قالوا لابن الخباب: حدثنا عن أبيك. فقال: إنى سمعت أبى يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله يقول:

ستكون بعدى فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه، يمسى مؤمنا ويصبح كافرا، فكن عبدالله المقتول ولا تكن القاتل- قالوا: فما تقول فى على بعد التحكيم والحكومة؟ قال: إن عليا أعلم بالله وأشد توقيا على دينه وأنفذ بصيرة- فقالوا: إنك لست تتبع الهدى، ثم قربوه إلى شاطىء النهر فأضجعوه فذبحوه.[۳۸۷]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۳۹

۲- قال قيس بن سعد بن عبادة: إستنطقهم الإمام عليه السلام بقتل عبدالله بن الخباب فأقروا به، فقال: إنفردوا كتائب لأسمع قولكم كتيبة كتيبة. فأقرا جميعا بقتله. فقال على عليه السلام: «والله لو أقر أهل الدنيا كلهم بقتله هكذا وأنا أقدر على قتلهم به لقتلتهم».[۳۸۸]

۳- حين هجم الخوارج على جيش الإمام عليه السلام إلتفت إلى أصحابه فقال: والله لا ينجو منهم عشرة ولا يهلك منكم عشرة.

والعجيب أنه لم يقتل من أصحاب الإمام عليه السلام سوى تسعة ولم ينج من الخوارج إلا ثمانية.

۴- كانت قضية الخوارج قد فعلت فعلها فى الإمام عليه السلام وقد إنعكست سلبا على الوسط الإسلامى، فكان عليه السلام لا ينفك عن التحدث عنها ليبين للناس كيفية إنحرافهم فيعتبروا بهم، ولا غرو فمثل هذا التفكير السطحى المشوب بالجهل والعناد لا يخلو منه عصر ومصر. والخطب التى تحدث فيها الإمام عليه السلام عن الخوارج هى الخطبة: ۴۰، ۵۹، ۶۰، ۶۱، ۱۲۱، ۱۲۲، ۱۲۷، ۱۸۴، والرسالة ۷۷، ۷۸ والتى سنعرض لشرحها جميعا إن شاء الله.

الجدير بالذكر أن خط الخوارج- كما ذكرنا- تيار يتواجد على مدى التأريخ ولا يقتصر على عهد على عليه السلام- فهم فئة لا تعرف من الدين سوى ظاهره ولا- تعتد إلا- بأفعالها وأعمالها وترى إنحراف كل من سواها وقد ملئت سيرتها بالتناقضات، فهى بلاء وآفة تصيب المجتمع.

والغريب فى الأمر أن الإمام عليه السلام أشار إلى هذه الفئة كظاهرة فوصفهم فى الخطبة ۶۰ قائلا: «كلا والله، إنهم نطف فى أصلاب الرجال وقرارات النساء كلما نجم منهم قرن قطع حتى يكون آخرهم لصوصا سلابين.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۴۱

الخطبة[۳۸۹] السابعة والثلاثون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

يجرى مَجرى الخطبة وفيه يذكر فضائله عليه السلام قاله بعد وقعة النَّهروان.

نظرة إلى الخطبة

بناءً على ما ذكره ابن أبى الحديد فانّ هذه الخطبة تشتمل على أربعة فصول لا يمتزج بعضها ببعض:

الفصل الأول: يشير فيه الإمام عليه السلام إلى خدماته الجليلة التى أسداها للإسلام إبان انبثاق الدعوة الإسلامية فقد أوجز ذلك بقوله: «فقد قمت بالأمر حين فشلوا وتطلعت حين تقبعوا ونطقت حين تعتعوا ومضيت بنور الله حين وقفوا، كالجبل لا تحركه القواصف ولا تزيله العواصف. لم يكن لأحد فى مهمز ولا لقائل فى مغمز».

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۴۲

الفصل الثانى يشير إلى وقوفه الصلب على الدوام بوجه الظلمة من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

الفصل الثالث يشير إلى إستحالة الكذب عليم لأنه أول من صدق بالنبى صلى الله عليه و آله وعليه فلا ينبعى أن يستسرب الشك إلى إخباره عن المغيبات التى أخبره بها رسول الله صلى الله عليه و آله.

الفصل الرابع يختتم الخطبة بعذره فى البيعة لمن سبقه من الخلفاء، وأنّه فعل ذلك طاعة لرسول الله صلى الله عليه و آله وخشية الفرقة والتشتت فى صفوف المسلمين واستغلال ذلك من قبل خصوم الدعوة الإسلامية.

ججج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۴۳

القسم الأول: الصمود أمام العواصف

«فَقُمْتُ بِالْأَمْرِ حِينَ فَشِلُوا وَتَطَلَّعْتُ حِينَ تَقَبَّعُوا وَنَطَقْتُ حِينَ تَعْتَعُوا وَمَضَيْتُ بِنُورِ اللَّهِ حِينَ وَقَفُوا- وَكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوْتاً وَأَعْلاهُمْ فَوْتاً فَطِرْتُ بِعِنانِها وَاسْتَبَدْتُ بِرِهانِها، كالْجَبَلِ لا تُحَرِّكُهُ الْقَواصِفُ وَلا تُزِيلُهُ الْعَواصِفُ. لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيَّ مَهْمَزٌ وَلا لِقائِلٍ فِيَّ مَغْمَزٌ».

الشرح والتفسير

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ الفصل الأول من الخطبة يتضمن ذكر الإمام عليه السلام لمقاماته فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أيام أحداث عثمان، وكون المهاجرين والأنصار كلهم لم ينكروا ولم يواجهوا عثمان بما كان يواجهه به وينهاه عنه إلّاأنّ

سياق الكلام يشير إلى الحوادث التى وقعت على عهد النبى صلى الله عليه و آله ولا سيما فى بداية انطلاق الدعوة الإسلامية. فقال عليه السلام

«فقمت بالأمر حين فشلوا وتطلعت ۳۹۰] حين تقبعوا[۳۹۱] ونطقت حين تعتعوا[۳۹۲] ومضيت بنور الله حين وقفوا. وكنت أخفضهم صوتاً وأعلاهم فوتاً[۳۹۳]»

ثم أضاف عليه السلام أنّه تألق تلك المدة وحاز السبق على الآخرين

«فطرت بعنانها واستبددت برهانها[۳۹۴]، كالجبل لا تحركه

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۴۴

القواصف ولا تزيله العواصف، لم يكن لأحد فىّ مهمز[۳۹۵] ولا لقائل فى مغمز[۳۹۶]».

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى أربعة امور هى:-

الأول: أنّ الآخرين كانوا آنذاك يعانون من الضعف والعجز، وأنا الذى نهضت بالأمر وقمت بوظيفتى.

الثانى: أنّ الخوف دفع الآخرين آنذاك لأن يقبعوا فى جحورهم وأنا الذى إنبريت للأمر وكنت أتطلع إلى العدو.

الثالث: أنا الذى نطق لسانى بالحق وبيان الحقائق الدينية والتعاليم الإسلامية حين عجز الآخرون عن الكلام.

الرابع: لم يعترينى الشك آنذاك كما إعترى الآخرين فواصلت سبيلى على هدى من ربى ونور إيمانى ويقينى بالوحى.

ورغم كل ما تقدم لم أكن لأتفاخر على أحد

«كنت أخفضهم صوتاً»

ثم يخلص عليه السلام من كل ذلك إلى نتيجة مؤداها

«فطرت بعنانها واستبددت برهانها»

. ثم يعود عليه السلام للتأكيد على ما مضى من حوادث وكيف واجهها فقال

«كالجبل لا تحركه القواصف ولا تزيله العواصف»

مع ذلك فقد خضت ما خضت و

«لم يكن لأحد فىّ مهمز ولا لقائل فىّ مغمز».

كما أوردنا آنفا فانّ المراد بهذه العبارات ما حدث فى بداية إنبثاق الدعوة الإسلامية؛ لأننا نعلم جميعاً بانّ علياً عليه السلام كان أول من أسلم حين كان الإسلام غريباً ولم يكن هناك من يهب للدفاع عن الإسلام والقرآن والنبى صلى الله عليه و آله؛ المعنى الذى يلمس بوضوح فى يوم الدار حين انطلقت الدعوة الإسلامية للعلن بعد ثلاث سنوات من الدعوة السرية.

ولم يجب النبى صلى الله عليه و آله ويعلن دعمه له ووقوفه إلى جانبه سوى على عليه السلام وفى ليلة المبيت نام على فراش رسول الله صلى الله عليه و آله لينجو من مؤامرة قريش التى استهدفت قتله، ناهيك عن فتح خيبر حين عجز الآخرون، وبروزه لعمرو بن عبدود العامرى فى الأحزاب حين لم يكن غيره من انبرى لقتاله.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۴۵

كما يحتمل أن يكون المراد بالقيام بالأمر والجمل اللاحقة الدفاع عن الإسلام على عهد الخلفاء، لانّ أغلب المورخين المسلمين يقرون بان علياً عليه السلام كان المفزع فى حل المشاكل والمعضلات التى تواجه المسلمين.

فقد وردت العبارة المعروفة عن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب

«اللّهم لا تبقنى لمعضلة ليس لها أبو الحسن»[۳۹۷].

أو ما تناقلته كتب الفريقين والتى تؤكد هذا المعنى، حتى صرح بعض أرباب اللغة أنّ العبارة

«مشكلة ليس لها أبو الحسن»

أصبحت مثلًا لدى العرب. وهنالك إحتمال ثالث فى أن يكون المراد قيامه عليه السلام بأمر الخلافة بعد انهيار حكومة عثمان وإثر تلك العواصف التى عصفت بالمسلمين بعد مقتل الخليفة الثالث، فقد تصدعت آنذاك عرى المجتمع الإسلامى، وقد تأهبت عناصر النفاق ومن تبقى من أسلاف الجاهلية ومشركى العرب، فلم يكن للُامّة من أمل سوى على عليه السلام، أجل لقد نهض الإمام عليه السلام بالامر فى ظل تلك الظروف وحفظ وحدة المسلمين.

أما قوله

«كنت أخفضهم صوتاً»

نفحات الولاية ؛ ج۲ ؛ ص۲۴۵

عله إشارة إلى تواضع الإمام عليه السلام إلى جانب كل تلك الانتصارات والنجاحات، أو إشارة إلى أن الإمام عليه السلام لم يكن من أهل التظاهر وإثارة الصخب والضوضاء فهذه معانى الأفراد الضعفاء العجزة.

ومن هنا أردفها بقوله

«وأعلاهم فوتا»

التى تعنى السبق على الآخرين، السبق فى الإيمان والهجرة، والسبق بالجهاد والقتال، وأخيرا السبق فى كافة الفضائل الأخلاقية.

وقوله عليه السلام

«فطرت بعنانها واستبددت برهانها»

هو الآخر تأكيد لهذا الأمر، ولا سيما أن فاء التفريع وردت فى البداية كنتيجة للبرامج السابقة، أى أنّى ركبت مركب النصر وسبقت الآخرين، وذلك لانّى لم أشعر بالضعف طرفة عين ولم أهب الحوادث المرعبة وأفقد الفرص المواتية، ومع ذلك لم أثير أية ضجة أو صخب وضوضاء.

ثم يشبه نفسه عليه السلام بالجبل العظيم الذى لا تحركه القواصف ولا تزيله العواصف. والطريف فى الأمر أن الإمام عليه السلام ذكر القواصف ثم أردفها بالعواصف، وذلك لان القواصف تعنى الرياح

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۴۶

العاتية الكاسرة، والعواصف الرياح السريعة الجارفة، فى اشارة إلى أنّ الحادثة كانت من الشدة بحيث تقضى على الإنسان فى موضعه، وأحيانا تكون أكثر شدة فتجرفه كما تجرف أوراق الشجر وتقذف به فى مكان سحيق.

ثم قال عليه السلام:

«ولم يكن لأحد فى مهمز ولا لقائل فى مغمز»

. فالمعروف أنّ من يعمل يخطى ومن يرد الميدان الاجتماعى ويمارس الأنشطة والفعاليات فانّه يتعرض إلى بعض الانتقادات من هنا وهناك، فما ظنك بالإمام عليه السلام الذى كان سباقاً فى كل الميادين. وبالطبع فانّ العيوب والمطاعن فى غيره لم تحص رغم ندرة إقتحامه للميدان الاجتماعى.[۳۹۸]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۴۷

القسم الثانى: القوى عندى ضعيف

اشارة

«الذَّلِيلُ عِنْدِی عَزِيزٌ حَتَّی آخُذَ الْحَقَّ لَهُ وَالْقَوِیُّ عِنْدِی ضَعِيفٌ حَتَّی آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ، رَضِينا عَنِ اللَّهِ قَضاءَهُ وَسَلَّمْنا لِلَّهِ أَمْرَهُ».

الشرح والتفسير

لما كانت عدالة الإمام عليه السلام هی السبب الذی يقف وراء أغلب الحوادث الأليمة والحروب الدامية، واعتياد الناس لسنوات على الظلم والجور والاضطهاد على عهد الخلفاء الثلاث ولاسيما عصر عثمان، فانّهم لم يكونوا مستعدين بهذه السهولة لقبول منطق المساواة أمام القانون وفی العطاء من بيت المال.

فالإمام عليه السلام يؤكد فی هذه الخطبة أنّی سأواصل سيرتی فی العدل وإحقاق الحق وانتزاعه من القوی، بل هذا هو هدفی من الحكومة، وبناءً عليه فالقوی عندی ضعيف حتی آخذ الحق منه والضعيف قوی حتی آخذ الحق له

«الذليل عندی عزيز حتی آخذ الحق له والقوی عندی ضعيف حتی آخذ الحق منه»

ومن هنا كان لاينفك عليه السلام عن تأكيده على الحديث المعروف عن رسول الله صلی الله عليه و آله والذی ضمنه عهده إلی مالك بعد أن أوصاه قائلًا: واجعل لذوی الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه للَّه الذی خلقك ... فقد سمعت رسول الله صلی الله عليه و آله يقول لن تقدس أمّة لا يؤخذ للضعيف فيها حقّه من القوی غير متتعتع».[۳۹۹]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۴۸

كان الإمام عليه السلام شديد الحرص على العدالة لا يؤثر عليها أی شی وقد وردت عدة أحاديث بهذا الشأن فی أنّ الإمام عليه السلام كان يقسم عطاء بيت المال فقدم رجل من الأنصار فاعطاه ثلاثة دنا نير، ثم دخل عليه عبد أسود فاعطاه ثلاثة أيضاً، فقال له الأنصاری، يا أميرالمؤمنين سويت بينی وبين عبدی الذی عتقته بالأمس. فقال عليه السلام لم أرفی الكتاب فضلًا لولد اسماعيل علی ولد اسحاق «إن آدم لم يلد عبداً ولا أمة إن الناس كلهم أحرار»[۴۰۰].

ثم قال عليه السلام:

«رضينا عن الله قضاءه وسلمنا له أمره»

تنطوی هذه العبارة على معنيين:

الأول أنّ الله أمرنا بنصرة المظلوم ومقاتلة الظالم، وإنّی مسلم لهذا الأمر ولابدّ من التسليم والرضی قبل الاخرون شاءوا أم أبوا.

نصرة المظلوم ومجابهة الظالم

لقد شحن نهج البلاغة بوصاياه عليه السلام التی تؤكد على الحكومة الإسلامية فی أن تكون للمظلوم عوناً وللظالم خصماً. ومن ذلك ماورد فی خطبته المعروفة بالشقشقية من أنّ الحكومة وسيلة للانتصاف للمظلوم

«وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم»

، أما أخر وصية لولده الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام

«كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً».[۴۰۱]

وقال فی موضع آخر من نهج البلاغة

«وآيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه ولأقودن الظالم بخزامته حتی اورده منهل الحق وإن كان كارهاً»[۴۰۲].

ولا غرابة فالقرآن الكريم قد أكد هذا الأمر ليحث المؤمنين على نصرة المظلومين ولو تطلب ذلك القتال «وَما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِی سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظالِمِ أَهْلُها وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً»[۴۰۳].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۴۹

جدير بالذكر أنّ الفلسفة الأصلية لتشكيل الحكومة وتشريع القوانين (سواء القوانين الإلهية أو الوضعية التى تسنها الأنظمة البشرية) هو حفظ حقوق الضعفاء وتوفير الدعم والاسناد لهم، لأنّ الطغاة والجبابرة يعتمدون منطق القوة الغاشم من أجل هضم حقوق الآخرين، وعليه فلو تخلت الحكومة والقانون عن دعم المظلومين والمستضعفين فانّها ستفقد فلسفة وجودها لتتحول إلى وسيلة بيد الظلمة لتبرير ظلمهم وجورهم. ومن هنا كان قبول الإمام عليه السلام للحكومة كما ذكر ذلك فى خطبته الشقشقية يكمن فى الوقوف إلى جانب المظلوم ومجابهة الظالم.

ومن هنا أيضا فإن القانون يعطى نتيجة معكوسة فى المجتمعات التى تغير مسار القانون بالرشوة، لأن الراشى هو الظالم لا المظلوم- وفى هذه المجتمعات يتحول القانون إلى مصدر دخل غير مشروع للظلمة وأداة لتوجيه ظلم الآخرين. لكن ينبغى العلم بأن تحمل العدل ومجابهة الظلم ودعم المظلوم إنما يشق على الأعم الأغلب. فمن الصعب قبول العدل من قبل من يرى مراعاته تشكل خطرا على مصالحه اللا مشروعة، أو الأسوأ من ذلك من يرى لنفسه إمتيازا فى المجتمع ولا يمكنهم أن يتساوى مع الآخرين ويرى أن من الإسادة إليه أن يتساوى معهم، فيعمد إلى عرقلة مسيرة الحكومة العادلة ولا يتورع عن ممارسة أبشع الأعمال. وهؤلاء هم الأفراد الذين وقفوا بوجه الإمام عليه السلام وأثاروا الفتن والإضطرابات وحرفوا الوسط الإسلامى.

وأخيرا فقد ورد أنّ سبب إنفراج العرب عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام إنّما يكمن فى الأموال وكيفية توزيعها، فلم يكن عليه السلام يرى من فضل لشريف على غير شريف أو عربى على أعجمى، كما لم يكن يستن بسنة السلاطين فى معاملة زعماء القبائل، ولم يستميل أحدا عن طريق المال أبداً، بينما كان معاوية يمارس العكس تماماً.[۴۰۴]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۵۱

القسم الثالث: أول من أسلم

اشارة

«أ تَرانِى أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و آله؟ وَاللَّهِ لأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ! فَلا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ. فَنَظَرْتُ فِى أَمْرِى. فَإِذَا طَاعَتِى قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَتِى وَإِذَا الْمِيثاقُ فِى عُنُقِى لِغَيْرِى».

الشرح والتفسير

كما أشرنا سابقاً يبدو أنّ ما ورد فى هذه الخطبة فصول مختلفة من خطبة طويلة فصلها السيد الرضى (ره) عن بعضها البعض، ولذلك قد لا يكون هناك من ترابط وثيق بين هذه الفصول. على كل حال فانّ هذا الفصل من الخطبة يتناول أمرين: الأول إخباره عليه السلام عن الحوادث الآتية مصرحاً بأنّ ذلك ممّا علمه إياه رسولاللَّه صلى الله عليه و آله، ومن ذلك إخباره عن وقائع الجمل وصفين والنهروان، أمّا بعض ضعاف الإيمان كانوا يشككون فى أخبار الإمام عليه السلام، فرد عليهم بالقول

«أترانى أكذب على رسولاللَّه صلى الله عليه و آله؟ واللَّه لأنا أول من صدقه! فلا أكون أول من كذب عليه».

لقد صدقته حين كذبه الناس، وكنت أول من صدق به فشمرت فى الدفاع عنه، كنت أقيه بنفسى فى الحروب والمواقف التى تنكص فيها الابطال، أفيمكن أن أنحرف عن طريقتى وأكذب عليه محال ذلك. الاحتمال الآخر فى تفسير هذه العبارة أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يقول: بايعت من سبقنى من الخلفاء لا- لأنّهم أجدر بها منى، بل دفعاً للخلاف والفرقة فى صفوف المسلمين طاعة لأمر رسولاللَّه صلى الله عليه و آله، أفترون أنى أكذب على رسولاللَّه صلى الله عليه و آله بهذا الكلام، أم تعتقدون أنّى أنقض وصية النبى صلى الله عليه و آله؟ وعليه فقد بايعت من بايعت وتنازلت عن

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۵۲

حقى طاعة لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله. ويبدو أنّ هذا التفسير هو الأنسب لأنّه ينسجم والعبارت اللاحقة. ثم قال عليه السلام:

«فنظرت فى أمرى، فاذا طاعتى قد سبقت بيعتى وإذا الميثاق فى عنقى لغيرى»

والتفاسير وإن إختلفت بشأن هذه البعارة- التى تعد من عبارت نهج‌البلاغة المعقدة- إلّاأنّ التفسير الذى أوردناه آنفا هو الانسب من جميع التفاسير وكأنّ العبارة تجيب على سؤال قد يقتدح إلى الأذهان فى أنّ الإمام عليه السلام لم يبايع الخلفاء الثلاث وهو يرى أنه أجدر بالخلافة منهم وقد نص رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله على إمامته؟ وجواب الإمام عليه السلام أن رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله عهد إلىّ السكوت حفظاً للإسلام إن خالفنى القوم، ولابدّ لى من البيعة من أجل حفظ المصالح التى يجب علىَّ مراعاتها. وعليه فقد جعلت طاعتى لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله أولى من بيعتى، كانت عهداً من النبى صلى الله عليه و آله فى عنقى وليس أمامى سوى الوفاء بالعهد، كما ذهب بعض شرّاح نهج‌البلاغة، كما أوردنا سابقاً إلى أنّ المراد أنّ طاعة النبى صلى الله عليه و آله مقدمة لدى على بيعة الخلفاء، لقد عهد إلىّ النبى صلى الله عليه و آله بالسكوت فى ظل مثل هذه الظروف، وذكر بعض الشرّاح إنّ المراد بقوله

«فنظرت فى أمرى ..»

أنّ هذه الكلمات مقطوعة من كلام يذكر فيه حاله بعد وفاة رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله وأنّه كان معهودا إليه ألا ينازع فى الأمر، ولا يثير فتنة، بل يطلبه بالرفق، فان حصل له وإلّا أمسك، فالمراد: فنظرت فاذا طاعتى لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله؛ أى وجوب طاعتى، قد سبقت بيعتى للقوم، أى وجوب طاعة رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله وامتثال أمره سابق على بيعتى للقوم، فلا سبيل إلى الامتناع من البيعة لأنّه صلى الله عليه و آله أمرنى بها،

«وإذا الميثاق فى عنقى لغيرى»

أى رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله أخذ علىَّ الميثاق بترك الشقاق والمنازعة، فلم يحل لى أن أتعدى أمره، أو أخالف نهيه.[۴۰۵] وقال البعض أنّ العبارة تنسجم وما قال الإمام عليه السلام فى الخطبة الشقشقية

«أما والذى فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر ... لألقيت حبلها على غاربها».

ويبدو أنّ هذا التفسير هو الآخر مستبعداً، لأنّ القوم تمردوا على طاعة الإمام عليه السلام قبل البيعة، واعلنوا بيعتهم فلم يكن هناك من ميثاق، إلّا أن نفسر الميثاق مجازياً.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۵۳

عهد رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله لعلى عليه السلام

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة إلى العهد الذى عهده إليه رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله، ويفهم من العبارة أنّ النبى صلى الله عليه و آله عهد لعلى عليه السلام بمماشاة الخلفاء، وإن لم تستند حكومتهم إلى الموازين الشرعية. وقد صرحت بعض الروايات بمضمون ذلك العهد، ومنها ما أورده المرحوم السيد ابن طاووس فى كشف المحجة فى رواية عن على عليه السلام:

«وقد كان رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله عهد إلى عهداً، فقال: «يابن أبى‌طالب! لك ولاء امّتى. فان ولوك فى عافية واجمعوا عليك بالرضا فقم بأمرهم وإن إختلفوا عليك فدعهم وما هم فيه فانّ اللَّه سيجعل لك مخرجاً».

فالواقع أنّ الإنسان قد يقف أحياناً على مفترق طرق كلاهما مرير، إلّاأن أحدهما أمّر من الآخر، فالعقل فى مثل هذه الحالة يحكم باجتناب الأمّر وتقبل المرير؛ القاعدة التى يصطلح عليها فى الفقه بقاعدة الأهم والمهم، كما يعبر عنها أحياناً بدفع الأفسد بالفاسد، وهذا ما سلكه أميرَالمؤمنين عليه السلام بعيد وفاة رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله. فقد كان أمامه عليه السلام سبيلان لاثالث لهما، إمّا إن يترك حقه المسلم فى الخلافة حفظا للإسلام والمصالح الإسلامية، أو أن ينهض بالامر فيطالب بحقه، دون الإكتراث لوحدة المسلمين وتربص الاحزاب الجاهلية بالإسلام والفرصة التى كان ينتظرها المنافقون بفارغ الصبر أملا فى إقتتال المسلمين وتسللهم إلى

الحكومة، الأمر الذى تكهن به رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله فعهد لعلى عليه السلام ذلك العهد، ولم يكن من على الذى أوقف نفسه للإسلام سوى الالتزام بذلك العهد.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۵۵

الخطبة: الثامنة و الثلاثون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

وفيها علّةُ تسمية الشُّبهة شبهةٌ ثُمَّ بيانُ حال النّاسِ فيها.[۴۰۶]

نظرة إلى الخطبة

إنّ أدنى تأمل للخطبة سيفيد أنّ هذا الكلام فصل من كلام طويل إختاره السيد الرضى (ره)، ومن هنا نرى الكلام عبارة عن فصلين، أحدهما غير منسجم مع الآخر، بل مبتور عنه.

أمّا الفصل الأول فهو الكلام فى الشبهة ولماذا سميت شبهة، وسبيل الخلاص من الشبهات.

والفصل الثانى بيان حال الناس إزاء الموت، حيث لا ينجو منه من خافه، ولا يمنح البقاء من طلبه فكلاهما ميت. وتدل القرائن على أن الرضى (ره) كان يلتقط الكلام إلتقاطاً، ومراده أن يأتى بفصيح كلامه عليه السلام وما يجرى مجرى الخطابة والكتابة، ويؤيد هذا العبارة

«من كلام له» و «من خطبة له»

ونعرف أنّ من هنا تبعيضية، فلم يقل ومن خطبته أو ومن كلماته، فقد أراد أن ما ورد هنا جزء من خطبته عليه السلام. على كل حال فانّ الخطبة ورغم قصرها تتناول موضوعين أحدهما؛ الشبهة والآخر الموت.

ج‌ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۵۷

«وَإِنَّما سُمِّيَتِ الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لِأَنَّها تُشْبِهُ الْحَقَّ: فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ فَضِياؤُهُمْ فِيها الْيَقِينُ وَدَلِيلُهُمْ سَمْتُ الْهُدَى وَأَمَّا أَعْداءُ اللَّهِ فَدُعاؤُهُمْ فِيها الضَّلالُ وَدَلِيلُهُمُ الْعَمَى، فَما يَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ مَنْ خافَهُ، وَلا يُعْطَى الْبَقاءَ مَنْ أَحَبَّهُ».

الشرح والتفسير

النجاة من الشبهة

يستفاد من بعض المصادر أنّ هذا الفصل من الخطبة يتعلق بقصة طلحة والزبير ومعركة الجمل؛ لأنّهما خلقا شبهة لدى الناس ودعوهم لنكث البيعة والقيام ضد الحق. ومن عناصر تلك الشبهة زج زوج النبى صلى الله عليه و آله فى تلك المعركة والمطالبة بدم عثمان وما شا كل ذلك. قد تحدث الإمام عليه السلام عن الشبهة قائلا:

«وإنّما سميت الشبهة شبهة لأنّها تشبه الحق»

ومن هنا كانت سببا لخداع السذج وذريعة بيد الشياطين للفرار من الحق. فالواقع أنّ الامور التى تواجه الإنسان فى حياته الفردية والاجتماعية لا تخرج عن ثلاث؛ فقد يكون الحق ظاهراً جلياً كأن نقول من يعمل الخير يحصد الخير ومن يعمل الشر يحصد الشر؛ أو

يكون الباطل واضحاً، كأن نقول الفوضى وغياب القانون أفضل من النظام وسيادة القانون، فمن البداهة القول ببطلان هذا الأمر. غير أن هنالك بعض الحالات التى ليست من قبيل القسم الأول ولا الثانى، حيث يتلبس الباطل أحياناً بثوب الحق، أمر ظاهره حق وباطنه باطل، كتلك الامور الجوفاء التى تمسك بها أصحاب الجمل وصفين من أجل إشعال نيران تلك المعارك. ويبدو أنّ هذه هى مشكلة المجتمعات البشرية، وقد إتسعت فى مجتمعاتنا المعاصرة، حيث نرى أغلب الأهداف الباطلة والسلطة الخبيثة التى تلبست ثياب حقوق الإنسان والدفاع عن الحرية والديمقراطية وحفظ القانون وإعادة السلام والاستقرار إلى المنطقة. ثم أشار عليه السلام إلى طرق النجاة من

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۵۸

الشبهات التى يعتمدها أولياء اللَّه

«فأما أولياء اللَّه فضياؤهم فيها اليقين ودليلهم سمت ۴۰۷] الهدى».

فالعبارة قد تكون إشارة لأحد أمرين: الأول أنّ أولياء اللَّه الذين يؤمنون باللَّه والغيب إنّما يلوذون بالقرآن وكلمات أئمة العصمة لمواجهة ظلم الشبهات والخلاص منها بدافع من يقينهم بالوحى، وعليه فاليقين فى العبارة هو الإيمان باللَّه ورسوله «وسمت الهدى» إشارة إلى هدى الوحى، كما قال القرآن «ذ لِكَ الْكِتابُ لَارَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلمُتَّقِين»[۴۰۸]. وقيل المراد باليقين الاستفادة من المقدمات القطعية والامور اليقينية التى من شأنها إنارة الطريق والقضاء على الشبهة، وبعبارة اخرى فانّ أولياء اللَّه الذين لايكترثون للاهواء ويحكمون العقل إنّما يسعهم فى ظل هذا لاعقل أن يجتازوا الشبهات ويهتدوا إلى السبيل، ولو كان للأهواء من سبيل إلى العقل لما وسع هذا الفرد تمييز الحق من الباطل إذا إلتبس عليه الأمر. والتفسيران لايتعارضان، ويمكن الجمع بينهما فى مفهوم العبارة المذكورة.

قد يقال أنّ بعض الآيات والروايات قد اشتملت على المشتبه الذى يتضمن مختلف التفاسير، فما العمل فى هذا الحالة؟

لقد أجاب القرآن الكريم صراحة عن هذا السؤال وذلك بالرجوع إلى الآيات المحكمة والروايات الصريحة التى تفسر تلك المتشابهة حتى يتمكن الفرد من إجتياز هذا الامتحان الإلهى بالآيات والروايات المتشابهة. والحياة الإنسانية على غرار الآيات القرآنية قد تنطوى على محكمات ومتشابهات، فقد ترى مثلًا حركة مريبة من أحد الأصدقاء تحتمل الوجهين فى التفسير، وقد أرشدت مختلف الحوادث إلى نزاهته وعفته خلال كل هذه المسيرة، فلا شك أنّ حسن السيرة هذا من المحكمات وتلك الحركة المريبة من المتشابهات التى يمكن تفسيرها من خلال المحكمات. ثم تطرق الإمام عليه السلام لأعداء اللَّه فى كيفية التعامل مع الشبهات فقال:

«وأما أعداءاللَّه فدعاؤهم فيها الضلال ودليلهم العمى»

فكل سبيل يتطلب دافعاً ودليلًا من أجل الحركة، وهنا يفترق الأفراد إلى أولياء اللَّه وأعدائه، فليس لأولياء اللَّه من دافع سوى اليقين باللَّه واليوم الآخر ودليل سوى الوحى والنبوة، بينما دافع أعداء ودليلهم الضلال وهوى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۵۹

النفس ووساوس شياطين الانس والجن وعمى البصر والبصيرة. ومن هنا فانّ الفلاح والسعادة فى الدنيا والآخرة هى مصير الطائفة الاولى «أ لا- إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ... لَهُمُ الْبُشْرى فِى الحَياةِ الدُّنْيا وَفِى الآخِرَةِ»[۴۰۹] بينما ليس لأعداء اللَّه سوى الظلمات «أَوْ كَظُلُماتٍ فِى بَحْرٍ لُجِّىٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ»[۴۱۰]. أمّا ما ورد فى خطبة الإمام عليه السلام فهو صادق على الحياة الفردية وكذلك الحياة الاجتماعية، بل إنّ أبعاده لأعظم وأخطر فى الجانب الاجتماعى وقد تجسد النموذج الكامل لذلك فى الطائفة الثانية (أعداء اللَّه) من قبيل الفرق الثلاث التى خاضت معركة الجمل وصفين والنهروان من خلال الشبهات الواهية والادلة الجوفاء الأضعف من بيت العنكبوت لتهب لقتال الإمام عليه السلام وتوجّه ضرباتها الماحقة لكيان الإسلام والمسلمين. جدير بالذكر ما أورده صحيح البخارى عن أبى بكرة- أحد صحابة رسولاللَّه صلى الله عليه و آله- أنّه قال سمعت حديثاً عن رسولاللَّه صلى الله عليه و آله نفعنى أيام

الجمل، فقد كدت أن ألتحق بمعسكر أصحاب الجمل، حيث بلغ رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله أنّ طائفة من الإيرانيين قد ولوا عليهم بنت كسرى فقال صلى الله عليه و آله

«لن يفلح قوم ولو أمرهم إمرأة».[۴۱۱]

تأثير الشبهة فى تحريف الحقائق

لو ظهر الباطل كما هو لما خفى على أحد، ولما قبله الوجدان والطبع السليم، ولا يستجيب له سوى مرضى القلوب ومنحرفى الأفكار إلّاأنّ المشكلة تتعقد حين يتزين الباطل بلباس الحق، فيقبل عليه بعض طلاب الحق بعد أن يغترون بحسن ظاهره، وهذه فى الواقع إحدى شعب الشبهة. الشعبة الاخرى أن يمزج مقدار من الحق بمقدار من الباطل فتختفى صورة الباطل القبيحة فى ظل الحق. وأخيراً فقد يزيف الباطل ويجمل حتى يبدو بصورة حق دون أن

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۶۰

يمتزج به. وقد حفل تأريخ البشرية بما لا يحصى من الفتن والويلات التى طالته من خلال الشبهات والوساوس الشيطانية، حتى مارس الطغاة والمخادعون سلطتهم على الناس بواسطة تلك الشبهات. وأفضل نموذج على ذلك المعارك الثلاث المعروفة- الجمل وصفين والنهروان- التى أودت بحياة تلك الجماعة العظيمة من المسلمين وما ذلك إلّامن خلال الشبهات التى إعتمدها أصحاب الباطل من أجل تحقيق أطماعهم ومآربهم؛ فالبكاء ليل نهار على قتل الخليفة المظلوم (عثمان) والطواف بقميصه الملطخ بالدم من أجل تعبئة الناس، حتى من قبل أولئك الذين ساهموا فى قتله وتلطخت أيديهم بدمه، ومن ثم الإتيان بام المؤمنين وركوبها الجمل و ... كلها نماذج حية من الشبهة. رفع المصاحف على أسنة الرماح وشعار التسليم الحكم القرآن والحيلولة دون إراقة دماء المسلمين هى الاخرى من شبهات معركة صفين. بل أبشع صورة للشبهة فى محاولة تحميل الإمام على عليه السلام مسؤولية قتل عمار بن ياسر فى معركة صفين حيث إحتج الإمام عليه السلام بقول رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله:

«يا عمار تقتلك الفئة الباغية»،

فاحتج عليه بأنّ الفئة الباغية من أتت بعمار إلى المعركة. أما أصحاب النهروان ممن كانوا يتظاهرون بصلاة الليل وقراءة القرآن التى لاتتجازو تراقيهم، فقد رفعوا شعارهم المعروف «لا حكم إلّااللّه» وقد انطوت هذه الشبهة على فئة عظيمة من الناس والتى أدت فى الختام إلى قتلهم وخلودهم فى جهنم وبئس المصير. ويشهد عالمنا المعاصر اليوم أسوأ أنواع الشبهات، فما أكثر الشعارات البراقة الساحرة، من قبيل شعار الحرية والديمقراطية والمساواة وتفعيل حقوق الإنسان والحضارة والمدنية وتطوير البشرية والتى ترتكب باسمها أعتى الجنايات وأقبح الجرائهم.

وسنسلط مزيداً من الضوء على هذا الموضوع حين نصل إلى الخطبة الاربعين والخمسين الواردة بهذا الشأن، كما أشار الإمام عليه السلام إلى هذا الأمر فى الحكمة ۱۹۸ من قصار كلماته فى نهج‌البلاغة.

عبثية الخوف من الموت

يرى أغلب شرّاح نهج‌البلاغة عدم وجود آية رابطة لقولة عليه السلام:

«فما ينجو من الموت من خافه، ولا يعطى البقاء من أحبه»

وما ورد فى أول الخطبة، وأنّ السيد الرضى (ره) إنّما يلتقط

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۶۱

كلام الإمام عليه السلام من أكثر من خطبة. ولعلنا نستطيع تصور رابطة بين الفصلين من الخطبة وذلك أنّ الأفراد قد يستسلمون

للشبهات خوفاً من الموت، فإشار عليه السلام إلى أنّ خوف الموت لا ينجى من الموت أبداً. على كل حال فان هذا الفصل من الخطبة يشتمل على عبارتين تعالج كل منها قضية الموت. فقد قال عليه السلام

«فما ينجو من الموت من خافه»،

بل إنّ هذا الخوف قد يكون من العناصر المقربة للموت. فالموت هو القلادة التى خطت على جيد ابن آدم وسائر الكائنات الحية والقانون الذى لايعرف الشواذ والاستثناء، فليس هنا لك من خلود سوى للّه سبحانه.

فجميع الكائنات محدودة وأنّها ستنتهى لامحالة وتؤول إلى الفناء. وليس من بقاء سوى للذات الإلهية المقدسة، وعليه فخوف الموت لن يغير من حقيقته شيئاً، كما أن السعى من أجل البقاء والحياة الخالدة لن يكلل بالنجاح أبداً. ومن هنا قال الإمام عليه السلام فى العبارة الثانية

«ولا يعطى البقاء من أحبه».

قد تطول مدة الحياة أو تقصر إلّاأنّها سائرة للزوال فى خاتمة المطاف ومن الوهم الساذج والباطل التفكير بالبقاء والخلود. فقد صرح القرآن الكريم «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ» وقال «كُلُّ شَيءٍ هالِكٌ إِلّا وَجْهَهُ». والعبرة هنا فى أن يستعد الإنسان للموت ويتزود له، فالموت لا يعنى الفناء المطلق بقدر ما يعنى الانتقال من دار صغيرة محدودة إلى أخرى كبيرة واسعة تشتمل على مختلف النعم واللذائذ، وإذا أصلحنا عملنا فليس هنالك ما يدعو إلى الخوف من الموت.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۶۳

الخطبة[۴۱۲]: التاسعة والثلاثون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

خطبها عند علمه بغزوة النعمان بن بشير، صاحب معاوية لعين التمر، وفيها يبدى عذره ويستنهض الناس لنصرته.

نظرة إلى الخطبة

أمر النعمان بن بشير مع علىّ ومالك بن كعب الأرحبىّ

وردت هذه الخطبة كما ذكرنا سابقا حين غزا النعمان بن بشير عين التمر الموضع المعروف فى العراق.

وقد كان معاوية قال قبل ذلك بشهرين أو ثلاثة: أمَا من رجل أبعثُ به بجريدة خيل؛ حتى يُغِيرَ على شاطىء الفرات! فإنّ اللّه يُرعِبُ بها أهلَ العراق! فقال له النعمان: فابْعثنِى؛ فإنّ لى فى قتالهم نيّةً وهوًى- وكان النعمان عثمانياً: قال: فانتدب على اسمِ اللّه، فانتدَبَ ونَدَب معه ألفىْ رَجل، وأوصاه أن يتجنّب المدن والجماعات، وألّا يُغير إلّاعلى مَسْلَحة، وأن يعجّل الرجوع.

فأقبلَ النعمانُ بن بشير؛ حتى دنا من عين التَّمْر، وبها مالك بن كعب الأرحبىّ الذى جرى له معه ما جَرى، ومع مالك ألفُ رجل؛ وقد أذن لهم، فرجعوا إلى الكوفة، فلم يبق معه إلّامائة أو

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۶۴

نحوها، فكتب مالك إلى علىّ عليه‌السلام: أما بعد؛ فإنّ النعمان بن بشير، قد نَزَل بى فى جمع كَثِيف، فَرَ رأيَك، سدّدك اللّه تعالى وثبتك. والسلام. فوصل الكتابُ إلى علىّ عليه‌السلام؛ فصعد المنبر فحمداللّه وأثنى عليه، ثم قال:

اخرجُوا هداكم اللّه إلى مالك بن كعب أخيكم، فإنّ النعمان بن بشير قد نَزَل به فى جمع من أهل الشام؛ ليس بالكثير، فانهضوا إلى

إخوانكم، لعلّ اللَّهَ يقطعُ بكم من الكافرين طَرَفاً.

ثم نزل.

فلم يخرجوا، فأرسل إلى وُجُوهم وكُبرائهم، فأمرَهم أن ينهضُوا ويحثّوا الناسَ على المسير، فلم يصنعوا شيئاً، واجتمع منهم نفر يسير نحو ثلثمائة فارس أوْ دونها، فقام عليه السلام، فخطب الخطبة.[۴۱۳]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۶۵

القسم الأول: سكوت الإمام عليه السلام

«مُنِيتُ بِمَنْ لا- يُطِيعُ إِذا أَمَرْتُ وَلا- يُجِيبُ إِذا دَعَوْتُ، لا- أَبـالَكُمْ! ما تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبَّكُمْ؟ أَما دِينٌ يَجْمَعُكُمْ وَلا حَمِيَّةَ تُحْمِشُكُمْ؟ أَقُومُ فِيكُمْ مُسْتَصْرِخاً وَأُنادِيكُمْ مُتَغَوِّثاً، فَلا تَسْمَعُونَ لِي قَوْلًا، وَلا تُطِيعُونَ لِي أَمْراً، حَتَّى تَكَشَّفَ الْأُمُورُ عَنْ عَواقِبِ الْمَساءَةِ، فَما يُدْرَكُ بِكُمْ ثارٌ، وَلا يُبْلَغُ بِكُمْ مَرامٌ».

الشرح والتفسير

أشرنا سابقاً إلى أن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة حين بعث معاوية النعمان بن بشير ليرعب إحدى مناطق العراق ويضعف معنويات أهلها، فدعا الإمام عليه السلام الناس لقتالهم، غير أن عجز أهل العراق وضعفهم جعلهم يردون بالسلب على دعوة الإمام عليه السلام، فخطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة لغرضين: الأول: تحميل أهل العراق المسؤولية التامة للمصائب والويلات التى تتعرض لها البلاد بفعل هذا الضعف والذلة تجاه العدو، الثانى: لعل هذه الكلمات تؤثر فى تلك الأرواح الهامدة فتلتفت إلى عظم الأخطار التى كانت تتربص بها فتهم بموا جهتها. فقد قال عليه السلام:

«منيت بمن لا يطيع إذا أمرت ولا يجيب إذا دعوت»

فمن الطبيعى أنّ أعظم القادة والامراء وأشجعهم لايسعهم فعل شيء إذا ما ابتلوا بمثل هؤلاء الأفراد، وما من فشل أو هزيمة تصيبهم إلّا ويتحملون مسؤوليتها كاملة. ثم قال عليه السلام:

«لا أبا لكم: ما تنظرون بنصركم ربكم»؟

إنّ جميع الظروف متوفرة لديكم من أجل القتال، فعندكم العدّة والعدد، كما تعلمون مؤامرات عدوكم وقد أحدق الخطر بكم، فماذا تنتظرون؟ أتتطلعون لقتلكم بهذه الذلة والهوان؟ وقد

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۶۶

أشْرنا سابقاً إلى أن قوله عليه السلام:

«لا أبا لكم»

إما يفيد عدم تربيتهم التربية الاسرية الإسلامية الصحيحة بحيث يبدون كل هذا الضعف والعجز، أو أنّه دعاء عليهم بان يميت اللَّه آبائهم، وهو الآخر كناية عن الذلة والهوان الذى يستشعره الإنسان لفقد والده. ثم قال عليه السلام:

«أما دين يجمعكم ولا حمية تحمشكم»[۴۱۴]؟

فالواقع من شأن أى من هذين الأمرين دواء دائهم، فالدين حلقة إتصال يمكنها إستقطاب الفئات والطوائف المختلفة حول هدف مركزى واحد، فاذا غاب الدين الذى يجمعهم، فانّ الغيرة الاجتماعية وحبّ الاهل والوطن إنّما تسوقهم للاتحاد أمام العدو ومواجهته، غير أنّ المؤسف له هو أنّ أهل العراق آنذاك قد فقدوا هذين الدافعين، فلم يكن دينهم محكماً راسخاً، كما لم تكن لهم حمية تجعلهم يغضبون ويواجهون العدو. ولا شك أن مثل هؤلاء القوم يعتبرون عقبة كؤوداً فى طريق الحاكم. ومن هنا خاطبهم الإمام عليه السلام مصوراً حجم ضعفهم والذل الذى سيطر عليهم

«أريد أن اداوى بكم وانتم دائى كناقش الشوكة بالشوكة».[۴۱۵]

ومن هنا قال عليه السلام:

«أقوم فيكم مستصرخاً[۴۱۶] وأناديكم متغوّثاً،[۴۱۷] فلا تسمعون لى قولًا، ولا تطيعون لى أمراً، حتى تكشف الامور عن عواقب المساءة»[۴۱۸]

فهل هناك أعظم من هذه المأساة، فى أن يبتلى مثل هذا الإمام عليه السلام الشجاع العالم العادل المجرب بمثل هؤلاء القوم الذين لايكترثون لصراخه ولا يطيعون أوامره. ويفيد التأريخ أنّ هذا الأمر لم يقتصر على أميرالمؤمنين عليه السلام وقد مارست الامّة نفس هذا الموقف مع الإمام الحسن والحسين عليهما السلام فقد وقعت حادثة كربلاء ليقتل الإمام وصحبه بتلك الشاعة، آنذاك ندم أهل الكوفة وهبوا للمطالبة بدم الحسين عليه السلام ولكن بعد أن وقع ما لم يكن ينبغى أن يقع، فقد تخلوا آنذاك عن دعم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۶۷

سفير الحسين عليه السلام مسلم‌بن عقيل ونكثوا بيعته ولزموا بيوتهم، فبقى مسلم وحده يقاتل الأعداء حتى استشهد. وأخيراً خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة

«فما يدرك بكم ثار، ولا يبلغ بكم مرام».

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۶۹

القسم الثانى: الضعف أمام العدو

اشارة

«دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوانِكُمْ فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ[۴۱۹] الْجَمَلِ الْأَسَرِّ[۴۲۰] وَتَثاقَلْتُمْ تَثاقُلَ النِّضْوِ[۴۲۱] الْأَدْبَرِ[۴۲۲] ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ[۴۲۳] مُتَذائِبٌ ۴۲۴] ضَعِيفٌ «كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ».

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام ذمه لأهل الكوفة على ما أبدوه من ضعف وعجز تجاه الهجمات المبرمجة للعدو فقال عليه السلام:

«دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجرجرتم جرجرة الجمل الأسر، وتثاقلتم تثاقل النضو الادبر»

أى أنّكم أعريتم عن عجزكم فى الكلام كما فعلتم ما يفشلكم فى الدنيا والآخرة ويمكن العدو من تكبيدكم الخسائر فى أموالكم وأرواحكم، فقد دعوتكم لنصر أخوانكم (مالك بن كعب وصحبه ممن تعرضوا لغارات اهل الشام فى منطقة عين التمر) فكانت حركتكم كحركة الجمل وتثاقل النضو الادبر

«دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجرجرتم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۷۰

جرجرة الجمل الأسر، وتثاقلتم تثاقل النضو الأدبر»

ولعل تشبيههم بالحيوانات المريضة إشارة إلى ضعفهم الفكرى وعجزهم فى إتخاذ القرار، لأنّ الإنسان العاقل لايدع العدو يهجم عليه بهذه الطريقة بحيث يضرب أينما شاء دون وازع أو رادع. ثم أشار عليه السلام إلى تلك الفئة القليلة التى لبت دعوته، بينما كان الخوف والهلع يسيطر عليهم

«ثم خرج إلى منكم جنيد متذائب ضعيف كأنّما يساقون إلى الموت وهم ينظرون».

وقد أورد السيد الرضى (ره) فى آخر الخطبة قائلًا: قوله عليه السلام متذائب؛ أى مضطرب، من قولهم: تذائبت الريح، أى اضطراب

هبوبها.

ومنه سمى الذئب ذئباً، لاضطراب مشيته. ومن هنا فانّ هذه الفئة القليلة لم تكن مصداقاً لقوله سبحانه

«كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة»

بل كانت فئة ضعيفة قلقلة مضطربة كأنّهم يساقون إلى المذبح وهم ينظرون إلى موتهم، فهى فئة عدمها خير من وجودها والوثوق بها مخجل، فما أعظم محنته الإمام عليه السلام وابتلائه بهؤلاء القوم طبعاً قوله عليه السلام كأنّما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. إنّما اقتبسه عليه السلام من الآية السادسة من سورة الانفال التى وردت بشأن بعض المؤمنين الضعفاء على عهد النبى صلى الله عليه و آله الذين كانوا يتشبثون بمختلف الذرائع والحجج للفرار من الجهاد إلى جانب جدالهم للنبى صلى الله عليه و آله حول موقعة بدر، غير أنّ حوادث بدر أثبتت لا حقاً مدى خطأهم وتزايد خوفهم عبثاً حتى إنتهت الموقعة بالنصر المؤزر للمسلمين، والعجيب أنّ هؤلاء كانوا من المعترضين على كيفية توزيع الغنائم بعد انتهاء المعركة. ولعل المراد بالعبارة أن هذه الفئة القليلة لو كانت تمتلك العزم الراسخ والقوة والصلابة من شأنها الانتصار على العدو، غير أن المؤسف ...

عاقبة الضعف أمام العدو

رغم أن التعاليم الإسلامية تستند إلى ارساء قواعد السلام مع كافة الامم والشعوب- باستثناء تلك الحالات التى يشهر فيها السلاح ضد الإسلام والمسلمين- إلّاأنها توصى بالشدة والصلابة فى بعض الحالات الطارئة، ونموذج ذلك ما ورد فى هذه الخطبة وسائر خطب نهج البلاغة بشأن العتاة المردة من أهل الشام من جيش معاوية. فقد كان معاوية يستغل الفرص من أجل إضعاف أهل العراق وزعزعة روحياتهم، فقد كان يجهز بعض الجماعات

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۷۱

ويعبئها لشن غاراتها على بعض المناطق الإسلامية فتنشر فيها الذعر والخراب والدمار وتذبح من فيها دون الإكتراث للشيوخ والنساء والصبيان إلى جانب نهب الأموال والثروات وقد تكررت مثل هذه الحادثة لأكثر من مرّة على عهد الإمام عليه السلام، فكان الإمام عليه السلام يستصرخ أهل الكوفة لمواجهة هذه الأخطار فكانوا يردون عليه بكل ضعف وفتور وكأنّهم لم يعلموا بما يجرى حولهم وقد غطوا فى نوم عميق: الأمر الذى جعل إعتداءات أهل شام تتصاعد يوماً بعد آخر، حتى أصبح العراق بعيد شهادة الإمام عليه السلام لقمة سائغة لمعاوية ورهطَه بحيث لم يتمكن الإمام الحسن عليه السلام من الوقوف بوجه ذلك الظالم، ولا عجب فى الأمر فلم تكن لديه القوة الكافية من الأفراد التى يستطيع بواسطتها قتال معاوية. ونلمس اليوم هذه الحقيقة بوضوح فى عالمنا المعاصر، وإذا لم نلتفت إلى تحرشات العدو وتقبرها فى المهد فانّها ستتسع شيئاً فشيئاً، آنذاك لم يمكن المواجهة والصمود. وعليه فلابد من الانتباه إلى أدنى حركة عسكرية أو إعلامية أو إقتصادية والتعامل معها فوراً بمنتهى الصلابة ليضطر العدو للدفاع بدلًا من الهجوم.

فعادة ما تحاول العناصر الضعيفة التى تميل إلى الدعة والراحه لحمل مثل هذه الحركات على البراءة بعيد عن حملها محمل الجد وإساءة الظن بها، والحال أنّها إنّما تبدر من العدو الذى لاينبغى الغفلة عن إتهامه ريثما تتكشف الحقائق. ونختتم البحث بالعبارات الواردة فى خطبة الجهاد حيث قال عليه السلام:

«ألا-وإنّى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلًا ونهاراً وسراً وأعلاناً وقلت لكم: إغزوهم قبل أن يغزوكم: فواللّه ما غزى قوم قط فى عقر دارهم إلّاذلوا».[۴۲۵]

سؤال

لعل هنالك من يتساءل لم كل هذه الشدّة من الإمام عليه السلام مع أصحابه ومخاطبتهم بهذه اللكمات وتحقيرهم إلى هذا الحد،

أفليس من الأفضل أن يرفق بهم ويتلطف معهم؟

الجواب: بينا الإجابة على ذلك كراراً فى الخطب السابقة، وقلنا أنّ ذلك يمثل آخر الدواء، وكأنّه عملية لاستئصال مرض عضال.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۷۳

الخطبة الاربعون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

فى الخوارج لما سمع قولهم: «لا حكم الا اللَّه»

نظرة إلى الخطبة

خطبها عليه السلام بعد موقعة صفين حين إعترض عليه الخوارج بقبول التحكيم وانتخاب ممثلين أحدهما من أصحاب الإمام والآخر من أصحاب معاوية لهذا الأمر ليحكما بشأن عاقبة موقعة صفين وخلافة المسلمين، بينما يصرح القران «إِنِ الحُكْمُ إِلّا لِلَّهِ»[۴۲۶] فاقتبسوا من الآية قولهم «لاحكم إلّاللَّه» ليحتجوا بها على الإمام عليه السلام، وبالطبع فان هنالك مغالطة كبرى وقعوا فيها ولم يدركوا حقيقة الامر. فلما سمع الإمام عليه السلام هذا الشعار، رد بهذه الخطبة وأشار فيها إلى أربعة أمور:

الأول: كشف النقاب عن مغالطتهم فى هذا الشعار، وأنّ القول «لا حكم إلّاللَّه» كلمة حق يريدون بها باطلًا.

الثانى: حاجة الامّة إلى الحاكم، وبعبارة اخرى ضرورة الحكومة.

الثالث: شرح وظائف الحاكم العادل وايجازها فى سبع.

الرابع: نتيجة وجود الحكومة العادلة.

وقد نقل المرحوم السيد الرضى (ره) آخر هذه الخطبة نفس هذا المضمون طبق رواية أخرى بعبارات أقصر.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۷۵

«قالَ عليه السلام: كَلِمَةُ حَقٍّ يُرادُ بِها باطِلٌ! نَعَمْ إِنَّهُ لا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ وَلَكِنَّ هَؤُلاءِ يَقُولُونَ: لا إِمْرَةَ إِلَّا لِلَّهِ، وَإِنَّهُ لا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فاجِرٍ يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتِعُ فِيها الْكافِرُ، وَيُبَلِّغُ اللَّهُ فِيها الْأَجَلَ وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ، وَيُقاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ؛ حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ وَيُسْتَراحَ مِنْ فاجِرٍ.

فِي رِوايَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ عليه السلام لَمَّا سَمِعَ تَحْكِيمَهُمْ قالَ: حُكْمَ اللَّهِ أَنْتَظِرُ فِيكُمْ.

وَقالَ: أَمَّا الْإِمْرَةُ الْبَرَّةُ فَيَعْمَلُ فِيها التَّقِيُّ، وَأَمَّا الْإِمْرَةُ الْفاجِرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فِيها الشَّقِيُّ، إِلَى أَنْ تَنْقَطِعَ مُدَّتُهُ وَتُدْرِكَهُ مَنِيَّتُهُ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى الشعار الذى رفعه الخوارج

«لاحكم إلّاللَّه»

بقوله

«كلمة حق يراد بها باطل»

ثم بين عليه السلام بطلان ما أراده الخوارج من تحريفهم لهذا الكلام الحق بقوله

«نعم إنّه لاحكم إلّا للَّه ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلّاللَّه»

خطأ الخوارج فى هذا الشعار الحق الذى إقتبسوه من القرآن أنّهم أرادوا به أن الحكومة بين الناس للّه، ومن هنا فقد إعترضوا على مسألة التحكيم ورأوها نوعاً من الشرك، وذلك لأنّها منحت الحكومة لغير اللّه من الأفراد! فمن البديهى أن يكون الحاكم بين الناس هو اللّه إذا كان الحكم مقتصراً على اللّه، وعليه لابدّ من إزالة أصل الحكومة، لَما وعليه من إزالة القضاء والمحاكم بالتبع فهى من قبيل الحكومة التى يمارسها الأفراد. لقد خيل لتلك الفئة أنّها تريد أن تعيش توحيد اللّه على مستوى الحاكمية والتخلص من الشرك فى هذا المجال، إلّاأنّهم إثر جهلهم وتعصبهم سقطوا فى مستنقع الفوضى والهرج والمرج ورفض الحكومة فى أوساط المجتمعات البشرية، واصيبوا بالهلوسة التى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۷۶

جعلتهم يعتقدون بأنّ رعاية التوحيد تتطلب نفى كافة ألوان الحكومة والامرة، غير أنّهم سرعان ما وقفوا على بطلان مذهبهم فى الحكومة لما شعروا بحاجتهم إلى من يتزعمهم ويحكم بينهم، رغم عنادهم الذى أفرزه جهلهم والذى لم يدعهم يفيقون إلى أنفسهم. مع ذلك فقد قضت كلمات الإمام عليه السلام مضاجعهم واستطاعت أن تفعل فعلها فى ميدان القتال فجعلت الكثير منهم يعودون إلى رشدهم فيعلنوا توبتهم بعد أن وقفوا على عمق إنحرافهم، على كل حال فانّ الإمام عليه السلام يؤكد فى هذه الخطبة أنّ الحاكم وا لمشرع الاصلى هو اللّه سبحانه؛ حتى الحكم بين الناس لابدّ أن يستند إلى تخويل منه، إلّاأنّ هذا لايعنى أن اللّه ينبغى أن يحضر بنفسه فى المحاكم ليقضى ويحكم بين الناس، أو أن يأخذ بزمام الامور فيمارس وظيفته كرئيس للبلاد أو والياً وعاملًا على منطقة، أو أن يوكل هذه المهمة إلى الملائكة فيبعثهم إلى الأرض. فهذا كلام عبثى ولغو فارغ لا يرتضيه من كان له أدنى فهم وإدراك، إلّاأنّ المؤسف هو أن هذه الفكرة كانت متأصلة فى أفكار الخوارج، ومن هنا خالفوا أميرالمؤمنين عليه السلام واعترضوا عليه: لم قبلت التحكيم؟! وصرح بعض شرّاح نهج‌البلاغة بأنّ الخوارج يزعمون أن الحكم يتطلب الاذن الإلهى ولابدّ أن يصرح القرآن بهذا الأمر، بينما لم يأذن القرآن لأحد. ولعل هذا هو الذى دفع بعض الاعلام ۴۲۷] لأن يستدلون على نفى عقيدة الخوارج بالآية القرآنية الشريفة الواردة بشأن الحكم فى الاختلافات العائلية «وَإِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِما فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِها إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُما إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً خَبِيراً»[۴۲۸]. فاذا كانت هذه المسألة الصغيرة تحتاج إلى الحكم فما ظنك بالمسائل المهمة التى يدعو الاختلاف فيها إلى تفشى الهرج والمرج فى صفوف المجتمع، أفلا ينبغى فصل هذه الاختلافات وحلها عن طريق الحكم؟! ومن هنا يرى البعض أنّ الإمام عليه السلام لم يكن مخالفاً لمسألة التحكيم فى بعض الحالات، إلّا أنّه لم يكن يوافق شخص الحكمين وكان يعترض عليهما بشدة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فى ضرورة تشكيل الحكومة، لأنّ لخوارج. كما أشرنا سابقا- لم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۷۷

يخالفوا مسألة التحكيم فى صفين فحسب، بل شككوا فى أصل الحكومة وزعموا عدم الحاجة إلى الحاكم، إلّاأنّهم رجعوا عن ذلك لما أمروا عليهم عبداللّه بن وهب الراسبى ۴۲۹]. ثم علل الإمام عليه السلام ضرورة تشكيل الحكومة والحاكم

«وإنّه لابدّ للناس من أمير بر أو فاجر»

ليذكر سبعة فوائد تترتب على قيام الحكومة بعضها يتصل بالجانب المعنوى والبعض الآخر بالجانب المادى وهى: أولًا:

«يعمل فى إمرته ۴۳۰] المؤمن».[۴۳۱]

ثانياً:

«ويستمتع فيها الكافر»،

ثالثاً:

«ويبلغ اللّه فيها الاجل»،

رابعاً:

«ويجمع به الفيئ»،

خامساً:

«ويقاتل به العدو»

سادساً:

«وتأمن به السبل»

سابعاً:

«ويؤخذ به للضعيف من القوى».

ثم تفضى هذه الوظائف السبع إلى هذه النتيجة النهائية المترتبة على الحكومة

«حتى يستريح بر ويستراح من فاجر».

ويدل التأريخ السياسى أنّ فئة قليلة جداً فى الماضى وحتى فى الوقت الراهن هى التى لاترى ضرورة تشكيل الحكومة- مستدلة ببعض الأدلة الجوفاء التى سنشير لها فى البحث القادم- والخوارج مصداق لهذه الفئة. وقد رد التأريخ بصراحة على هذه الفكرة الساذجة فقد رأينا بأم أعيننا وسمعنا بملئ آذاننا مدى الأخطار الجسام التى يواجهها المجتمع إبان إنهيار الحكومة ولو لساعات من قبيل قتل الأنفس وإراقة الدماء وعمليات السرقة والسلب والنهب التى تتعرض لها المؤسسات بل حتى بيوت الناس وانتهاك الاعراض والنواميس وانعدام الامن والاستقرار وسيادة الفوضى والهرج والمرج الاضطراب وشل حركة كافة النشاطات الاجتماعية؛ كما تصبح البلاد لقمة سائغة للاعداء الذين يعيثون فى الأرض فساداً فلا يسلم المؤمن من شرهم ولا الكافر فتهضم جميع الحقوق ويعيش الناس الخوف والذعر فمما لاشك فيه أن الف باء الحياة إنّما يكمن فى إستتباب الأمن والنظام، ثم وجود العناصر المقتدرة التى تقف كالطود الشامخ بوجه العدو الخارجى وعملائه فى الداخل، ولا يتيسر مثل هذا الأمر إلّافى ظل الحكومة. وهنا يبرز هذا السؤال: هل يسع الحاكم الفاجر أن يقوم بالوظائف السبع المارة الذكر التى يقوم بها الحاكم البر والعادل؟ فقد

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۷۸

ذكرها الإمام عليه السلام لكليهما، بحيث يقوم كل منهما بهذه الوظائف. وللإجابة على هذا السؤال لابدّ من الالتفات إلى هذه النقطة وهى أنّ الحاكم البر إنّما يقوم قطعا بمثل هذه الوظائف، إلّاأنّها ليست كذلك بالنسبة للفاجر بصورة مطلقة نعم يمارسها بصورة نسبية، فهو مضطر لاستمرار حكومته أن يراعى النظام، ويقف بوجه العدو الخارجى ويحول نسبيا دون ظلم الظلمة، وان كان فى حد ذاته ظالماً؛ والّا فان الناس ستخرج عليه وتتزلزل دعائم حكومته فيطيح به الأعداء، ومن هنا فانّ أغلب الحكومات مهما كان تتسعى فهى جاهدة للقيام بتلك الوظائف المذكورة. ونخلص ممّا سبق أنّ أية حكومة تتساهل فى الوظائف المذكورة إنّما تكون قد مهدت السبيل إلى تصدع كيانها وإنهيارها. السؤال الآخر هو أنّ الإمام عليه السلام قد فرق بين المؤمن والكافر. فقال عليه السلام بشأن المؤمن «يعمل» والكافر (يستمتع) فما علة ذلك؟ والجواب هو أنّ المؤمن لايهدف فى حياته إلى الاستفادة من الامكانات المتاحة من أجل التمتع العابر، بل هدفه الأصلى الفوز برضى اللّه، وما إستفادته من متع الدنيا إلّابالتبع وكونها مطلوباً ثانوياً، وليس الحال كذلك بالنسبة للكافر، فهو ليس فقط لا ينشد رضى اللّه، بل يقصر همه على هذه الحياة الدنيا ليتمتع فيها وإن كان ذلك من خلال الحرام والطرق اللامشروعة، ومن هنا صرح الإمام عليه السلام بأنّ الحكومة ضرورة للطرفين المؤمن والكافر، يعمل فيها هذا ويتمتع فيها ذاك، ولولا الحكومة لما وسع المؤمن العمل ولا الكافر الاستقرار والتمتع.

ججج

قال السيد الرضى (ره) فى ذيل هذه الخطبة، وفى رواية أخرى أنّ الإمام عليه السلام لما سمع تحكيمهم قال:

«حكم اللَّه أنتظر فيكم»

فالعبارة يمكن أن تكون إقتباساً من كلامهم للرد عليهم فأنتم تقولون الحكم للَّه، وأنا أنتظر هذا الحكم فيكم، فانّه سيحكم فيكم بالعقاب الشديد لهذه اللجاجة والجهل وتفريق صفوف المؤمنين. أو أنى انتظر اتمام الحجة عليكم فمن بقى على جهله وتعصبه أجريت عليه حكم اللَّه. ثم أضاف السيد الرضى (ره)- على ضوء هذه الرواية- وقال عليه السلام

«أما الامرة البرة فيعمل فيها التقى، وأما الامرة الفاجرة فيتمتع فيها الشقى، إلى أن تنقطع مدته وتدركه منيته».

ولكن بالاستناد إلى مفهوم هذه العبارة فى أن الفجار يحرمون من التمتع المباح فى حكومة البر، ولا يستشعر المؤمنون الاستقرار والسكنية فى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۷۹

ظل حكومة الفاجر (وهذا يتناقض وهدف الخطبة فى أنّ الحكومة ضرورة برة كانت أم فاجرة) يبدو أنّ الرواية الاولى أصح وأنسب وأدق.

هذا وقد ورد فى شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ما يوضح العبارة المذكورة

«حكم اللَّه أنتظر فيكم»:

لما رجع على عليه السلام من صفين إلى الكوفة، أقام الخوارج حتى جموا (جموا بمعنى إستراحوا وكثروا) ثم خرجوا إلى صحراء بالكوفة تسمى حروراء، فنادوا: لا حكم إلّااللَّه ولو كره المشركون: ألا أنّ علياً ومعاوية أشركا فى حكم اللَّه. فدخل واحد منهم على على عليه السلام بالمسجد، والناس حوله، فصاح: لاحكم إلّااللَّه ولو كره المشركون، فتلفت الناس فنادى لا حكم إلّااللَّه ولو كره المتلفتون، فرفع على عليه السلام رأسه إليه. فقال: لا حكم إلّااللَّه ولو كره أبوحسن. فقال على عليه السلام: إنّ أبالحسن لايكره أن يكون الحكم للَّه، ثم قال: حكم اللَّه أنتظر فيكم. فقال له الناس: هلا ملت يا أميرالمؤمنين على هؤلاء فأفنيتهم! فقال: إنّهم لايفنون، إنّهم لفى أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة.[۴۳۲]

تأمّلان

۱- بلاء التحريف

لم يقتصر تأويل الحقائق وتحريف الآيات القرآنية على الخوارج بغية الوصول إلى مآربهم وأهدافهم المشبوهة، بل إذا تصفحنا تأريخ البشرية لوجدنا قضية تحريف الحقائق من الحراب والوسائل الفعاله التى إعتمدها الظلمة والطواغيت على مر العصور. فقد مارس هؤلاء أبشع تحريف لكلام اللَّه وكلام الأنبياء والأولياء وفسروها حسب أهوائهم وهم ينشدون هدفين:

الهدف الأول خداع الناس والآخر خداع أنفسهم. وما قضية النمرود مع نبى اللَّه إبراهيم عليه السلام وفرعون مع موسى عليه السلام والتى تطرقت لها أغلب الآيات القرآنية فى سورة البقرة وطه وسائر السور منك ببعيد فقد كانوا يقولون كلمات حق ولا يريدون بها سوى الباطل من أجل خداع من حولهم والتغرير بهم. ونشاهد اليوم أبشع صور هذا التحريف وكلمات الحق التى يراد بها

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۸۰

الباطل من قبيل كلماتهم فى الحرية والديمقراطية والكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان والثقافة والحضارة والمدنية ومكافحة الارهاب وما إلى ذلك من الشعارات التى تلقلق بها ألسنة الطواغيت والجبابرة، ولا يريدون بها سوى الباطل، بل هنالك منافسة كبرى بين هؤلاء الطغاة فى إنتخاب الشعارات البراقة الأكثر تأثيراً وخداعاً من أجل نيل أهدافهم المشؤومة.

ومن هنا تشتد وظيفة العلماء الاعلام فى ضرورة تنبيه الامّة إلى عظم الأخطار المحدقة وضرورة التحلى باليقظة والوعى وعدم الانزلاق

وراء هذه الشعارات الزائفة ليرفعوا من مستوى الامّة الثقافى فلا تنطلى عليها خدع الاستكبار وألاعيبه.

۲- ضرورة تشكيل الحكومة

اشارة

إنّ مسألة تشكيل الحكومة تعد من المسائل التى كثر الحديث فيها الأوساط العملية على المستوى النظرى دون أن يتسرب الشك إليها على المستوى العملى قط. فقد شهدت البشرية طيلة التأريخ قيام الحكومة سواء كانت قبيلة يتزعمها رئيس القبيلة أو هذه الحكومات الطبيعة التى يترأسها الملك والسلطان والحاكم، حتى تجلت اليوم بهذا الشكل الجماهيرى فأصبح يقودها رئيس الجمهورية، ولا يحتاج قيامها إلى دليل فالمجتمع مهما كان حجمه إنّما يحتاج إلى الأمن والاستقرار ورعاية الحقوق والحيلولة دون نشوب النزاعات والخلافات، ولا تتيسر مثل هذه الامور إلّافى ظل الحكومة ووجود الحاكم. وقد أتضحت هذه المسألة اليوم أكثر فى المجتمعات المعاصرة، فهنالك الفعاليات والأنشطة الثقافية والاقتصادية والسياسية التى لا يكتب لها النجاح لولا الاشراف المباشر من قبل الحكومة، بل الحكومة هى تبلور هذه الأنشطة أن تركت ممارستها وتنفيذها لأبناء المجتمع، إلّاأن هنالك بعض الأفراد والنزعات فى الماضى والحاضر التى تتبنى شعار غياب الحكومة وعدم الحاجة إليها وأنّ الشعب قادر على إدارة شؤونه دون قيام الدولة، بل ذهب الماركسيون أبعد من ذلك ليصرحوا بانّ فلسفة قيام الدولة إنّما تنبع من فكرة حفظ المصالح الطبقية! والرأسماليون هم الذين ينهضون بهذه المهمة، فاذا ما أزيلت الفوارق الطبقة فانّ فلسفة تشكيل الحكومة ستنتفى ولا تعد هناك ضرورة لقيامها، إلّاأنّ الماركسية وسائر النزعات عجزت حتى الآن عن طرح

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۸۱

نموذجها العملى فى الميدان؛ الأمر الذى يؤكد خواء هذه النزعات وإقتصارها على الجوانب النظرية، لقد تناسى أصحاب هذه النظريات أنّ وظيفة الدولة والحكومة- ولو سلنا لما ذكروه- لاتقتصر على حفظ المصالح الطبقية، بل هنا لك سلسلة من البرامج الاجتماعية والمشاريع والمخططات المرتبطة بكافة الأفراد فى جميع المجالات والتى تنهض بعبئها الدولة. فالتربية والتعليم ضرورية لجميع الطبقات، فهل يمكن القيام بهذه الوظيفة دون برمجة وإختيار من ينهض بمسؤولية هذا العمل؟ الامور الاقتصادية فى المجتمع فى القطاع الزراعى والصناعى والتجارى والتى يتطلب كل حقل منها تخطيط شامل وكامل وتحتاج إلى إدارة صحيحة ووزير، قطاع الصحة المرتبط بكافة أبناء الشعب والذى يحتاج بدوره إلى مشاريع وبرامج تخصصية وإشراف تام، فهل يمكن قيام مثل هذه الامور فى حالة غياب الدولة ناهيك عن النزاعات والخصومات والحاجه إلى البت فى الدعاوى من قبيل الجهاز القضائى والمحاكم، وكل هذه الامور هى الاخرى لا تحقق إلّافى ظل تشكيل الحكومة، والتى تتقوم برئيس الوزراء أو رئيس الجمهورية وما شابه ذلك. ومن هنا كانت الامم والشعوب رغم اختلاف أفكارها وعقائدها، إلّاأنّها تتبنى نوعاً من أنواع الحكومة. وهذا هو الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى الخطبة كما تطرق إلى ذكر الوظائف الملقاة على عاتق الحاكم، كما قال فى موضع آخر بهذا الشأن

«سلطان ظلوم خير من فتنة تدوم»[۴۳۳]

حيث أشرنا سابقاً إلى أنّ الحكومات مهما كانت ظالمة متجبرة الا أنّها تسعى لأن تراعى جانب الأمن والعدل وما إلى ذلك، مع العلم أنّها قد تظلم إلّاأنّها على الأقل لا تدع الآخرين يمارسون الظلم، فالحكومة عادلة كانت أم ظالمة لن تدوم فى ظل الفوضى والاضطراب، وأنّها تؤول لا محالة إلى السقوط الانهيار، ومن هنا فانّ كافة الحكومات تسعى للحيولة دون الهرج والمرج وتقدم مشاريعها من أجل البناء والعمران، ولعل هذا المعنى يتجسد فى ما أشار إليه الحديث المعروف

«الملك يبقى مع الكفر و لا يبقى مع الظلم».

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۸۲

خطأ إبن أبى الحديد

قال ابن أبى الحديد فى تعليقه على هذه الخطبة: هذا نص صريح منه عليه السلام بانّ الإمامة واجبة وقد إختلف الناس فى هذه المسألة فقال المتكلّمون: كلمة الإمامة واجبة؛ إلّاما يحكَى عن أبى بكر الأصَمّ من قدماء أصحابنا أنّها غيرُ واجبة؛ إذا تناصفت الأمّة؛ ولم تتظالم.

وقال المتأخّرون من أصحابنا: إنّ هذا القول منه غيرُ مخالف لما عليه الأمّة؛ لأنه إذا كان لا يجوز فى العادة أن تستقيم أمورُ الناس من دون رئيس يحكم بينهم؛ فقد قال بوجود الرئاسة على كلّ حال؛ اللّهم إلّاأن يقول: إنّه يجوز أن تَستَقيم أمورُ الناس من دون رئيس؛ وهذا بعيد أن يقوله: فأما طريق وجوب الإمامة ما هى؟ فإن مشايخَنا البصريّين رحمهم اللّه يقولون طريق وجوبها الشرع، وليس فى العقل ما يدلّ على وجوبها.

وقال البغداديون وأبو عثمان الجاحظ من البصريين، وشيخنا أبو الحسين رحمه اللّه تعالى:

إنّ العقلَ يدلّ على وجوب الرياسة؛ وهو قول الإمامية، إلّاأنّ الوجه الذى منه يوجب أصحابنا الرئاسة غير الوجه الذى توجب الإمامية منه الرئاسة، وذاك أنّ أصحابنا يوجبون الرئاسة عَلَى المكلّفين، من حيث كان فى الرياسة مصالح دنيوية، ودفع مضارّ دنيوية. والإمامية يُوجبون الرئاسة عَلَى اللّه تعالى، من حيث كان فى الرئاسة لُطْف وبعدٌ للمكلّفين عن مواقعة القبائح العقلية.

والظاهر من كلام أميرالمؤمنين عليه‌السلام يطابِق ما يقوله أصحابنا، ألَا تراه كيف علّل قوله:

«لا بدَّ للناس من أمير»،

فقال فى تعليله: يُجَمع به الفىء، ويقاتَل به العدوّ وتؤمَن به السُّبل، ويؤخذ للضعيف من القويّ! وهذه كلّها من مصالح الدنيا.

فإنْ قيل: ذكرتم أنّ الناس كافّة قالوا بوجوب الإمام، فكيفَ بقول أميرالمؤمنين عليه‌السلام عن الخوارج إنّهم يقولون:

«لا إمرة».

قيل: إنّهم كانوا فى بدء أمرهم يقولون ذلك، ويذهبون إلى أنّه لاـ حاجةَ إلى الإمام، ثم رجعوا عن ذلك القول لما أمّروا عليهم عبدَاللّه‌بن وهب الرّاسبىّ.

ويبدو أن خطأ إبن ابى‌لاحديد نابع من حصره الوظائف السبع التى ذكرها أميرالمؤمنين عليه السلام كهدف للحكومة بالمصالح المادية، والحال أنّ العبارة

«يعمل فى إمرته المؤمن»

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۸۳

إنّما تعالج المسائل المعنوية، لأنّ عمل المؤمن يهدف الآخرة- على كل حال وعلى فرض أنّ لكافة هذه الامور صبغة مادية، فانّ كلام الإمام عليه السلام يدور حول محور إمارة الناس وحكومتهم التى تشكل أحد الأبعاد الوجودية للإمام المعصوم، لأنّ عقيدة علماء الإمامية ومتكلميهم فى الإمام إنّه الحاكم فى امور الدين والدنيا والهادى إلى اللّه ومفسّر القرآن ومبين أحكامه وأعماله حجة على الناس، ومن هنا لابدّ أن يكون معصوماً، ومعلوم أن المعصوم لا يعرف سوى اللّه، ولذلك يعتقدون أن الإمام ينصب من جانب اللّه وقد أجاب بعض شرّاح نهج‌البلاغة على كلام إبن أبى الحديد بأنّ الخطبة تعالج قضية نصب الأمير وليست لها صلة بنصب الإمام من اللّه ولذلك قال عليه السلام

«لابدّ للناس من أمير بر أو فاجر»

ونعلم أن الامير الفاجر لايمكن أن يكون إماماً. الا ان ما أوردناه هو الجواب فى أن الامارة جزء من مسؤوليات الإمام (لابدّ من الدقة

فى الأمر،) والشاهد على ذلك أن متكلمينا ذكروا فى كتبهم العقائدية المصالح الدنيوية وما ورد فى هذه الخطبة حين ذكرهم لأدلة وجوب نصب الإمام. بعبارة اخرى فان الشيعة لاترى الامرة منفصلة عن الإمامة، أما الاذعان لامرة الفاجر فليست على أساس أنّها هدف نهائى، بل يدفع إليها الاضطرار حين تتعذر حكومة الإمام المعصوم.

ج‌ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۸۵

الخطبة[۴۳۴] الحادية و الاربعون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وفيها ينهى عن الغدر ويحذر منه

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة إلى ثلاثة أمور مهمّة: الأول: أهمية الوفاء وصدق الحديث، وذم ناقضى العهد، الثانى: أنّ الخداع والغدر والخيانة ليست من العقل والذكاء كما يظن ذلك الغدرة الفجرة. والعقل والفطنة فى الصدق والوفاء بالعهد.

الثالث: ضرورة إغتنام الفرص من أجل المبادرة إلى الآخرة والوفاء بالعهود والالتزام بالمواثيق.

ج‌ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۸۷

«أَيُّها النَّاسُ، إِنَّ الْوَفاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ وَلا أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ وَما يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ. وَلَقَدْ أَصْبَحْنا فِي زَمانٍ قَدِ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغَدْرَ كَيْساً وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَى حُسْنِ الْحِيلَةِ. ما لَهُمْ قاتَلَهُمُ اللَّهُ! قَدْ يَرَى الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَها مانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ، فَيَدَعُها رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لا حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ».

الشرح والتفسير

لم يذكر شرّاح نهج‌البلاغة- حسب علمنا- سبب إيراد هذه الخطبة، إلّاأنّ الرابطة المعنوية بين هذه الخطبة والخطبة رقم ۳۵ وسائر القرائن تشير إلى انّ هذه الخطبة ناظرة لمعركة صفين وقضية التحكيم، لأنّ مسألة التحكيم المأساوية إتخذت أبعاداً واسعة فى البحث والنقاش بين صفوف المسلمين- ولعل بعض الجهال نسب مكر عمرو بن العاص وخيانته وغدره إلى الكياسة والفطنة؛ الأمر الذى قد يشجع الآخرين لممارسة مثل هذه الأعمال الشائنة البعيدة عن الإسلام وتعاليمه الحقة، ومن هنا خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة ليقبر هذه الأفكار المنحرفة ويحد من شياعها بين الناس، ثم عرض بالذم إلى المكرو والخديعة ونقض الميثاق وأشار إلى العواقب الوخيمة التى تفضى إليها هذه الأعمال ثم أثنى على الوفاء والصدق فقد إستهل الخطبة بخطاب الجميع

«أيها الناس إن الوفاء توأم ۴۳۵] الصدق».

التوأم بمعنى الذى يولد مع الآخر فى حمل واحد، ويستعمل بشأن كل شيئين يرتبطان معا برابطة وثيقة، ومن هنا فقد شبه الإمام عليه السلام فضيلتى الوفاء والصدق بالتوأم ولعل التمعن فى مفهوم هاتين الصفتين ومصدرهما الفكرى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۸۸

الروحى يفيد أنّ الأمر كذلك، فالوفاء يعنى الالتزام بالعهد، وهو فى الواقع نوع من الصدق، كما أنّ الصدق نوع من الوفاء. والصدق

ذو معنى واسع وشامل لايقتصر على الحديث، بل يشمل العمل أيضا، ومن هنا صرح القرآن قائلا: «مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ»[۴۳۶] فمن الواضح أنّ المراد بصدق العهد فى الآية هو الصدق فى العمل، ولذلك أردفت بالقول «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ». ومن هنا تتضح عمق الرابطة بين الوفاء والصدق، فلو أبرم شخص عهداً ونقض عهده فقد كذب، ومن هنا يمكن اعتبار ناقض العهد كاذباً، ولما كان حسن الصدق وقبح الكذب ظاهر لكافة الناس، فانّ الإمام عليه السلام قرن بهما الوفاء بالعهد ونقضه ليتضح حسنهما وقبحهما. ثم تطرق الإمام إلى الآثار الايجابية للوفاء بالعهد فقال:

«ولا أعلم جنة[۴۳۷] أوقى منه»،

فهذه فى الواقع من أهم آثار الوفاء بالعهد وبركاته الدنيوية فى أنّه جنّة وثيقة؛ لأنّ أساس الحياة الاجتماعة يتمثل بالتعاون والتكافل والثقة المتبادلة والالتزام بالعهود والمواثيق الفردية والاجتماعية، بعبارة اخرى فانّ الثقة المتبادلة تذلل كثيراً من المصاعب، بينما يتعذر حل هذه المصاعب إذا ما انعدمت الثقة وسلب الاعتماد بين الناس، ولذلك كانت الدعامة الأصلية للدين تتجسد فى الوفاء بالعهود والمواثيق، حتى ورد فى الحديث النبوى المعروف

«لادين لمن لاعهد له»[۴۳۸]

كما ورد أيضاً

«إذا نقضوا العهد سلط اللَّه عليهم عدوهم»[۴۳۹]

جدير بالذكر أن الجنّة بمعنى الدرع الذى يقى أخطار العدو فى ميدان القتال.

تشبيه الوفاء بهذا الدرع يفيد كونه يشكل الوسيلة الدفاعية تجاه الأخطار الاجتماعية التى تفرزها حالة الفوضى وعرقلة القوانين والمقررات. ثم أشار عليه السلام إلى أبعاده المعنوية والاخروية فقال

«وما يغدر من علم كيف المرجع»؛

الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى نهج‌البلاغة بقوله

«لولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدرة فجرة، وكل فجرة كفرة ولكل

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۸۹

غادر لواء يعرف به يوم القيامة»[۴۴۰]

. ولما كان انحراف المجتمع عن المبادئ الأخلاقية يقود إلى تنكر القيم وتبدلها، حتى يعد العهد والمكر والخداع كياسة والالتزام بالعهود سذاجة وبلاهة فقد قال الإمام عليه السلام

«ولقد أصبحنا فى زمان قد إتخذ أكثر أهله الغدر كيساً ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحلية»!

نعم فانّ قيم المجتمع إذا تنكرت بفضلها المعيار والمحك للحسن من القبيح فانّ ظهور مثل هذا الخلط لايبدو مستغرباً، فمن الطبيعى أن يصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والملك شيطاناً والشيطان ملكاً وقديساً. وممّا يؤسف له أنّ هذه الظاهرة قد تفشت وبشكل واسع فى عالمنا المعاصر فقد ينظر إلى الثعالب المكرة فى السياسة العالمية على أنهم الساسة المهرة، بينها يرمون بالسذاجة وانعدام التجربة من يلتزم بالعهود والمواثيق ويراعون القيم الإنسانية والإلهية فى سياستهم، وما أصعب العيش فى مثل هذا العالم، وبالطبع فانّ نقض العهود واعتماد الكذب والخداع قد يجر على صاحبه بعض المنافع على المدى القريب ويحظى بمديح هذا وثناء ذاك، إلّاأنّ المفروغ منه أن عرى المجتمع إنّما تؤول إلى التصدع والانهيار على المدى البعيد. ومن هنا فان الأفراد من أهل الإيمان والوفاء إنّما يسعون لتحصين أموالهم وحفظ ثرواتهم من خلال الامانة وإحترام العهد فى المعاملة، والدولة هى الاخرى مدعوة لرعاية هذا الأمر من أجل كسب ثقة سائر البلدان واستقطابها لضمان مصالح البلاد الاقتصادية. ومن هنا صرحت الرواية

«الأمانة تجلب الغنى والخيانة تجلب الفقر».[۴۴۱]

ولا شک أنّ هناک رابطة حميمة بين الأمانة والوفاء، رغم کونهما مفهومين منفصلين، ولذلک قال أميرالمؤمنين علی عليه السلام: «الأمانة والوفاء صدق الأفعال»[۴۴۲]

. قال أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ويدعی عبدالرحمن بن سبابه: ساءت حالی بعد وفاة أبی فلما حججت البيت رأيت الإمام الصادق عليه السلام فقال لی: أعظک؟ قلت بلی جعلت فداک، قال:

«عليک بصدق الحديث وأداء الامانة تشرک الناس فی أموالهم هکذا- وجمع بين أصابعه- قال فحفظت ذلک عنه، فزکيت ثلاثمأة ألف درهم».[۴۴۳]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۹۰

ثم رد عليه السلام علی من إتهمه بعدم العلم بالسياسة فقال:

«ما لهم قاتلهم اللَّه قد يری الحول ۴۴۴] القلب وجه الحيلة ودونها مانع من أمر اللَّه ونهيه، فيدعها رأی العين بعد القدرة عليها»

أمّا ذلک الذی لايتورع عن الذنب والمعصية وعدم الإکتراث للدين فانّه ينتهز الفرصة ليفعل ما يشاء فيراه البلهاء سياسيا ناجحا

«وينتهز[۴۴۵] فرصتها من لاحريجة[۴۴۶] له فی الدين»

فالإمام عليه السلام يقول إنّ عدم استغلالی للفرص الغدرة من أجل التفوق علی العدو لايعنی عدم علمی بالامور، بل ذلک يعنی أنی أخاف اللَّه، وإنّی لا عتمد الورع والتقوی والعدل حتی مع أعدی أعدائی، ولا أری الغاية تبرر الوسيلة، بل لا أومن بالنصر کيفما کانت قيمته وثمنه، إلّا أنّ أعدائی لا يراعون أی من هذه المبادئ، فهم يقارفون کل جناية ولا يتورعون عن أية جريمة، فلا يقيمون وزناً لدماء الأبرياء، ولا يتحرجون من الظلم والعدوان، ولا يلتزمون بالعهود والمواثيق، نعم ليس لهم من هم سوی تحقيق أهدافهم اللامشروعة بأية وسيلة. فاذا رأی الناس تصرفاتهم وتحرجی عدوهم ساسة أکفاء، والحال ما هم ساسة وأنّهم لحفنة من الظلمة الذين يفتقرون إلی الورع والتقوی.

السياسة الإلهية والشيطانية

إن الاختلاف فی الاساليب السياسية إنّما تفرزه الرؤی بشأن الحکومة، فالسياسة التی ينتهجها اولئک الذين ينشدون الحکومة من أجل ضمان مصالحهم الشخصية أو الفئوية، تختلف عن السياسة التی يتبعها اولئک الذين لايرون فی الحکومة سوی وسيلة لحفظ القيم والمثل.

فالحکومات السابقة کانت تتصف بالدکتاتورية المقيتة التی تتکرس فی فرد واحد مستبد غاشم يسعی جاهداً لتحقيق مآربه وإشباع رغباته وضمان مصالح بطانته معتمداً منطق القوة والعنف من أجل ترسيخ دعائم حکومته فلا يری من حرمة لقيم ومثل سوی تلک التی تخدم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۹۱

مصالحه أمّا اليوم فالحکومات وإن تغيّرت شکلًا، إلّاأنّ جوهرها وماهيتها لم تختلف کثيراً عن تلک التی کانت سائدة فی الماضی، وان کان المعروف عن هذه الحکومات إقتحامها الميدان کفئات وأحزاب. علی سبيل المثال فانّ الأحزاب هی التی تمسک بزمام الامور فی البلدان الصناعية المعاصرة، بحيث يسعی کل حزب لضمان مصالحِ فئة معينة، ثم يعتمد کافة الوسائل من أجل الحصول علی أکثر عدد من الآراء بغية الوصول إلی الحکومة، فاذا تسلموا الحکومة، أتوا بالأفراد الذين يعملون علی ترسيخ دعائم حکومته وبالطبع فانّ مثل هذه الحکومات قد تتبنی بعض الشعارات من قبيل حقوق الإنسان وحرية المرأة وأحياناً يطرحون بعض المسائل الأخلاقية، إلّاأنّهم يعلمون کما يعلم الاخرون أنّهم ليسوا جادين فی ما يقولون، فاصواتهم عادة ما تتعالی بحجة أن البلد الفلانی- إذا کان من أعدائهم- قد إنتهک حقوق الإنسان، وان کان من أصدقائهم فقد يحظی بتأييدهم ودعمهم وإن انتهک تلک الحقوق الف مرة کل يوم- وفی

مقابل هذه الحكومات، هنالك حكومة الأنبياء والأولياء التى لا تعرف المصالح الفردية ولا الفئوية، وهى قائمة على أساس القيم والمثل. فالحكومات السابقة تصرح علنا بتعذر الجمع بين السياسة والأخلاق، وعليه فالحاكم الذى يراعى المبادئ الاخلاقية إنّما يفتقر فى الواقع حسب ظنهم إلى العقل السياسى؛ وسوف لن يكتب لحكومته الدوام والاستمرار، فالغاية تبرر الوسيلة، وكل ما يقرب من الهدف فهو حسن ومطلوب. بينما ترى الحكومة الأخيرة ان شعارها يتكرس فى

«إنّما بعثت لُاتمم مكارم الأخلاق»[۴۴۷]

أو

«لو لا ... ما أخذ اللَّه على العلماء أن لايقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم ...»[۴۴۸]

أو

«وإنّما خرجت لطلب الإصلاح فى امّة جدى صلى الله عليه و آله»[۴۴۹]

ومن الطبيعى أن يكون هناك بوناً شاسعاً بين سياسة الحكومات بالمعنى الأول والحكومات الإلهية، بل هناك تعارض وتضارب بينهما فالطائفة الاولى تضحى بكل القيم وتذبحها من أجل الوصول إلى دفة الحكم، بينما تخلت الطائفة الثانية بشهادة التأريخ عن الحكومة من أجل الحفاظ على القيم والمثل. وهذا ما وضحه الإمام عليه السلام فى الخطبة

«واللَّه ما معاوية بأدهى منى ولكنه يغدر ويفجر ولولا كراهية الغدر لكنت من

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۹۲

أدهى الناس»[۴۵۰]

وقال عليه السلام:

«أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؛ واللَّه لا أطور به، ما سمر سمير، وما أم نجم فى السماء نجماً»[۴۵۱]

والاختلاف بين هاتين الرؤيتين فى السياسة الإلهية والسياسة الشيطانية هو الذى يجعل بعض الأفراد يشكلون أحياناً على الساسة الربانيين ويحملون أعمالهم على السذاجة وعدم المعرفة بفنون السياسة، بينما يغفلون عن حقيقة كبرى وهى أنّ هؤلاء الأفراد إنّما يحثون السير إلى عالم آخر لا تجيز مبادئه وضوابطه التشبث بأى أسلوب وطريقة. فمثلًا لما غلب معاوية أهل العراق على الماء منعهم منه، فلما حمل أهل العراق إنكشف أهل الشام عن الماء، وملك أهل العراق المشرعة- فقال أصحاب على عليه السلام: أمنعهم الماء يا أميرالمؤمنين كما منعوك- فقال: «لا، خلوا بينهم وبينه، لا أفعل ما فعله الجاهلون.[۴۵۲] والّا عجب من ذلك عدم إلتفات رسولاللَّه صلى الله عليه و آله إلى أصحابه الذين أشاروا عليه بمنع اليهود الماء حين محاصرة قلاع خيبر فلم يجبهم صلى الله عليه و آله»[۴۵۳] ويتعجب أولئك الغافلون حين يسمعون مسلم بن عقيل وقد إمتنع عن قتل إبن زياد غيلة فى دار هانئ بن عروة قائلًا:

«الإيمان قيد الفتك»[۴۵۴]

. أضف إلى ذلك فانّ علياً عليه السلام إمتنع عن قتل عمرو بن العاص فى صفين حين كشف عن عورته. فكل هذه الامور لايرونها تنسجم والسياسة، بل السياسى الفذ فى نظرهم من يدافع عن العهدو والمواثيق ويلتزم بالمبادئ إذا كانت تجرى لصالحه، وإلّا فلابدّ أن يضربها جميعا عرض الحائط. فالسياسى الورع والمتقى يرى النصر على الأعداء إنّما يحتل الدرجة الثانية، والدرجة الاولى تتمثل بحفظ المبادئ ورعاية القيم والمثل. والجدير بالذكر ما أورده ابن أبى الحديد فى شرحه لنهجالبلاغة حين تحدث عن مروءة ووفاء أحد أحفاد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام هو إبراهيمبن عبداللَّه فقال: «وكان لغير إبراهيم عليهالسلام من آل أبى طالب من هذا النوع أخبار كثيرة، وكان القوم أصحاب دين ليسوا من الدنيا بسبيل، وإنّما يطلبونها ليقيموا عمود الدين بالامرة فيها، فلم يستقم لهم، والدنيا إلى أهلها أميل».

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۹۳

الخطبة[۴۵۵] الثانية و الاربعون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

وفيه يحذر من اتباع الهوى وطول الأمل فى الدنيا.

نظرة إلى الخطبة

أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة على ضوء نقل نصربن مزاحم فى كتاب صفين بعد موقعة الجمل حين ورد عليه السلام الكوفة، وهى تعالج غرور الأفراد وطمعهم بعد تحقيق النصر ولا سيما إن كانت هناك غنائم؛ الأمر الذى يثير حفيظة البعض للتكالب على الدنيا وبالتبع يتطلع إلى المزيد من كان له دور أكبر فى المعركة والحصول على الغنائم. فهدف الإمام عليه السلام تحذير الناس وتذكيرهم بالأهداف المعنوية التى قاتلوا من أجلها، كما يحذرهم من رذيلتى إتباع الهوى وطول الأمل الذان يصدان عن الحق وينسيان الآخرة. ثم يؤكد الإمام عليه السلام على قصر عمر الدينا وضرورة إغتنام الفرص فيها من أجل العمل الصالح والتزود للآخرة، حيث يوجز هذا الأمر الحيوى بعبارات قصيرة بليغة المعنى.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۹۵

القسم الأول

«أَيُّها النَّاسُ إِنَّ أَخْوَفَ ما أَخافُ عَلَيْكُمُ اثْنانِ: اتِّباعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ، فَأَمَّا اتِّباعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِى الْآخِرَةَ».

الشرح والتفسير

أوردنا سابقاً أنّ الإمام عليه السلام خطبها بعد الجمل حين ورد الكوفة، بهدف الحد من الغرور الذى تفرزه طبيعة النصر والتنافس على غنائم المعركة، فقال عليه السلام:

«أيّها الناس إن أخوف ما أخاف عليكم إثنان: إتباع الهوى وطول الأمل، فأمّا إتباع الهوى فيصد عن الحق، وأمّا طول الأمل فينسى الآخرة».

والعبارة الآخيرة مهمّة ذات أثر بالغ فى مصير الامّة، بحيث ورد التأكيد عليها فى أحاديث النبى صلى الله عليه و آله، كما أشار إليه الإمام عليه السلام سابقاً فى الخطبة الثامنة والعشرين».[۴۵۶] ويتضح من معنى مفردة الهوى التى تشير إلى أهواء ورغبات النفس الأمارة باللذات الدنيوية دون الحدود والقيود مدى صدها الإنسان عن الحق ومنعه من بلوغه، لأنّ الهوى حجاب على العقل يحول دون إدراك الحقائق ومشاهدتها، بينهما يزين له هذا الهوى الباطل ليبديه له أنصع من الحق، فى حين يشوه له الحق ويظهره له كابشع صورة للباطل، وقد لمست هذه الحقيقة كثيراً خلال تجربتى ومطالعتى لسيرة الماضين فى كيفية تبرير أتباع الهوى لبعض صور الحق والباطل وتغيير هويتهما. وأما طول الأمل فيستقطب جميع طاقات الإنسان وقواه حتى ينسيه الآخرة، ولما كانت قوى الإنسان محدودة فانّه يستهلكها فى الآمال الكاذبة اللامتناهية بحيث لا يبقى لنفسه من قوة يدخرها للآخرة، ولا سيما أنّ الامال لا تعرف للنهاية

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۹۶

من معنى، وتقتضى طبيعتها أن يتجه الإنسان إلى الاخرى فور ظفره بالاولى حتى يجند نفسه على الدوام بغية الظفر بها جميعا، بل إن

تحقيقه لأمل ربما يدفعه لآخر، لأنّ الآمال عادة مترابطة مع بعضها البعض، وعلى هذا الضوء فسوف لن يبقى لديه من وقت كما لا تبقى له من قوة، وبالتالى سوف لن يمتلك الدفاع نحو الآخرة. وبالطبع فانّه لن يفيق من غفلته حتى يصفعه الموت، وقد ولى العمر وتصرمت أيامه وفرصه فلم يظفر بأماله ولم يدرك آخرته. وما أروع ما قال أبو العتاهية حين دعى لإنشاد الشعر بحضرة هارون حين أراد أن يفتتح له قصراً جديداً فى مصر:

عش ما بدا لك سالماً فى ظل شاهقة القصور يهدى إليك بما اشتهيت لدى الرواح وفى الكبور حتى إذا تزعزعت النفوس ودحرجت فهناك تعلم موقناً ما كنت إلّافى غرور.[۴۵۷]

فشعر من حول هارون بالامتعاظ من هذه الأبيات على أنها لا تنسجم والمناسبة، إلّاأنّ هارون مدحه وأثنى عليه.

وقد علق بعض شرّاح نهج‌البلاغة على أنّ طول الأمل ينسى الآخرة وذلك لأنّ هذا الفرد يغتر بمظاهر الدنيا ويرى فى الموت الوسيلة التى تقطعه عن هذه الدنيا، فينسى المعاد ويوم القيامة جدير بالذكر أنّ للأمل دور إيجابى فى حياة الإنسان والذى عبر عنه القرآن بالرجاء، ولاسيما إذا كان مقرونا بالتوكل على اللّه.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۹۷

القسم الثانى

اشارة

«أَلا وَإِنَّ الدُّنْيا قَدْ وَلَّتْ حَذَّاءَ؛ فَلَمْ يَبْقَ مِنْها إِلَّا صُبابَةٌ كَصُبابَةِ الْإِناءِ اصْطَبَّها صابُّها. أَلا وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَلِكُلٍّ مِنْهُما بَنُونَ. فَكُونُوا مِنْ أَبْناءِ الْآخِرَةِ وَلا تَكُونُوا مِنْ أَبْناءِ الدُّنْيا. فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأَبِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلا حِسابَ، وَغَداً حِسابٌ وَلا عَمَلَ».

الشرح والتفسير

واصل عليه السلام خطبته التى ابتدأها بذم إتباع الهوى وطول الأمل الذان يصدان عن الحق وينسيان الآخرة، وبالتالى يحولان دون سعادة الإنسان وفلاحه، ليقدم تحليلًا رائعاً عن أوضاع الدنيا والآخرة فقال

«ألا وإنّ الدنيا قد ولت حذاء[۴۵۸]، فلم يبق منها إلّاصبابة كصبابة[۴۵۹] الاناء إصطبها صابها».

فقد شبهت الدنيا هنا بالكائن الذى يعود بسرعة إلى مسيرته، الأمر الذى يفيد حقيقة الحركة السريعة لعمر الإنسان، الحركة الخارجة عن إرادة الإنسان وتشمل كافة الكائنات الحية سوى الذات الإلهية المطلقة، ولا يستثنى من تلك الحركة الكواكب والمجرات والسموات والارضين لتنتهى إلى الفناء والزوال الدنيوى ليكون نافذة على عالم الخلود والبقاء. فالطفولة تتحرك نحو الفتوة والشباب، والفتوة تنطلق نحو الكهولة التى تنتهى بالموت، هذا إذا جرت الامور وفق القانون الطبيعى والاقد يتساقط بعض الاطفال والشباب من هذه القافلة لتنتهى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۹۸

أعمارهم دون بلوغ الكهولة. فالإمام عليه السلام يقول أنّ عمر الإنسان قصير قليل كبقية الماء واللبن فى الإناء التى تعلق به عند قلبه، أو بعبارة اخرى فانّ الإنسان حين يقلب إناءاً مملوءاً بسائل ثم يعيد الإناء إلى وضعه الأصلى إنّما يتبقى فيه مقدار من الماء يطلق عليه الصبابة وهذه فى الحقيقة هى عمر الإنسان ثم قال عليه السلام

«ألا وإنّ الآخرة قد أقبلت»

فكلما قصر عمر الدنيا اقتربت الآخرة، فالواقع إننا نركب قطار الزمان الذى يسير بسرعة نحو الآخرة، والدقائق والساعات والأيّام والأسابيع والأشهر والسنوات إنّما تكشف عن سرعة مسيرة قطار الإنسانية بأجمعها، ثم أوضح عليه السلام وظيفة الناس

«ولكل منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فانّ كل ولد سيلحق بأبيه يوم القيامة»

نعم هناك خطان: خط عبدة الدنيا وخط عشاق الآخرة، وإن كانت هنالك بعض الجماعات المتذبذبة بين الخطين. ولا يعرف أبناء الدنيا سوى النوم والأكل والشرب والشهوة والطرب والعيش والملذات، فهم متعلقون بظاهر الدنيا دون أن يكفوا أنفسهم عناء التفكير فى الآخرة، بل هم عنها عمون «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غافِلُون»[۴۶۰]. فكأنّهم مخلدون فى الدنيا وليس هنا لك من آخرة، فوثقوا بأموالهم وثرواتهم على أنّها تخلدهم فى دنياهم «يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ». أما أبناء الآخرة فقد نظروا بعين العقل والبصيرة إلى الدنيا وأدركوا أنهم مفارقوها ومرتحلون عنها فلم يطمأنوا إليها. لقد طلقوها كما طلقها الإمام عليه السلام ثلاثة لارجعة فيها. فقد إتعظوا بالقرآن الذى أوقفهم على طبيعة خسرانها «وَالعَصْرِ* إِنَّ الإِنْسانَ لَفِى خُسْرٍ* إِلّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ». أمّا التعبير عن عبدة الدنيا بأبناء الدنيا وعن المؤمنين الصالحين بأبناء الآخرة، وذلك لأن الابناء إنّما يشبهون إلى حد كبير آبائهم وامهاتهم بفعل الصفات الوراثية التى تنتقل إليهم عن طريق الجينات، وهو الشبه الذى يدعو إلى المحبة والإرتباط. نعم عبدة الدنيا أبنائها، ومن هنا أحاط حبّ الدنيا بقلوبهم بحيث أصبحوا لايرون سوى الدنيا ولايجنون سواها، وشعارهم فيها «إِنْ هِيَ إِلّا حَياتُنا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا»[۴۶۱] وإن كانوا ظاهرا يحملون الإسلام. أما أبناء الآخرة فقد سيطر حب اللّه على

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۹۹

قلوبهم، فهم يتزودون من الدنيا إلى الآخرة دون أن يغرقوا فيها.

وقال بعض شرّاح نهج‌البلاغة أنّ المراد بالعبارة هو أن المؤمنين سيكونون فى الآخرة بمثابة الأبناء الذين يرتمون بأحضان آبائهم، بينما سيكون أبناء الدنيا كاليتامى إلّاأنّ هذا التفسير لاينسجم والعبارة

«إن كل ولد سيلحق بأبيه يوم القيامة»،

بل يفيد هذا التعبير أن الحياة الدنيا المادية ليست سوى الجحيم الذى يرتمى فيه أبناء الدنيا إذا افتقرت إلى الإيمان والتقوى، وهذا ما أشار إليه القرآن بقوله «فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ».[۴۶۲]

أمّا إن كانت هذه الحياة مقرونة بالايمان والتقوى والصبغة الآخروية فتتجسم يوم القيامة على هيئة جنّة سيرتمى فى أحضانها المؤمنون.

ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته قائلا:

«وإنّ اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل»

فالعبارة تفيد من جهة وجود الفرصة من أجل إستزادة العمل الصالح، وإذا ما شوهد المحسنون والمسيئون، والصالحون والطالحون، واولياء اللّه وأعداء اللّه، وحزب اللّه وحزب الشيطان إلى جانب بعضهم البعض الآخر فى هذه الحياة الدنيا فذلك لأنّ الدنيا دار عمل لاحساب فيها ولاجزاء وعقاب. ومن جهة اخرى تحذير بأنّ نهاية العمر فى الدنيا تعنى إغلاق صحيفة الأعمال وليس هنالك من سبيل للعودة والعمل وتدارك ما فرط، كما ليس للندم من أثر أو فائدة، فقد قال على عليه السلام

«لا عن قبيح يستطيعون إنتقالًا ولا فى حسن يستطيعون إزدياداً»[۴۶۳]

كما ليس هناك من جدوى لصراخهم «رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّى أَعْمَلُ صالِحاً»[۴۶۴] كما لا تفيدهم الآمال والأمانى «فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ».[۴۶۵]

الموت يعنى إغلاق صحيفة الأعمال

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۰۰

ما ورد فى الخطبة بهذا الخصوص ممّا أكدته الآيات القرآنية، حتى صرحت بعض الآيات أنّ أبواب التوبة تغلق حين نزول عذاب الاستئصال (من قبيل العذاب الذى إستهدف إجتثاث جذور الأقوام السابقة حين طغت فى الأرض) بحيث لم يعد هناك من مجال

لتدراك الأعمال، لأنّ الإنسان فى ظل هذه الظروف إنّما يودع الدنيا وينتقل إلى الآخرة مروراً بالبرزخ، ومن ذلك قوله سبحانه: «فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنّا بِهِ مُشْرِكِينَ* فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الكافِرُونَ».[۴۶۶]. كما نعلم بأنّ فرعون لما أدركه الغرق وشعر بالموت أظهر الإيمان ولكن أغلقت بوجهه كافة أبواب التوبه فاتاه النداء «آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ المُفْسِدِينَ»[۴۶۷]. ونستنتج من هذه الآيات وسائر الايات الواردة بهذا الشأن أنّ هناك سنة إلهية تفيد إغلاق صحيفة الإنسان وانقطاع أعماله حين يكون على أبواب الموت المحتم، فليس هنالك من سبيل للعودة والإصلاح. وهنا يبرز هذا السؤال وهو أنّ أغلب الروايات صرحت بأنّ آثار الأعمال الحسنة والسيئة تصل الإنسان بعد موته بحيث تثقل صحيفة أعماله خيرا أم شرا، فقد ورد فى الحديث عن رسولاللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«سبعة أسباباً يكتب للعبد ثوابها بعد وفاته، رجل غرس نخلًا أو حفر بئرا أو أجرى نهراً أو بنى مسجداً أو كتب مصحفاً أو ورث علماً أو خلف ولداً صالحاً يستغفر له بعد وفاته»[۴۶۸]

ومن الواضح أنّ ما جاء فى هذا الحديث نموذج باراز لأعمال الخير، أفلا يتنافى هذا الأمر وما ذكر سابقاً؟ والجواب على هذا السؤال واضح فليس هنالك من عمل جديد يقوم به الإنسان بعد الموت، لا- إنّ آثار الأعمال السابقة لا تصل إليه. نعم صحيفة الأعمال الجديدة مغلقة ولا يضاف إليها شيئا، أما صحيفة أعماله السابقة قبل الموت فهى مفتوحة دائما وإن الإنسان يقطف ثمار عمله الصالح فى البرزخ ويوم القيامة، وتصله حتى الأعمال الصالحة فيما إذا خلف ولداً صالحاً يدعو له ويستغفر له.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۰۱

الخطبة[۴۶۹] الثالثة الاربعون

اشارة

من كلام له عليه السلام

وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد لحرب أهل الشام بعد إرساله جريربن عبداللّه البجلى إلى معاوية ولم ينزل معاوية على بيعته.

نظرة إلى الخطبة

تشتمل الخطبة على قسمين يختلف كل منهما عن الآخر، ويبدو أنّ كل منهما قد ورد مستقلًا فى موضعه، الا أنّ السيد الرضى (ره) جمعهما لمناسبة- فالقسم الأول يتعلق بقضية جريربن عبداللّه البجلى الذى كان عاملًا لعثمان على ثغر همدان. فأمّا خبر جرير بن عبداللّه البجلى وبعث أميرالمؤمنين عليه السلام إيّاه إلى معاوية، فقد ورد فى الأخبار: لما قدم عليه السلام الكوفة بعد إنقضاء أمر الجمل، كاتب العمال، فكتب إلى جرير بن عبداللّه البجلى. فلما قرأ جرير الكتاب، قام فقال:

أيّها الناس، هذا كتاب أميرالمؤمنين على بن أبىطالب عليه السلام، وقد بايعه الناس الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين باحسان، ولو جعل هذا الأمر شورى بين المسلمين كان أحقه بها. فقال الناس سمعاً وطاعة. فكتب جرير إلى على عليه السلام جواب كتابه بالطاعة وكتب على عليه السلام إلى الاشعث وكان عامل عثمان على أذربيجان يدعوه إلى البيعة والطاعة. وكتب جرير بن عبداللّه البجلى إلى الاشعث يحضه على طاعة أميرالمؤمنين على عليه السلام وقبول كتابه. فقبل

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۰۲

الأشعث البيعة وسمع وأطاع، وأقبل جرير سائراً من ثغر همدان حتى ورد على عليه السلام الكوفة فبايعه. ولما أراد على عليه السلام أن يبعث إلى معاوية رسولًا، قال له جرير: إبعثنى يا أميرالمؤمنين إليه؛ وأدعوا أهل الشام إلى طاعتك وولايتك فجلهم قومى وأهل بلادى

وقد رجوت ألا يعصونى.

فبعثه على عليه السلام. فانطلق جرير حتى أتى الشام ونزل بمعاوية ودفع إليه كتاب على عليه السلام. فقال معاوية أنظر وتنظر؛ واستطلع رأى أهل الشام. فكتب له الإمام عليه السلام: إنّما أراد معاوية ألا يكون لى فى عنقه بيعة، وأراد أن يريثك ويبطئك، فان بايعك الرجل، والّا فاقبل. قيل ولما أبطأ جرير عند معاوية إتهمه الناس، فلما سمع جرير ذلك فارق علياً عليه السلام فلحق بقرقيسياء (بلد بالخابور عند مصبه» ولحق به ناس من قسر من قومه، واقام فيها حتى توفى.[۴۷۰] على كل حال مكث جرير عدّة شهور فى الشام، حتى اقترح أصحاب الإمام عليه السلام عليه قتال أهل الشام، إلّاأنّ الإمام عليه السلام لم يجبهم إلى ذلك وجرير هناك، وأنّه قد وقت وقتاً لجرير، فلابدّ من إنتهاء، ذلك الوقت ومعرفة النتيجة.

القسم الثانى يتناول إصرار الإمام عليه السلام على قتال أهل الشام، حيث اورد نصربن مزاحم فى كتاب صفين أنّ الإمام عليه السلام قال هذا الكلام لما كلمه أحد جنود الشام اثناء معركة صفين بالهدنة وترك القتال على أن يرجع أهل العراق إلى العراق وأهل الشام إلى الشام، فردّ عليه الإمام عليه السلام رداً قاطعاً بمواصلة القتال ثم تطرق إلى أسباب ذلك.

وأخيرا فالقسمان يوضحان بجلاء أن الإمام عليه السلام رجل الصلح والسلام فى ظروف الأمن والاستقرار، فاذا نشبت الحرب كان بطلها المجرب وليثها الغاضب.

ونتجه بعد هذه المقدمة إلى شرح الخطبة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۰۳

القسم الأول: رجل الحرب والسلام

اشارة

«إِنَّ اسْتِعْدادِى لِحَرْبِ أَهْلِ الشَّامِ وَجَرِيرٌ عِنْدَهُمْ، إِغْلاقٌ لِلشَّامِ وَصَرْفٌ لِأَهْلِهِ عَنْ خَيْرٍ إِنْ أَرادُوهُ. وَلَكِنْ قَدْ وَقَّتُّ لِجَرِيرٍ وَقْتاً لا يُقِيمُ بَعْدَهُ إِلَّا مَخْدُوعاً أَوْ عاصِياً. وَالرَّأْىُ عِنْدِى مَعَ الْأَناةِ فَأَرْوِدُوا وَلا أَكْرَهُ لَكُمُ الْإِعْدادَ».

الشرح والتفسير

كما أوردنا سالفاً فانّ الخطبة بشأن قضية جريربن عبداللّه حين كان عاملًا لعثمان على همدان، ثم قدم الكوفة فوجهه الإمام عليه السلام إلى الشام لأخذ البيعة من معاوية، إلّاأنّ فجاج مهمّة جرير كان يبدو ضيعفاً، ومن هنا رأى أصحاب الإمام عليه السلام قتالهم. فأجابهم الإمام عليه السلام قائلًا

«إن استعدادى لحرب أهل الشام وجرير عندهم، إغلاق ۴۷۱] للشام وصرف لأهله عن خير إن أرادوه»

فالعبارة تفيد أنّ الإمام عليه السلام بصفته زعيم الدولة الإسلامية لايرى فى الحرب والقتال من وسيلة صحيحة لحل الاختلافات، ولابدّ من إبقاء باب السلام مفتوحاً لاتمام الحجة، فان لم تجد نفعاً، آنذاك تكون الحرب هى العلاج. والطريف فى الأمر أنّ الإمام عليه السلام لايأبه بمعاوية وإنّما يفكر بأهل الشام، فقال

«إغلاق للشام»،

ثم أضاف قائلا

«وصرف لأهله عن خير إن أرادوه»

فى إشارة إلى عبثية جر أهل الشام للقتال وصدهم عن الصلح والسلام وإن كانت لكبيرة على بعض الأفراد المتحمسين، إلّاأنّ الزعيم العالم لاينبغى أن تستميله العواطف والأحاسيس، فلا يتصرف إلّامن خلال ضبط النفس والعقل والمنطق بما يرتضيه الحق

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۰۴

سبحانه وتعالى. ثم أزال الإمام عليه السلام الإبهام الذى قد يتسرب إلى عقول هؤلاء الأفراد باستمرار هذه الحالة القلقة فقال «ولكن قد وقت لجرير وقتاً لايقيم بعده إلّامخدوعاً أو عاصياً»

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام عين مدة بغية الحفاظ على مصالح المسلمين وعدم فوات الآوان ومرور الفرصة، فقد كان يعلم أنّ معاوية قد يماطل فى الوقت ويشغل جرير، وأقصى ذلك هو الاهبة والاستعداد للقتال، ثم يرد بالسلب على دعوة الإمام عليه السلام بالبيعة فى الوقت الذى تسلب الفرصة والمبادرة من الإمام عليه السلام وصحبه. إما لماذا حصر الإمام عليه السلام بقاء جرير عند معاوية باحتمالين؛ الخداع أو العصيان، بينما يمكن أن تكون عرضت له بعض الوقائع من قبيل المرض وما شاكل ذلك، وذلك لأنّ سائر الاحتمالات تبدو ضعيفة لا يكترث بها إزاء هذين الاحتمالين، أو على حد تعبير علماء الاصول أنّ الاصل فى مثل هذه الامور السلامة، فلا ينبغى ترتيب الأثر على سائر الاحتمالات. ثم حاول تهدأة خواطر صحبه والتسكين من روعهم فقال

«والرأى عندى مع الأناة[۴۷۲] فأرودوا[۴۷۳]».

من جانب آخر فانّ الإمام عليه السلام بغية عدم غفلة أصحابه فى ظل تلك الظروف الحساسة المصيرية، وضرورة الابقاء على عزمهم الشديد والراسخ فى مجابهة العدو وعدم إطفاء جذوة الحماس للقتال فقال عليه السلام:

«ولا أكره لكم الإعداد»؛

أى أنى لا أعلن حالة التأهب فهذا الأمر يتعارض والصلح والسلام. وفى نفس الوقت لا أحول دون وظيفتكم فى التعبئة الطواعية، والحق أنّ هذا لأعظم وأنجع اسلوب منطقى وعقلائى فى مثل تلك الظروف العصيبة؟ أى لا تغلق أبواب السلام، ولا يعيش الجميع حالة الانفعال والغضب، ولا ينبغى أن تقع بعض الأعمال التى تفرزها طبيعة النفاق، وأخيراً لا ينبغى فوات الفرص دون جدوى!

الهدف من الدعوة إلى الصلح والبيعة

إن الإمام عليه السلام وخلافاً لما يعتقده البعض لم يقاتل معاوية، إلّاحين أتم الحجة عليه من كافة الجهات، بحيث لم يكن يلجأ إلى القتال إلّاحين يكون السبيل الأخير الذى اغلقت جميع السبل

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۰۵

دونه. تفيد هذه الخطبة أنّ علياً عليه السلام لم يستجب للضغوط التى مارسها أصحابه من أجل شروع القتال، وأنّه بذل قصارى جهده بهدف إرساء الصلح والسلام. والرسالة التى بعثها الإمام عليه السلام إلى معاوية بواسطة جرير لتؤكد هذا المعنى. فقد جاء فيها:

«إنّه بايعنى القوم الذين بايعوا أبابكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد وإنّما الشورى للمهاجرين والأنصار، فان إجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك للّه رضى، فان خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه، فان أبى قاتلوه على إتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه اللّه ما تولى. ولعمرى يا معاوية، لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبر الناس من دم عثمان، ولتعلمن أنى كنت فى عزلة عنه إلّاأن تتجنى، فتجن ما بدا لك».[۴۷۴]

والواقع كان معاوية يعتمد ذريعتين لترك البيعة، الاولى أنّه كان غائباً حين تمت البيعة لعلى عليه السلام، والثانية أن الإمام عليه السلام مطالب بدم عثمان، فلا يمكن مبايعته، إلّاأنّ الإمام عليه السلام فند هاتين الذريعتين بالدليل والبرهان فى الرسالة المذكورة، فلم يستجب معاوية بغية تحقيق أهدافه وأطماعه. على كل حال وكما ذكرنا أنفاً فانّ جرير عامل عثمان على همدان أعلن بيعته للإمام عليه السلام ومعه الناس إثر وصول كتاب الإمام عليه السلام. ثم ورد الكوفة وطلب من الإمام عليه السلام أن يوجهه إلى الشام لأخذ بيعة معاوية، لأنّ جل أهل الشام كانوا من قومه وأهل بلده ويطمع إلّايعصون أمره. فاعترض الأشتر وقال للإمام عليه السلام: لا تبعثه ولا تصدقه، فواللّه إنّى لأظن هواه هواهم، ونيّته نيّتهم. إلّاأنّ الإمام عليه السلام إختاره لقول رسولاللّه صلى الله عليه و آله فيه:

«إنك من خير ذى يمن»

كما لم يبدر منه خلافاً حتى ذلك الحين، ولعله لم يكن هناك من هو أفضل منه.

فدفع إليه الإمام عليه السلام كتابه، وقال له: «إئت معاوية بكتابى، فان دخل فى ما دخل فيه المسلمون، وإلّا فانبذ إليه واعلمه أنّى لا أرضى به أمراً، وأنّ العامة لا ترضى به خليفة». فانطلق جرير حتى أتى الشام، ونزل بمعاوية وأخبره باجتماع مسلمى أهل الحرمين وأهل المصرين والحجاز واليمن ومصر وأهل العروض على بيعة الإمام عليه السلام ثم قال: فلم يبق إلّاهذه الحصون التى أنت فيها فبايع لعلى عليه السلام. ثم سلمه كتاب الإمام عليه السلام. فلم يستجب معاوية الذى كان شغفاً بالحكومة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۰۶

فقام فخطب الناس مطالباً بدم عثمان وأخذ البيعة من أهل الشام للقيام والمطالبة بدم عثمان.

فاستحثه جرير بالبيعة. فقال: يا جرير، إنّها ليست بخلسة، وإنه أمر له ما بعده فابلغنى ريقى.

فأشار عليه أخوه بعمرو ابن العاص. وقد وعده النصيحة بعد أن اشترط عليه ولاية مصر. ثم دخل شرحبيل- رئيس اليمينية وشيخها والمقدم عليها- فتحدث إلى جرير، فأقنعه جرير باتباع علىّ عليه السلام. إلّاأنّ معاوية كتب له كتاباً ودس إليه الرجال يغرونه بعلى عليه السلام ويشهدون عنده أنّه قتل عثمان، حتى ملئوا صدره وقلبه حقداً وترة وإحنة على على عليه السلام وأصحابه، ثم دعاه فى الكتاب لمطالبة بدم عثمان. فتاهب شرحبيل للطلب بدم عثمان، ثم وجهه معاوية إلى الشام لدعوة الناس للمطالبة بدم عثمان وجعل لايأتى على قوم إلّاقبلوا ما أتاهم به وهنا شعر جرير باليأس من معاوية، ثم إلتفت معاوية إلى جرير فقال له: إنّى قد رأيت رأياً، قال: هاته، قال:

اكتب إلى صاحبك يجعل لى الشام ومصر جباية، فاذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده فى عنقى بيعة، وأسلم له هذا الأمر، واكتب إليه بالخلافة. فقال جرير: اكتب ما أردت اكتب معك.

فكتب الإمام عليه السلام إلى جرير: إذا أتاك كتابى هذا فاحمل معاوية على الفصل، ثم خيره وخذه بالجواب بين حرب مخزية أو سلم محظية

«ولم يكن اللَّه ليرانى اتخذ المضلين عضداً»

فتأخر جرير مدّة ولعله كان يطمع فى عودة معاوية إلى رشده، فكثر فيه الكلام.[۴۷۵]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۰۷

القسم الثانى

اشارة

«وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هَذا الْأَمْرِ وَعَيْنَهُ، وَقَلَّبْتُ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ، فَلَمْ أَرَ لِى فِيهِ إِلَّا الْقِتالَ أَوِ الْكُفْرَ بِما جاءَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه و آله. إِنَّهُ قَدْ كانَ عَلَى الْأُمَّةِ والٍ أَحْدَثَ أَحْداثاً، وَأَوْجَدَ النَّاسَ مَقالًا، فَقالُوا ثُمَّ نَقَمُوا فَغَيَّرُوا».

الشرح والتفسير

يقابل هذا القسم من الخطبة القسم المذكور تماما، أو بعبارة اخرى يمثل المرحلة الثانية من مراحل المجابهة. فقد كان الإمام عليه السلام يؤكد فى القسم المذكور على ضرورة ضبط النفس واجتناب القتال، واللجوء إلى منطق السلام والصبر والتحمل. بينما يتحدث هذا القسم بصورة قاطعة حادة عن القتال واللجوء إلى القوة؛ ولا غرو فقد أغلقت جميع السبل والأساليب، وثبت بالضرس القاطع أنّ معاوية لا- يستسيغ أى منطق واستدلال، ولا- يفهم سوى تحقيق مطامعه فى الحكومة التى يضحى من أجلها بالغالى والنفيس. ومن الطبيعى ألا يكون هنالك من سبيل لمواجهة هذا الشخص سوى الاستسلام وتفويض المقدّرات الإسلامية إليه، أو شهر السلاح بوجهه

وقتاله. ومن هنا قال الإمام عليه السلام:

«ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه، وقلبت ظهره وبطنه، فلم أر لى إلّاالقتال أو الكفر بما جاء محمد صلى الله عليه و آله». العبارة «ضربت أنف هذا الأمر وعينه»

مثل تقوله العرب فى الاستقصاء فى البحث والتأمل والفكر. والعبارة

«وقلبت ظهره وبطنه»

هى الاخرى كناية عن دراسة كافة جوانب الموضوع: لأنّ الإنسان إذا أراد أن يشترى بضاعة قلب ظهرها وبطنها ليتعرف على كافة مميزاتها. أما قوله عليه السلام

«فلم أر لى إلّا القتال أو الكفر بماء جاء محمد صلى الله عليه و آله»

فذلك لأنّ الإمام عليه السلام إذا سكت وترك الامّة لحالها لقاد ذلك إلى انحراف الناس عن الإسلام واستتباب الحكومة الجاهلية الأموية والسفيانية وإحياء

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۰۸

مبادئ الشرك والوثنية، وهذا يعنى تجاهل كافة القيم والمثل التى جهد رسولاللّه صلى الله عليه و آله مدة ثلاث وعشرين سنة فى إرسائها وتحمل صنوف العذاب من أجل ترسيخها، وأصبح على عليه السلام خمسة وعشرين عاماً جليس البيت من أجل الحفاظ عليها، وعليه فلم يبق من سبيل أمام الإمام عليه السلام سوى القتال بصفته الأمين على الإسلام وقيمه، وهذا هو الرد الصريح على كافة من يشكك فى قتاله عليه السلام لمعاوية. ثم أشار عليه السلام إلى مسئلة قتل عثمان واستغلالها من قبل معاوية وزبانيته بغية الوصول إلى أغراضه ومآربه، فقال

«إنّه قد كان على الأمّة وال أحدث أحداثاً، وأوجد الناس مقالا، فقالوا ثم نقموا فغيروا»

فمراد الإمام عليه السلام أن العامل الرئيسى لقتل عثمان هو نفس عثمان، الذى أتى بالأعمال المخالفة للعدل والسنة النبوية، والتى أججت غضب الناس فحاصروه ثم قتلوه، ولذلك لم يتحرك أى من صحابة رسولاللّه صلى الله عليه و آله للدفاع عنه، حتى قتل وبقى ثلاثاً على الأرض لم يدفنه أحد من المسلمين ۴۷۶] وهذا بدوره يكشف عن مدى غضب الامّة ونقمتها عليه. وعليه فقتل عثمان لم يكن ذريعة تدعو للخروج على أميرالمؤمنين عليه السلام.

وبالطبع فان أصحاب تلك الذريعة كانوا يعلمون هذا الأمر أكثر من غيرهم، إلّاأنّهم لم يروا أفضل من هذه الذريعة لتعبئة أهل الشام ضد أميرالمؤمنين عليه السلام.

أعمال عثمان وأسباب قتله.

ذهب أغلب شراح نهج البلاغة إلى أن عثمان أحدث أحداثا مشهورة نقمها الناس عليه وأهم هذه الأحداث:

۱- تأمير بنى أمية ولا سيما الفساق منهم وأرباب السفه وقلة الدين ومنهم الوليد الفاسق وشارب الخمر الذى ولاه الكوفة.[۴۷۷] وقرب الحكم بن أبى العاص عمه الذى طرده رسول الله صلى الله عليه و آله فألبسه جبة من الخز وأعطاه زكاة قبيلة قضاعة التى بلغت ثلاثمئة درهم- وذكر إبن قتيبة وابن عبد ربه والذهبى- من مشاهير علماء العامة- أن من الأحداث التى نقمها الناس

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۰۹

على عثمان تقريبه للحكم بن أبى العاص الذى لم يقربه أبوبكر ولاعمر فى خلافتهما.[۴۷۸] كما عين ابن عمه مروان بن الحكم مستشارا له وأعطاه غنائم أفريقيا التى بلغت خمسمئة ألف درهم.

۲- أذاه لكبار صحابة النبى صلى الله عليه و آله كأبى ذر الذى نفاه للربذة حين كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويعترض على

أعماله.[۴۷۹] وضربه الشديد للصحابى الجليل عمار بن ياسر ولم يكن ذنبه سوى مواجهة عثمان باعتراضات الناس.[۴۸۰] وما فعله بالصحابى عبدالله بن مسعود بسبب إعتراضه على التطاول على بيت المال فجعل يضربه حتى كسر رباعيته.[۴۸۱]

سئل الصحابى زيد بن أرقم كيف حكمت بكفر عثمان؟ قال: لثلاث: تقسيمه لأموال بيت المال بين الأغنياء ومحاربته لصحابة النبى صلى الله عليه و آله وعمله بغير كتاب الله.[۴۸۲]

۳- توزيعه لأموال بيت المال على بطانته وقرابته دون حساب وحرمان المؤمنين منها.

وللمؤرخين والمحدثين شروحا وافية بالنسبة لهذه الأمور لايسعها المقام. كل ذلك أرى إلى نقمة الأنصار والمهاجرين ولا سيما صحابة النبى صلى الله عليه و آله على عثمان فلم يروه خليفة لرسول الله صلى الله عليه و آله كما قدم الناقمون من مصر والكوفة والبصرة، وحيث لم يكترث لهم، بينما لم ينصره أهل المدينة وهذا يدل على نقمتهم عليه أيضا. أما معاوية الذى كان واقفا على كل هذه الأمور فقد إستغلها ليحرض أهل الشام ضد أمير المؤمنين على عليه السلام بحجة المطالبة بدم عثمان.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۱۱

الخطبة[۴۸۳] الرابعة والاربعون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

لما هرب مصقلة بن هبيرة الشيبانى إلى معاوية، وكان قد إبتاع سبى بنى ناجية من عامل أميرالمؤمنين عليه السلام وأعتقهم، فلما طالبه بالمال خاس به وهرب إلى الشام.

سبب الخطبة

قصة الخريت بن راشد الناجىّ وخروجه على علىّ عليه السلام

كما ورد سابقا فالكلام يرتبط بقصة قبيلة بنى ناجية: كان الخِرِّيت بن راشد النّاجِىّ، أحد بنى ناجِيَة، قد شهد مع على عليه‌السلام صِفّين، فجاء إلى علىّ عليه‌السلام بعد انقضاء صِفّين، وبعد تحكِيم الحَكَمين فى ثلاثين فى أصحابه، يمشى بينهم حتى قام بين يديه، فقال: لا واللّه لا أطِيعُ أمرَك، ولا أصلّى خَلْفَك، وإنى غداً لمفارق لك؛ فقال له: ثَكِلَتْك أمّك! إذاً تنقض عهدَك، وتَعْصِى رَبّك، ولا تضرّ إلّانفسَك، أخبرْنى لم تفعلُ ذلك! قال: لأنّك حكّمت فى الكتاب، وضعُفْت عن الحق إذ جَدّ الجدّ، وركنت إلى القوم الّذين ظلموا أنفسَهم، فأنا عليك رادّ، وعليهم ناقم، ولكم جميعا مباين.

فقال له علىّ عليه‌السلام: وَيْحَك! هلّم إلىّ أدارِسْك وأناظرْك فى السُّنن، وأفاتحْك أموراً من

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۱۲

الحق أنا أعلم بها منك؛ فلعلك تعرف ما أنت الآن له منكر، وتُبْصر ما أنت الآن عنه عَم وبه جاهل، فقال الخريت: فإنّى غادٍ عليك غداً. فقال علىّ عليه‌السلام: اغْدُ ولا يستهوينّك الشيطان، ولا يتقحمَنَّ بك رأىُ السوء، ولا يستخفّنّك الجهلاء الذين لا يعلمون؛ فواللّه إن استرشدتَنى واستنصحتنى وقبلت مِنّى لأهدينّك سبيل الرشاد.

فخرج الخرِّيت من عنده مُنْصرفاً إلى أهله.

قال عبداللّه بن قُعَين: فعجلت فى أثره مُسْرِعاً، وكان لى من بنى عَمّه صديق، فأردت أن أَلْقَى ابنَ عمه فى ذلك، فأعلمه بما كان من قوله لأميرالمؤمنين، وآمر ابنَ عمه أن يشتدّ بلسانه عليه، وأنْ يأمرَه بطاعة أميرالمؤمنين ومُناصحته، ويخبره أنّ ذك خير له فى عاجل

الدنيا وآجل الآخرة. ثم بعث عليه السلام بمعقل بن قيس فقاتل الخريت حتى قتل وأسر أصحابه، فأطلق من كان منهم مسلما وبقى غير المسلمين، وحين ورد الأسرى الكوفة إشترى مصقلة الأسرى بخمسمئة درهم من معقل وأعتقهم. فدفع مئتى درهم وعجز عن دفع الباقى فخاف وهرب.

فخطب الإمام عليه السلام بهذه الخطبة.[۴۸۴]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۱۳

«قَبَّحَ اللَّهُ مَصْقَلَةَ! فَعَلَ فِعْلَ السَّادَةِ، وَفَرَّ فِرارَ الْعَبِيدِ! فَما أَنْطَقَ مادِحَهُ حَتَّى أَسْكَتَهُ، وَلا صَدَّقَ واصِفَهُ حَتَّى بَكَّتَهُ، وَلَوْ أَقامَ لأَخَذْنَا مَيْسُورَهُ وَانْتَظَرْنا بِمالِهِ وُفُورَهُ».

الشرح والتفسير

فرار العبيد

قال الإمام عليه السلام بعد أن سمع خبر فرار مصقلة- عامل الإمام على منطقة أردشير حرّة من مناطق فارس-

«قبح اللَّه مصقلة فعل فعل السادة، وفر فرار العبيد».

لقد قام مصقلة بعمل إنسانى كبير وذلك حين إشترى أسرى بنى ناجية وأعتقهم فلما طولب بالمال وإعادته إلى بيت مال المسلمين وبدلًا من سؤال المهلة للتسديد هرب بالمال إلى الشام حيث معاوية الذى عرف بخداعه للناس واستعبادهم وظاهر القضية أن مصقلة وخشية دينه لبيت المال هرب إلى الشام، بينما يبدو أنّه كان مستعد مسبقاً لهذه الخيانة العظمى، فلعله كان يخشى الفضيحة من بعض الأعمال الاخرى التى قارفها، ولعل شدة على عليه السلام فى العدل والاصرار على إسترداد حقوق بيت‌المال قد شقت عليه كما شقت على الآخرين. ويؤيد ذلك ما قاله صاحب مصقلة ذهل‌بن حارث أنّ مصقلة قال لم أكن لأغتم لو كنت مديناً لعثمان أو معاوية، فهما يتسامحان فى بيت المال، وقد فعلا ذلك بحق الالاف المؤلفة، الا أن عليا عليه السلام شديد التعامل مع بيت المال. مع ذلك فليس هنالك من مبرر لفعل مصقلة، ولا سيما إثر ذلك التناقض الواضح، فقد تكرم من جانب ليقوم بذلك العمل الإنسانى، ومن جانب آخر قام بتلك الخيانة وهرب! لذلك قال عليه السلام:

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۱۴

«فما أنطلق مادحه حتى أسكته، ولا صدق واصفه حتى بكته»[۴۸۵]

فقد فعل ما يدعو إلى مدحه من قبل كل من يسمعه، إلّاأنّ خبر عتقه لسبايا بنى ناجية لم يكد ينتشر بين الناس حتى إنتشر قبله نبأ فراره إلى الشام، فاصاب الجميع بالدهشة والذهول، فكيف يلجأ إلى معاوية من يقوم بهذا العمل النجيب، فيؤثر مجاورة معاوية والوقوف إلى جانبه على على عليه السلام؟ نعم لايسع الجميع تحمل العدل! ثم إختتم كلامه بالقول

«ولو أقام لأخذنا ميسوره، وانتظرنا بماله وفوره»

أجل هذا منطق القرآن الكريم «وَإِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلى مَيْسَرَةٍ»[۴۸۶].

ليس هنالك من يعتقد بأنّ علياً عليه السلام سيعامله على خلاف القرآن وأحكامه، وعليه فلا يقبل عذره فى خشيته من الإمام عليه السلام فى تسديد ما بذمته لبيت‌المال. وهنا يبرز هذا السؤال لم لم يهبه الإمام عليه السلام ذلك المال تقديراً لعمله الإنسانى، فمصقلة لم يكن ليتحمل بذلك الدين لمصالحه الشخصية بل كان نتيجة طبيعة لذلك العمل الجبار الذى قام به؟ ونقول فى الجواب على هذا السؤال أنّ الإمام عليه السلام لو فعل ذلك لأصبحت سنة فى المستقبل، بحيث يقوم كل عامل وآمر بالطلاق سراح الاسرى الأمر الذى يفرز بعض المخاطر التى تهدد كيان المجتمع الإسلامى بينما يحظى الأمر بمدح الناس وثنائهم. أضف إلى ذلك فانّ مثل هذا البذل يزعزع أسس ودعائم بيت المال ويعيد إلى الاذهان سياسة البذخ والاسراف التى إتبعها عثمان تجاهه، بينما كان الإمام عليه السلام قد

وعد الامّة بأنّه سيتسرجع كل ما أخذ من بيت المال بغير حق وإن تزوج به النساء.

تأمّلان

اشارة

نفحات الولاية ؛ ج۲ ؛ ص۳۱۴

۱- من بين الأسئلة التى تطرح بشأن هذه الخطبة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۱۵

أو ليس بنى ناجية مسلمين، فكيف يسبون ويفادون؟ ويبدو أنّ الجواب قد ورد فى قصة سبيهم، حيث خرج الخريت بن راشد الناجى ضد أميرالمؤمنين عليه السلام واجتمع مع عدد من الأفراد، فلما بلغ الخبر الإمام عليه السلام. فوجه الإمام عليه السلام أحد أصحابه «معقل بن قيس» لقتال الخريت بن راشد فقتله وقتل جمعاً من أصحابه وأسر آخرين من مسلمين وغير مسلمين من النصارى ومانعى الصدقة، فجعل مسلميهم يمنة والنصارى ومانعى الصدقة يسرة، ثم خلى سبيل من كان مسلماً وأخذ بيعته، ومن كان إردتد عرض عليه الرجوع إلى الإسلام أو القتل.

فلما أتى بالاسرى إلى الإمام عليه السلام فى منطقة أردشير حرّة التى كان مصقلة عاملها، فبكى إليه النساء والصبيان وتصايح الرجال. فقال مصقلة: أقسم باللّه لأتصدقن عليهم، فاشتراهم بخمسمائة ألف درهم فاعتقهم. فبعث مصقلة بمقدار من المال وبقى آخر. وانتظر على عليه السلام مصقلة أن يبعث المال فابطأ به فبعث إليه الإمام، فقدم الكوفة، فسأله الإمام عليه السلام المال، فأدى إليه مائتى ألف درهم وعجز عن الباقى، على أن يهبه الإمام عليه السلام ذلك، فلم يقبل الإمام عليه السلام، ولو وافقه الإمام عليه السلام لكان ذلك الأمر بدعة بحيث يشترى الآخرون الأسرى ثم يعتقونهم ولا يؤدون المال إلى بيت مال المسلمين، إلى جانب كون تلك الموافقة تثيير تداعيات سياسة عثمان إزاء بيت المال بحيث يساء الظن بحزم الإمام عليه السلام بالنسبة لبيت مال المسلمين. والعجيب أنّ أحد أصحابه قال له: لو شئت لم يمض عليك جمعة حتى تجمع هذا المال، فقال: ما كنت لأحملها قومى، ولا أطلب فيها إلى أحد. ثم قال: واللّه لو أنّ ابن هند مطالبى بها، أو ابن عفان، لتركها لى. فهذه الامور تشير إلى أنّه قد يكون منذ البداية قد عزم على عدم أدائها، كما تفيد الرسالة الثالثة والأربعون من نهج‌البلاغة أنّه كان عثمانياً، ولذلك كان قد بذل بعض أموال بيت المال لبطانته وقومه، وخلاصة القول فان بنيته الفكرية والعملية كانت قائمة على نهج معاوية لا أميرالمؤمنين عليه السلام. ولعله كان رجلًا صالحاً قبل وصوله إلى الحكومة إلّاأنّ حب الدنيا والاغترار بالجاه قد غلب عليه. ومن هنا شقت عليه عدالة الإمام عليه السلام حتى إلتحق فى خاتمة المطاف بمعاوية. فخطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة واختتمها بقوله

«ولو أقام لأخذنا ميسوره، وانتظرنا بماله وفوره».[۴۸۷]

ويتضح ممّا ذكرنا أنّ الاسرى المذكورين لم يكونوا من المسلمين.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۱۶

۲- فلسفة الحزم

السؤال الآخر الذى يمكن طرحه هنا: ما علة كل هذا الحزم من الإمام عليه السلام فى هذه الحالات؟

ونقول فى الجواب أنّ الإمام عليه السلام لم يتشدد فى هذا الأمر، بل كان قد أمهله لتسديد الدين عند المقدرة أولًا، وثانياً لم يكن ذلك حقاً للإمام عليه السلام بحيث يهبه أموال بيت‌المال، بل هو حق المسلمين الذى لايفرط فيه أميرالمؤمنين عليه السلام قط. ورغم حزمه فى هذا الأمر إلّاأنّه أبقى باب الرفق مفتوحاً، ومن ذلك إقترح البعض على الإمام عليه السلام بعد فرار مصقلة إعادة السبايا والأسرى فلم يوافق الإمام عليه السلام على أنّ مصقلة قد إبتاعهم واعتقهم، فالمدين مصقلة لا هؤلاء.[۴۸۸]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۱۷

الخطبة[۴۸۹] الخامسة و الأربعون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وهو بعض خطبة طويلة خطبها يوم الفطر، وفيها يحمداللَّه ويذم الدنيا

نظرة إلى الخطبة

تشتمل الخطبة على فصلين من كلام أميرالمؤمنين على عليه السلام: أحدهما حمداللَّه والثناء عليه، والآخر ذم الدنيا وحث الناس على التزود للآخرة. ويبدو أنّ الرضى (ره) لم يذكر الخطبة كلها فهى طويلة جداً، ومن هنا لا يرى هناك من إرتباط بين هذين الفصلين، إلّاأنّها رغم قصرهما يشيران إلى معان ضخمة مهمّة.

ج‌ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۱۹

القسم الأول: الرحمة اللامتناهية

«الْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلا مَخْلُوٍّ مِنْ نِعْمَتِهِ وَلا مَأْيُوسٍ مِنْ مَغْفِرَتِهِ وَلا مُسْتَنْكَفٍ عَنْ عِبادَتِهِ، الَّذِى لا تَبْرَحُ مِنْهُ رَحْمَةٌ وَلا تُفْقَدُ لَهُ نِعْمَةٌ».

الشرح والتفسير

تناول هذا الفصل حمداللَّه والثناء عليه، ثم أشار إلى ست من النعم الإلهية التى تستحق الحمد والشكر، فقال عليه السلام

«الحمد للَّه غير مقنوط[۴۹۰] من رحمته».

كيف اليأس من رحمة اللَّه الواسعة وهو القائل سبحانه «وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىءٍ»[۴۹۱] كما قال على لسان نبيه يعقوب عليه السلام «لا تَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلّا القَوْمُ الكافِرُونَ»[۴۹۲] وعلى لسان خليله إبراهيم عليه السلام «وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلّا الضّالُّونَ»[۴۹۳] وعليه فلابد للإنسان من الانابة إلى اللَّه مهما كانت ذنوبه ومعاصيه، ولا ينبغى له اليأس من رحمة اللَّه، بل إنّ هذا اليأس كفر وضلالة وهو من أعظم الذنوب ثم قال عليه السلام

«ولا مخلو من نعمته».

كما ورد فى القرآن الكريم «أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِى السَّمواتِ وَما فِى الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً»[۴۹۴] وأضاف عليه السلام

«ولا مأيوس من مغفرته»

كيف لا وهو القائل «قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۲۰

أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»[۴۹۵].

بل ورد فى الحديث النبوى الشريف أنّ هذه الرحمة لمن السعة بحيث يتطاول عليها ويطمع بها حتى إبليس

«ليغفر اللَّه يوم القيامة مغفرة ما خطرت على قلب أحد حتى إبليس يتطاول اليها»[۴۹۶]

كما جاء فى الرواية: «أنّ للَّه مئة رحمة وقد أنزل واحدة منها إلى الأرض وقسمها بين مخلوقاته، وإستأثر بتسع وتسعين إدخرها لعباده يوم القيامة»[۴۹۷]. ولما كانت هذه الامور تسوق الناس إلى العبادة، قال عليه السلام:

«ولا مستنكف ۴۹۸] عن عبادته»

وذلك لأنّ الاستنكاف عن العبادة لا- يؤدى سوى إلى العذاب، فقد قال القرآن بهذا الخصوص «وَأَمّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً»[۴۹۹]. ثم عد نعمتين اخريين عليه السلام فقال

«الذين لا تبرج منه رحمة، ولا تفقد له نعمة»

فقد تكررت الرحمة والنعمة وكأن السابقة أشارت إلى أصل الرحمة والنعمة الإلهية، بينما تحدثت العبارة اللاحقة عن دوام هذه النعمة وعدم إنقطاعها، وهذا ما ورد تأكيده فى القران «وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها»[۵۰۰]. والطريف فى الأمر أنّ هذين الوصفين فى الواقع ذكرا كدليل على عدم استنكاف الناس عن عبادة اللَّه؛ الأمر الذى تناوله علم الكلام تحت عنوان

«شكر المنعم من دوافع معرفة اللَّه».

أمّا المفردات الرحمة والمغفرة والنعمة فهى وإن كانت مرتبطة مع بعضها إلّا أنّ مفاهيمها مستقلة، فللرحمة معنى واسع يشمل كل فضل ولطف من اللَّه للعباد سواء عن طريق إفاضة النعم أو مغفرة الذنوب، وبعبارة اخرى فانّ نسبة الرحمة إلى النعمة والمغفرة هى نسبة العموم والخصوص المطلق، بينما لكل من النعمة والمغفرة مفهوم منفصل عن الآخر، فالنعمة تختص بالإمكانات الوجودية التى تأخذ بيد الإنسان إلى السمو والكمال، أمّا المغفرة فهى إزالة آثار الذنب وتعبيد الطريق بعد إزالة العراقيل.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۲۱

القسم الثانى: الدنيا دار المنى

اشارة

«وَالدُّنْيا دارٌ مُنِيَ لَها الْفَناءُ وَلِأَهْلِها مِنْها الْجَلاءُ وَهِيَ حُلْوَةٌ خَضْراءُ، وَقَدْ عَجِلَتْ لِلطَّالِبِ وَالْتَبَسَتْ بِقَلْبِ النَّاظِرِ، فارْتَحِلُوا مِنْها بِأَحْسَنِ ما بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ، وَلا تَسْأَلُوا فِيها فَوْقَ الْكَفافِ، وَلا تَطْلُبُوا مِنْها أَكْثَرَ مِنَ الْبَلاغِ».

الشرح والتفسير

لقد عرض الإمام عليه السلام هنا بذم الدنيا على أنّ حبّها والتعلق بها يعد من آعظم آفات سبيل سعادة الإنسانية. كما أنّ الاغترار بزخارفها وزينتها أساس الذنوب والمعاصى، فقال عليه السلام

«والدنيا دار منى لها الفناء»[۵۰۱]

. نعم فدعائم الكون تحكى آثار الزوال والفناء، فالأشجار التى تتفتح فى الربيع وتحمل الثمار إنّما تذبل فى فصل الخريف لتجف ثم تتساقط أوراقها على الأرض فتعبث بها الرياح هنا وهناك، وكأنّ حياة هذه الاشجار لم تشهد الربيع ولم تحمل الثمار. وهكذا حال الإنسان فالفتى القوى بالأمس، هو العجوز الهرم اليوم، والكهل العجوز اليوم سيكون عظاما نخرة غداً! ثم قال عليه السلام

«ولأهلها منها الجلاء»[۵۰۲]

فكافة الأفراد دون إستثناء سيودعون عاجلا أم آجلا هذه الدنيا الفانية ليتجهوا نحو تلك الحياة الخالدة فى عالم الآخرة. فهذا قانون إلهى مطلق لا يسع أحد إنكاره والخروج عليه. ومن هنا عبرت بعض الآيات القرآنية عن

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۲۲

الموت باليقين، وذلك لأنّه يوقن به حتى من أنكر المعاد والحساب. ثم قال عليه السلام

«وهى حلوة خضرة»

وتختص الحلاوة بالذائقة بينما ترتبط الخضرة بالباصرة، فخضرة الدنيا وجمالها تخطف بصر الفرد الغافل وتشده إليها، بينما تسوق حلاوتها ذلك الإنسان إلى المعصية والخطيئة، ومن المعلوم أنّ خداع الدنيا لا يقتصر على هذين الأمرين، بل لكل حاسة من حواس الإنسان ما يجذبها ويربطها بالدنيا. وأضاف عليه السلام

«وقد عجلت للطالب والتبست ۵۰۳]

بقلب الناظر»

فطبيعة الدنيا خيرها العاجل ومنافعها المبكرة، وإذا أتت الإنسان فإنّها تنفذ إلى قلبه حتى تكون جزءاً منه لأنّها جميلة للناظر، كما أنّها حلوة للمذاق، ولذلك كان التحرر منها صعباً. وما ان فرغ الإمام عليه السلام من بيان صفات الدنيا لتتطلع القلوب إلى أوامر السماء حتى قال

«فارتحلوا منها بأحسن ما بحضرتكم من الزاد ولا تسألوا فيها فوق الكفاف، ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ»[۵۰۴]

. لا ينبغى أن ينسى الإنسان أنّه مسافر قد أقام هنا بصورة مؤقتة، والمسافر الفطن إنّما ينهمك باعداد الزاد والمتاع فى مثل هذا المنزل، فهو يتزود بأحسن الأمتعة والأشياء ولا- يثقل كاهله بالردى منها أبدا «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزّادِ التَّقْوى وَاتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبابِ»[۵۰۵]. فالتقوى أفضل زاد الدنيا إلى جانب الحذر من نوم الغفلة.

الكفاف والعفاف

لقد تضمنت الخطبة إشارات إلى مختلف أبعاد الحياة الدنيا رغم قلة عباراتها وألفاظها. فقد أشارات إلى طبيعة الحياة الدنيا والتى تكمن فى الفناء والزوال ورحيل أهلها عنها شاءوا أم أبوا. كما تطرقت إلى ظاهرها الأنيق الذى يشد الأنظار إليه، ومن هنا يتجه نحوها من يخدع بالمظاهر، بينما يحذرها من يتمعن فى العواقب. وتناولت حب الدنيا الذى يقود بالتدريج إلى تربعها فى قلب الإنسان حتى تصبح جزءاً من كيانه؛ الأمر الذى يجعل من المتعذر عليه نزع

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۲۳

حبّها من قلبه ثم أرشدت إلى النجاة من أخطارها وآفاتها بالقناعة بالكفاف والعفاف، والمراد بالكفاف ۵۰۶] والعفاف (أو العفاف والكفاف» أن يقنع الإنسان فى الدنيا بقدر حاجته إليها ويدع الرغبة بالمزيد جانباً ويغض طرفه عن جمع الأموال؛ الأمر الذى يجعله يعيش الاستقرار والسكينة فى حياته الدنيا ويحد من حمله فى حياته الاخروية، وذلك لأنّ طامة الإنسان فى الحرص والطمع وعدم القناعة. طبعاً إذا كان تطلعه للمزيد من أجل إغاثة الضعفاء والمحرومين فانّ ذلك ليس فقط لا يتنافى والعفاف والكفاف فحسب، بل من شأنه أن يقود الآخرين إلى الكفاف. فقد ورد فى القرآن الكريم: «يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ»[۵۰۷]، كما ورد هذا المعنى فى الروايات الإسلامية، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يدعو بهذا الدعاء:

«اللّهم ارزق محمداً وآل محمد ومن أحبّ محمداً وآل محمد العفاف والكفاف»[۵۰۸]

. وعن أميرالمؤمنين على عليه السلام أنّه قال:

«قليل يكفى خير من كثير يردى»[۵۰۹]

فالفرد إذا قنع باللازم من حياته كان ذلك زينة له من الذنب وتحلى بالكفاف والعفاف:

«من اقتنع بالكفاف أداه إلى العفاف»[۵۱۰]

أضف إلى ذلك وبغض النظر عن الجوانب المعنوية والأخلاقية للقناعة بالضرورى فى الحياة فانّما مدعاة للسكينة والاستقرار الروحى والنفسى فى الحياة الدنيا، فقد ورد عن الإمام على عليه السلام أنّه قال:

«ومن إقتصر على بلغة الكفاف فقد إنتظم الراحة وتبوأ خفض الدعة»[۵۱۱].

وقد أثنى رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله على شخص فدعا له قائلًا:

«اللّهم ارزقه الكفاف»

كما قال رسول‌اللَّه:

«إنّ ما قلّ وكفى خير ممّا أكثر وألهى؛ اللّهم ارزق محمّداً وآل محمد الكفاف».

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۲۵

الخطبة[۵۱۲]السادسة و الاربعون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

عند عزمه على المسير إلى الشام وهو دعاء دعا به ربّه عند وضع رجله فى الركاب.

نظرة إلى الخطبة

تتضمن هذه الخطبة أو هذا الدعاء عدّة أمور عميقة ومهمّة، فقد بين الإمام عليه السلام جميع المشاكل المتوقعة فى السفر فى ثلاث، ثم إستعاذ منها باللَّه. ثم وصف الحق سبحانه بأنّه الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل توكيداً لحضوره الذاتى المطلق لدى جميع الكائنات.

ج‌ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۲۷

«اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِى الْأَهْلِ وَالْمالِ وَالْوَلَدِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِى السَّفَرِ، وَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِى الْأَهْلِ وَلا يَجْمَعُهُما غَيْرُكَ، لِأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لا يَكُونُ مُسْتَصْحَباً، وَالْمُسْتَصْحَبُ لا يَكُونُ مُسْتَخْلَفاً».

الشرح والتفسير

الاستعاذة باللَّه من وعثاء السفر

لا شك أنّ اولياء اللَّه يعيشون التضرع إلى اللَّه فى جميع الأحوال إلّاأنّهم يكونون أكثر تضرعاً حين إشتداد المحن والخطوب، فيستأنفون أعمالهم بدعاء اللَّه والتوسل إليه ليفرج عنهم ويلهمهم القوة والصلابة والثقة بالنفس. الإمام عليه السلام من جانبه لما عزم على المسير لصفين تضرع بهذا الدعاء

«اللّهم إنّى أعوذ بك من وعثاء[۵۱۳] السفر وكآبة[۵۱۴] المنقلب ۵۱۵] وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد»

فالواقع أنّ ما يشغل ذهن المسافر من جراء السفر أوجزه الإمام عليه السلام فى ثلاث؛ الأول (وعثاء السفر) والثانى كيفية العودة (وكآبة المنقلب» والثالث القلق على الأهل (سوء المنظر فى الأهل والولد). ويستعيذ الإمام عليه السلام باللّه من هذه الامور المقلقة ويسأله تذليلها، ثم قال عليه السلام:

«اللّهم أنت الصاحب فى السفر وأنت الخليفة فى الاهل، ولا يجمعها غيرك»

نعم الذات الإلهية فقط المنزهة عن الزمان والمكان، فهى محيطة بجميع الأمكنة والأزمنة، فليس هنالك من مكان أقرب إليها من آخر، ومن هنا فان اللّه معنا فى السفر ومع

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۲۸

أهلنا وولدنا فى الحضر، وما أروع أن نودع زمام أمور حياتنا إلى من يحيط بكل شى ولا يحيط به شى. ثم يقدم الدليل على ما قال:

«لأنّ المستخلف لايكون مستصحباً، والمستصحب لا يكون مستخلفاً»

فالمكان يسود ويحكم جميع الكائنات المادية، ومن هنا فان وجودها فى مكان يعنى خلو الاخر منها، وما ذلك إلّالوجودها المحدود، وليس هنالك من وجود لا محدود سوى اللّه سبحانه الذى لا يعرف المكان ولا الزمان ولا البعد ولا القرب، وهو كما قال: «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنْتُمْ»[۵۱۶] وقال: «فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ»[۵۱۷].

قال السيد الرضى (ره) آخر الكلام: وابتداء هذا الكلام مروى عن رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله، وقد قفاه أميرالمؤمنين على عليه السلام بأبلغ كلام وتممه بأحسن تمام من قوله

«لا يجمعهما غيرك»

إلى آخر الفصل.

فلسفة الدعاء

من يتصفح المصادر الإسلامية يدرك أنّ للدعاء مكانة خاصة فى التعاليم الإسلامية، حتى عد الدعاء مخ العبادة. فقد جاء فى الحديث النبوى الشريف

«أفزعوا إلى اللّه عزّوجلّ فى حوائجكم، والجاؤوا إليه فى ملماتكم، وتضرعاً إليه، فانّ الدعاء مخ العبادة»[۵۱۸].

بينما وصفه حديث آخر بسلاح المؤمن، فقال رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله:

«الدعاء سلاح المؤمن، وعمود الدين، ونور السموات والأرض»[۵۱۹]

، وقال أميرالمؤمنين على عليه السلام:

«الدعاء مفاتيح النجاح، ومقاليد الفلاح»[۵۲۰]

والدعاء على درجة من الأهمية بحيث قال القرآن الكريم: «قُلْ ما يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلا دُعاؤُكُمْ»[۵۲۱]. مع ذلك هنا لك من إستشكل على الدعاء ولا سيما اولئك الذين غفلوا عن فلسفته:

۱- فهم يقولون أحياناً: لا ينسجم الدعاء وروح الرضا والتسليم لإرادة اللّه، فالذى يجب

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۲۹

علينا هو التسليم لإرادة اللّه والرضى بما يرتضى!

۲- إن الدعاء يعدّ إحد العوامل المخدرة للإنسان فيصده عن السعى والعمل والنشاط، حيث ينصرف الإنسان عن هذه الامور ويلوذ بالدعاء لتأمين حاجياته.

۳- ناهيك عن كل ما تقدم، كيف يسعنا تغيير المقدرات الإلهية بواسطة الدعاء، فلو قدر اللَّه أمراً، فانّ ذلك الأمر سوف لن يغيره دعاؤنا، وبعبارة اخرى فانّ الدعاء نوع من أنواع الفضول والتطفل على أفعال اللَّه، فاللَّه لا يفعل إلّاما فيه المصلحة ولا داعى للدعاء.

ولكن لا ترى هذا الكلام سليم إذا ما وقفنا على فلسفة الدعاء ومفهومه الواقعى. فالمفهوم الواقعى للدعاء هو أننا نعمل ما فى وسعنا ونجهد أنفسنا وما فاق ذلك نوكله إلى اللَّه ولطفه، ونتضرع إليه بالدعاء لحل المشاكل، وعلى ضوء «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ»[۵۲۲] نطرق بابه ونسأله بعد أن سعينا سعياً ولم يبق إلّاتوفيقه. ومن هنا صرحت بعض الروايات الإسلامية بعدم إستجابة دعاء من قصر فى العلم وخلد إلى الكسل والراحة. فاللَّه لا يستجيب دعاء من سأله الرزق وهو جالس فى بيته دون أن يسعى ويعمل، كما لا يستجاب دعاء من أقرض مالًا ولم يكتبه ثم أنكر عليه المدين ولم يعطه ماله! والخلاصة فانّ الكسل والتقاعس لا ينسجم واستجابة الدعاء. وعلى ضوء ما تقدم فانّ الدعاء لا يعتبر عاملًا مخدراً، بقد رما بعد عاملًا محركاً. أمّا ما يقال من أن الدعاء لا يغير التقدير، فجواب ذلك واضح، وهو أنّ الدعاء سبب زيادة استحقاق الإنسان لأنّه يتجه إلى اللَّه وينور قلبه بمعرفة اللَّه يتوب إليه من ذنوبه؛ لأنّ التوبة من شروط قبول الدعاء، وبذلك يتأهب أكثر لتلقى الفيض الإلهى والعناية الربانية، لأنّ اللَّه قدر المزيد من لطفه وفضله لمن كان أكثر إستعداداً وجدارة، بعبارة أخرى فانّ للَّه نعم وخيرات وبركات للعباد مشروطة ببعض الشرائط، فى مقدمتها التوجه إليه ودعاؤه والتقرب إليه. وبناءاً على هذا فانّ رحمةاللَّه ولطفه متوقفة على الدعاء. ومن هنا يتضح الجواب على الإشكال الذى يفيد عدم انسجام الدعاء وروح الرضا والتسليم؛ لأنّ الدعاء تأكيد للتسليم والرضا، فالحق سبحانه أراد لعباده أن يعيشوا القرب منه بالدعاء، فاذا عاشوا القرب شملهم اللَّه برحمته وفضله، الأمر الذى أكد الدعاء فى أغلب الآيات والروايات.

وزبدة الكلام فانّ للدعاء أثاره التربوية الجمة على حياة الإنسان، أدناها أنّه يطهر قلبه

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۳۰

وروحه من الأدران ويزيل عنه صدأ الماديات ويوصله بمصدر الخير والاحسان والعطاء، كما يشكل السبيل للاستزادة من فضل اللَّه ولطفه. ومن هنا فانّ أولياءاللَّه لا يستغنون فى قضاء حوائجهم عن الدعاء، وبالدعاء يشعر العبد بالقوة، كما يشعر بالسكينة إثر التوكل على اللَّه فيهب لمواجهة المشاكل وقلبه مفعم بالأمل فى التغلب عليها، ولا غرو فهو يعلم بأنّها مذللة لإرادة اللَّه تابعة لمشيئة وقدرته. كما تتأتى الحاجة إلى للدعاء فى الأسفار المخيفة المحفوفة بالمخاطر، أمّا دعاء الإمام عليه السلام حين عزمه على السير إلى صفين فقد إقتدى به بالنبى صلى الله عليه و آله ومن سبقه من الأنبياء العظام. فقد كلف نوح عليه السلام بالتضرع إلى اللَّه حين ركب السفينة فى ذلك الطوفان الهائل لينجيه اللَّه من تلك المخاطر «فَإِذا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجّانا مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ* وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِى مُنْزَلًا مُبارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ»[۵۲۳] كما دعا موسى عليه السلام لما فرّ من أزلام فرعون حين خرج من مصر متوجهاً إلى مدين «وَلَمّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّى أَنْ يَهْدِيَنِى سَواءَ السَّبِيلِ»[۵۲۴]. وقال حين لقى لبنات شعيب «رَبِّ إِنِّى لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ»[۵۲۵]. النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حين هاجر من مكة إلى المدينة فى ظل تلك الأخطار، كان يشعر بالتذمر لمفارقة مكة وبيت اللَّه، وكان يتمنى الرجوع اليها فاتته البشارة «إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ»[۵۲۶] وكأنّ النبى صلى الله عليه و آله دعا اللَّه أو كان يعيش حالة الدعاء فاستجيب له. ومن هنا حثت الروايات على الدعاء فى السفر.[۵۲۷] وتختتم البحث بما ورد عن على عليه السلام حين إنطلق من الكوفة إلى الشام، حيث وضع رجله على الركاب فقال: بسم اللَّه الرحمن الرحيم، فلما استوى على دابته قال:

«سُبْحانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنّا لَهُ مُقْرِنِينَ* وَ إِنّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ»[۵۲۸]

ثم دعا بهذا الدعاء الذى فرغنا من شرحه.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۳۱

الخطبة[۵۲۹] السابعة و الاربعون

اشارة

من كلام له عليه السلام

فى ذكر الكوفة

نظرة إلى الخطبة

كلام الإمام عليه السلام يمثل نبوئتين بشأن الكوفة، أو الكوفة والبصرة: الاولى الحوادث المريرة التى تعصف بالكوفة وأهلها من قبل الطواغيت الظلمة، والثانية العاقبة السيئة لُاولئك الظلمة وعقابهم بما إقترفته أيديهم.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۳۳

«كَأَنِّی بِكِ يَا كُوفَةُ تُمَدِّينَ مَدَّ الْأَدِيمِ الْعُكَاظِیِّ تُعْرَكِينَ بِالنَّوَازِلِ وَتُرْكَبِينَ بِالزَّلَازِلِ وَإِنِّی لَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكِ جَبَّارٌ سُوءاً إِلَّا ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِشَاغِلٍ وَرَمَاهُ بِقَاتِلٍ».

الشرح والتفسير

نبوءة عن مستقبل الكوفة

ذكرنا أنّ الإمام عليه السلام خاطب بهذا الكلام الكوفة (وقيل البصرة والكوفة» فقال

«كأنى بك يا كوفة تمدين مد الأديم ۵۳۰] العكاظى»

«عكاظ»[۵۳۱] اسم سوق قرب مكة (وقال البعض بين مكة والطائف) تجتمع فيه العرب كل عام من مختلف المناطق لمدّة عشرين يوماً كما صرح بذلك البعض، فكانوا يعرضون متاعهم، كما كانوا ينشدون الشعر وتتفاخر كل قبيلة على الاخرى، وبالطبع كان هناك كثيراً من المفاسد؛ الأمر الذى جعل الإسلام يردم ذلك السوق.

أما هل المراد بهذه العبارة الحوادث الأليمة التى ستقع فى الكوفة، أم كبر الكوفة وإتساعها.

فقد صرح أغلب شرّاح نهج‌البلاغة بالتفسير الأول، بينما قال القليل منهم بالتفسير الثانى، ويبدو أنّ التفسير الثانى هو الأنسب، لأنّ دبغ الجلد العكاظى لا يبدو منسجماً وكون العبارة كناية عن الحوادث الأليمة والمأساوية، بينما يمكنه أن يكون كناية عن إزدياد رقعة الكوفة وإتساع مساحتها. جدير بالذكر أنّ الجلد العكاظى واسع وجميل ومن أرغب الجلود لدى العرب، ولعل فى هذا إشارة إلى جمال الكوفة وعمرانها فى الأزمنة القادمة مقارنة بما عليها فى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۳۴

زمان الإمام عليه السلام. وذكر البعض أنّ العبارة إشارة إلى مستقبل الكوفة وتقسيمها إلى أجزاء متعددة، على غرار تقسيم الجلد العكاظى ودبغه وتوسيعه. ثم قال عليه السلام

«تعركين ۵۳۲] بالنوازل ۵۳۳] وتركبين بالزلازل»

وقد ورد مثل هذا المعنى فى الخطبة ۱۰۸ بقوله:

«تعرككم عرك الأديم»

أى يسلط عليكم بنى أمية فيسومونكم سوء العذاب. ونبوءته الثانية التى تمثلت بقوله عليه السلام:

«إنّى لأعلم أنّه ما أراد بك جبار سوءاً إلّاإبتلاه اللّه بشاغل ورماه بقاتل».

ويمكن أن تكون العبارة

«ابتلاه اللّه بشاغل»

إشارة إلى الأمراض العضال والالام التى تشغل الظلمة وتصرفهم عن الناس، كما أنّ «ورماه بقاتل» الحوادث التى تهجم على الإنسان من الخارج فتقتله وتقضى عليه.

والحق أنّ ما تكهن به الإمام عليه السلام بشأن الكوفة قد حدث، حيث إتسعت إتساعاً كبيراً بعد الإمام عليه السلام وكانت على الدوام مركزا للفتن والحوادث المريرة، وقد هب أغلب الجبابرة للسيطرة عليها، إلّاأنّ اللّه كان يبتليهم بأنواع البلاء ويدفع شرهم عنها، ولعل ذلك يعزى لكون الكوفة تشكل مركز استقطاب خلص المؤمنين من الشيعة الأوفياء لعلىبن أبى طالب عليه السلام وإن كان بينهم بعض المنافقين. ومن هنا صرحت بعض الروايات بفضل الكوفة. أمّا من بين الأفراد الذين هموا بالكوفة بعد أميرَالمؤمنين عليه السلام زياد بن أبيه. فقد ورد فى بعض الروايات أنّ زيادا لما حصبه أهل الكوفة، وهو يخطب على المنبر، فقطع أيدى ثمانين منهم، وهم أن يخرب دورهم، ويجمر نخلهم، فجمعهم حتى ملأ بهم المسجد والرحبة، يعرضهم على البراءة من على عليه السلام؛ وعلم أنّهم سيمتنعون فيحتج بذلك على استئصالهم وإخراب بلدهم. فخرج خارج من القصر فقال:

إنصرفوا، فانّ الأمير يقول لكم: إنّى عنكم اليوم مشغول؛ وإذا بالطاعون قد ضربه، فكان يقول: إنّى لأجد فى النصف من جسدى حر النار حتى مات.[۵۳۴]

رأيان فى الكوفة

وردت عدة عبارات فى نهج‌البلاغة بشأن الكوفة وأهلها، ومن ذلك الخطبة المذكورة التى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۳۵

أشارت إلى المكانة المقدسة للكوفة وأنّها ستشهد حوادثاً مريرة وأليمة، وأنّ اللّه حافظها من كل جبار عنيد. بينما وردت بعض الخطب التى تذم الكوفة، ومن ذلك الخطبة ۲۵ حيث خاطب الإمام عليه السلام الكوفة قائلًا

«إنّ لم تكونى إلّاأنت تهب أعاصيرك فقبحك اللّه».

الروايات هى الاخرى صرحت بمدح الكوفة، فقد جاء فى الحديث عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال بشان الكوفة

«هذه مدينتنا ومحلتنا ومقر شيعتنا»[۵۳۵]

، كما جاء فى رواية أنّ الإمام الصادق عليه السلام دعا للكوفة قائلًا:

«اللّهم ارم من رماها وعاد من عاداها»

وللجمع بين الروايات نقول إنّ الكوفة ذاتا مقدسة وأهلها من خلص شيعة أهل البيت عليهم السلام ممن يتحلون بالورع والتقوى، إلّاأنّ أجواء الكوفة تلوثت بفعل سيطرة بنى أمية ودس العيون والجواسيس فيها وأعان الظلمة وتسليط الفساق عليها وايداع بيت المال إلى عبدة الأهواء. فاذا مدحت الكوفة فالمراد اولئك النجباء من الشيعة، وان ذمت فلذلك الفساد الذى طالها من قبل بنى أمية. ونكتفى بهذا القدر على أن نخوض فى جوانب هذا الموضوع فى الابحاث القادمة ذات الصلة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۳۷

الخطبة[۵۳۶] الثامنة و الاربعون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

عند المسير إلى الشام، قيل: إنّه خطب بها وهو بالنخيلة خارجاً من الكوفة إلى صفين.

نظرة إلى الخطبة

تشتمل هذه الخطبة على قسمين: الأول وجريا على عادته فى خطبه عليه السلام فى الحمد والثناء والشكر للنعم الإلهية على العباد، والثانى يطلع الجيش على خطته فيمن بعثهم من المقدمة ويصف لهم المسير ليلتحقوا بهم، وتعئبة عدداً من القبائل التى كانت تسكن أطراف دجله وتسييرهم لمقاتلة العدو، ويبدو أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يذكر اتباعه فى النخيلة الذين لم يكونوا كثيراً بانهم ليسوا وحدهم فى صفين وأنّه سيعبئ من كان فى مسيرهم للقتال ليزدادوا عدداً وعدّةً.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۳۹

القسم الأول: استحقاق اللّه للحمد والثناء

«الْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّما وَقَبَ لَيْلٌ وَغَسَقَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّما لاحَ نَجْمٌ وَخَفَقَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مَفْقُودِ الْإِنْعامِ، وَلا مُكافَإِ الْإِفْضَالِ».

الشرح والتفسير

يعرض الإمام عليه السلام للّه بالحمد والثناء فى القسم الأول هذه الخطبة بعبارات جديدة عظيمة المعانى وقد أشار إلى قضايا جديدة فقال

«الحمدللّه كلما وقب ۵۳۷] ليل وغسق ۵۳۸]، والحمدللّه كلما لاح ۵۳۹] نجم وخفق»[۵۴۰]

فالعبارة تشير إلى نقطتين: الاولى أنّ حمدنا وثنائنا دائمى باقى مادام الليل والنهار متعاقبين دائمين، وهكذا هو مستمر إستمرار طلوع الكواكب وغروبها، النقطة الاخرى هى أنّ ظلمة الليل وطلوع الكواكب وغروبها من النعم الإلهية الكبرى فظلمة الليل تهب الإنسان الهدوء والسكينة بعد تعب النهار وعناء العمل فيه، فطبيعة الليل والظلمة تختزن الراحة والخلود إلى النوم ومن هنا كانت الليالى الظلماء الخالية من المصابيح تعد أفضل الأوقات للنوم؛ الأمر الذى أشارت إليه الآية ۷۲ من سورة القصص «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۴۰

عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ القِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ» وقال «وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»[۵۴۱] وقد ورد هذا المعنى فى عدة آيات قرآنية، كما دلت الأبحاث العلمية على أنّ اليقظة فى الليل والنوم فى النهار يشكل خطراً جدياً على صحة الإنسان، أمّا فائدة طلوع الكواكب وغروبها فليست بخافية على أحد وذلك لمعرفة الأوقات والاهتداء فى البحار والصحارى بواسطة هذه النجوم والكواكب «وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِى ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالبَحْرِ»[۵۴۲] وجاء فى القرآن أيضاً «وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ»[۵۴۳]. أمّا الروايات التى شبهت أهل البيت عليهم السلام بالنجوم فواضح من أنّهم وسيلة الهداية فى الظلمات والمتاهات وعدم الانحراف عن الصراط المستقيم، ولعل إشارة الإمام على عليه السلام إلى ظلمة الليل وطلوع النجوم وغروبها من دون سائر النعم تهدف إلى بيان حقيقة وهى أنّ خروج أهل الشام على الإمام عليه السلام يمثل حلول عصر الظلمة التى لا يمكن النجاة منها إلّابزوغ كوكب الولاية ثم خاض الإمام عليه السلام فى نوع آخر من النعم التى تستلزم الحمد، فقال

«والحمدللّه غير مفقود الانعام، ولا مكافإ الإفضال»[۵۴۴]

فالعبارة الاولى تعنى أنّ النعم الإلهية غير قابلة للاحصاء، أمّا الثانية فهى تشير إلى عجز العباد عن مكافئة هذه النعم وذلك لأنّه أولًا عنى

عمن يكافئ نعمه، وثانياً: أنّ القدرة على شكره وحمده بحد ذاتها نعمة اخرى، لأنّ الشكر نعمة توجب المزيد، فقد ورد فى مناجاة الشاكرين للإمام على بن الحسين عليه السلام:

«فكيف لى بتحصيل الشكر؟ وشكرى إيّاك يفتقر إلى شكر! فكلما قلت لك الحمد، وجب على لذلك أن أقول لك الحمد»[۵۴۵] . ومن هنا فان أعظم شكرنا هو إذعاننا بالعجز عن الشكر. فقد ورد فى حديث عن الصادق عليه السلام أنّ اللّه أوحى إلى موسى عليه السلام ان اشكرنى! فقال عليه السلام كيف أشكرك وشكرى نعمة تحتاج إلى شكر. فجاءه الخطاب الآن أديت شكرى.[۵۴۶]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۴۱

القسم الثانى: تعبئة القوى لمواجهة العدو

اشارة

«أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمَتِى وَأَمَرْتُهُمْ بِلُزُومِ هَذا الْمِلْطاطِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِى وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ النُّطْفَةَ إِلَى شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ مُوَطِّنِينَ أَكْنافَ دِجْلَةَ، فَأُنْهِضَهُمْ مَعَكُمْ إِلَى عَدُوِّكُمْ وَأَجْعَلَهُمْ مِنْ أَمْدادِ الْقُوَّةِ لَكُمْ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى برنامج وخطة حربية فقال

«أما بعد فقد بعثت مقدمتى ۵۴۷] وأمرتهم بلزوم هذا الملطاط[۵۴۸] حتى يأتيهم أمرى»

فنهر الفرات يقع غرب دجلة، فيكون دجلة شرقه، وعليه فان مقدمة جيش الكوفة تتحرك من جانب الفرات إلى الشمال باتجاه الجانب الغربى للفرات، وقد أمر الإمام عليه السلام بمواصلة هذا السير من قبل الجيش، بينما إتجه عليه السلام من الفرات إلى الشرق نحو المدائن لتعبئة أكبر عدد ممكن من الناس، ثم قال عليه السلام

«وقد رأيت أن أقطع هذه النطفة[۵۴۹] إلى شرذمة[۵۵۰] منكم موطنين أكناف ۵۵۱] دجلة، فأنهضهم معكم إلى عدوكم وأجعلهم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۴۲

من أمداد القوة لكم».

وهكذا ورد الإمام عليه السلام شرق العراق والمدائن، وبينما كانت مقدمة جيش الإمام عليه السلام تواصل زحفها فى غرب الفرات، ولما بلغهم قدوم معاوية نحوهم بجيش عظيم، عبروا الفرات واتجهوا إلى الشرق صوب الإمام عليه السلام حذراً من محاصرتهم من قبل العدو ولم يستعدوا بعد لخوض القتال، فاستحسن ذلك منهم الإمام عليه السلام فلما اكتمل الجيش سار به الإمام عليه السلام لمواجهة العدو. جدير بالذكر أنّ مفردة «ملطاط» من مادة ملط أو لط هنا بمعنى شاطئ الفرات- نعم فقد دلهم الإمام عليه السلام المسير ليتقدموا من جانب شاطئ الفرات لأنّ الشام كانت فى جهة الشمال، والفرات ينحدر من الشمال إلى الجنوب، وهكذا لا يكون الجيش فى مشقة من حيث الماء والهواء وظلال الأشجار، ولا يضلون الطريق، إلى جانب سهولة الالتحاق بهم، وعليه فهذا المسير ينطوى على عدّة فوائد والتعبير بالنطفة عن ماء الفرات حسب ما قال السيد الرضى (ره) هو من غريب العبارات وعجيبها، فالمفردة على ضوء ما صرح به جمع من أرباب اللغة تعنى الماء الخالص، وقيل الماء الجارى، وكيفما كان فهى إشارة إلى عذوبة ماء الفرات وخلوه من الاملاح، وإن كان ظاهره قليل الكدورة.

قال السيد الرضى (ره): يعنى عليه السلام بالملطاط هاهنا السمت الذى أمرهم بلزومه، وهو شاطئ الفرات، ويقال ذلك أيضا لشاطئ البحر، وأصله ما استوى من الأرض، ويعنى بالنطفة ماء الفرات، وهو من غريب العبارات وعجيبها.

أخبار على عليه السلام فى جيشه وهو فى طريقه إلى صفين

ذكر بعض شراح نهج البلاغة فى ذيل هذه الخطبة بعض القضايا التأريخية التى نشير إليها هنا:

۱- فى قصر كسرى

سار عليه‌السلام حتى انْتهى إلى المدائن وقصر كسرى وإذ رجل من أصحابه أنشد:

جرت الرياح على محل ديارهم‌فكأنما كانوا على ميعاد!

فقال له عليه‌السلام: ألا قلت:

«كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ* وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ* كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ* فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ»[۵۵۲]

۲- فى الأنبار

مرّ عليه السلام بالأنبار (أحد المدن الغربية فى العراق) فتقدم دهاقنتها إليه فلما استقبلوه، نزلوا عن خيولهم، ثم جاءوا يشتدّون معه، وبين يديه ومعهم براذِين قد أوقفوها فى طريقه، فقال: ما هذه الدّوابّ التى معكم؟ وما أردتم بهذا الذى صنعتم؟ قالوا: أمّا هذا الذى صنعنا فهو خُلُق مِنّا نعظّم به الأمراء؛ وأمّا هذه البراذين فهدّية لك، وقد صنعنا للمسلمين طعاماً، وهيّأنا لدوابّكم عَلفاً كثيراً.

فقال عليه‌السلام: أمّا هذا الذى زعمتم أنّه فيكم خُلُق تعظّمون به الأمراء فو اللّه ما ينفع ذلك الأمراء؛ وإنّكم لتشقّون به على أنفسكم وأبدانكم، فلا تعودوا له. وأمّا دوابّكم هذه؛ فإنْ أحببتم أن آخذَها منكم، وأحسبها لكم من خَراجِكم أخذناها منكم. وأمّا طعامكم الذى صنعتم لنا؛ فإنا نكرهُ أن نأكلَ من أموالكم إلّابثمن.

۳- قرب الدير

علىّ عليه‌السلام فى مسيره إلى الشام؛ حتى إذا كُنا بظهر الكوفة من جانب هذا السّواد، عطش الناس احتاجوا إلى الماء، فانطلق بنا علىّ عليه‌السلام حتى أتى بنا إلى صخرة ضِرْس فى الأرض؛ كأنّها رُبْضَةُ عنز؛ فأمرنا فاقتلعناها، فخرج لنا من تحتها ماء، فشرِب الناس منه، وارتوَوْا. ثم أمرنا فأكفأناها عليه. وسار الناس حتى إذا مضى قليلًا، قال عليه‌السلام: أمِنْكم أحدٌ يعلم مكان هذا الماء الذى شربتم منه؟ قالوا: نعم يا أميرالمؤمنين، قال: فانطِلقوا إليه، فانطلق مِنّا رجالٌ ركباناً ومشاة، فاقتصصنا الطريق إليه؛ حتى انتهينا إلى المكان الذى نرى أنّه فيه، فطلبناه، فلم نقدر على شىء، حتى إذا عِيلَ علينا انطلقنا إلى ديْرٍ قريب مِنّا، فسألناهم:

أين هذا الماء الذى عندكم؟ قالوا: ليس قُرْبَنا ماء، فقلنا: بلى إنّا شربنا منه، قالوا: أنتم شَرِبتم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۴۴

منه! قلنا: نعم، فقال صاحب الدَّيْر: واللّه ما بُنِى هذا الدير إلّابذلك الماء، وما استخرجه إلّانبىّ أو وصىّ نَبىّ.

قال العلامة المجلسى فما كان من الراهب إلا أن أتى الإمام عليه السلام وأعلن إسلامه ولازم الإمام عليه السلام حتى إستشهد ليلة الهرير فصلى الإمام عليه السلام عليه وأنزله القبر وقال: والله إنى لأرى موضعه فى الجنة.

۴- فى الرقة

ثم سار حتى أتى الرَّقّة- وجلّ أهلها عثمانية، فَرّوا من الكوفة إلى معاوية- فأغلقوا أبوابَها دونه، وتحصنّوا، وكان أميرهم سماك بن مخرقة الأسدىّ فى طاعة معاوية، وقد كان فارق علياً عليه السلام فى نحو من مائة رجل من بنى‌أسد، ثم كاتب معاوية، وأقام بالرَّقّة حتى لَحِق به سبعمائة رجل.

قال نصر: فروى حَبّة أن علياً عليه‌السلام لما نزل على الرّقة، نزل بموضع يقال له البَلِيخ على جانب الفرات، فنزل راهب هناك من صَوْمعته، فقال لعلىّ عليه‌السلام: إنّ عندنا كِتاباً توارثناه عن آبائنا، كتبه أصحابُ عيسى بن مريم، أعِرضه عليك؟ قال: نعم، فقرأ الراهب الكتاب:

بسم اللّه الرحمن الرحيم. الذين قضى فيما قضى، وسَطّر فيما كتب: أنه باعثٌ فى الأمّيّين رسولًا منهم؛ يعلّمهم الكتابَ والحكمة،

ويدلّهم على سبيل اللَّه، لا فظّ ولا غليظ؛ ولا صَخّابٌ فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، بل يعفُوا ويصفح، أمّته الحمّادون الذين يحمدون اللَّه على كل نَشر، وفى كل صَعود وهَبوط، تذِلّ ألسنتهم بالتكبير والتهليل، والتسبيح؛ وينصرهُ اللَّه على من ناوأه؛ فإذا توفّاه اللَّه، اختلف أُمتهُ من بعده؛ ثم اجتمعت، فلبث ما شاءاللَّه، ثم اختلفت، فيمرّ رجل من أمته بشاطىء هذا الفُرات، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويقضِى بالحقّ ولا يركُس الحكم، الدنيا أهون عليه من الرّماد فى يوم عصفت به الريح، والموت أهون عليه من شُرب الماء على الضمآن. يخاف اللَّه فى السرّ، وينصح له فى العلانية، لا يخاف فى اللَّه لومةَ لائم؛ فمن أدرك ذلك النبىّ مِنْ أهل هذه البلاد فآمن به كان ثوابه رضوانى والجنّة، ومَنْ أدرك ذلك العبد الصالح فلينصرْه، فإنّ القتل معه شهادة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۴۵

ثم قال له: أنا مصاحبُك، فلا أفارقُك حتى يصيبَنى ما أصابك. فبكى عليه السلام، ثم قال:

الحمدللَّه الذى لم أكُنْ عنده منسيًّا، الحمدللَّه الذى ذكرنى عنده فى كُتُب الأبرار.

فمضى الراهب معه، فكان فيما ذكروا يتغدّى مع أميرالمؤمنين ويتعشّى، حتى أصيب يوم صفين؛ فلما خرج الناس يدفنون قتلاهم قال عليه‌السلام: اطلبوه، فلما وجده صلّى عليه ودفنه. وقال: هذا مِنّا أهلَ البيت، واستغفر له مراراً.[۵۵۳]

نزول علىّ بكربلاء

فلما نزل بكَرْبَلاء صلّى بنا، فلما سلّم رفع إليه من تُربتها فشمّها، ثم قال: واها لك يا تُرْبةُ! لُيحشَرَنّ منك قومٌ يدخلون الجّنة بغير حساب. ثم قال

«هيهنا موضع رحالهم ومناخ ركابهم ثم أومأ بيده إلى مكان آخر وقال: هيهنا مراق دمائهم».

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۴۷

الخطبة[۵۵۴] التاسعة والاربعون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

وفيه جملة من صفات الربوبية والعلم الإلهى

نظرة إلى الخطبة

تدور الخطبة حول صفات الربوبية والعلم الإلهى- كما ورد سابقاً- وتتضمن إشارات عميقة المعانى إلى جوانب من صفات الجلال والجمال وتنزيه الذات الإلهية المقدسة من مزاعم الملحدين والمشبهة التى تشبه اللَّه بالمخلوقات

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۴۹

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى بَطَنَ خَفِيَّاتِ الْأُمُوُرِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلامُ الظُّهُورِ، وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ الْبَصِيرِ فَلا عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ، وَلا قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ، سَبَقَ فِى الْعُلُوِّ فَلا شَىْءَ أَعْلَى مِنْهُ وَقَرُبَ فِى الدُّنُوِّ فَلا شَىْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ فَلا.

اسْتِعْلاؤُهُ باعَدَهُ عَنْ شَىْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلا قُرْبُهُ ساواهُمْ فِى الْمَكانِ بِهِ. لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، وَلَمْ يَحْجُبْها عَنْ واجِبِ مَعْرِفَتِهِ، فَهُوَ الَّذِى تَشْهَدُ لَهُ أَعْلامُ الْوُجُودِ عَلَى إِقْرارِ قَلْبِ ذِى الْجُحُودِ، تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُهُ الْمُشَبِّهُونَ بِهِ وَالْجاحِدُونَ لَهُ عُلُوّاً كَبِيراً!»

الشرح والتفسير

المنزه عن الظن والخيال

ذكرنا سابقاً أن الخطبة واردة فى صفات الجلال والجمال، حيث أشارت إلى عدد من أسماء اللَّه الحسنى بعبارات قصيرة بعيدة المعنى، فقد استهل الخطبة بذكر خمس صفات من صفاته التى توضح كل واحدة منها الاخرى فقال

«الحمدللَّه الذى بطن ۵۵۵] خفيات الامور ودلت عليه أعلام الظهور»

وليس للعين من سبيل إلى رؤيته

«وامتنع على عين البصير»

ومن هنا

«فلا عين من لم يره تنكره ولا قلب من أثبته يبصره»

. وقد أورد شرّاح نهج‌البلاغة عدّة تفسيرات لقوله عليه السلام

«الذى بطن خفيات الامور»

فقال البعض: بطن هنا بمعنى علم، وقيل بطن هنا بمعنى الخفاء؛ أى اللَّه الذى خفيت به الأسرار، إلّاأنّ التفسير الذى ذكرناه أنسب وهو أن

بطن بمعنى الخفاء ومفهوم العبارة أنّ اللَّه مخفى فى الأسرار، وبعبارة أخرى فانّ ذاته أعظم خفاءاً من الخفاء، وزبدة الكلام فان مفهوم العبارة ما أنشده الفيلسوف فى شعره:

وجوده من أظهر الاشياءوكنهه فى غاية الخفاء

أمّا العبارة

«دلت عليه أعلام الظهور»

فتعنى أنّ آياته ظاهرة جلية فى كل مكان، فى السموات والنجوم والمجرات والمنظومات وفى الأرض فى الصحارى والبحارى والجبال والأنهار وعلى جبين كافة الكائنات الحية فى أوراق الأشجار والبراعم والثمار وفى باطن الذرات والجزئيات. وبالطبع كلما تقدم العلم وكشفت الأسرار ازدادت الادلة والآيات على قدرة الذات الإلهية وعلمها المطلق. والعبارة الثالثة

«وامتنع على عين البصير»

تفيد تعذر رؤية جماله سبحانه على أحدّ العيون، وذلك لأنّ المشاهدة الحسية إنّما تختص بالجسم والجسمانيات ذات الجهة والمكان، بينما ذاته المطلقة ليست بجسم ولا جسمانية وليس لها من جهة أو مكان، بل هى مطلقة منزهة عن كل هذه العوارض والنقائص «لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ»[۵۵۶]. ولما سأل موسى عليه السلام من جانب بنى‌إسرائيل ربّه «رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ» الشهود الحسى، خوطب «لَنْ تَرانِى»[۵۵۷] ثم شاهد موسى عليه السلام قبسات من تجليات اللَّه التى دكت الجبل فصعق موسى ومن معه فلما أفاق قال «سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ» والعبارة

«فلا عين من لم يره ...»

نتيجة طبيعة تشير إلى أنّ العاقل لا يسعه إنكار الذات الإلهية المقدسّة بفعل وجود هذه الأدلة والآيات، رغم تعذر المشاهدة الحسية، أما المؤمنون باللَّه فلا ينبغى لهم أن يعتقدوا بمشاهدته حتى قلبياً، وبالطبع يمكن رؤيته قلباً كما ورد عنه عليه السلام

«لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان»[۵۵۸]

، غير أنّ هذه المشاهدة تتعلق بالأسماء والصفات لا مشاهدة كنه الذات، وهنا يصدح حتى أولياءاللَّه فضلًا عن عامة المخلوقات

«ما عرفناك حق معرفتك»

ثم قال عليه السلام:

«سبق فى العلو فلا شىء أعلى منه وقرب فى الدنو فلا شىء أقرب منه»

ثم يخلص على عليه السلام

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۵۱

إلى هذه النتيجة

«فلا استعلاؤه ۵۵۹] باعده عن شيىء من خلقه ولا قربه ساواهم فى المكان به»

لعله يتصور بأنّ هذه الصفات تناقض مع بعضها فكيف يكون الشى بعيداً عالياً وفى نفس الوقت قريباً ملازماً؟ كيف يكون بعيداً فى القرب وقريباً فى البعد؟ نعم إذا كان المقياس هو المخلوقات التى من حولنا فهناك تناقض، غير أنّ الالتفات إلى هذه النقطة يزيل مثل هذا التناقض ويرشد إلى معرفة صفات اللّه، وهى أنّ وجوده سبحانه لامتناهى وغنى ومطلق من جميع الجهات، وهو الوجود الذى لايشوبه أية محدودية من حيث الزمان والمكان والعلم والقدرة، بل هو فوق الزمان والمكان فهو فى كل مكان وكل زمان وفى نفس الوقت ليس له مكان ولا زمان. ومثل هذا الوجود قريب من جميع الأشياء وهو بعيد عنها جميعاً لأنّه لا يشبهها، هو أظهر من كل شى، لأنّ كل شى متقوم بوجوده، وهو ابطن من كل شى لأنّه لا يشبه المخلوقات والكائنات التى نعرفها ونألفها. وبناءا على هذا فالمراد بالعلو فى العبارة المذكورة فوقيته للوجود وعلوه عليه لا- علوه فى المكان، والمراد بالقرب قربه فى الاحاطة الوجودية لا القرب فى المكان. وهنا لابدّ من الاذعان إلى أن فهم وإدراك هذه الصفات ليس سهلًا علينا بفعل تعاملنا مع صفات الممكنات؛ إلّاأنّه يمكن تقريبها إلى الأذهان من خلال التأمل والاستعانة ببعض الأمثلة وإن كانت ناقصة قاصرة. على سبيل المثال للرد على السؤال الذى يقول كيف يكون له وجود فى كل مكان وزمان ولا يحويه مكان وزمان، يمكننا أن نستعين ببعض الأمثلة الناقصة من قبيل بعض المعادلات والقوانين الرياضية، فكلنا نعلم بأنّ (۲+ ۲/ ۴) فهى صادقة فى كل زمان ومكان فى السماء والأرض، وفى نفس الوقت ليس لها من زمان أو مكان. فقوله عليه السلام:

«فلا استعلاؤه باعده عن شى من خلقه ولا قربه ساواهم فى المكان به»

نتيجة واضحة لتلك الحقيقة المذكورة، فقد قال بعض شرّاح نهج‌البلاغة بعد أن إستعانوا بمثال ناقص إلّاأنّه مناسب، فى أنّ أمواج الضوء تنعكس على الزجاج وتنفذ إلى داخله فتضيئها، وهى فى نفس الوقت أقرب إليها من كل شى، وهى ليست مثلها، بل هى وجود لطيف وأعلى وأرفع، ولعل هذا المعنى هو المراد بالآية «اللَّهُ نُورُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ ...»[۵۶۰] ثم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۵۲

أشار عليه السلام إلى صفة اخرى

«لم يطلع العقول على تحديد صفته ولم يحجبها عن واجب معرفته»

فكنه ذاته ليس واضح لأحد ولا- حقيقة صفاته، لأنّ ذاته وصفاته لا- متناهية، فأنى لعقل الإنسان المتناهى والمحدود أن يحيط باللامتناهى واللامحدود مع ذلك فانّ أثاره الوجودية التى تجلت فى كافة الوجودات جعلت الإنسان يلم على سبيل الإجمال بذاته وصفاته وإليك هذا المثال الناقص: كلنا نعلم بوجود الروح، وانّ الزمان حقيقة واقعة، إلّاأنّ إدراك حقيقة الروح وا لزمان ليس بالامر إلهين. وكلنا نعرف الفارق بين الكائن الحى والميت، ولكن ما كنه حقيقة الحياة؟ يبدو فهم ذلك صعباً، بعبارة أخرى لنا علم إجمالى بهذه الامور لاتفصيلى ۵۶۱] ثم قال عليه السلام

«فهو الذى تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب ذى الجحود[۵۶۲]»

الواقع أن جاحدى اللّه إنّما يجحدوه لساناً بينما يقرون به قلباً «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنّى يُؤْفَكُونَ* ... وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا

يَعْقِلُونَ»[۵۶۳]. كيف يمكن إنكار وجود اللّه وكل شى يهتف باسمه ويتقوم بوجوده. ثم إختتم عليه السلام كلامه بالقول «تعالى اللّه عما يقول المشبهون به والجاحدون له علواً كبيراً»

والمشبهة على نوعين: من يشبه اللّه بعباده فيرى له جسماً ويداً ورجلاً والآخر من يشبه الآخرين به فيرى له شريكاً وشبيهاً فيعبده ويسجد له بدلًا من اللّه. وقد ذهب بعض الشرّاح إلى المعنى الأول هو المراد من العبارة، فى حين ذهب البعض الآخر إلى المعنى الثانى، ويبدو المعنى الثانى أصح إستناداً لقوله

«المشبهون به»

وان كانت الطائفتان على خطأ، لأنّه لايشتمل على صفات المخلوقين بحيث تتخلل الحوادث ذاته المقدسة، ولا يمكن لمخلوق أن يشمل مكانه لأنّه لا يتحلى بأى من صفاته.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۵۳

وجوده ظاهر وكنه ذاته خفى

لقد تضمنت الخطبة بعض الاشارات إلى عدّة جوانب فى مجال أسماء اللّه وصفاته: الاولى خفاء وكنه ذات اللّه فى نفس ظهور وجوده فى جميع عالم الوجود بحيث لا يستطيع أحد أن ينكر وجوده، بينما لا يستطيع أيضاً الاحاطة بكنه ذاته المطهرة. وهذا فى الواقع أحد الآثار اللامتناهية لوجوده المطلق، حيث كلما خطونا خطوة نحو معرفة ذاته تقهقرنا خطوات عن درك كنه هذه الذات، وكلما حلقنا فى سماء معرفة صفاته إحترقت أجنحتنا وسقطنا فى عالم الجهل وعلى قول ابن أبى‌الحديد فى شعره:

فيك يا اعجوبة الكون‌غدا الفكر كليلا

أنت حيرت ذوى اللب‌وبلبلت العقولا

كلما قدم فكرى فيك‌شبراً فر ميلا

ناكصاً يخبط فى‌عمياء لا يهدى سبيلا[۵۶۴]

وبالمقابل فانّ آثاره قد تجلت فى كافة دقائق عالم الوجود، بحيث لا يسع من يلمس هذه الآثار أينما حلّ إلّاأنّ يزمزم مع نفسه بدعاء الإمام الحسين عليه السلام فى عرفة

«متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك، أو يكون لغيرك من الوجود ما ليس لك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً وخسرت صفقة عبد لم تجعل لها من حبك نصيباً».

والثانية الحديث عن قرب اللّه وبعده إلى جانب قربه وبعده منا، وأنّه أبعد ما يكون عنا فى غاية قربه، وأقرب ما يكون فى غاية بعده، وهذا الأمر هو الآخر من آثار ذاته المطلقه اللامتناهية، وذلك لأن مثل هذه الذات فى كل مكان ولا يخلو منها مكان، وإلّا كانت محدودة.

والثالثة نفى صفات المخلوقات والشبه عن ذاته المقدسة، وهذا أيضاً من آثار الذات اللامتناهية، لأنّ جميع المخلوقات محدودة ناقصة، وجودها متناهى وصفاتها مشوبة بالنقص والعدم، فاذا شبهناه بأحد مخلوقاته وقلنا بالشريك والشبيه وتصورنا له صفات المخلوقين نكون قد أخرجناه من حالة اللاتناهى وكونه واجب الوجود وجعلناه فى عداد الممكنات المحدودة وسنتعرض إلى هذه الامور فى الخطب القادمة إن شاء اللّه.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۵۵

الخطبة[۵۶۵] الخمسون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

وفيه بيان لما يخرب العالم به من الفتن وبيان هذه الفتن

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة إلى أهم عوامل فساد المجتمعات البشرية ولاسيما الانحراف الذى عصف بالمجتمع الإسلامى بعد رسولاللَّه صلى الله عليه و آله، ثم بين عليه السلام كيف تخلط الشياطين الحق بالباطل وتزينه للإنسان. فلو طرح الحق كما هو لاغلقت طرق نفوذ الشياطين، كما لو عرض الباطل على هيئته لما قبله أحد، ومن هنا فان الشياطين تخلط الحق بالباطل لاغواء الناس وإضلالهم. نعم فهؤلاء يدسّون السم المهلك فى كل طعام لذيذ ليحثوا المغنّلين على تناوله. فهم يخفون الباطل فى الحق دائما ليضلوا الناس عن طريق ذلك.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۵۷

«إِنَّما بَدْءُ وُقُوعِ الْفِتَنِ أَهْواءٌ تُتَّبَعُ وَأَحْكامٌ تُبْتَدَعُ، يُخالَفُ فِيها كِتابُ اللَّهِ، وَيَتَوَلَّى عَلَيْها رِجالٌ رِجالًا عَلَى غَيْرِ دِينِ اللَّهِ، فَلَوْ أَنَّ الْباطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتادِينَ، وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْباطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعانِدِينَ، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذا ضِغْثٌ وَمِنْ هَذا ضِغْثٌ فَيُمْزَجانِ فَهُنالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطانُ عَلَى أَوْلِيائِهِ، وَيَنْجُو «الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنى .

الشرح والتفسير

هناك كلام بين المفسرين والشرّاح بشأن زمان الخطبة والظروف التى رافقتها، فيرى البعض أنّه خطبها بعد ستة أيّام من خلافته، بينما يرى البعض الآخر أنّه خطبها بعد التحكيم، وبالطبع فانّ الخطبة تنسجم والاحتمالين؛ أى أن تكون الخطبة فى بداية الخلافة أو بعد التحكيم. فقد إستهل الإمام عليه السلام الخطبة بالإشارة إلى سبب ظهور الفتن فى المجتمعات الإسلامية التى تشمل ما بعد وفاة رسولاللَّه صلى الله عليه و آله وبعض الحوادث كالجمل وصفين والنهروان فقال:

«إنّما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تبتدع ۵۶۶] يخالف فيها كتاب اللَّه».

نعم أساس الفتن أمرين: اتباع أهواء النفس والاحكام الموضوعة المخالفة لكتاب اللَّه والسنة، فمما لا شك فيه أنّ الفتن ستقبر لو كانت التعاليم الإسلامية والاحكام القرآنية هى السائدة وحفظت هذه القوانين والأحكام ومنعت البدع وابتعد عن الأهواء فى إجراء الأحكام الشرعية؛ وذلك لأنّ هذه القوانين تهدف بسط العدل والقسط وتضمن حقوق الناس وتعين وظائفهم. فالفتنة تفرزها

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۵۸

الأهواء وتحريف القوانين لصالح الأطماح الشخصية وغياب العدل وتضييع الوظائف والاقبال على البدع. فاصحاب الفتن يلجأون تارة إلى التحريف والتفسير الخاطئ لاشباع أهوائهم ورغباتهم، وإذا تطلب الأمر وضع بعض الاحكام الجديدة، أقبلوا على البدع، صحيح أنّ تلك البدع تفرزها الأهواء، إلّاأنّ الأهواء والرغبات الشيطانية قد تتبلور أحياناً كتفسير وإجراء للأحكام الشريعة واخرى كبدع واحكام موضوعة، ومن هنا فصلًا عن بعضها فى كلام الإمام عليه السلام. على سبيل المثال يمكن الاشارة هنا إلى فتنة بنىأمية التى تعد من أكبر الفتن التى شهدها الإسلام فقد إستولى معاوية بواسطة المكر والخداع على الحكومة ثم ابتدع توريثها فى ولده، وادعى أنّ زياد ابن أبى سفيان وأخذ البيعة ليزيد فى حياته، وسن سب أميرَالمؤمنين على عليه السلام من على المنابر ثم اتهمه بقتل عثمان وطالب

بدمه.[۵۶۷] ثم قال عليه السلام

«ويتولى ۵۶۸] عليها رجال رجالًا على غير دين اللَّه»

ثم أشار فى العبارة اللاحقة إلى وسائل هذا العمل، التى استغلت من قبل الجناة والطواغيت طيلة التأريخ حتى أصبحت سنة، وهى أنّهم يمزجون الحق بالباطل من أجل تحقيق أطماعهم وأغراضهم

«فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحق لم يحف على المرتادين ۵۶۹]، ولو أنّ الحق خلص من لبس الباطل إنقطعت عنه السن المعاندين»

فما أروع هذه العبارة، لو خلص الباطل من مزاج الحق لما كان هناك من يتبعه، ولو خلص الحق من لبس الباطل لخرست ألسن المتخرصين، ولذلك فمن البديهى ألا يحل الحق الخالص مشاكل عبدة الأهواء، لأنّ منافعهم كامنة فى الباطل، ولا الباطل الخالص يحقق لهم أغراضهم، لأنّ الناس لا يقفوف إلى جانبهم، وهنا يتجهون صوب خلط الحق بالباطل؛ الأمر الذى يجسد كافة السياسات المخربة فى العالم. ثم قال الإمام عليه السلام بهذا الشأن

«ولكن يؤخذ من هذا ضغث ۵۷۰] و من هذا ضغث فيمز جان فهنالك يستولى الشيطان على أوليائه، وينجو «الَّذِينَ سَبَقَتْ

لَهُمْ مِنّا الحُسْنى . فالعبارة تفيد أنّ خلط الحق والباطل لا يمنع من معرفة الباطل وان تطلب ذلك قدرا من البحث والتحرى والرجوع إلى الآخرين، ومن هنا قال الإمام عليه السلام بأنّ خلط الحق بالباطل لايؤثر فى أولياءاللَّه، بينما يؤثر على أولياء الشيطان فيقودهم إلى الغواية والظلال.

فالواقع هو أنّ مزج الحق بالباطل بمثابة الضوء الأخضر لعبدة الأهواء وذريعة لاتباع الشيطان لخداع أنفسهم فيستدلوا على الآخرين بأنا سلكنا هذا لطريق لأنا إعتمدنا الدليل الفلانى (الذى يمثل الحق الممزوج بالباطل). نعم يمكن أن يقع بعض المستضعفين الفكريين والسذج جهلًا فى حبائل الشيطان، والحال لو كان لهم زعيم ومرشد لما شهدوا مثل هذا المصير وعليه فالامة إزاء مزج الحق بالبطل على ثلاثة طوائف:

الطائفة الاولى «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنّا الحُسْنى [۵۷۱] وبعبارة اخرى المخلصون من اتباع الحق ينجون بلطف اللَّه من هذه الفتنة.

الطائفة الثانية عبدة الأهواء أتباع الحجج والذرائع الذين يقتحمون الباطل بذريعة الحق فيتجهون عن شبه علم إلى حبائل الشيطان.

الطائفة الثالثة السذج من الأفراد الذين يتعذر عليهم تميز الحق من الباطل فى ظل هذا المزج الخطير فيسقطون جهلًا فى مصائد الشيطان، إلّاأن يركنوا إلى زعيم عالم. وقد ورد مثل هذا المعنى فى الخطبة ۳۸ حين عرض الإمام عليه السلام للشبهة وسبيل النجاة منها فقال عليه السلام

«وإنّما سميت الشبهة شبهة لأنّها تشبه الحق، فأما أولياء اللَّه فضياؤهم فيها اليقين، ودليلهم سمت الهدى وأما أعداء اللَّه فدعاؤهم فيها الضلال ...».

تأمّلات

۱- أساس الفتن

إنّ التأريخ الإسلامى ولا سيما إبان القرن الأول والثانى ملى بالفتن الغريبة والأليمة التى كادت تقضى على جهود النبى صلى الله عليه و آله وصحبه الميامين، ولو لا تلك الفتن التى عصفت بالإسلام لما

كنا نعيش مثل هذا العالم، والأنكى من ذلك الفتن التى وقعت بعد خمس وعشرين سنة من رحيل النبى صلى الله عليه و آله حين وصلت الخلافة عام ۳۵ ه فاستهدفت تلك الفتن إعادة الإسلام إلى الجاهلية؛ أمّا السنوات الأخيرة لخلافة عثمان فقد شهدت غياب جميع القيم والمثل الإسلامية، فى حين تجددت سنن الجاهلية وأعرافها المقيتة وانبرت طلائع الشرك والنفاق للتسلم مواقعاً حساسة فى الحكومة؛ الأمر الذى كان يعقد وظيفة الإمام عليه السلام. صحيح أنّ الإمام عليه السلام تمكن بجهاده المرير أن يحيى القيم والمثل الإسلامية، ولكن المؤسف أنّ الفتن لم تسكن حتى أدت فى خاتمة المطاف إلى قتل الإمام عليه السلام فى محرابه من قبل تلك الطغمة الضالة. ثم إتسع حجم هذه الفتن على عهد معاوية ويزيد وسائر الشجرة الأموية الخبيثة، فقد سفكت الدماء، واستفلحت البدع، وسادت الأهواء، لتبلغ ذروتها على عهد بنى العباس حتى مثل الإسلام وجفت عروقه.

فلو نظرنا إلى هذه الفتن لوقفنا على عمق خطبة الإمام عليه السلام التى حصرت أساس الفتن فى أمرين إتباع الهوى والبدع فى دين اللّه؛ الأمران الذان يشاهدان فى كل مكان، فقد تمسكت طائفة من أصحاب الفتن بالأمر الأول بينما لاذت طائفة اخرى بالأمر الثانى. ولا نرى البحث يسع الخوض فى هذه التفاصيل ونوكلها إلى مكان آخر.

۲- السياسات الشيطانية

من عجائب الدهر أنّ مبادئ السياسة الاستبدادية تقريباً متكافئة طيلة التأريخ. فقد إعتمد فرعون قبل ألف سنة- على ضوء المنطق القرآنى- سياسة فرق تسد «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِى الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً»[۵۷۲] وما زال هذا المبدأ باق على قوته فى كافة نقاط العالم الاستكبارى، فالحكومات تلجأ إلى أقذر الوسائل من أجل تفرقة الصفوف. ولما كانت السياسة الشيطانية آخذة فى التعقيد فى عصرنا الراهن أكثر من سائر العصور، فقد تعقد تبعاً لذلك مزج الحق بالباطل، حيث يمزج بعض الساسة الحق بالباطل بالشكل الذى يصعب تمييزه على الناس، وأدنى ذلك خداع الرأى العام ببعض العناوين كحقوق الإنسان والرفق

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۶۱

بالحيوان ويوم العامل وأطباء بلا حدود ومنظمة العفو الدولية وتأسيس المراكز الخيرية وإعانة المحرومين ومنح حق اللجوء السياسى لعدد من النازحين، فهم يتحدثون عنها بالشكل الذى قد يسيل له لعاب حتى بعض اليقظين والواعين. وناهيك عن كل ما سبق فالحكومات الاستكبارية تتشدق بالديمقراطية وضرورة الرجوع إلى آراء الشعب فاذا تمّ ذلك وجرت الامور خلافاً لمصالحها اللامشروعة عمدت إلى الانقلاب أو أثارة الفتن؛ الأمر الذى لمسناه بوضوح فى التجربة الجزائرية، فابقوا على تلك الحكومة التى فشلت فى تلك التجربة لأنّها تضمن مصالحها. بينما تغض النظر عن الحكومات التى تعيش عقلية القرون الوسطى وتمد لها يد العون والمساعدة لأنها تحفظ مصالحها.

نعم هذه هى حقيقة عالم السياسة والتى يتضح منها عمق كلام الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة فى أنّ أصحاب الفتن إنّما يمزجون الحق بالباطل لخداع عوام الناس.

ج‌ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۶۳

الخطبة[۵۷۳] الحادية و الخمسون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

لما غلب أصحاب معاوية أصحابه عليه السلام على شريعة الفرات بصفين ومنعوهم الماء.

نظرة إلى الخطبة

روى إبن أبى الحديد فى إطار شرحه لهذه الخطبة أنّ نصر بن مزاحم قال: كان أبو الأعور السلمى على مقدمة جيش معاوية، وكان قد ناوش مقدمة جيش على عليه السلام وعليها الأشتر النخعى مناوشة ليست بالعظيمة، فانصرف أبو الأعور عن الحرب راجعاً، فسبق إلى الماء فغلب عليه فى الموضع المعروف بقناصرين- موضع فى الشام- إلى جانب صفين، فحال جيشه بين ماء الفرات وأهل العراق. فلما بلغ أمير المؤمنين على عليه السلام الخبر دعا صعصعة بن صوحان فقال: إئت معاوية وقل له: إنا سرنا إليك مسيرنا هذا وأنا كره لقتالكم قبل الإعذار إليكم، وإنّك قدمت خيلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا بالحرب ونحن ممن رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك؛ فحل بين الماء والناس حتى ننظر فيما بيننا وبينكم؛ وفيما قدمنا له وقدمتم له؛ وإن كان أحب إليك أن ندع ما جئنا له، وندع الناس يقتتلون حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا. فمضى صعصعة بالرسالة إلى معاوية، فقال معاوية لأصحابه: ما ترون؟ فأشار عليه بعض أصحابه بمنعهم الماء، غير أنّ عمروبن العاص أشار عليه قائلًا: خل بين القوم وبين

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۶۴

الماء فإنّهم لن يعطشوا وأنت ريان. بينما كان معاوية يرجح الرأى القائل بمنع جيش الإمام على عليه السلام من الماء. فمكث أصحاب الإمام عليه السلام بغير ماء فاغتم عليه السلام فألقى هذه الخطبة التى تفيض عذوبة وفصاحة وبلاغة، شاحذاً همم أصحابه فكشفوا أصحاب معاوية عن الماء.

جدير بالذكر أنّ القسم الأول من هذه الخطبة يشير إلى هذه الحقيقة وهى أنّ الإنسان إذا لم يقدم بكل شجاعة لأخذ حقه لم يكن أمامه سوى الذل والاستسلام للظلم والجور. أمّا القسم الثانى من الخطبة فيصور خداع معاوية ومكره فى تأليب الجهال وزجهم فى المعركة بما يجعلهم يستميتون من أجل الباطل!!

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۶۵

«قَدِ اسْتَطْعَمُوكُمُ الْقِتالَ فَأَقِرُّوا عَلَى مَذَلَّةٍ وَتَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ أَوْ رَوُّوا السُّيُوفَ مِنَ الدِّماءِ تَرْوَوْا مِنَ الْماءِ فالْمَوْتُ فِي حَياتِكُمْ مَقْهُورِينَ وَالْحَياةُ فِي مَوْتِكُمْ قاهِرِينَ. أَلا وَإِنَّ مُعاوِيَةَ قادَ لُمَةً مِنَ الْغُواةِ وَعَمَّسَ عَلَيْهِمُ الْخَبَرَ، حَتَّى جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْراضَ الْمَنِيَّةِ».

الشرح والتفسير

أقبروا هذه الفتنة الخبيثة

أشرنا سابقاً إلى أنّ الإمام على عليه السلام ألقى هذه الخطبة فى ظل تلك الظروف العصيبة التى ألمت بصحبه. وقد إختار الإمام- الذى يمثل مصدر البلاغة والفصاحة- هذه العبارات الحماسية من أجل تحقيق الهدف المنشود والذى جعل أصحابه يهبون مسرعين لطرد عتاة الشام ومردتها عن شريعة الفرات.

نعم ما زالت هذه العبارات- ورغم تقادم الزمان عليها- تقرع أسماع الجميع وتلهمهم الصمود والتصدى للأعداد إذا ما شكلوا خطراً على عزتهم وشرفهم. فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بالقول:

«قد استطعموكم القتال»

. وهى كلمة مجازية تعنى: طلبوا القتال منكم، وهى تستعمل حيث يطلب أحدهم الطعام من آخر، وكأنّ الحرب والقتال طعام يطلبونه من أصحاب الإمام عليه السلام. وما أشبه هذا الكلام بما تتناقله ألسنة عوام الناس فى حياتهم اليومية من قبيل تعبيرهم «هذا الفرد يحكه

جلده» فى إشارة واضحة إلى أنّه يأتى بالأفعال التى ستؤدى إلى ضربه. والحق أنّ هذا أبلغ تعبير أورده الإمام عليه السلام بشأن منع أهل الشام للماء عن أصحابه عليه السلام. ثم يواصل الإمام عليه السلام خطبته بأن ليس أمامكم سوى سبيلين لا ثالث لهما تجاه

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۶۶

خسة هذا العمل الذى ارتكبه أهل الشام؛ فإمّا السلة وإمّا الذلة

«فأقروا على مذلة وتأخير محلة[۵۷۴] أو رووا[۵۷۵] السيوف من الدماء تروووا من الماء».

أجل لم يكن لهم من سبيل ثالث، فلو وهنوا أمام العدو وغلب عليهم العطش بحيث أمات رهطاً من جندهم لكان ذلك وصمة عار فى جبينهم ولفقدوا مكانتهم ومنزلتهم لدى العدو والصديق، إلّاأنّهم حين نهضوا بالأمر وحملوا على العدو قد حظوا بمكانتهم ومنزلتهم لدى العدو والصديق، كما كشفوا عن مروءتهم وعظمة خلقهم حين لبوا طلب مولاهم بالابقاء على شريعة الماء مفتوحة بوجه جيش الشام؛ الأمر الذى جعل جيش معاوية يشعر بخسة عمله، وهذا ما أدى بدوره إلى ارتفاع معنويات أصحاب الإمام على عليه السلام وضعف روحية جيش الشام فى معركة صفين ولا سيما فى أوائل تلك المعركة حين شهدت هذه الواقعة.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى مفهوم كلى ودائمى على أنّه السر فى انتصار وعزة ورفعة كل امّة، فيخاطب جنده قائلًا:

«فالموت فى حياتكم مقهورين والحياة فى موتكم قاهرين».

نعم ليس هناك من قيمة لهذه الحياة المادية فى قاموس الأفراد الصالحين، كما لا يعتبر الموت مناهضاً لهذه القيمة، بل القيمة فى نظر الأحرار إنّما تكمن فى الحياة التى تسودها العزة والكرامة، ولذلك تراهم يؤثرون الموت مع العزة على الحياة مع الذلة، وهذا هو السر فى انتصار الفئة الإسلامية القليلة فى عصر النبى صلى الله عليه و آله- وما تلاه من عصور- على الفئة الضالة الكثيرة العدد والعدة. أجل فالعزة فى المجتمع الإسلامى مقدمة على كل ما سواها؛ ولا يتوانى مثل هذا المجتمع فى التضحية بالغالى والنفيس من أجل تحققها.

وهذا المعنى قد تجلى بأروع صورة فى كلمات شبل على عليه السلام الإمام الحسين عليه السلام فى حادثة كربلاء الدموية، فقد كان عليه السلام لا ينفك ينادى:

«لا واللّه لا أُعطيكم بيدى إعطاء الذليل ولا أُقر لكم إقرار العبيد»[۵۷۶]

. ثم رد على الحر بن يزيد الرياحى- بعد أن جعجع بالحسين عليه السلام فى طريقه إلى كربلاء وسقاهم الحسين عليه السلام بعظمته المعروفة الماء

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۶۷

ورشف خيولهم- حين نصحه بعدم مقاتلة يزيد حفظاً لنفسه قائلًا: أفبالموت تخوفنى. ثم تمثل عليه السلام بالشعر الذى أنشده شاعر الأوس حين حذره ابن عمه من نصرة النبى صلى الله عليه و آله فقال:

سأمضى فما بالموت عار على الفتىاذا مانوى حقاً وجاهد مسلماً

وواسى الرجال الصالحين بنفسهوفارق مثبوراً وباعد مجرماً

فان عشت لم أندم وان مت لم أُلم كفى بك ذلًا أن تعيش وترغما[۵۷۷]

ولا غرو فهذا هو المعنى الذى أكده القرآن الكريم «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلّا إِحْدى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ»[۵۷۸].

ثم يشير أمير المؤمنين عليه السلام فى خطبته إلى مكر معاوية وسذاجة أهل الشام. الذين انطلقت عليه ألاعيب معاوية وحيله فقال عليه السلام:

«ألا وإن معاوية قاد لمة من الغواة وعمس عليهم الخبر، حتى جعلوا نحورهم أغراض المنية»[۵۷۹].

فالإمام عليه السلام يصور فى هذه العبارات حكومة معاوية التى تستند إلى الحيلة والمكر والخداع واستغفال السذج من الناس، إلى جانب تصويره إلى أهل الشام الذين بلغوا حداً من الضلال والغواية ما جعلهم يضحون بأنفسهم باطلًا من أجل تحقيق مآرب معاوية وأهدافه المشؤومة.

ولعل العبارة الوارة فى الخطبة تمثل إجابة على السؤال الذى قد يتبادر إلى أذهان أصحاب الإمام عليه السلام عن علة دفاع أهل الشام عن مطامع معاوية إلى حد الاستماتة. فالإمام عليه السلام يكشف النقاب عن هذه الحقيقة وهى أن مكر معاوية فى تزوير الواقع من جانب وجهل أهل الشام وغفلتهم من جانب آخر قد جعلتهم يظنون بأنّهم يقاتلون فى سبيل اللَّه ونيل الشهادة. نعم لقد كان للدعاية الواسعة والأساليب النفسية التى إعتمدها معاوية وعمرو بن العاص بالغ الأثر فى صفوف أهل الشام إلى درجة أنّ البعض منهم أيقن بأنّ عثمان قد قتل مظلوماً وإن قاتله هو الإمام على عليه السلام.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۶۸

وقد نهض معاوية للطلب بدمه إلى جانب الدفاع عن القرآن والإسلام وخلافة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، وعليه فليس القتل فى هذا السبيل سوى الجنّة والشهادة التى يتعطش إليها كل مسلم غيور!

طبعاً حبل الكذب والخداع مهما طال قصير ولا يمكن للشمس أن تحجبها الغربان وسرعان ما تتضح الحقائق، غير أنّ ذلك لا يكون إلّابعد انجلاء الغبرة وإزهاق الأرواح ولات حين مناص.

تأمّلات

۱- ضرورة العيش فى ظل العزة والكرامة

تتميز المدرسة الإسلامية عن سائر المدارس والمذاهب بمبادئها وركائزها الحيوية الأصيلة، ومنها المبدأ الذى ورد فى الخطبة المذكورة والذى يكمن فى ترجيح الموت الشريف على الحياة الوضيعة، وبعبارة اخرى ففى الوقت الذى تحذر فيه المدرسة الإسلامية عن ممارسة الظلم والجور فانها تؤكد على عدم الركون إلى الظلمة والاستسلام للطواغيت، وقد تجسد هذا المعنى فى رجالات الإسلام الذين استحقوا بحق لقب «أُباة الضيم»[۵۸۰]. والواقع أن القرآن هو الذى أكد هذا المبدأ «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ»[۵۸۱].

وكذلك تظافرت روايات أهل البيت عليهم السلام بهذا الأمر، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ اللَّه تبارك وتعالى فوض إلى المؤمن كل شىء إلا إذلال نفسه»[۵۸۲]. وقال الإمام الحسين عليه السلام:

«موت فى عزّ خير من حياة فى ذلّ»[۵۸۳]

، كما قال عليه السلام:

«ألا وإن الدعى ابن الدعى قد تركنى بين السلة والذلة وهيهات له ذلك، هيهات منّى الذلة أبى اللَّه ذلك ورسوله والمؤمنون وجدود طهرت وحجور طابت أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام»[۵۸۴].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۶۹

وأورد ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة:

«سيد أهل الآباء الذى علّم الناس الحمية والموت تحت ظلال السيوف اختياراً له على الدنية أبو عبداللَّه الحسين بن على بن أبى طالب عليه السلام عرض عليه الأمان وأصحابه فأنف من الذُل».

ثم تطرق إلى كلماته الحماسية فى يوم عاشوراء

«ألا وان الدعى ابن الدعى ...»

وأنّها على غرار ما أورده أمير المؤمنين على عليه السلام فى خطبته المعروفة- ۳۴-

«إنّ امرء يمكن عدوه من نفسه، يعرق لحمه، ويفرى جلده، ويهشتم عظمه، لعظيم عجزه، ضعيف ما ضمت عليه صدره، فأما أنا فدون أن أعطى ذلك ضرب بالمشرفية ...»

قيل لرجل شهد يوم الطف مع عمر بن سعد: ويحك! أقتلتم ذرية رسول اللّه صلى الله عليه و آله؟! فقال: عضضت بالجندل؛ إنّك لو شهدت ما شهدنا لفعلت ما فعلنا، ثارت علينا عصابة أيديها فى مقابض سيوفها كالأسود الضارية تحطم الفرسان يميناً وشمالًا، وتلقى أنفسها على الموت؛ لا- تقبل الأمان، ولا- ترغب فى المال، ولا- يحول حائل بينها وبين الورود على حياض المنية، أو الاستيلاء على الملك؛ فلو كففنا عنها رويداً لأتت على نفوس العسكر بحذافيرها؛ فما كنّا فاعلين لا أم لك ۵۸۵]!

۲- غسل أدمغة المغفلين

النقطة المهمّة الاخرى التى تضمنتها خطبة أمير المؤمنين عليه السلام، أنّ أئمة الباطل قد ينمقون كلامهم بالمكر والخداع بما يجعلهم ينفذون إلى أعماق أفكار السذج من الناس، وكأنّهم يسوقونهم إلى الشهادة، حيث يقبلون على القتال بكل شدة وصرامة، فى حين لا يزيدهم ذلك القتال سوى الطر من الرحمة والتغلغل فى الدرك الأسفل من النار، وهذه طامة كبرى. ولم يكن معاوية يدعا من اولئك الطواغيت الذين ساروا على هذا النهج فى غسل أدمغة أتباعهم وسوقهم للدفاع عن أهدافهم ومآربهم المشؤومة، فقد سبقه وتلاه الكثير من الظلمة الذين اعتمدوا هذا الاسلوب. فعمر بن سعد قائد عسكر يزيد فى كربلاء حين دفع بأهل الكوفة للهجوم على الإمام الحسين عليه السلام نادى بأعلى صوته:

«يا خيل اللّه اركبى، وبالجنّة ابشرى!»[۵۸۶].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۷۰

كما كانت أجهزة الدعاية الفرعونية تصور موسى وهارون عليهما السلام ممن يسعى للسيطرة على مصر وإشاعة الفساد فيها، فى حين تصف فرعون بالمدافع عن هذه الأرض وعزة واستقلال أهلها، فيخاطب الامّة قائلًا:

«إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما»[۵۸۷]

. ومازال هذا هو المنطق الغاشم الذى يمارسه الظلمة على مر العصور والدهور.

۳- المروءة والشهامة

قال نصر- فى كتاب صفين- إنّ عمرو بن العاص قال لمعاوية لما ملك أهل العراق: ما ظنك يا معاوية بالقوم إن منعوك اليوم الماء كما منعتهم أمس؟ أتراك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه؟ ما أغنى عنك أن تكشف لهم السوءة. ويبدو أن عمرو كان بصدد تقريع معاوية ولومه على عدم قبول إقتراح ابن العاص بعدم منع أهل العراق من الماء. فقال معاوية: دع عنك ما مضى، فما ظنك بعلى؟ قال: ظنى أنه لا- يستحل منك ما استحللت منه، وأن الذى جاء له غير الماء. فهو يعلم بخلق على عليه السلام وليس لاغلاق شريعة الفرات من انسجام وذلك الخلق.[۵۸۸]

وهذا هو الخلق الذى ورثه ابنه الحسين عليه السلام الذى سقى الحر بن يزيد الرياحى وجنده الماء فى تلك الصحراء القافرة بينما كان خلق أعدائه أن ذبحوه عطشاناً إلى جانب شط الفرات، وليتهم اكتفوا بذلك فقد منعوا الماء حتى عن رضيعه.

ملكنا فكان العفو مناسجيةفلما ملكتم سال بالدم أبطح

وحسبكم هذا التفاوت بيننا وكل إناء بالذى فيه ينضح

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۷۱

الخطبة[۵۸۹] الثانية و الخمسون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وهى فى التزهيد فى الدنيا وثواب اللّه للزاهد، ونعم اللّه على الخلق

نظرة إلى الخطبة

تشتمل الخطبة فى الواقع على ثلاثة أقسام: القسم الأول فى الزهد وعدم التعلق بالدينا وأنّ نعم الدنيا إلى زوال، وعلى المؤمنين أنّ يستعدوا لسفر الآخرة من خلال العمل الصالح، القسم الثانى ثواب الزهاد والأعمال الصالحة، والقسم الثالث الاقرار بعجز العباد عن إداء حق شكر المنعم، ولا سيما أعظم هذه النعم الإيمان.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۷۳

القسم الأول: الدنيا الغرور

«أَلا وَإِنَّ الدُّنْيا قَدْ تَصَرَّمَتْ، وَآذَنَتْ بِانْقِضاءٍ، وَتَنَكَّرَ مَعْرُوفُها وَأَدْبَرَتْ حَذَّاءَ، فَهِيَ تَحْفِزُ بِالْفَناءِ سُكَّانَها وَتَحْدُو بِالْمَوْتِ جِيرانَها وَقَدْ أَمَرَّ فِيها ما كانَ حُلْواً، وَكَدِرَ مِنْها ما كانَ صَفْواً، فَلَمْ يَبْقَ مِنْها إِلَّا سَمَلَةٌ كَسَمَلَةِ الْإِداوَةِ أَوْ جُرْعَةٌ كَجُرْعَةِ الْمَقْلَةِ، لَوْ تَمَزَّزَها الصَّدْيانُ لَمْ يَنْقَعْ، فَأَزْمِعُوا عِبادَ اللَّهِ الرَّحِيلَ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ الْمَقْدُورِ عَلَى أَهْلِها الزَّوالُ، وَلايَغْلِبَنَّكُمْ فِيها الْأَمَلُ، وَلا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ فِيها الْأَمَدُ».

الشرح والتفسير

لقد تواترت خطبه عليه السلام فى نهج‌البلاغة التى توصى بالزهد فى الدنيا وعدم الاغترار بها والتزود منها إلى الدار الآخرة، إلى جانب التحذير من مخاطرها وأنّها متقلبة سريعة الزوال،

رغم أن الإنسان يطمح بالحياة مادامه فى الدنيا ولابد أن يعيش بعزة ورفعة ويصرّف شؤون حياته المادية دون التبعية للآخرين وأنّ الإنسان لابدّ أن يتأهب فيها إلى السفر الشاق الذى ينتظره، ومن هنا ورد التأكيد فى هذا الخطبة على الزهد فى عشر عبارات رائعة فى الدقة والمعنى، فقال فى العبارة الاولى

«ألا وإن الدنيا قد تصرمت،[۵۹۰] وآذنت ۵۹۱] بانقضاء»

فالعبارة قد تكون إشارة إلى عمر الدنيا الايل للانقطاع والانتهاء، ومن هنا يسمى زماننا آخرالزمان، أو إشارة إلى الحياة الدنيا لكل فرد من الأفراد فى كل عصر وزمان فى أنّه قصير سريع الزوال، والمعنى الاخير أنسب. فمفهوم العبارة هو أنّ عمر الإنسان من القصر فى هذه الحياة الدنيا وكأنّه يخاطب بالاستعداد للرحيل منذ ولادته. فقوله عليه السلام:

«ألا وإن الدنيا قد تصرمت»

يتناول باطن الدنيا، بينما تناول قوله عليه السلام:

«وآذنت بانقضاء»

ظاهرها، وبعبارة أخرى فانّ الدنيا فانية ذاتا،

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۷۴

كما أنّ مختلف ملامحها فى الحياة الإنسانية هى الاخرى قد أخبرت عن هذا الفناء، وبالتالى فلا ينبغى للإنسان أن يغتر بها ويعيش

الخسران.

وهى كما صورها الشاعر:

هى الدنيا تقول بمل فيهاحذار حذار من بطشى وفتكى

فلا يغرنكم حسن إبتسامىفقولى مضحك والفعل مبك

ثم قال عليه السلام:

«وتنكر معروفها وأدبرت حذاء»[۵۹۲]

كيف لا وغضاضة الشباب وطراوة الفتوة ونظارة الوجه آيلة إلى الكهولة والعجز والشحوب، ثم وصف الدنيا عليه السلام بقوله:

«فهى تحفز[۵۹۳] بالفناء سكانها وتحدوا بالموت جيرانها»

فالعبارة تفيد حركة الإنسان نحو أجله ومصيره المحتوم شاء ذلك أم أبى. والحدى الصوت الذى يردد لتعجيل حركة الناقة، فما أروع هذا التعبير الذى يفيد توفر جميع العوامل التى تدعو الإنسان لحث الخطى والسرعة فى الحركة إلى الزوال والفناء. أمّا التعبير بالجيران بعد السكان فكأنّه يفيد أنّ محل سكن الإنسان ليس فى هذا العالم، فهو جاره وليس بصاحبه، أى أنّه مفارقه لامحالة! ثم قال عليه السلام:

«وقد أمر[۵۹۴] منها ما كان حلوا وكدر منها ما كان صفوا».

فَما أسرع نهاية مرحلة الطفولة والشباب الحلوة العذبة لتستبدل بمرارة الشيخوخة والكهولة فيعد الاستقرار إضطراباً والحصة سقماً والراحة تعباً، وقيل فى تفسير هذه العبارة إنّها إشارة إلى اختلاف ظاهر الدنيا وباطنها، فظاهرها حلو وباطنها مرّ، ظاهرها عذب وباطنها علقم، غير أن التمعن فى العبارات السابقة يفيد أنّ التفسير الأول أنسب. ثم يختتم عليه السلام حديثه عن الدنيا بالقول

«فلم يبق منها الاسملة كسملة[۵۹۵] الاداوة[۵۹۶] أو جرعة كجرعة المقلة لو تمززها[۵۹۷] الصديان لم ينقع»

فالعبارة إشارة إلى حياة كل فرد من

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۷۵

الأفراد وانها تقترب بمرور الزمان من نهايتها، وقد كان تعبيره بمنتهى الروعة لتصوير قصر عمر الدنيا وسرعة زوالها، فالسملة تعنى الشى الزهيد الذى لاقيمة له، وتطلق على ما يتبقى من الماء فى الاناء، و

«جرعة المقلة»

تطلق على المسافر الذى يشكو من قلّة الماء فيسعى للحصول على الماء لادخاره، أجل فعمر الدنيا قصير إلى درجة أنّه لا يروى ظمأ من تعلق به، فما أحرى العاقل أن يفيق إلى نفسه وينأى بها بعيداً عن الاغترار به، فينهمك بالآخرة ويسرع فى السير إليها. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى النتيجة الواضحة

«فازمعوا[۵۹۸] عباداللّه الرحيل عن هذه لدار المقدور على أهلها الزوال ولا يغلبنكم فيها الأمل ولا يطولن عليكم فيها الأمد»[۵۹۹]

. إنّ الإنسان راحل عن هذه الدنيا شاء أم أبى، ومراد الإمام عليه السلام إرحلوا بعلم وعبرة واغتنموا الفرصة وسيروا على النهج بالعمل الصالح والخلق الرفيع والمعرفة باللّه لتنالوا سعادة الآخرة والخلود فى نعيمها. فقد نبه عليه السلام إلى الخطرين الكامنين فى الطريق فقال:

«ولا يغلبنكم فيها الأمل ولا يطولن عليكم فيها الأمد»؛

الأمر الذى أرشد القرآن الكريم إليه بقوله: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ»[۶۰۰] ونؤكد مرة اخرى أنّ العبارات لاتفيد ترك الدنيا والرهبانية فيها وعدم الإكتراث إلى الحياة، بل تفيد عدم التعلق بزخا رف الدنيا والاغترار بها، وبعبارة اخرى فالمراد التعامل مع الدنيا

كما هى، لا على أساس الوهم والخيال وما تمليه علينا أهوائنا وشهواتنا.

لا أحد يعتقد بالخلود فى هذه الدنيا، فهى آيلة إلى الزوال والفناء وأنّ الإنسان سيودعها يوماً ليودع خده التراب فى تلك الحفرة، إلّاأنّ زينة الدنيا وزبرجها قد تلقى بحجابها على هذا الواقع بحيث قد ينسى الإنسان الموت بالمرة، أو يتناسى تلك الحقيقة المرة، فينطلق فى نشاطاته

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۷۶

وفعالياته وكأنّه مخلد فى الحياة الدنيا. وقد يطرح هذا الحجاب مؤقتا إذا ما مات أحدهم واشتركنا فى مراسم تشييعه ودفنه لتتضح أمامنا الدنيا على حقيقتها، فاذا عدنا إلى حياتنا نسينا كل شى وعاد ذلك الحجاب، وكأنّ الموت لم يكتب علينا، وبالطبع فانّ هذا الكلام لا يصدق على أولياء اللّه، فهم أرفع من أن تبعدهم هذه الحجب عن حقيقة الحياة والموت، فهم لا يرون الدنيا سوى قنطرة إلى الآخرة. والحق أنّ تحذير الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة من الدنيا لا يعنى أبداً أنّه يحث الناس على مقاطعة الدنيا وتركها، كيف وهو يراها مقدمة للآخرة

«الدنيا مزرعة الآخرة»

. والطريف أنّ بعض الشعراء من أولياء اللّه قد صوروا هذه الحقيقة فى أشعارهم، ولا بأس هنا بالتعرض لهذه القضية.

فقد ورد فى الحديث المعروف: سعى إلى المتوكل بعلى الهادى عليه السلام أنّ فى منزله كتباً وسلاحاً من شيعته من أهل قم، وأنّه عازم على الوثوب بالدولة، فبعث إليه جماعة من الأتراك، فهجموا على داره ليلًا فلم يجدوا فيها شيئاً ووجده فى بيت مغلق عليه، وعليه مدرعة من صوف، وهو جالس على الرمل والحصى هو متوجه إلى اللّه تعالى يتلو آيات من القرآن، فحمل على حاله تلك إلى المتوكل وقالوا له: لم نجد فى بيته شيئاً ووجدناه يقرأ القرآن مستقبل القبلة، وكان المتوكل جالساً فى مجلس الشرب، فدخل عليه والكأس فى يد المتوكل، فلما رآه هابه وعظمه وأجلسه إلى جانبه، وناوله الكأس التى كانت فى يده فقال: واللّه ما يخامر لحمى ودمى قط، فاعفنى فاعفاه، فقال: أنشدنى شعراً، فقال عليه السلام: إنى قليل الرواية للشعر، فقال: لابدّ، فأنشده عليه السلام:

باتوا على قلل الاجبال تحرسهمغلب الرجال فلم تنفعهم القلل

واستنزلوا بعد عزمن معاقلهمواسكنوا حفرا يابئس ما نزلوا

ناداهم صارخ من بعد دفنهمأين الاساور والتيجان والحلل

أين الوجوه التى كانت منعمةمن دونها تضرب الاستار والكلل

فافصح القبر عنهم حين ساءلهمتلك الوجوه عليها الدود يقتتل

قد طالما أكلوا دهراً وقد شربواوأصبحوا اليوم بعد الأكل قد اكلوا[۶۰۱]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۷۷

القسم الثانى: السعى القليل وإن كثر

«فَواللَّهِ لَوْ حَنَنْتُمْ حَنِينَ الْوُلَّهِ الْعِجالِ وَدَعَوْتُمْ بِهَدِيلِ الْحَمامِ وَجَأَرْتُمْ جُؤَارَ مُتَبَتِّلِى الرُّهْبَانِ وَخَرَجْتُمْ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ الْتِماسَ الْقُرْبَةِ إِلَيْهِ فِى ارْتِفاعِ دَرَجَةٍ عِنْدَهُ أَوْ غُفْرانِ سَيِّئَةٍ أَحْصَتْها كُتُبُهُ وَحَفِظَتْها رُسُلُهُ لَكانَ قَلِيلًا فِيما أَرْجُو لَكُمْ مِنْ ثَوابِهِ وَأَخافُ عَلَيْكُمْ مِنْ عِقابِهِ».

الشرح والتفسير

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من تصوير حقيقة الدنيا وسرعة زوالها حتى تطرق إلى الثواب والعقاب فى الآخرة ومصير الإنسان هناك

على أنّها تمثل الهدف لهذه الدنيا. وبعبارة اخرى كان القسم الأول من كلامه مقدمة لهذا القسم الذى يشير فيه إلى الهدف الغائى وهو القرب من اللّه ونيل ثوابه واجتناب عقابه فقال عليه السلام:

«فو اللّه لو حننتم ۶۰۲] حنين الوله ۶۰۳] العجال ۶۰۴] ودعوتم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۷۸

بهديل ۶۰۵] الحمام وجأرتم جؤار[۶۰۶] متبتلى ۶۰۷] الرهبان ۶۰۸] وخرجتم إلى اللّه من الأموال والاولاد إلتماس القربة إليه فى إرتفاع درجة عنده أو غفران سيئة أحصتها كتبه وحفظتها رسله لكان قليلا فيما أرجو لكم من ثوابه وأخاف عليكم من عقابه»

فقد إستعار الإمام عليه السلام ثلاثة تشبيهات للتضرع إلى اللّه واستفراغ الجهد فى الانقطاع إليه، التشبيه الأول: الصوت الذى تخرجه النوق الوالهة الفاقدة لأولادها، وهو الصوت الحزين الذى يرق له القلب حين سماعه، التشبيه الثانى: هديل الحمام حين إجتماعها، والهديل يطلق على فرخ الحمام كما يطلق على صوتها، وتعتقد العرب أنّ الهديل حمامة على عهد نوح عليه السلام بقيت وحدها وماتت عطشاً، ومنذ ذلك اليوم والحمام ينوح عليها، التشبيه الثالث: بكاء الرهبان المنقطعين عن الدينا القابعين فى صومعاتهم، والذين ينوحون عند الطقوس الدينية وقد إشتد نياحهم بفعل إنقطاعهم عن الدنيا. ولم يكتف الإمام عليه السلام بهذا التضرع والنوح والبكاء فقال:

«وخرجتم إلى اللّه من الأموال والاولاد»

أى ولو تركتم أموالكم وأولادكم من أجل القرب إلى اللّه كان قليلًا.

والدليل واضح على ذلك فالدنيا وما فيها لاتعدل جناح بعوضة من الآخرة، وهى ليست سوى قطرة إلى بحر، ومن الطبيعى أنّ الإنسان لايخرج من ماله وولده ما لم يقف على هذا المعنى. وقد وردت هذه المقارنة بين الدنيا والآخرة فى خطبة المتقين بقوله عليه السلام:

نفحات الولاية ؛ ج۲ ؛ ص۳۷۸

«صبروا أياما قصيرة أعقبتهم راحة طويلة»[۶۰۹]

. ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۷۹

القسم الثالث: عظمة وسعة النعم الإلهية

«وَتاللَّهِ لَوِ انْماثَتْ قُلُوبُكُمْ انْمِياثاً، وَسالَتْ عُيُونُكُمْ مِنْ رَغْبَةٍ إِلَيْهِ أَوْ رَهْبَةٍ مِنْهُ دَماً، ثُمَّ عُمِّرْتُمْ فِي الدُّنْيا ما الدُّنْيا باقِيَةٌ، ما جَزَتْ أَعْمالُكُمْ عَنْكُمْ- وَلَوْ لَمْ تُبْقُوا شَيْئاً مِنْ جُهْدِكُمْ- أَنْعَمَهُ عَلَيْكُمُ الْعِظامَ، وَهُداهُ إِيَّاكُمْ لِلْإِيمانِ».

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالحديث عن عظمة النعم الإلهية التى أفاضها اللّه على البشرية لإثارة حس الشكر لديه والتوجه إلى ربّه بما يقوده إلى السمو والرفعة والكمال والقرب من اللّه. فقال عليه السلام:

«وتاللّه لو إنّماثت قلوبكم انمياثاً[۶۱۰]، وسالت عيونكم من رغبة إليه ورهبة منه دماً، ثم عمرتم فى الدنيا، ما الدنيا باقية، ما جزت أعمالكم عنكم- ولو لم تبقوا شيئاً من جهدكم- أنعمه عليكم العظام، وهداه إياكم للايمان»

فقد شرح الإمام عليه السلام بهذه العبارات البليغة أقصى جهود الإنسان كما وكيفا فى طاعة اللّه، فمن ناحية الكيفية أنّه لو ذاب فى طاعة اللّه واصطرخت كافة ذرات جسمه وحلقت روحه فى سماء العبودية، ومن الناحية الكمية لو دام هذا العمل طيلة حياة ابن آدم، فمع ذلك لايسعه أن يؤدى حق شكر النعم الإلهية، بل شكر نعمة واحدة، حيث صرحت بعض الروايات بان ذات الشكر نعمة ينبغى

للإنسان الشكر عليها. وما أروع ما قال الشاعر:

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۸۰

شكر الاله نعمته موجبة لشكرهوكيف شكرى بره وشكره من بره ۶۱۱]

فالواقع أنّ الإمام عليه السلام أشار بتلك العبارة إلى عدم محدودية النعم الإلهية. وهو كالتعبير القرآنى فى الآية ۲۷ من سورة لقمان بشأن علم اللَّه: «وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ». نعم ليس للعبد سوى الاعراب عن ضعفه وعجزه أمام النعم الإلهية. الجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام يؤكد على نعمة الإيمان

«وهداه إيّاكم للإيمان»

من قبيل ذكر الخاص بعد العام. فقد أشار فى العبارة السابقة إلى الأنعم الإلهية ثم خص هنا منها نعمة الإيمان على غرار ما جاء فى القرآن الكريم: «بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ»[۶۱۲]. ولا تتأتى أهمية الإيمان من كونها مفتاح سعادة البشر وجواز سفره إلى الجنّة فحسب، بل لأنّها الدافع لكافة الفضائل والأعمال الصحالة والرادع من الرذائل والأعمال السيئة، فالواقع هى أساس الدين والملفت للنظر فى العبارة أنّه عليه السلام نسب الهداية للَّه، وان حصل عليها الإنسان باختياره وإرادته؛ وذلك لتعذرها على الإنسان بمفرده ما لم تشمله العناية الإلهية ويرشده الأنبياء والأولياء والكتب الإلهية إليها، ومن هنا نسأل اللَّه فى صلواتنا اليومية ليل نهار الهداية.

ويبدو من الأهمية فى نهاية الخطبة الإلتفات إلى هذه النقطة وهى أن القسم الأول لها بعد المقدمة حيث يعد القلوب من خلال تنبيهها إلى تقلب أحوال الدنيا وزوالها، بينما يوجهها فى القسم الثانى والثالث إلى طاعة الله وكسب الفضائل ودفع الرذائل. مع هذا الفارق فى تأكيد القسم الثانى على أهمية القرب من الله ومطلوبية كل سعى وجهد للوصول إلى هذا الهدف، أما القسم الثالث فيرد ساحة القدس الربوبى صاحب الفضل عن طريق مسألة شكر المنعم، فالوجدان هو الذى يشهد بضرورة هذا الشكر.

ج‌ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۸۱

الخطبة[۶۱۳] الثالثة والخمسون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

«فى ذكرى يوم النحر وصفة الاضحية»

«وَمِنْ تَمامِ الْأُضْحِيَّةِ اسْتِشْرافُ أُذُنِها، وَسَلامَةُ عَيْنِها، فَإِذَا سَلِمَتِ الْأُذُنُ وَالْعَيْنُ سَلِمَتِ الْأُضْحِيَّةُ وَتَمَّتْ، وَلَوْ كانَتْ عَضْباءَ الْقَرْنِ تَجُرُّ رِجْلَها إِلَى الْمَنْسَكِ».

الشرح والتفسير

تمام الاضحية

أشار الإمام عليه السلام فى هذا الفصل من الخطبة إلى تفاصيل وجزئيات الاضحية، وقال:

«ومن تمام الاضحية[۶۱۴] استشراف ۶۱۵] أذنها وسلامة عينها، فاذا سلمت الاذان والعين سلمت

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۸۲

الاضحية وتمت»

ثم أضاف عليه السلام:

«ولو كانت عضباء[۶۱۶] القرن تجر رجلها إلى المنسك»

ولا يتنافى هذا الكلام مع ما تعارف بين الفقهاء وما ورد فى سائر روايات المعصومين عليهم السلام من أنّ الاضحية يجب أن تكون سالمة الرأس، لأنّ عضب قرنها الداخلى يضر بسلامتها لا قرنها الخارجى، كما لا يضر العرج البسيط الذى لا يعيقها عن الحركة. وجاء فى بعض النسخ قوله:

«فلا تجزى»

بعد العبارة

«تجر رجلها إلى المنسك»

وعليه يصبح مفهوم العبارة عدم إجزاء الاضحية إن كسر قرنها وكانت تجر رجلها على الأرض ۶۱۷]. قال السيد الرضى (ره) فى ذيل الخطبة:

«والمنسك هاهنا المذبح».

عِلّيّة سلامة الاضحية من النقص والعيب

رغم أنّ الهدف من الضحية هو إستفادة بعض المحتاجين منها كما صرح بذلك القرآن الكريم: «فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا القانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذ لِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»[۶۱۸] ومن المسلم به عدم وجود أى تأثير على هذا المعنى سواء كان قرنها سالماً أم لا، ولكن الاضحية شعيرة إسلامية وعبادة، ولا يليق بالساحة القدسية للربّ سبحانه إختيار الشاة المعيبة والمريضة، ولابدّ من تقديم الخالصة فانّ ذلك نوع من الادب والاحترام؛ الأمر الذى نلمسه بوضوح فى صلاة المرأة بكامل الحجاب، وارتداء الثياب النظيفة حين الصلاة، والتعطر عند العبادة وغسل الميت وتكفينه وتحنيطه وما إلى ذلك من الامور.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۸۳

الخطبة[۶۱۹] الرابعة و الخمسون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وفيها يصف أصحابه بصفين حين طال منعهم له من قتال أهل الشام.

نظرة إلى الخطبة

هناك خلاف بين الشرّاح بشأن زمان الخطبة، فقد ذكر صاحب مصارد نهج‌البلاغة أنّ جماعة سألوا الإمام عليه السلام عن رأيه بمن سبقوه بالخلافة لما غلب عمرو بن العاص على مصر وقتل عامل الإمام عليه السلام عليها محمد بن أبى‌بكر. فأجابهم عليه السلام وهل خمدت فتنة ابن العاص لتسألوا هذا السؤال وقد غلبكم على مصر وقتلوا صحبى، ثم قال: سأكتب كتاباً واجيب على أسئلتكم. بينما ذهب البعض إلى أن بداية الخطبة مرتبط بزمان البيعة وذيلها بواقعة صفين. كما احتمل أن تكون فى البيعة وموقعة الجمل إلّاأنّ كل

هذه الاحتمالات بعيدة، والظاهر أنّ الخطبة واردة بشأن صفين حين هم صحبه بالقتال، ويؤيد ذلك ما أورده المرحوم البحرانى والشارح الخوئى من أنّها ناظرة إلى حال أصحاب الإمام عليه السلام فى صفين حين منعهم من قتال أهل الشام.[۶۲۰] وزبدة الكلام فانّ الإمام عليه السلام قال لما استبطأ اصحابه القتال:

«وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره حتى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۸۴

منعنى النوم، فما وجدتنى يسعنى إلّاقتالهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى الله عليه و آله، فكانت معالجة القتال أهون علىَّ من معالجة العقاب، وموتات الدنيا أهون على من موتات الآخرة».

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۸۵

«فَتَداكُّوا عَلَيَّ تَداكَّ الْإِبِلِ الْهِيمِ يَوْمَ وِرْدِها وَقَدْ أَرْسَلَها راعِيها، وَخُلِعَتْ مَثانِيها؛ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قاتِلِيَّ أَوْ بَعْضُهُمْ قاتِلُ بَعْضٍ لَدَيَّ، وَقَدْ قَلَّبْتُ هَذا الْأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ حَتَّى مَنَعَنِى النَّوْمَ، فَما وَجَدْتُنِى يَسَعُنِى إِلَّا قِتالُهُمْ أَوِ الْجُحُودُ بِما جاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه و آله فَكانَتْ مُعالَجَةُ الْقِتالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعالَجَةِ الْعِقابِ وَمَوْتاتُ الدُّنْيا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوْتاتِ الْآخِرَةِ».

الشرح والتفسير

ليس هنالك سوى القتال

بغض النظر عن كون الخطبة بشأن بيعة الناس للإمام عليه السلام أو المسائل المرتبطة بصفين، فانّه استهلها عليه السلام بعدم انطلاقه نحو الناس بل الناس هم الذين إندفعوا إلىّ:

«فتداكوا[۶۲۱] علىّ تداك الابل إلهيم ۶۲۲] يوم وردها[۶۲۳] وقد أرسلها راعيها، وخلعت مثانيها»[۶۲۴]

. ثم أضاف عليه السلام:

«حتى ظننت أنهم قاتلىّ أو بعضهم قاتل بعض لدى»

تتضمن هذه العبارة عدّة امور:

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۸۶

۱- كيفية هجوم الناس عليه من أجل البيعة أو حين الاصرار على شروع موقعة صفين إنّما تفيد تغير الناس آنذاك، وهنا لابدّ من الالتفات إلى أن معنى المفردة تداكوا هو الضرب وقد أشارت فى العبارة إلى شدة عطش الابل التى تضرب بعضها بعضا لتبلغ أسرع من غيرها الماء، والهيم شدة العطش التى تجعل الإنسان أو الحيوان مضطرباً. فلو تركت هذه الابل العطاش لحالها دون الراعى فما عساها تفعل. أجل هكذا كانت حال الناس فى تلك اللحظات الحساسة حتى كان يخشى عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً. نعم هذا هو حال الناس حين يعشقون شيئاً ويعبرون عنه بعواطفهم، إلّاأنّه من المؤسف أنّ هؤلاء الناس سرعان ما يتخلون عن موقفهم إذا واجهتهم بعض المصاعب.

۲- يمكن أن تكون حالة إندفاعهم نابعة من عدم عمق مشاعرهم وقلّة علمهم ومعرفتهم.

۳- تشتمل هذه العبارات على بعض الكنايات التى تفيد صعوبة السيطرة عليهم حين تأخذهم الحرارة والحماس، كما يصعب إثارتهم حين تلفهم البرودة والانتكاس.

ثم قال عليه السلام:

«وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره حتى منعنى النوم فما وجدتنى يسعنى إلّا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمّد صلى الله عليه و آله فكانت معالجة القتال أهون على من معالجة العقاب وموتات الدنيا أهون على من موتات الآخرة».

فتفيد هذه العبارات:

أولًا: أنّ الإمام عليه السلام لا يرضخ لضغوط الناس، فلا يتخذ القرار حتى يدرس جميع جوانب الموضوع، وهذا ما ينبغى أن تكون عليه سياسة الزعماء الربانيين بعيدة عن العواطف والأحاسيس مستندة إلى مصالح لُامّة الواقعية.

ثانياً: عادة ما يصل الإنسان فى حياته الفردية أو القادة فى حياتهم الاجتماعية إلى مفترق طرق، فلابدّ هنا من الشجاعة والاقدام على إنتخاب الاصلح، فان كان القتال هو الأصلح لا ينبغى للدعة والراحة أن تحول دون خوضه بحجة حفظ دماء المسلمين دون الإكتراث إلى المصالح العليا.

ثالثاً: المهم بالنسبة للإمام عليه السلام رضى اللَّه وإداء التكليف ومن هنا آثر رضى اللَّه سواءاً تضمن رضى الناس أم لا.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۸۷

رابعاً: واضح أنّ قتال الإمام عليه السلام كان قتال الإيمان للكفر والإسلام للجاهلية. بناءاً على ما تقدم فقد كان عليه السلام يرى رضى اللَّه قبل الاستجابة لرغبات الناس، وبالطبع قد يمكن الجمع بين الاثنين إذا كانت رغبات الامّة وتطلعاتها مشروعة تهدف نشر القيم والمبادئ السماوية.

تأمّلان

۱- البيعة الفريدة للإمام عليه السلام

تفيد خطب نهج‌البلاغة الواردة بهذا الشأن، أنّ البيعة كانت من الحوادث العجيبة التى شهدتها خلافة الإمام عليه السلام بحيث خرجت عن المتعارف فى البيعات العادية، وقد بلغ الزحام درجة كان يخشى معها وقوع البعض وانحساره بين تلك الجماعات العظيمة. وهنا يطرح هذا السؤال: ما سبب ذلك الهجوم العظيم على الإمام عليه السلام من أجل البيعة؟ يبدو أنّ غضب الناس بلغ ذروته إبان من سبق الإمام عليه السلام من الخلفاء ولا سيما على عهد الخليفة الثالث الذى شهد غياب العدل وضياع القيم والمثل والتطاول على بيت المال والاساءة إلى الشخصيات الإسلامية وتسليط عصابة من البطانة على رقاب الناس، بحيث لم يكن أمام الناس سوى اللجوء إلى ذلك الفرد العادل الذى من شأنه اعادة الإسلام إلى مسيرته الأصلية. نعم كانوا متعطشين للعدالة، للإسلام الأصيل والمعارف القرآنية الحقة الخالية من الخرافات والأساطير؛ الامور التى جمعت فى أميرَالمؤمنين على عليه السلام، فما حيلة العطشان إذا رأى الماء الزلال سوى الهجوم عليه والتزود منه، فالهجوم المذكور يفيد عظمة مقام الإمام عليه السلام من جانب ومدى إستياء الناس من الاوضاع السابقة من جانب آخر، والأمران يحتاجان إلى ابحاث تأريخية مسهبة.[۶۲۵]

۲- الحرب والسلام، والكفر والإيمان

رأينا فى آخر الخطبة أنّ الإمام عليه السلام وقف أمام سبيلين لا ثالث لهما؛ إما الحرب أو الكفر بما جاء به النبى الأكرم صلى الله عليه و آله. وما ذاك إلّاأنّ الحرب ورغم ما يكتنفها من خراب ودمار وويلات،

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۸۸

غير أنّها قد تكون السبيل الوحيد لمجابهة الظلم والاضطهاد وعدم العدل كما تشكل الوسيلة الناجعة لاستئصال جذور الفساد والانحراف ومن هنا كانت إحدى غايات القتال، كما صرح بذلك القرآن القضاء على الفتنة واخماد نيرانها واعادة الامور إلى مجاريها الطبيعية «وَقاتِلُوهُمْ حَتّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ»[۶۲۶] وقال «فَقاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ»[۶۲۷] وهنا يغلق أولياء اللَّه أبواب الراحة والدعة ويهبوا لخوض القتال وتحمل عنائه وشدائده، ولا عجب فالتضحية بحطام الدنيا لا يؤثر على سعادة الاخرى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۸۹

الخطبة[۶۲۸] الخامسة والخمسون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

وقد استبطأ اصحابه إذنه لهم فى القتال بصفين

نظرة إلى الخطبة

يبدو من تناسب مضمون هذه الخطبة مع الخطبة السابقة أنّها خطبة واحدة، أو خطبتان وردتا فى زمان متقارب قال ابن أبى‌الحديد فى ذيل هذه الخطبة: لما ملك أميرالمؤمنين علىّ عليه‌السلام الماء بصفين ثم سَمَح لأهلِ الشام بالمشاركة فيه والمساهمة، رجاء أن يطفوا إليه، واستمالةً لقلوبهم وإظهارا للعدالة وحسن السيرة فيهم، مكث أياماً لا يُرسِل إلى معاوية، ولا يأتيه مِنْ عند معاويةَ أحدٌ، واستبطأ أهل العراق إذنه لهم فى القتال، وقالوا: يا أميرَالمؤمنين، خَلَّفْنا ذراريّنا ونساءنا بالكوفة، وجئنا إلى أطراف الشام لنتّخذها وطناً، ائذن لنا فى القتال، فإنّ الناس قد قالوا. قال لهم عليه‌السلام: ما قالوا؟ فقال منهم قائل: إنّ الناس يظنون أنّك تكرهُ الحرب كراهيةً للموت، وإنّ من الناس من يظن أنّك فى شكّ مِنْ قتال أهلِ الشام. فقال عليه‌السلام: ومَتَى كنتُ كارها للحرب قطّ! إنّ من العجب حُبِّى لها غلاماً ويَفَعاً، وكراهيتى لها شيخاً بعد نفادِ العمر وقرب الوقت! وأمّا شكّى فى القوم فلو شككت فيهم لشككتُ فى أهل

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۹۰

البصرة، واللَّه لقد ضربتُ هذا الأمر ظهراً وبطناً، فما وجدت يسعُنى إلّاالقتال أو أن أعصىَ اللَّه ورسوله، ولكنى أستأنى بالقوم، عسى أن يهتدوا أو تهتدى منهم طائفة، فإنّ رسول‌اللَّه صلى اللَّه عليه وآله قال لى يوم خيبر:

«لأنّ يهدىَ اللَّه بك رجلًا واحداً خير لك مِمّا طلعت عليه الشمس».

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۹۱

«أَمَّا قَوْلُكُمْ: أَكُلَّ ذَلِكَ كَرَاهِيَةَ الْمَوْتِ؟ فَوَاللَّهِ ما أُبالِى، دَخَلْتُ إِلَى الْمَوْتِ أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَىَّ. وَأَمَّا قَوْلُكُمْ شَكّاً فِى أَهْلِ الشَّامِ! فَوَاللَّهِ ما دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إِلَّا وَأَنا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِى طائِفَةٌ فَتَهْتَدِىَ بِى، وَتَعْشُوَ إِلَى ضَوْئِى، وَذَلِكَ أَحَبُّ إِلَىَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَها عَلَى ضَلالِها وَإِنْ كانَتْ تَبُوءُ بِآثامِها».

الشرح والتفسير

تماسک الإمام علیه السلام حیال القتال

كما ذكرنا فانّ الخطبة جواباً لأصحابه عليه السلام الذين استبطأوا إذنه لهم بالقتال فى صفين، فقد قال عليه السلام

«أمّا قولكم: أكل ۶۲۹] ذلك كراهية الموت؟ فو اللَّه ما أبالى، دخلت إلى الموت أو خرج الموت إلىّ».

نعم إذا كان هنالك هدفا مقدساً كرضى اللَّه فانّ الفرد المؤمن لابدّ أن يسارع إلى الشهادة ولا ينتظرها، فما أسمى أن يهب الإنسان نفسه ويضحى بها من أجل معشوقه ومعبوده.

أضف إلى ذلك فسابقة الإمام عليه السلام فى الغزوات الإسلامية لأشهر من نار على علم وليست بخافية على أحد ولا سيما صولاته فى بدر وأحد والأحزاب وخيبر وحنين وذوده عن رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله واستماتته من أجل نيل الشهادة، فكيف وهذا الحال

يمكن توجيه هذه التهمة الباطلة لهذا الإنسان بتأخير القتال خوف الشهادة. وقد تحدث الإمام عليه السلام عن مثل هذا المعنى فى الخطبة الخامسة والخطبة مئة وثلاث وعشرين حيث قال:

«واللَّه لابن أبى طالب آنس

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۹۲

بالموت من الطفل بثدى أمه»

وقال:

«والذى نفس ابن أبى طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون على من ميتة على الفراش فى غير طاعة اللَّه»

. وتشهد سيرة الإمام عليه السلام أنّه مارس هذا المعنى عملياً فى حياته وما أجهل تلك الجماعة من جيش أهل العراق التى وجهت مثل تلك التهمة للإمام عليه السلام وخشيته من الشهادة فى سبيل اللَّه.

قد يقال أنّ اولئك لم يكونوا أدركوا اولى الغزوات الإسلامية. فنقول فهل يسعهم نسيان موقعة الجمل؟ الموقعة التى كان ينقض فيها الإمام عليه السلام كالليث الضارى على جنود الأعداء فيمزق جموعهم وينزل حمم غضبه على رؤوسهم. بل كيف يمكن إتهامه وهو الذى يمثل الإيمان كله فى مقابل الشرك كله، أوليس هو القائل:

«لقد كنت وما اهدد بالحرب ولا أرهب بالضرب وإنى لعلى يقين من ربّى وغير شبهة من دينى».

وقوله عليه السلام:

«فو اللَّه ما ابالى»

إشارة إلى هذه الحقيقة وهى أنّ الأفراد العاديين ممن لا هدف لهم، هم الذين يخشون الاتجاه نحو الموت، بل ينتظرون قدوم الموت إليهم آخر عمرهم؛ بينما ليس هنالك من فارق بين الخروج إلى الموت أو قدوم الموت حسب الأجل المقدر بالنسبة لأهل الإيمان والورع والتقوى ولعل الموت يمكن تشبيهه هنا بالاسد المفترس، فالفرد العادى لا يتجه إليه أبداً، أما الشجاع فيقدم على مواجتهه دون أن يشعر بخوف أو هلع، فالمؤمن الشجاع حين يرى فى الموت الشهادة فى سبيل اللَّه ونيل رضوانه يستقبله بكل رحابة صدر، فلو قدر لهذا الموت أن يسلبهم ما تبقى من عمرهم، فانّهم سيستبدلون بذلك الخلود والبقاء. ثم تناول الإمام عليه السلام الاحتمال الثانى الذى أوردته تلك الجماعة بشأن تأخير القتال فقال:

«وأمّا قولكم شكاً فى أهل الشام فو اللَّه ما دفعت الحرب يوما إلّاوأنا أطمع أن تلحق بى طائفة فتهتدى بى، وتعشوا[۶۳۰] إلى ضوئى»

ثم برر ذلك بقوله عليه السلام

«وذلك أحب إلى من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء[۶۳۱] بآثامها».

فالإمام عليه السلام يؤكد هنا على أن القتال لا يمثل هدفاً ولا السبيل الأول لحل الخصومات من وجهة نظر أولياء اللَّه، بل هو العلاج الأخير إذا ما عجزت كل السبل والاساليب، فهم يسعون جاهدين للتريث

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۹۳

والاناة أملًا فى رجوع ولو فرد واحد إلى الحق فيزداد أهل الحق ويقل أهل الباطل، بينما ينظر السذج من الناس إلى هذا الأمر بنوع من الشك والريبة، فانّ أولياء اللَّه يفتحون ذراعهم باستقبال النادمين والتابئين وقد أثبت التأريخ- ولا سيما موقعة صفين- صحة حسن ظن الإمام عليه السلام، وذلك لأنّ فئة كبيرة قد فاءت إلى الحق بينما انسحبت طائفة من المعركة وذلك بفضل تريث الإمام عليه السلام واناته فى القتال.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۹۵

الخطبة[۶۳۲] السادسة والخمسون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام
يصف أصحاب رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله وذلك يوم صفين حين أمر الناس بالصلح

نظرة إلى الخطبة

هناك رأيان بشأن زمان الخطبة: فالبعض يعتقد أنّه ورد بشأن فتنة ابن الحضرمى بعد أن استشهد محمد بن أبى‌بكر على يد عمرو بن العاص فقد البصرة من قبل معاوية ليخرجها من حكومة الإمام على عليه السلام حيث استولى عليها بمعونة جماعة من المنافقين. فلما بلغ الإمام عليه السلام ذلك من قبل ابن عباس يعزيه بمحمد بن أبى‌بكر خطب الخطبة، ثم بعث بجارية ابن قلامة السعدى المعروف بشجاعته فحاصر ابن الحضرمى مع سبعين من صحبه وقضى عليهم جمعياً. والرأى الآخر أنّ الإمام عليه السلام خطبها فى صفين، حين اقترح على الإمام عليه السلام الصلح وقد ضغطوا على الإمام عليه السلام لقبوله. على كل حال فان الإمام عليه السلام خطب الناس لا متثال أوامره، ثم تطرق لا خلاص المسلمين فى صدر الإسلام وأنّ سبب النصر يكمن فى الانضباط والتسليم لأوامر النبى صلى الله عليه و آله، فى إشارة إلى النصر سيكون حليفهم لو إستنّوا بهذه السنة وطاعوا الأوامر، والّا ليس إمامهم سوى الفشل والهزيمة إذا عاشوا الفرقة والتشتت وعدم طاعة الاوامر.

ج‌ج
نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۹۷
«وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و آله نَقْتُلُ آباءَنا وَأَبْناءَنا وَإِخْوانَنا وَأَعْمامَنا، ما يَزِيدُنا ذَلِكَ إِلَّا إِيماناً وَتَسْلِيماً وَمُضِيّاً عَلَى اللَّقَمِ وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ الْأَلَمِ وَجِدّاً فِي جِهادِ الْعَدُوِّ؛ وَلَقَدْ كانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالْآخَرُ مِنْ عَدُوِّنا يَتَصاوَلانِ تَصاوُلَ الْفَحْلَيْنِ، يَتَخالَسانِ أَنْفُسَهُما أَيُّهُما يَسْقِي صاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ، فَمَرَّةً لَنا مِنْ عَدُوِّنا وَمَرَّةً لِعَدُوِّنا مِنَّا، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ صِدْقَنا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الْإِسْلامُ مُلْقِياً جِرانَهُ وَمُتَبَوِّئاً أَوْطانَهُ. وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ، مَا قامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ وَلا اخْضَرَّ لِلْإِيمانِ عُودٌ. وَايْمُ اللَّهِ لَتَحْتَلِبُنَّها دَماً، وَلَتُتْبِعُنَّها نَدَماً!»
الشرح والتفسير

الوقوف المشرف إلى جانب رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله

أشار إبن ميثم البحرانى فى شرحه إلى بعض الخطبة الذى لم يرد فى كلام السيد الرضى (ره) والذى له تأثير على فهم مضمون هذه الخطبة، فقال: روى البعض أنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة حين أراد الناس الصلح مع جيش معاوية (بينما كان الإمام عليه السلام مخالف ذلك ولو لا اصرار البعضى منهم لما وافق) فقد إستهل الإمام عليه السلام كلامه قائلًا:
«إن هؤلاء القوم لم يكونوا ليفيئوا إلى الحق ولا ليجيبوا إلى كلمة سواء حتى يرموا بالمناشر تتبعها العساكر، وحتى يرجموا بالكتاب تقفوها الجلائب، وحتى يجر ببلاده الخميس يتلوه الخميس، وحتى تدعق الخيول فى نواحى أراضيهم، وبأعناء مشاربهم ومسارحهم، حتى تشن عليهم الغارات من كل فج عميق، وحتى يلقاهم قوم صدق صبر، ولا يزيدهم هلاك من هلك من
نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۹۸
قتلاهم وموتاهم فى سبيل اللَّه إلا جدا فى طاعة اللَّه وحرصاً على لقاء اللَّه. ولقد كنا مع رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله الفصل»[۶۳۳]
وعليه فانّ مصالحة هؤلاء القوم الجفاة لا تنطوى سوى على الاحباط والفشل، وذلك لأنّهم لايفهون منطق الصلح ولا يمكنهم التعايش

مع الآخرين بسلام ولا يدركون سوى منطق القوة، وهذا ما كشفت عنه أحداث صفين. على كل حال واصل الإمام عليه السلام خطبته ليتحدث عن مقومات النصر وعوامل الفشل والهزيمة فقال عليه السلام:

«ولقد كنّا مع رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله نقتل آباءنا وابناءنا واخوننا واعمامنا»

فى إشارة إلى ضرورة عدم الالتفات إلى قرابة كائن من كان إذا وقف كعقبة أمام المسيرة، الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم: «قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ»[۶۳۴] ثم قال عليه السلام:

«ما يزيدنا ذلك إلا إيمانا وتسليما ومضيا على اللقم»[۶۳۵] وصبرا على مضض ۶۳۶] الالم وجدا على جهاد العدو»

فما أشار إليه الإمام عليه السلام بهذه العبارة إنّما يمثل واقعة تأريخية، فقد مثل أمام المسلمين فى أغلب المعارك ولا سيما معركة بدر قرابتهم وعشيرتهم، فما كان من المسلمين إلّاأن قاتلوهم بكل بسالة دون أن يكترثوا لتلك القرابة رغم احترام العرب المنقطع النظير للروابط القبلية. ثم قال عليه السلام:

«ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان ۶۳۷] تصاول الفحلين يتخالسان ۶۳۸] أنفسهما أيهما يسقى صاحبه كأس المنون، فمرة لنا من عدونا ومرة لعدونا منا»

فى إشارة إلى أنّه ليس من الضرروى أن ينتصر الحق على الباطل فى كافة المعارك وطيلة المجابهة، فقد يتغلب الباطل على الحق أحياناً إلّاأنّ الحق وعلى ضوء الوعد الإلهى منتصر فى خاتمة المطاف- وعليه فلا تتوقعوا عدم بروز المشاكل خلال مجابهة أهل الشام، كما أنّ هذه المشاكل لا ينبغى أن تقود إلى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۹۹

التمرد على أوامر الإمام عليه السلام، ما سيرة النبى صلى الله عليه و آله وصحبه إلّادليل واضح على هذا الأمر، ومن هنا قال عليه السلام:

«فلما رأى اللَّه صدقنا أنزل بعدونا الكبت ۶۳۹] وأنزل علينا النصر، حتى إستقر الإسلام ملقيا جرانه ۶۴۰] ومتوئاً أوطانه»

فالإمام عليه السلام أشار هنا إلى العامل الرئيسى لانتصار المسلمين الأوائل ويلوح إلى عناصر فشل أهل الكوفة، فقد نسب العامل الرئيسى للانتصار إلى صدق النية التى تمثل الدافع الأصلى للصمود والمقاومة أمام العدو والطاعة التامة للزعامة الربانية. ولو تلوثت هذ النية وسيطرت الأنانية على الإنسان، آنذاك ستكون إرادته وقراره مستنداً لاهوائه وطيشه وغروره؛ الأمر الذى يقود إلى الهزيمة والفشل. ومن الطبيعى ألا تشمل عنايات اللَّه وألطافه ونصره مثل هؤلاء الأفراد، ثم خلص الإمام عليه السلام لهذه النتيجة:

«ولعمرى لو كنا نأتى ما أتيتم، ما قام للدين عمود ولا إخضر للايمان عود»

فهل تعلمون من قوم فى أى عصر ومصر إنتصروا يفرقتهم واختلافاتهم، فاذا رجعتم قليلا إلى الوراء لرأيتم أنّ النصر الخاطف الذى حققه رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله خلال تلك المدة القصيرة حتى ترسخت دعائم الدين واتسع نطاق الإسلام ليشع بنوره على ظلمات الشرق والغرب فانّ ذلك كان بفضل الإيمان والطاعة والجهاد، بينما تمارسون الآن عكس ذلك وتحلمون بالنصر. وأخيراً يحذرهم عليه السلام بالقول:

«وأيم اللَّه لتحتلبنها دماً، ولتتبعنها ندماً».

فقد تضمنت العبارات الاخيرة للإمام عليه السلام ثلاثة تشبيهات: الأول: تشبيه الإسلام بالخيمة واعمدته الجهاد. حيث نعلم بأنّ الخيمة موضع الأمن والراحة من الحرارة المحرقة والبرودة القارسة، الإسلام هو الآخر موضع أمن البشرية ووسيلة نجاتها من العواصف القاتلة. الثانى:

تشبيه الإيمان بالشجرة التى إخضرت غصونها بدماء المؤمنين فى صدر الإسلام. والثالث:

تشبيه الحكومة بالناقة التى تحتلب الدم بدلًا من اللبن بسبب تعفن ضرعها أو العبث والإفراط فى إحتلابها، أى أنّها، أعطت نتيجة

معكوسة، فاللبن من أفضل طعام الإنسان ومواده الغذائية، أمّا الدم فهو ليس بغذاء، بل مادة سامة مفسدة. وأخيراً فقد تحققت نبوءات الإمام عليه السلام بشأن تلك الطائفة الطاغية، حيث تسلط عليهم الظلمة الذين ساموهم سوء العذاب.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۰۰

تأمّلان

۱- ثانى فتن البصرة

كانت البصرة أحد المراكز الإسلامية المهمة والبوابة إلى العالم الخارجي ومن هنا كانت السيطرة عليها قضية مهمة. ولذلك كان يسعى معاوية للسيطرة عليها كما ورد فى ورود الخطبة.

ويرى البعض أن الإمام عليه السلام خطبها لإخماد فتنة أخرى فى البصرة. فقد طمع معاوية بالبصرة بعد قتل عامل على عليه السلام فيها محمد بن أبى بكر، فكتب كتابا إلى أنصاره فى البصرة وذكرهم الوقعة التى أهلكتهم وقد إنتخب «ابن الحضرمى» واليا على البصرة فحث الناس للقيام على خليفة عامل الإمام عليه السلام عليها «زياد بن عبيد» فاستجاب له البعض ومنهم الخوارج فسيطروا على أجزاء من البصرة وقتلوا سفير الإمام عليه السلام «أعين بن صبيعه» فلما بلغ ذلك الإمام عليه السلام بعث بجارية بن قدامه إلى البصرة ليقرأ عليهم كتاب الإمام عليه السلام.

سلام عليكم: أمّا بعد فإنّ اللّه حَليم ذو أنَاةٍ، لا يَعْجَلُ بالعقوبة قَبل البيّنة، ولا يأخذ المذنب عند أول وَهْلة، ولكنه يقبل التوبة، ويستديم الأناة، ويرضى بالإنابة؛ ليكون أعظمَ للحجّة، وأبلغ فى المعذرة، وقد كان من شقاق جُلّكم أيّها الناس ما استحققتم أن تعاقَبوا عليه، فعفوت عن مجرمكم، ورفعت السَّيْف عن مُدْبركم، وقبلت من مُقْبلكم، وأخذت بيعتَكم، فإن تَفُوا بيْيعتى، وتقبلُوا نصيحتى، وتستقيموا على طاعتى، أعملْ فيكم بالكتاب والسنة وقَصْد الحق، وأُقِمْ فيكم سبيل الهدى، فواللّه ما أعلم أنّ والياً بعد محمد صلى اللّه عليه وآله أعلمُ بذلك منّى، ولا- أعمل بقولى. أقول قولى هذا صادقاً، غيرَ ذامّ لمن مَضى، ولا- منتقصاً لأعمالهم، وإن خَبَطَتْ بكم الأهواء المُرْدِية، وسَفَهُ الرأى الجائر إلى منابذتى، تريدون خِلافى! فها أنا ذا قَرَّبْتُ جيادى، وَرَحَلْت ركابى، وايمُ اللّه لئن ألجأتمونى إلى المسير إليكم لأُوقِعنّ بكم وَقْعَةً، لا يكون الجمل عندها إلّاكلَعْقَة لاعق، وإنى لظانّ ألّا تجعلوا- إن شاء اللّه- على أنفسكم سبيلًا.

وقد قدمّت هذا الكتاب إليكم حجة عليكم، ولنْ أكتبَ إليكم من بعده كتاباً، إن أنتم استغششتم نصيحتى، ونابذْتُم رسولى، حتى أكونَ أنا الشَّاخص نحوكم، إن شاء اللّه تعالى.

والسلام.

فلما قرأها عليهم تأثروا تأثرا شديدا، بينما واصل البعض منهم عناده، فواجهوا ابن

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۰۱

الحضرمى وهزموه، فلاذ مع سبعين من صحبه بدار ولم يكن أمام جارية من سبيل سوى إحراق الدار فقتلوا فيها جميعا.[۶۴۱]

ج‌ج

قال: وروى كعب‌بن قعين أنّ عليّاً عليه‌السلام كتب مع جارية كتاباً، وقال: اقرأه عَلَى أصحابك، قال: فمضينا معه، فلما دخْلنا البصرة، بدأ بزياد، فرحّب به وأجلَسه إلى جانبه، وناجاه ساعة وساءلَهُ، ثم خرج فكان أفضل ما أوصاه به أنْ قال: احذَرْ على نفسك، واتَّقِ أن تَلْقَى ما لِقَى صاحبُك القادمُ قَبلك.

وخرج جارية من عنده، فقام فى الأزد، فقال: جزاكم اللّه من حَىّ خيراً! ما أعظَم غَناءكم، وأحسنَ بلاءكم، أطوَعكم لأميركم! لقد عرفتم الحقَّ إذ ضَيّعه مَنْ أنكره، ودَعَوْتم إلى الهدى إذ تركه مَنْ لم يعرفه. ثم قرأ عليهم على مَنْ كان معه من شيعة علىّ عليه‌السلام

وغيرهم- كتابَ عليّ عليه‌السلام، فإذا فيه:

من عبداللَّه عليّ أميرالمؤمنين إلى مَنْ قرئ عليه كتابى هذا من ساكِنى البصرة من المؤمنين والمسلمين:

قال: فلما قرئ الكتاب على الناس قام صَبْرة بن شَيْمان، فقال: سمعنا وأطعنا ونحن لمنْ حارب أميرالمؤمنين حَرْب، ولمن سالم سِلْم؛ إن كَفَيْتَ يا جارية قومَك بقومك فذاك، وإن أحببت أنْ ننصرك نصرناك.

وقام وجوه الناس فتكلموا بمثل ذلك ونحوه، فلم يأذن لأحدٍ منهم أن يسير معه، ومضى نحو بنى تميم.

فقام زياد فى الأزد، فقال:

يا معشر الأزْد، إنّ هؤلاء كانوا أمس سِلْماً، فأصبحوا اليوم حرباً، إنكم كنتم حَرْباً فأصبحتم سلماً، وإنى واللَّه ما اخترتكم إلّاعلى التجربة، ولا أقمت فيكم إلّاعلى الأمل، فما رضيتم أن أجرتمونى، حتى نصبتم لى منبراً وسريراً، وجعلتم لى شُرَطاً وأعواناً، منادياً وجمعة،

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۰۲

فما فقدت بحضرتكم شيئاً إلّاهذا الدرهم، لا أجْبيه اليوم، فإن لم أجْبه اليوم أجْبِه غدا إن شاءاللَّه. واعلموا أنّ حربكم اليومَ معاوية أيسر عليكم فى الدنيا والدين من حربكم أمس عليّاً، وقد قدم عليكم جارية بن قدامة، وإنّما أرسله عليّ ليصدَع أمرَ قومه، واللَّه ما هو بالأمير المطاع، ولو أدرك أمله فى قومه لرجع إلى أميرالمؤمنين أو لكان لى تبعاً، وأنتم الهامةُ العظمى، والجزمة الحامية، فقدِّموه إلى قومه، فإ اضطر إلى نصركم فسيروا إليه، إن رأيتم ذلك.

فقام أبو صبرة شَيْمان فقال: يا زياد، إنى واللَّه لو شهدتُ قومى يومَ الجمل، رجوتُ ألّا يقاتلوا علياً، وقد مضى الأمرُ با فيه. وهو يوم بيوم، أمْر بأمر، واللَّهُ إلى الجزاء بالإحسان أسرعُ منه إلى الجزاء بالسيّيء، والتوبة مع الحقّ، والعفْو مع الندم، ولو كانت هذه فتنة لدعونا القوم إلى إبطال الدماء، واستئناف الامور، ولكنها جماعة دماؤها حرام، وجرُوحها قصاص، ونحن معك نحبّ ما أحببتَ.

فعجب زياد من كلامه، وقال: ما أظنُّ فى الناس مثل هذا.

ثم قام صبرة ابنه، فقال: إنا واللَّه ما أصِبْنا بمصيبة فى دين ولا دنيا كما أصِبْنا أمس يوم الجمل، وانا لنرجوا اليوم أن نُمَحّص ذلك بطاعة اللَّه وطاعة أميرالمؤمنين، وأمّا أنْتَ يا زياد، فواللَّه ما أدركت أَملك فينا، ولا أدركْنَا أَملنا فيك دُون رَدّك إلى دارك، ونحن رادّوك إليها غداً إن شاءاللَّه تعالى، فإذا فعلنا فلايكن أحدٌ أَوْلَى بك مِنّا، فإنك إلا تفعل لم تأت ما يشبهك، وإنا واللَّه نخاف من حرب علىّ فى الآخرة، مالا نخاف من حرب معاوية فى الدنيا، فقدّم هواك وأخِّر هوانا، فنحن معك وطوعك.

ثم قام خنقُر الحمانىّ، فقال: أيُّها الأمير، إنّك لو رضيت مِنّا بما ترضى به من غيرنا، لم نرض ذلك لأنفسنا، سِرْبنا إلى القوم إن شئت، وايمُ اللَّه مالقينا قوماً قطّ إلا اكتفينا بعفونا دون جَهْدنا؛ إلّا ما كان أمس.

قال إبراهيم: فأمّا جارية، فإنّه كلم قومه فلم يجيبوه، وخرج إليه منهم أوباشٌ فناوشوه بعد أنْ شتمه أسمعوه، فأرسل إلى زياد والأزْد، يستصرِخهم ويأمرهم أن يسيروا إليه، فسارت الأزْد بزياد، وخرج إليهم ابنُ الحضرمىّ، على خيله عبداللَّه بن خازم السُّلمىّ، فاقتتلوا ساعة، أقبل شريك بن الأعور الحارثىّ- وكان من شيعة علىّ عليه‌السلام، وصديقا لجارية بن

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۰۳

قدامة- فقال: ألا أقاتل معك عدوّك؟ فقال: بلى؛ فما لبثت بنو تميم أنْ هزموهم واضطروهم إلى دار سنبيل السعدى؛ فحصروا ابنَ الحضرمىّ وحدُّوه، فأتى رجل من بنى تميم، ومعه عبداللَّه بن خازم السلمىّ، فجاءت أمى وهى سوداء جشية اسمها عجلى، فنادته، فأشرف عليها، فقالت: يا بُنّى، انزل إلىّ، فأبى فكشفت رأسها وأبدت قِناعها، وسألته النزول فأبى، فقالت:

واللَّه لتنزلنّ أو لأتعرّينّ، وأهوت بيدها إلى ثيابها، فلما رأى ذلك نَزَل، فذهبت به، وأحاط جارية وزياد بالدّار، وقال جارية: علىَّ بالنار، فقالت الأزد: لسنا من الحريق بالنار فى شيء؛ وهم قومُك وأنت أعلم، فحرّق جارية الدَّار عليهم، فهلك ابنُ الحضرمىّ فى

سبعين رجلًا؛ أحدهم عبدالرحمن بن عميربن عثمان القرشى التّيمىّ؛ وسُمِّىَ جارية منذ ذلك اليم محرِّقاً؛ وسارت الأزْد بزياد حتى أوطنوه قصر الإمارة؛ ومعه بيت‌المال، وقالت له: هل بقى علينا مِنْ جوارك شىء؟ قال: لا، قالوا: فبرّئنا منه؟ فقال: نعم؛ فانصرفوا عنه.

وكتب زياد إلى أميرالمؤمنين عليه‌السلام:

أما بعد، فإن جارية بن قدامة العبد الصالح قَدِم من عندك، فناهَضَ جَمْع ابن الحضرمىّ بمن نصره وأعانه من الأزد، ففضّه واضطره إلى دارٍ مِنْ دور البصرة فى عدد كثير من أصحابه، فلم يخرج حتى حكم اللَّه تعالى بينهما، فقتِل ابنُ الحضرمى وأصحابه، منهم من أحرق بالنار؛ ومنهم من أُلْقى عليه جدار؛ ومنهم من هُدِم عليه البيت من أعلاه؛ ومنهم من قُتِل بالسيف، وسلم منهم نفر أنابوا وتابوا، فصفح عنهم، وبعداً لمن عصى وغوى! والسلام على أميرالمؤمنين ورحمة اللَّه وبركاته.

۲- خصائص المسلمين الاوائل

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة إلى خصائص مسلمى صدر الإسلام فى أنّهم كانوا مطيعين لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله ولم يأبهوا بابائهم واخوانهم وابناءهم فى ميادين القتال، فكانوا يصاولونهم ليجرعوهم القتل من أجل تحقيق الاهداف الإسلامية المقدسة. كانوا يتحلون بالاخلاص وصدق النية؛ الأمر الذى جعل اللَّه يؤيدهم بنصره ويفيض عليهم من لطفه وفضله حتى إنتشر الدين واضاء نور الحق واليقين فى أنحاء العالم. والحق لو أنّ المسلمين الأوائل كانوا على

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۰۴

غرار أهل الكوفة لما تنفس الإسلام وتنهنه حتى فى مكة والمدينة، ولو كانت إرادتهم الفردية هى الحاكمة وتمردوا على أوامر قيادتهم الربانية لما اخضر عود شجرة الإسلام ولانهارت أعمدة خيمة الإيمان. وبالطبع فانّ كثيراً من اولئك كانوا ممن أدرك عصر النبى صلى الله عليه و آله أو رأى أصحابه، إلّاأنّ إرادتهم ضعفت ووهنت إثر تلك الأحداث التى أعقبت رحيل رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله، ولا سيما على عهد الخليفة الثالث واقبال الناس على الدنيا والاغترار بزخارفها والخلود إلى الراحة والدعة بعد تنامى الأموال والثروات بفعل الفتوحات الإسلامية، إلى جانب الدعاية الواسعة التى كان يمارسها المنافقون وأعداء الدين.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۰۵

الخطبة[۶۴۲] السابعة والخمسون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

فى صفة رجل مذموم، ثم فى فضله هو عليه السلام

نظرة إلى الخطبة

هناك أبحاث بين شرّاح نهج‌البلاغة بشأن المقصود بكلام الإمام عليه السلام إلّاأن المشهور أنّ المراد به معاوية. فقد ذكر ابن أبى‌الحديد فى شرحه: وكثير من الناس يذهب إلى أنّه عليه السلام عنى زياداً، وكثيراً منهم يقول إنّه عنى الحجاج أو المغيرة، والأشبه عندى أنه عنى معاوية، لأنّه كان موصوفا بالنهم وكثرة الأكل، وكان بطيناً، يقعد بطنه إذا جلس على فخذيه.[۶۴۳]

وروى أبو عثمان الجاحظ فى كتاب السفيانية أنّ أباذر قال لمعاوية: سمعت رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله قال:

«إذا ولى الامّة الاعين الواسع البلعوم الذى يأكل ولا يشبع فلتأخذ الامّة حذرها منه»،

كما أورد عدة روايات من المصادر المعروفة من قبيل تأريخ الطبرى وتأريخ الخطيب وكتاب صفين عن أبى سعيد الخدرى وعبداللَّه‌بن مسعود أنّ رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله قال:

«إذا رأيتم معاوية على منبرى فاقتلوه، أو فاضربوا عنقه»[۶۴۴]

فالعبارات الواردة فى الرواية والتى تشبه

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۰۶

عبارات الخطبة تفيد أنّها بشأن معاوية. والشاهد الآخر موضوع السب الذى ورد أخر الخطبة، حيث نعلم جميعاً بان معاوية كان يحرض الناس على سب أميرالمؤمنين عليه السلام من على المنابر، فهل من داع للتحرى عن فرد آخر وردت بشأنه الخطبة سوى التعصب والعناد؟! على كل حال فانّ الإمام عليه السلام تحدث فى هذه الخطبة عن حاكم نهم أكول مندحق البطن يأمر الناس بسبه والبراءة منه. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى وظيفة الامّة حيال ذلك. وقد أثبت التأريخ صحة نبوءة الإمام عليه السلام التى تحققت فى عهد معاوية. وأخيرا أشار الإمام عليه السلام إلى بعض فضائله فى آخر الخطبة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۰۷

«أَمَّا إِنَّهُ سَيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِى رَجُلٌ رَحْبُ الْبُلْعُومِ، مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ، يَأْكُلُ مَا يَجِدُ وَيَطْلُبُ مَا لا يَجِدُ، فَاقْتُلُوهُ، وَلَنْ تَقْتُلُوهُ أَلا وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِّى وَالْبَرَاءَةِ مِنِّى، فَأَمَّا السَّبُّ فَسُبُّونِى، فَإِنَّهُ لِى زَكَاةٌ، وَلَكُمْ نَجَاةٌ وَأَمَّا الْبَرَاءَةُ فَلا تَتَبَرَّءُوا مِنِّى، فَإِنِّى وُلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَسَبَقْتُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ».

الشرح والتفسير

إحذروا العدو

كما أوردنا سابقا على ضوء الأحاديث والروايات أن الإمام عليه السلام تنبىء بحكومة معاوية وما تفضى إليه هذه الحكومة من مفاسد فقال:

«أما إنّه سيظهر عليكم بعدى رجل رحب، البلعوم ۶۴۵]، مندحق ۶۴۶] البطن، ياكل ما يجد ويطلب ما لايجد».

يمكن أن تكون العبارة إشارة إلى وضعه الظاهرى، حيث تفيد بعض الروايات أنّه كان بهذه الصفات، ومن هنا كان أكول، ويمكن أن تكون كناية عن حالته الروحية والنفسية فى ظل الحكومة، فى أنّه حريص وتوسعى ولا يشبعه شيئا من الحكومة، ولا يبعد أن يكون المراد كلا المعنيين الروحى والجسمى أو الحقيقى والكنائى، وذلك لانه جمع النوعين من هذه الصفات.

ثم قال عليه السلام:

«فاقتلوه ولن تقتلوه»

قطعاً أنّ مخاطب الإمام عليه السلام بهذه العبارة هم أهل العراق، وكان يعلم الإمام عليه السلام بعدم قدرتهم على ذلك بسبب ضعفهم ووهن ارادتهم فى إتخذا القرار، أو أنّهم قد يستطيعون قتله إلّاأنّهم لايمتلكون الشجاعة والإرادة التى ترفعهم إلى ذلك. أمّا لماذا

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۰۸

حكم الإمام عليه السلام بقتله، فأوضح بسبب هو ذلك الفساد الذى أشاعه بين المسلمين ليكون مصداقا بارزاً للمفسد فى الأرض إلى جانب سلبه لأمن البلاد الإسلامية وأخيراً إثارته المعارك التى سفكت فيها دماء المسلمين. وناهيك عما سبق فقد ابتدع تلك البدع العظيمة التى غيرت معالم الدين إضافة إلى أمره بسبب أميرالمؤمنين على عليه السلام الذى قال بحقه رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله

«من سب عليا فقد سبنى»[۶۴۷]

. ثم تنبئ الإمام عليه السلام بهذه المسألة فقال:

«إلّا وإنّه سيأمركم بسبى والبراءة منى»

وهـذا بـدوره يكشف عن مدى الحقد والضـغينة التى كان يكنها معاوية لعلى عليه السـلام رغم علمه بفضائله التى صـرح بها رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله وسمعها القاصى والدانى والتى تثبت بطلان حكومته، ومن هنا سعى جاهداً ليحول دون اطلاع أهل الشام على هذه الاحاديث تمهيدا إلى منعها بالمرة وتحريفها. ثم أصدر أوامره بسب على عليه السـلام من على المنابر وفى خطب صـلاة الجمعة، حتى كـان ينبرى أحـدهم ليقول خير مـا نختتم به خطبتنا سب أبى تراب، وبالطبع فانّ إشاعـة السب تعنى عـدم إمكانيـة التحـدث بالفضائل، وهذه أسوأ بدعة ابتدعها معاوية يتعذر تبريرها على أى متعصب حقود، وما أروع ما قال الشاعر بهذا الشأن:

أعلى المنابر تعلنون بسبه‌وبسيفه نصبت لكم أعوادها[۶۴۸]

الجدير بالذكر أنّ بعض بطانة معاوية أذعن إلى أنّ السب بدعة ظالمة لترسيخ دعائم حكومة معاوية، ومنهم مروان‌بن الحكم، إلّاأنّه لما سئل عن علة السب، أجاب: «إنّه لا يستقيم لنا الأمر ألا بذلك»[۶۴۹]. ثم أوصى الإمام عليه السلام بكيفية التعامل مع هذه البدعة فقال «فامّا السب فسبونى، فانه لى زكاة ولكم نجاة وأما البراءة فلا تتبرأ وامنى، فانى ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة».

ويبـدو من هـذه العبارة أنّ السب أمر واجب الزامى لا إباحى لأنّه يتضـمن حفظ دماء الشـيعة وايصال مبادئ مدرسـة أهل البيت عليهم السـلام. إلّاان هذا الأمر قد يكتسب صـفة الاباحة كما عبر عن ذلك علماء الاصول حيث أمر الوجوب يقتصر على احتمال المنع لتوهم الخطر، ومن هنا فان بعض تلامذه الإمام عليه السلام كرشيد الهجرى وميثم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۰۹

التمار وقنبر وسـعيد بن الجبير الذين صمدوا وأبوا سبوا على حتى قتلوا فأنّهم لم يرتكبو أى خلاف، بل أتوا بعمل عظيم أهلهم للشهادة. ويتضـح ممّـا سـبق بـأنّ المؤمن إذا عرض للاساءة من قبل العـدو أو دفع الناس لانتهاك حرمته فانّ ذلك ليس فقط لا يحط من قـدره فحسب، بـل يزيـده عزة وكرامـة. وهنـا يبرز هـذا السؤال: مـا الفرق بين السب والبراءة بحيث أذن الإمام عليه السـلام بالسـبب ولم يأذن بـالبراءة لثلاث: أولًا: أنّه ولـد على فطرة الإسـلام والإيمان، ثانيا: أنّه كان من السابقين للإسـلام والتصـديق بالنبى صـلى الله عليه و آله، والثـالث: سـبقه إلى الهجرة من مكـة إلى المدينـة؟ فقـد كثر الكلام بين المفسـرين بشأن الفارق بين السب والبراءة، لا يخلو بعضه من التكلف وعـدم الاقنـاع، ويبـدو أنّ الاقـرب فى الفارق بينهما أحـد أمرين: الأول أنّ سب الإنسان قـد يكون إشارة إلى سوءه ولا يعطى مفهوم الكفر والشـرك، أمّـا البراءة فتعنى التبرى من دينه ومعتقـداته كمـا ورد ذلـك فى الآيـة الاولى من سورة التوبـة: «بَرآءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إلى الَّذِينَ عاهَـدْتُمْ مِنَ المُشْـرِكِينَ» وعليه فمفهوم البراءة من الإمـام عليه السـلام هو البراءة من الـدين والإسـلام، ومن هنا منع الإمام عليه السـلام حتى من البراءة منه باللسان، فالواقع أنّ الإمام عليه السـلام أذن بالإساءة إلى شخصه لكنه لم يأذن بالاساءة إلى دينه ولو لفظياً- والآخر أنّ أغلب الناس يتصورون أنّهم إذا إجبروا على كلام لا يمكنهم الاقتناع بالألفاظ ولابـدّ من أن ترافقه النيّة، ومن هنا فمن اجبر على إجراء صـيغة الطلاق فانه لابـدّ أن يقصـد اللفظ والمعنى حين الصـيغة، ان كان طلاق المكره باطلًا إلّاأنّه يتضـمن قصـد الانشاء ولـذلك لايسـتدل الفقهاء على بطلان هـذا الطلاق بعدم قصد المعنى، بل يسـتندون فى بطلانه على الاكراه، ويصدق هذا الأمر على السب، فقصـد السب سيئ، الاـ أنّ قصـد البراءة أسوأ، لأـنّ الأول يهـدف نفى حرمـة الإنسـان، أمّا الثانى فيهـدف البراءة من دينه ومعتقده؛ أى إسـلامه وليس هنالك من مسـلم مستعد لهذا العمل. والدليل على ذلك الامور الثلاث التى ذكرها الإمام عليه السلام فى نهيه عن البراءة:

الأمر الأول:

«فانّى ولدت على الفطرة».

أما كيف عَلّل نهيَه لهم على البراءة منه عليه‌السلام، بقوله:

«فإنّى ولدْت على الفطرة»؛

فإن هذا التعليل لايختص به عليه‌السلام، لأن كلّ أحدٍ يولَد على الفطرة؛ فقد قال النبى صلى اللَّه عليه وآله:

«كلّ مولدٍ يولد على الفطرة؛ وإنّما أبواه يهودّانه وينصرانه».

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۱۰

والجواب، أنّه عليه‌السلام عَلّل نهيه لهم عن البراءة منه بمجموع امور وعلل؛ وهى كونه ولد على الفطرة، وكونه سبق إلى الإيمان والهجرة؛ ولم يعلل بآحاد هذا المجموع، ومراده ها هنا بالولادة على الفطرة أنّه لم يولَدْ فى الجاهلية؛ لأنّه ولد عليه‌السلام لثلاثين عاماً مضت من عام الفيل؛ والنبى صلى اللَّه عليه وآله أرسِل لأربعين سنة مضت من عام الفيل؛ وقد جاء فى الأخبار الصحيحة أنّه صلى اللَّه عليه وآله مكَث قبل الرسالة سنين عشراً يسمع الصوت ويرى الضوء، ولا يخاطبه أحد؛ وكان ذلك إرهاصاً لرسالته عليه‌السلام فحُكْم تلك السنين العَشْر حكم أيّام رسالته صلى اللّه عليه وآله؛ فالمولود فيها إذا كان فى حجره وهو المتولّى لتربيته مولود فى أيام كأيام النبوّة، وليس بمولود فى جاهلية محضة، ففارقت حالُه حال مَنْ يدعى له من الصحابة ممّاثلته فى الفضل. وقد روى أنّ السَّنَة التى ولد فيها علىٌّ عليه‌السلام هى السنة التى بدئ فيها برسالة رسول‌اللَّه صلى اللَّه عليه وآله، فأُسمِع الهُتاف من الأحجار والأشجار، وكشف عن بصره، فشاهد أنواراً وأشخاصاً؛ ولم يخاطَب فيها بشىء. وهذه السَّنَة هى السنة التى ابتدأ فيها بالتبتّل والانقطاع والعزلة فى جبل حراء، فلم يزل به حتى كُوشِف بالرسالة، وأنزل عليه الوحى، وكان رسول‌اللَّه صلى اللَّه عليه وآله يتيمن بتلك السنة وبولادة عَلىّ عليه‌السلام فيها، ويسّميها سنَة الخَير وسنة البركة؛ وقال لأهله ليلة ولادته، وفيها شاهد ما شاهد من الكرامات والقدرة الإلهية، ولم يكن مِنْ قبلها شاهد من ذلك شيئاً:

«لقد وُلد لنا الليلة مولود يَفْتَحُ اللَّه علينا به أبواباً كثيرة من النعمة والرحمة»،

وكان كما قال صلوات اللَّه عليه، فإنّه عليه‌السلام كان ناصره والمحامىَ عنه وكاشف الغّماء عن وجهه؛ وبسيفه ثبتَ دينُ الإسلام، ورست دعائمه، وتمهّدت قواعده عليه‌السلام.

الأمر الثانى

«وسبقت إلى الإيمان»

فقد أجمعت الامّة الإسلامية على أنّ أول من أسلم بعد خديجة الكبرى على بن أبى طالب عليه السلام. وتسالم الفريقان على أنّ على عليه السلام أول من أسلم. وقال ابن أبى الحديد لم يتردد فى ذلك أحد من علماء الإسلام.[۶۵۰]

الأمر الثالث: «والهجرة» كيف قال:

«إنّه سبق إنّى الهجرة»

ومعلوم أنّ جماعة من

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۱۱

المسلمين هاجرو اقبله، منهم عثمان بن مظعون وغيره؛ وقد هاجر أبوبكر قبله، لأنّه هارج فى صحبة النبى صلى اللَّه عليه وآله؛ وتخلف علىّ عليه‌السلام عنهما، فبات على فراش رسول‌اللَّه صلى اللَّه عليه وآله؛ ومكث أيّاماً يردّ الودئع التى كانت عنده، ثم هاجر بعد ذلك؟

والجواب، أنّه عليه‌السلام لم يقل:

«وسبقت كلّ الناس إلى الهجرة»؛

وإنّما قال:

«وسبقت»

فقط؛ ولا يدلّ ذلك على سَبْقه للناس كافة؛ ولا شبهة أنّه سبق معظم المهاجرين إلى الهجرة، ولم يهاجر قبلَه أحد إلّانفر يسير جداً.

وأيضا فقد قلنا إنّه علّل أفضليّته وتحريم البراءة منه مع الإكراه بمجموع أمور: منها ولادته على الفِطْرة، ومنها سبقه إلى الإيمان، ومنها سَبْقة إلى الهجرة؛ وهذه الامور الثّلاثة لم تجتمع لأحد غيره؛ فكان بمجموعها متميّزاً عن كلّ أحد من الناس.

تأمّلات

۱- علة عدم ذكر الإمام عليه السلام للشخص المقصود بالخطبة

أوردنا سابقاً أنّ كافة القرائن تدل على أنّ المراد بالشخص الذى بين الإمام عليه السلام صفاته هو معاوية، وذلك لانطباق كافة الاوصاف عليه إلى جانب كونه هو الذى سن سبّ الإمام عليه السلام ولم يبتدع هذاالأمر أحد غيره، ولعل عدم التصريح به يستند إلى رعاية متانة البيان، أو إثارة حس الاطلاع لدى الامّة لتقف بصورة أعمق على هذا المطلب ولا سيما بالاستناد إلى هذه الصفات، أضف إلى ذلك فانّ الخطبة حيث تضمنت بعض النبوءات الصريحة فانّ الإمام عليه السلام لم يشئ الافصاح أكثر عن هذه الموضوع.

۲- لماذا حكم الإمام عليه السلام بهدر دم معاوية؟

لقد صرّح الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة بقتل من إشتمل على هذه الصفات، كما قال ولن تقتلوه. والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: لم هدر الإمام عليه السلام دمه؟ والجواب واضح لدى العلماء والفقهاء، لأنّ من يخرج على الإمام المعصوم فهو ناصبى خارج من ربقة الإسلام، وقد خرج على إمام ثبتت إمامته بنص رسولاللّه صلى الله عليه و آله وعن طريق بيعة الامّة. أضف إلى ذلك فقد رسخ

معاوية أساس الفساد فى الأرض وبابشع وأوسع صوره، وقد جيش الجيوش ضد الإمام عليه السلام حتى سالت أنهاراً من الدماء فى تلك المعارك. إلى جانب بعثه ببعض أشقيائه لشن الغارات تلو الغارات على مناطق العراق المعروفة وأخيراً قتله لمحمد بن أبى بكر ومالك الأشتر وسائر كبار صحابة الإمام عليه السلام لتجعله فى مصاف المفسدين فى الأرض والذى حكم القرآن بهدر دمهم. فاذا كان هناك بعض الأفراد المتعصبين الذين لايكترثون لكل هذه الأعمال ويبررونها باسم الاجتهاد فلنا كلام آخر. فقد ورد فى الحديث الشريف أنّ النبى صلى الله عليه و آله قال:

«يا على حربك حربى وسلمك سلمى»[۶۵۱]

وكلنا نعلم بأنّ حرب رسولاللّه صلى الله عليه و آله تجب الكفر حيث يصطلح على من يحاربه بالكافر الحربى الذى يباح دمه. وورد فى حديث آخر أنّ ابن عباس كان قد كف بصره فمر بجماعة يتحدثون فسأل دليله ماذا يقولون: أجاب: يسبون علياً عليه السلام. قال فاحملنى إليهم ثم سألهم: لم تسبون اللّه؟ قالوا سبحان اللّه من سبّ اللّه فقد كفر، قال: فمن منكم سبّ رسولاللّه صلى الله عليه و آله؟ قالوا سبحان اللّه من سب رسولاللّه صلى الله عليه و آله فهو كافر. قال فمن سبّ علياً عليه السلام؟

قالوا: نعم نحن سببناه. قال ابن عباس فانّى أشهد اللّه أنى سمعت رسولاللّه صلى الله عليه و آله قال

«من سب علياً فقد سبنى ومن سبنى فقد سب اللّه عزوجل ومن سب اللّه أكبه اللّه على منخريه فى النار. ثم التفت ابن عباس إلى دليله وقال له: كيف رأيتهم. فانشد يقول:

نظروا إليك باعين محمرةنظر التيوس إلى شفار الجارز

قال ابن عباس: فداك أبوك زدنى. فقال:

خزر العيون نواكس أبصارهمنظر الذليل إلى العزيز القاهر

أحيائهم عار على أمواتهموالميتون فضيحة للغابر[۶۵۲]

ومن الطبیعی أنّ الحکم المذکور إذا کان السب یستند إلی الإرادة والاختیار ویستثنی منه الاکراه والتهدید والاجبار.

جدیر بالذکر أنّ ابن أبی‌الحدید قال، لو إفترضا أنّ النبی صلی الله علیه و آله لم ینص علی خلافة علی علیه السلام

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۴۱۳

أفلم یسمع معاویة قوله صلی الله علیه و آله لعلی علیه السلام:

«أنا حرب لمن حاربت وسلم لمن سالمت»

وقوله:

«حربک حربی وسلمک سلمی»[۶۵۳]

ومن الطبیعی أنّ من یحارب رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله یهدر دمه، وعلیه فالذی یحارب الإمام علیه السلام یهدر دمه.

۳- تأریخ سب الإمام علی علیه السلام

قوله علیه‌السلام:

«یأمرکم بسبّی والبراءة منی»

، فنقول: إنّ معاویة أمر الناس بالعراق والشام وغیرهما بسبّ علیّ علیه‌السلام والبراءة منه.

وخطب بذلک علی منابر الإسلام، وصار ذلک سنة فی أیّام بنی‌أمیة إلی أنْ قام عمر بن عبدالعزیز رضی اللَّه تعالی عنه فأزاله. وذکر شیخُنا أبوعثمان الجاحظ أنّ معاویة کان یقول فی آخر خطبة الجمعة: اللّهم إنّ أباتراب ألْحَد فی دینک، وصدّ عن سبیلک فالعنه لعناً وبیلًا، وعذبه عذاباً ألیماً. وکتب بذلک إلی الآفاق، فکانت هذه الکلمات یُشار بها علی المنابر؛ إلی خلافة عمربن عبدالعزیز.

وذکر أبو عثمان أیضاً أنّ هشام‌بن عبدالملک لما حجّ خطب بالموسم، فقام إلیه إنسان، فقال:

یا أمیرالمؤمنین، إن هذا یومٌ کانت الخلفاء تستحبّ فیه لعنَ أبی‌تراب، فقال: اکفف، فما لهذا جئنا.

وذکر المبرّد فی "الکامل "أنّ خالد بن عبداللَّه القسری لَمّا کان أمیر العراق فی خلافة هشام، کان یلعن علیّاً علیه‌السلام علی المِنْبر، فیقول: اللهمّ الْعن علیّ بن أبی‌طالب بن عبدالمطلب بن هاشم، صهر رسول‌اللَّه صلی اللَّه علیه وآله علی ابنته، وأبالحسن والحسین! ثم یقبل علی الناس، فیقول هل کَنَّیت!

وروی أبو عثمان أیضاً أنّ قوماً من بنی‌أمیّة قالوا لمعاویة: یا أمیرالمؤمنین، إنّک قد بلغتَ ما أمّلت، فلو کففت عن لَعْن هذا الرجل! فقال: لا واللَّه حتی یربوَ علیه الصغیر، ویهرم علیه الکبیر، ولا یذکر له ذاکرٌ فضلًا!

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۴۱۴

قال محمد بن الحنفیة فی علی علیه السلام: کان یدَ اللَّه علی أعداءاللَّه، وصاعقةً من أمره أرسله علی الکافرین والجاحدین لحقّه، فقتلهم بکفرهم فشنئوه وأبغضوه، وأضمروا له الشّنف والحسد، وابن عمه صلی اللَّه علیه وسلّم حیّ بعدُ لم یمت؛ فلما نقله اللَّه إلی جواره، وأحبّ له ما عنده، أظهرتْ له رجال أحقادها، وشفَتْ أضغانها، فمنهم مَن ابتزّ حقه، ومنهم من ائتمر به لیقتله، ومنهم مَنْ شتمه وقذفه بالأباطیل؛ فإن یکن لذرّیته وناصری دعوته دولة تنشر عظامهم، وتحفِر علی أجسادهم؛ والأبدانُ منهم یومئذ بالیة، بعد أن تقتل الأحیاء منهم، وتذلّ رقَابهم، فیکون اللَّه عزّ اسُمه قد عذَّبَهُم بأیدینا وأخزاهم؛ ونصرنا علیهم، وشَفَا صدورَنا منهم؛ إنّه واللَّه ما یشتم علیاً إلّاکافر یُسِرّ شتم رسول‌اللَّه صلی اللَّه علیه وآله ویخاف أن یبوحَ به، فیکنی بشتم علیّ علیه‌السلام عنه. ما إنّه قد تخطّت المنیةُ منکم مَن امتدّ عمره، وسمع قولَ رسول‌اللَّه صلی اللَّه علیه وآله فیه:

«لا یحبّک إلا مؤمن ولا یُبغضک إلّا منافق، وسیعلم الذین ظلموا أی منقلب ینقلبون».

۴- التقية وسيلة دفاعية

تطرق بعض شرّاح نهج‌البلاغة هنا إلى موضوع التقية وشرعيتها، ولا بأس أن نتعرض إليها هنا بصورة مختصرة ونوكل الخوض فى التفاصيل إلى محلها. فالتقية بالمعنى اللغوى إجتناب الشىء بينما ذكروا لها عدة تعاريف إصطلاحية، أهمها إخفاء العقيدة أو الدين خوف الضرر أو لمصلحة من المصالح ومنها حفظ الوحدة واجتناب الاختلاف أمام الأعداء. ويستند هذا المعنى إلى القرآن الذى تحدث عن أصحاب رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله حين كانوا قلة:

«لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذ لِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِى شَىءٍ»

ثم قال:

«إِلّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً»[۶۵۴]

، فقد تحدثت الآية صراحة عن التقية بما لايبقى من مجال للشك فيها. أما قصة تقية عمار ونطقه ببعض الكلمات ضد الإسلام والنبى صلى الله عليه و آله أمام المشركين

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۱۵

فهى مشهورة معروفة، فقد إضطر لتلك الكلمات، ثم أتى رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله باكياً خشية فساد دينه وإيمانه، فهدأه رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله فى أنّ الاكراه هو الذى دفعه إلى ذلك فلا ضرر على دينه وأنّ اللّه أنزل بحقه قرآناً: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمانِ»[۶۵۵] «وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ»[۶۵۶] النموزج الآخر للتقية ما ورد فى سورة غافر بشأن مؤمن آل فرعون: «وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللَّهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ»[۶۵۷] فالقرآن يثنى على هذا المؤمن ويستحسن كلامه ويصرح برضى اللّه بتقيته. كما تظافرت الروايات الإسلامية التى أكدت على أهمية التقية لتصفها بانّها تقى المؤمن مخاطر الأعداء وتحفظ دمه وأن التقى من الدين، ومن لا تقية له لا دين له، والإيمان بلا تقية كالجسد بلا رأس، وأنّها من أفضل الأعمال، ولا نرى البحث يتسع للخوض فى التفاصيل، ومن أراد المزيد فليرجع إلى القاعدة السابعة من المجلد الأول لكتاب القواعد الفقهية. أضف إلى ذلك فانّ فلسفة التقية واضحة، وهى أنّ اظهار العقيدة الباطنية أحياناً قد يسبب بعض الأخطار على النفس والعرض والمال دون أن تترتب عليه أية فائدة، فالعقل يحكم بضرورة عدم إهدار القوى والطاقات عبثاً، ولابدّ من حفظها بواسطة التقية واستثمارها فى المواقع المطلوبة. ولعل هذا هو المعنى المراد بوصفها بترس المؤمن أو جنة المؤمن. فالواقع هو أنّ التقية لا تعنى الفرار من المسؤولية، بل هى أشبه بالتكتيك الحربى عن طريق الاستتار وإعادة تنظيم القوة واللجوء إليها فى الوقت المناسب.

ج‌ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۱۷

الخطبة[۶۵۸] الثامنة و الخمسون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

كلم به الخوارج حين اعتزلوا الحكومة وتنادوا:

لا حكم إلّااللّه

نظرة إلى الخطبة

تفيد عبارات هذه الخطبة أنّ الخوارج ذهبوا إلى أنّ الحكم للّه بعد أن فرضوا التحكيم على الإمام عليه السلام ورجعوا عنه، وأن من ينكر ذلك الشعار قد خرج من الدين، ثم إندفعوا أبعد من ذلك ليتهموا على عليه السلام بالخروج من الإسلام لقبوله التحكيم وعليه أن يتوب. والحال أنّ التحكيم فرض على الإمام عليه السلام، ولو فرضنا ان الإمام عليه السلام إقترح ذلك فاصل التحكيم لايخالف الإسلام، وانحرف فى صفين واستغل من قبل معاوية. على كل حال فان الإمام عليه السلام يدعو عليهم ويذكرهم بسوء مقالتهم، ثم يخبر عن المستقبل المظلم للخوارج والذل الهوان الذى ينتظرهم.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۱۹

«أَصابَكُمْ حاصِبٌ، وَلا بَقِيَ مِنْكُمْ آثِرٌ، أَبَعْدَ إيمانِي بِاللَّهِ وَجِهادِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و آله أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالْكُفْرِ! لَقَدْ «ضَلَلْتُ إِذاً وَما أَنا مِنَ الْمُهْتَدِينَ» فَأُوبُوا شَرَّ مَآبٍ وَارْجِعُوا عَلَى أَثَرِ الْأَعْقَابِ، أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلًّا شامِلًا وَسَيْفاً قاطِعاً وَأَثَرَةً يَتَّخِذُها الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً».

الشرح والتفسير

فضاعة مظلومية الإمام عليه السلام

كما ذكرنا أنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة حين رأى الخوارج التحكيم فى صفين ثم رجعوا عنه ورفعوا شعار «لا حكم إلّاللّه» وطالبوا الإمام عليه السلام بالتوبة لقبوله التحكيم ليلتحقوا به فيقاتلوا أهل الشام، فقال عليه السلام:

«أصابكم حاصب، ولابقى منكم آثر، أبعد إيمانى باللّه وجهادى مع رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله أشهد على نفسى بالكفر، لقد «ظللت إذا وما أنا من المهتدين».

يالها من مصيبة أن يبتلى بهؤلاء الحمقى فرد مثل على عليه السلام أول من آمن باللّه ورسوله صلى الله عليه و آله ووقف إلى جانبه فى جميع الغزوات- ألا فى البعض التى استخلفه فيها رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله- وثبت فى المواقع التى تنكص فيها الابطال ليسقى شجرة الإسلام والتوحيد بلسانه وسيفه، فيطالبه اولئك الحمقى بالاعتراف بالكفر والتوبة. ولعل تأريخ الإسلام لم يشهد مثل هذه الحادثة المروعة، ومن هنا نقول بأنّ مظلومية الإمام عليه السلام كانت وما زالت تفوق من سواه. وكما صرح عليه السلام فى الخطبة السابقة:

«فانّى ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة»

؛ الأمر الذى أكده علماء الفريقين وأنه لم يشرك باللّه طرفة عين أبداً أنّه خاض غمار الجهاد مع رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله فى كافة الغزوات سوى تبوك حين كلفه النبى صلى الله عليه و آله بحفظ المدينة، العبارة «أصابكم حاصب» وبالالتفات إلى أنّ المراد بالحاصب الريح الشديدة التى تثير الحصباء بحيث قد تدفن أحياناً قافلة، تفيد الدعاء عليهم فى أن يرسل اللّه عليهم العذاب السماوى، كما يمكن

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۲۰

أن تكون كناية عن المشاكل الاجتماعية التى تعصف بحياتهم والعبارة «ولا بقى منكم آثر» واستناد إلى أنّ المقصود بالأثر الشخص الذى يأثر الحديث، أى يرويه، فكأنّه قال عليه السلام لابقى منكم مخبر وهلكتم بأجمعكم (طبعاً نقلت هذه المفردة بعدة صور ذات معان مختلفة سنعرض لها فى شرح كلام السيد الرضى آخر الخطبة». ثم تساءل الإمام عليه السلام باستغراب عن ذلك الطلب المشين

وهو من روّى شجرة الإسلام بجهاده العظيم ومواقفه المشهودة وشده أزر رسولاللّه صلى الله عليه و آله، فهو أول من آمن وأسلم وهاجر، فهل لمثل هذا الفرد أن يضل وينحرف عن السبيل. ثم أشار عليه السلام إلى موضوعين، الأول دعاؤه عليهم

«فأبوا[۶۵۹] شرمآب وارجعوا على أثر الاعقاب»[۶۶۰]

فقد دعا عليهم فى العبارة الاولى سائلًا اللّه لهم الذلة والهوان فى الدنيا والآخرة، وفى العبارة الثانية سأل اللّه أن يبتلهيم بما ابتلى به مشركى الجاهلية الذى كانوا على غرار الخوارج يرون آيات اللّه ثم يجحدونها. وذهب بعض شرّاح نهج‌البلاغة إلى أنّ قوله:

«ارجعوا ...»

أراد به توبوا، بينما تفيد قرينة هذا القول انه استمرار للدعاء السابق. والثانى نبوءته بمستقبلهم

«أما ارنكم ستلقون بعدى ذلا شاملا وسيفاً قاطعاً وأثرة يتخذها الظالمون فيكم سنة»

جدير بالذكر أنّ نبوء الإمام عليه السلام بحق الخوارج قد تحققت حيث ابيدوا فى مختلف الحروب وتجرعوا الذل والهوان. وقد أفرد ابن أبى الحيدد فصلا أسماه أخبار الخوارج وذكر رجالهم وحروبهم ليخوض فى تفاصيل أحداث زعمائهم وسنتطرق إلى ذلك فى الأبحاث القادمة.

قال السيد الرضى (ره) شارحاً بعض مفردات الخطبة: قوله عليه السلام

«ولا بقى منكم آبر»

يروى على ثلاثة أوجه: أحدها أن يكون كما ذكرناه: آبر بالراء، من قولهم للذى يأبر النخل- أى يصلحه- ويروى «آثر» وهو الذى يأثر الحديث ويرويه أى يحكيه، وهو أصح الوجوه عندى، كأنّه قال: لا بقى منكم مخبراً، ويروى آبز- بالزاى المعجمة- وهو الواثب. والهالك أيضاً يقال له «آبز».

ج‌ج

اثرة اسم مصدر من مادة استئثار بمعنى الاستبداد.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۲۱

الخطبة[۶۶۱] التاسعة والخمسون

اشارة

وقال عليه السلام

لما عزم على حرب الخوارج، وقيل له: إنّ القوم عبروا جسر النهروان.

«مَصارِعُهُمْ دُونَ النُّطْفَةِ وَاللَّهِ لا يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشَرَةٌ وَلا يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشَرَةٌ».

الشرح والتفسير

هل من سبيل لعلم الغيب

لاشك ولا ريب أنّ الرسول الكريم صلى الله عليه و آله وائمة العصمه عليه السلام قد أخبروا كراراً عن الامور الغيبية، وبعبارة اخرى لهم علم بالغيب، القرآن تحدث عن المسيح عليه السلام فى أنّ العلم بالغيب كان يمثل إحدى معجزاته فقال «وَأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ»[۶۶۲] كما يختتم هذه الآية بان ذلك من آيات اللّه وصدق دعوى نبوته.

وقد حفل نهج‌البلاغة ومنه هذا الكلام بالأخبار عن المغيبات. أمّا أنى للإمام عليه السلام بعلم الغيب؟ ما حدود علم المعصوم بالغيب؟

وما تفسير الآيات التى حصرت على الغيب باللَّه؟

وكيف تفسر الروايات الواردة بشأن إثبات هذا العلم للمعصومين؟ وما إلى ذلك من أسئلة واستفسارات فقد أوكلنا الإجابة عليها فى شرح الخطبة ۱۲۸.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۲۳

الخطبة[۶۶۳] الستون

اشارة

و قال عليه السلام

لما قتل الخوارج فقيل له: يا أميرالمؤمنين هلك القوم بأجمعهم

«كَلَّا وَاللَّهِ، إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِى أَصْلابِ الرِّجالِ، وَقَراراتِ النِّساءِ، كُلَّما نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصاً سَلَّابِينَ.»

الشرح والتفسير

مصير الخوارج

هذا الكلام إستمرار لما ورد فى الأبحاث السابقة بشأن الخوراج. وهنا أشار الإمام عليه السلام إلى بعض النبوءات بشأن الخوارج؛ الأمر الذى يمكن اعتباره من معاجزه عليه السلام فقد إستهل كلامه بالرد على بعض أصحابه ممن قال له: يا أميرالمؤمنين هلك القوم بأجمعهم فقال:

«كلا واللَّه، إنهم نطف فى أصلاب الرجال وقرارت ۶۶۴] النساء»

فحتى لو قتل هؤلاء، فهناك النطف التى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۲۴

ستلد فى المستقبل وتقتفى آثار الخوارج، وهذا ما حصل بالفعل حيث ظهر مثل هؤلاء الأفراد بعد سنوات، بل قرون لينتهجوا ذات السبيل الذى سلكه أوائلهم. أضف إلى ذلك وكما أشير سابقا فقد نجى تسعة أفراد من أصحاب النهروان وفروا إلى مختلف المناطق ليرمموا هذه المدرسة الفاسدة ويعيدوا بنائها ممن جانب آخر فاننا نعلم بأنّ من حضر النهروان لم يكونوا جميع الخوارج، بل الخوارج.

ثم اماط اللثام عن تبوءة اخرى فقال عليه السلام:

«كلما نجم ۶۶۵] منهم قرن قطع»

فالعبارة إشارة إلى وحشية الخوارج من جهة وأنّهم كالحيوان الذى له قرن لاذى الآخرين، ومن جهة اخرى يشير إلى الانتكاسات المتتالية والهزائم المتتابعة التى يمنى بها الخوارج طيلة حياتهم المقيتة؛ الأمر الذى تحقق تأريخياً وسنتعرض له فى البحث القادم. ثم يختتم الإمام عليه السلام كلامه قائلًا:

«حتى يكون آخرهم لصوصا سلابين»

وهذا هو الأمر الآخر الذى ثبت تحققه تأريخياً، حيث تعرض أرباب التأريخ إلى عدد من مشهورى الخوارج ممن تحولوا إلى لصوص خطرين، وسنعرض لهذا الأمر بالتفصيل لاحقاً.

تأمّلات

۱- الخوارج ظاهرة لافرقة

یستفاد من کلام الإمام علیه السلام أنّ الخوارج لم یکونوا فرقة معینة، یقدر ما کان یراهم الإمام علیه السلام ظاهرة حیة طیلة التأریخ الإسلامی، حتی أنّ القرائن تفید أن هذه الظاهرة کانت علی عهد رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله، فقد أورد المفسر الجلیل المرحوم الطبرسی عن أبی سعید الخدری فی ذیل الآیة «وَمِنْهُمْ مَنْ یَلْمِزُکَ فِی الصَّدَقاتِ ...»[۶۶۶] أنّ رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله حین قسم غنائم قبیلة هوازن علی المسلمین یوم حنین قام إلیه حرقوص‌بن زهیر وقال: اعدل یا محمد! فقال رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله: فمن ذا یعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر: دعنی أضرب عنقه یا رسول‌اللَّه، فقال صلی الله علیه و آله:

«دعه فان له أصحابا یحقر أحدکم صلاته مع صلاتهم وصیامه مع صیامهم یمرقون من الدین کما یمرق السهم من الرمیة»

وأضاف المرحوم الطبرسی وجاء فی حدیث آخر أنّ النبی صلی الله علیه و آله قال:

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۴۲۵

«فاذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم»

فنزلت الآیة المذکورة: «وَمِنْهُمْ مَنْ یَلْمِزُکَ فِی الصَّدَقاتِ فَإنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَ إنْ لَمْ یُعْطَوْا مِنْها إذا هُمْ یَسْخَطُونَ». فالواقع أنّ هذه الکلمات تفید إمتداد الجذور الفکریة للخوارج إلی عصر النبی صلی الله علیه و آله وأنّهم لم یکونوا یتورعون حتی عن مجابهة النبی صلی الله علیه و آله إذا تعرضت مصالحهم للخطر. ونقل ابن أبی الحدید عن مسند أحمد بن حنبل أنّ عائشة سألت مسروق: هل عندک علم من المخدج (أحد زعماء الخوارج)؟ فقلت: نعم، قتله علی بن أبی طالب علی نهر قالت عائشة: إبغنی علی ذلک بینة.

فأقمت رجالًا شهدوا عندها بذلک. قال فقلت لها: سألتک بصاحب القبر، ما الذی سمعت من رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله فیهم؟ فقالت: نعم سمعته یقول:

«إنّهم شر الخلق والخلیقة یقتلهم خیر الخلق والخلیقة وأقربهم عنداللَّه وسیلة»[۶۶۷]

. هذا ویمکن ایجاز ممیزات الخوارج فیمایلی: إنّهم طائفة تعنی کثیراً بظواهر العبادات وحتی المستحبات والمکروهات البسیطة وهذا ما جعلهم یعیشون الغرور ویشعرون بالعجب، وبالمقابل کانوا أفراد جاهلین متعصبین خارجین عن حدود الادب والخلق، ولا یتورعون عن أقذر الأسالیب من أجل تحقیق مآربهم، وأفضل نموذج علی ذلک سوء خلق

«ذو الخویصرة»

(حرقوص) وفضاضته تجاه النبی صلی الله علیه و آله. صحیح أنّ الخوارج ظهروا فی صفین بعد التحکیم إلّاأنّ هذا لایعنی عدم وجود إمتداداتهم الفکریة لما قبل عصر الإمام علیه السلام ومازلنا إلی الیوم نلمس ثقافتهم وأفکارهم المنحطة لدی بعض طبقات وفئات مختلف المجتمعات البشریة، ولعل أغلب الوهابیین ینتمون إلی هذه الزمرة، لأنّهم یتصفون بصفاتهم. کما نری فی أوساطنا بعض الأفراد الشدیدی الالتزام بقشور الدین بینما یرون إنحراف کبار علماء الدین عن الصراط المستقیم ویسعون جاهدین لاثارة البلابل والفتن. ولایبدو القتال علاجاً لمرض هذه الفئة الضلالة، بل علاجها یکمن فی رفع المستوی الثقامی للُامّة وانفتاحها علی المسائل الدینیة والعقائدیة؛ الأمر الذی صرح به الإمام علیه السلام فی الخطبة القادمة. وقد أشار الإمام علیه السلام فی الخطبة السادسة والثلاثین إلی مدی جهل هؤلاء الأفراد فقال

«وأنتم معاشر أخفاء الهام، سفهاء الاحلام ولم آت- لا أبالکم- بجرا ولا أردت

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۴۲۶

لکم ضراً».

وکفی هذه الفرقة ضلالة وانحرافاً وفضاضة ما فعلته بصحابی النبی صلی الله علیه و آله عبداللَّه بن الخباب المعروف بورعه وتقواه وزوجته الحاملة حیث قتلتها بتلک الطریقة البشعة وبقرت بطن زوجته لأنّهما لم یتنکراً لعلی علیه السلام بینما کانت تستشکل قتل

اليهودى، بل كانت لاترى جواز قتل الخنزير. بل كانوا يشكلون على أحدهم إذا تناول تمرة مهملة تحت شجرة دون إذن صاحبها، بينما لايتورعون عن سفك دماء كبار صحابة رسولاللّه صلى الله عليه و آله وأميرالمؤمنين عليه السلام. كان هنالك تناقضاً واضحاً بين ظاهرهم وباطنهم وأقوالهم وأفعالهم، حتى إمتد ذلك التناقض إلى عقائدهم الفقيهة والكلامية، فكانوا يرون وجوب قتل مرتكب الكبيرة، بينما يعتقدون بعدم الحاجة إلى الحاكم رغم الفوضى والهرج والمرج الذى يسود المجتمع. وتفيد القرائن أنّهم كانوا مفرطين فى المسائل الجنسية وغارقين فى الشهوات، ولعل هذا ما جعلهم يجوزون العقد على تسع نساء، ولا يرون الرجم عقوبة لمن زنا وهو محصن. ومن الطبيعى أن تتفرع هذه الفرقة عدة فروع بفعل ذلك الجهل والتعصب والحمق، ومن هنا لم تمض عليها مدة حتى انقسمت فرقاً لكل منها زعيم من قبيل الازارقة والنجدات والصفرية والعجاردة والثعالبة وما تشابه ذلك.

لعلنا نلمس هذه الفرقة اليوم فى الوهابية التى تعيش التمسك بظاهر العبادات وتتحرج فى المكروهات والمباحات وتؤدى المستحبات، بينما تكفر أغلب المسلمين من السنة والشيعة وتبيح دمائهم، ورغم ضحالتهم الفكرية وجمودهم إلّاأنّهم يرون أنفسهم أفضل من غيرهم، فهم كالخوارج يرون أنفسهم الحق المطلق وما سواهم باطلًا.

۲- الخوارج لصوصا سلابين

يشهد التأريخ بتحقق ما أخبر به الإمام عليه السلام عن الخوارج من أنّ آخرهم لصوصاً سلابين.

فمن بين الأفراد الذين ذكرهم ابن أبى الحديد الذى آل أمرهم إلى السرقة والسلب: الوليد بن طريق الشيبانى على عهد هارون الرشيد. فبعث له هارون بيزيد بن مزيد هو من بنى شيبان فقتله وأتاه برأسه وابن عمرو الخثعمى على عهد المتوكل العباسى الذى عرف بقطعه للطرق، فبعث له بأبى سعيد محمد بن يوسف الطائى، إلّاأنّه هرب بينما قتل جمع كثير من صحبه وأسر آخرون. ثم ظهرت جماعة منهم فى منطقة كرمان وعمان فكانوا مفسدين فى الأرض ومحاربين،

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۲۷

أما أسماؤهم فقد أحصاها أبو اسحاق الصابى فى كتاب التاجى.[۶۶۸]

تم المجلد الثانى لشرح نهج‌البلاغة

لقد إنتهى المجلد الثانى من الشرح باختتام الخطبة الستين، ولا يسعنى هنا إلّاأن ابتهل إلى اللّه بفائق الشكر لما وفقنى من القيام بهذا العمل المتواضع سائلًا إياه الاخذ بيدى إلى إتمام هذا العلم، كما أسأله أن يوفقنا لأن نعيش هذه الكلمات على مستوى القلب والعمل فتقودنا إلى سعادة الدنيا والآخرة. وما توفيقى إلّاباللّه عليه توكلت وإليه أنيب، وآخر دعوانا أن الحمدللّه رب العالمين.

السابع من صفر عام ۱۴۱۹

الولادة الميمونة للإمام الكاظم عليه السلام

---

[۱] (۱) نقل كتاب مصادر نهج البلاغة هذه الخطبة التى أوردها السيد الرضى رضى الله عنه فى الخصائص/ ۸۷ وأضاف فى ذيل الخطبة ۱۶۷- التى تعد هذه الخطبة جزءاً منها- قائلًا:(رواها« الطبرى» فى تأريخه ضمن حوادث سنة ۳۵ ه(مصادر نهج البلاغة ۱/ ۳۷۱ و ۲/ ۴۰۳).

ويتبين من الرجوع إلى تأريخ الطبرى أنّ الأمّة بايعت علياً عليه السلام يوم الجمعة لخمس بقين من شهر ذى الحجة وأنّها أول خطبة

أوردها على عليه السلام ضمن خطبته ۱۶۷. تأريخ الطبرى ۳/ ۴۵۷.

[۲] (۱) منهاج البراعة ۳/ ۳۰۱.

[۳] (۱) معارج نهج البلاغه، بيهقى/ ۱۰۹.

[۴] (۱) منهاج البراعة ۳/ ۴- ۳.

[۵] (۱) لقد أورد هذه الخطبة وشرحها كل من المرحوم« الشيخ المفيد» فى« الإرشاد» فىالفصل ۲۲ من كلمات الإمام على عليه السلام، والكلينى فى« الكافى» ۵/ ۵۳ كتاب الجهاد إلى جانب بعض الخطب الأخرى، والمرحوم العلّامة المجلسى فى بحار الأنوار ۳۲/ ۱۹۳. كما ذكرها ابن أثير فى عدة مواضع من كتابه النهاية بتناسب مفردات الخطبة. ويضيف مؤلف مصادر نهج البلاغة قائلًا: لقد أقتبست هذه الخطبة من سائر خطبه عليه السلام، فهو يعتقد بأنّها مرتبطة بالخطبة ۲۶، كما يرى بأنّ هذه الخطبة ذات إرتباط بالخطبة ۱۷۲- مصادر نهج البلاغة ۱/ ۳۷۳.

[۶] (۱) بحار الأنوار ۳۲/ ۲۶۷ ح ۲۰۶ نقلًا عن الاحتجاج للطبرسى.

[۷] (۲) شرح القطب الراوندى ۱/ ۱۸۸.

[۸] (۳) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۳۰۵.

[۹] (۱) لم تكن قضية المطالبة بدم عثمان شعار أهل الشام وذريعتهم لإشعال فتيل صفين، بل استغلت كذلك منقبل طلحة والزبير وعائشة لتنتهى بنشوب معركة الجمل. وقد ذكر ابن أثير- المورّخ المعروف- فى« الكامل» أنَّ عائشة حين قدمت إلى المدينة من مكّة سمعت أثناء الطريق بقتل عثمان واجتماع الأمّة على على عليه السلام، فاغتمت وقالت: ليت السماء أطبقت على الأرض ولم يقع هذا، ثم أمرت باعادتها إلى مكّة. فقالت« إنَّ عثمان قُتل واللّه مظلوماً» فقام إليها من قال لها: إنّك أول من تحدثت ضد عثمان واسميته نعثلًا(قيل أن نعثلًا رجل يهودى كث اللحية، وقال صاحب« لسان العرب» أن نعثلًا تعنى العجوز الأحمق) وأنت قلت: إقتلوا نعثلًا فقد كفر(الكامل ۳/ ۲۰۶).

[۱۰] (۲) ذمّر من مادة« ذمر» بمعنى« التشجيع والحث» وقيل بمعنى التحريك المقرون بالذم والعتاب، ومن هنا كانالذمر على وزن« الذهن» يعنى الرجل الشجاع والمتحرك.

[۱۱] (۳) جلب تعنى فى الأصل السوق والإنتقال ويقال الجلب بالنسبة للأفراد الذين يجمعون بسهولة. استجلب هنا بمعنى الإجتماع.

[۱۲] (۱) سورة المجادلة

[۱۳] (۲) سورة المجادلة/ ۱۹.

[۱۴] (۱) تأريخ الطبرى ۳/ ۴۵۳.

[۱۵] (۲) تأريخ الطبرى ۳/ ۴۱۱.

[۱۶] (۳) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۶/ ۲۱۵.

[۱۷] (۱) منهاج البراعة ۳/ ۳۱۰.

[۱۸] (۲)« الخيبة» بمعنى اليأس، والمراد بالداعى هنا طلحة والزبير الذين دعوا الناس للخروج على عثمان. وقولهإلام اجيب، تحقيراً لاولئك الذين اتبعوهما دون دليل.

[۱۹] (۱) سورة الحجرات/ ۹.

[۲۰] (۲) إحقاق الحق ۴/ ۹۹ نقلًا عن ينابيع المودة.

[۲۱] (۱) العبارة مثل عربى معروف وقد أشير إليه فى بعض الروايات الإسلامية ومنها الخطبة ۱۶۸ من خطب نهجالبلاغة.

[۲۲] (۲)« طعان» بمعنى الضرب بآلة وتستعمل عادة للرمح ويقال لذرب اللسان طعن أيضاً.

[۲۳] (۳)« جلاد» من مادة« جلد» بمعنى الضرب بالعصا أو السيف أو السوط وهو هنا كناية عن الحرب.

[۲۴] (۴) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۳۰۶.

[۲۵] (۵)« هبلتهم» بمعنى ثكلتهم، والهبول بفتح الهاء المرأة التى لا يبقى لها ولد، وهو دعاء عليهم بالموت.

[۲۶] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن ميثم لمئة كلمة مختارة من الجاحظ، الكلمة الاولى.

[۲۷] (۱) أورد المرحوم الكلينى عن الإمام الحسن عليه السلام قسماً من هذه الخطبة فى كتاب الكافى ۵/ ۵۶، كما أورد قسمها الآخر- حسب صاحب مصادر نهج البلاغة- نصر بن مزاحم فى صفين وابن عبد ربه فى العقد الفريد والزمخشرى فى ربيع الأبرار.

[۲۸] (۱)« غفيرة» من مادة« غفر» بمعنى الستر ومن هنا اطلقت المغفرة على ستر الذنوب كما تطلق على المال الكثير لتغطيته جزءاً واسعاً من الحياة، حتّى أنّه يستر العيوب أحياناً، ولذلك يقال للكثرة والزيادة غفيرة.

[۲۹] (۱)« الفالج» من مادة« فلج»، قال صاحب مقاييس اللغة لها معنيان؛ الأول النصر والغلبة، والآخر المسافة بين‌شيئين. وفسّره صحاح اللغة بالظفر والفوز، وقد ورد هنا بهذا المعنى.

[۳۰] (۲)« الياسر» من مادة« يسر» بمعنى السهولة، وميسر ويسار حسب قول الراغب فى المفردات بمعنى الغنى والثروة. وأطلق على المقامر الذى يلعب بقداح الميسر وقد وردت فى العبارة بمعنى اللاعب بالقداح المحفوظ منها.

[۳۱] (۳)« قداح» جمع« قدح» على وزن فِعل بمعنى السهم. وهى فى الأصل بمعنى كسر الشيء وعيبه.

[۳۲] (۱) شرح نهج البلاغة، المحقق الخوئى، ۳/ ۳۱۹(بتلخيص). وقد وردت إشارة مختصرة إلى هذا المطلب فى كتاب معارج نهج البلاغة وهو من أقدم شروح هذا الكتاب، معارج نهج البلاغة، ص ۱۱۰.

[۳۳] (۲) سورة المائدة/ ۹۰.

[۳۴] (۱) بحار الأنوار ۷۵/ ۱۴۷.

[۳۵] (۱) مسكن الفؤاد نقلًا عن بحار الأنوار ۱۰۰/ ۲۵.

[۳۶] (۱) سورة النور/ ۶۳.

[۳۷] (۲) سورة آل عمران/ ۲۸.

[۳۸] (۳)« تعذير» من مادة« عذر» وهنا بمعنى عدم العذر الصحيح.

[۳۹] (۴) سورة فاطر/ ۲۸.

[۴۰] (۱) منهاج البراعة ۳/ ۳۲۴ كما ورد هذا المضمون عن الإمام الصادق عليه السلام فى بحار الأنوار ۶۷/ ۲۴۳.

[۴۱] (۲) سورة النساء/ ۶۹- ۷۰.

[۴۲] (۱) وسائل الشيعة ۱/ ۵۰.

[۴۳] (۱)« عترة» قال أرباب اللغة تعنى أصل الشيء وأساسه، كما قيل أنّ هذه المفردة أقتبست من عِتر(على وزن‌فِطر) نبات معطر كثير الغصون والأوراق وتشير إلى فروع القرابة. وقيل تطلق العترة على الأولاد فقط. وعليه فعترة النبى صلى الله عليه و آله هم ولد فاطمة عليها السلام وإلى ذلك أشار الحديث المعروف« إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى(لسان العرب، الصحاح، مقاييس اللغة).

[۴۴] (۱)« حيطة» اسم مصدر من مادة« حوط» بمعنى الاحاطة، وهى هنا بمعنى الرعاية والكلاءة. وقال البعض‌الحيطة بفتح الحاء بمعنى المراقبة وبكسرها بمعنى الحفظ.

[۴۵] (۲)« الم» من مادة« لمم» بمعنى الجمع والاصلاح.

[۴۶] (۳) شعث بالتحريك بمعنى التفرق والانتشار.

[۴۷] (۴) نهج البلاغة، آخر الرسالة رقم ۳.

[۴۸] (۱) سورة الشعراء/ ۸۴.

[۴۹] (۲) سورة مريم/ ۵۰.

[۵۰] (۱) لقد ورد هذا المضمون فی عدة روايات ومنها كتاب وسائل الشيعة ۱۱/ الباب ۱۶ من أبواب الأمر بالمعروف والنهی عن المنكر.

[۵۱] (۱)« الخصاصة» هی الفقر والحاجة الشديدة وهی مصدر خص الرجل بمعنی احتاج وافتقر، وقال صاحب‌مقاييس اللغة تعنی الثلمة ومن هنا أطلقت علی الفقر والحاجة لأنّها ثلمة فی حياة الإنسان.

[۵۲] (۱) بحار الأنوار ۷۴/ ۴۱۳.

[۵۳] (۱) بحار الأنوار ۷۱/ ۱۲۰.

[۵۴] (۲) بحار الأنوار ۷۱/ ۹۷.

[۵۵] (۳) بحار الأنوار ۷۱/ ۲۱۱.

[۵۶] (۴) معانی الأخبار نقلًا عن بحار الأنوار ۷۱/ ۹۵ ح ۲۶.

[۵۷] (۵) اصول الكافی نقلًا عن بحار الأنوار ۷۱/ ۱۲۶.

[۵۸] (۱) مفتاح السعادة فی شرح نهج البلاغة ۱/ ۱۱۲.

[۵۹] (۱)« لعمری» و« عَمْر» و« عُمَر» و« عُمُر» بمعنی مدة الحياة ويقال حين القسم لعمری بفتح العين. وهی هنامبتدأ لخبر محذوف تقديره« لعمری قسمی» وقد ورد سؤال فی مجمع البحرين كيف بهذا القسم وهو لا يجوز بغير الذات الإلهية المقدسة؟ وأجيب بأنّ هذا القسم ليس حقيقة بل بصورة قسم، وتقديره« بواهب عمری وعمرك».

[۶۰] (۲)« خابط» من مادة« خبط» وخابط الغی بمعنی صارع الفساد، وأصل الخبط اليسر فی الظلام، وتستعمل للناقة حين تخبط فی مشيها.

[۶۱] (۳)« الادهان» من مادة« دهن» بمعنی المنافقة والمصناعة ولا تخلو من مخالفة الباطن للظاهر، كما تستعمل كناية عن المجاملة والمداهنة.

[۶۲] (۴)« الايهان» من مادة« وهن» بمعنی الضعف سواء فی الخلقة أو الأخلاق، والايهان والتوهين بمعنی الاضعاف.

[۶۳] (۵) نهج البلاغة، الكلمات قصار، ۱۱۰.

[۶۴] (۶) نهج البلاغة، الخطبة ۱۰۴.

[۶۵] (۱) سورة التوبة/ ۱۱۸.

[۶۶] (۲) سورة الذاريات/ ۱۵۱.

[۶۷] (۳)« عصب» من مادة« عصب» علی وزن ضَرَبَ الذی يربط العظام والعضلات، أی كلفكم به وألزمكم أدائه.

[۶۸] (۱) سورة التوبة/ ۵۲.

[۶۹] (۱) جاء فی مصادر نهج البلاغة أنّ المسعودی أورد هذه الخطبة مع اختلاف طفيف فی مروج الذهب قبل المرحوم السيد الرضی، ثم قال: وقد أشار إليها العقد الفريد وابن عساكر فی تاريخ دمشق.

[۷۰] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحديد، آخر الخطبة.

[۷۱] (۱) الضمير« هی» يعود إلی الحكومة أو البلاد فمفهوم العبارة« ما الحكومة والمملكة التی تحت سيطرتی إلّاالكوفة».

[۷۲] (۲)« أعاصير» جمع« إعصار» وهی ريح تهب وتمتد من الأرض نحو السماء كالعمود كما تطلق كناية علی‌الامور الاجتماعية وهی

تعنی الفوضی التی کانت سائدة فی الکوفة طول التأریخ.

[۷۳] (۱) معجم البلدان، مادة« کوفة»، التأریخ الکامل ۲/ ۵۲۷، قاموس(مادة کوفة).

[۷۴] (۲) سورة التین/ ۲.

[۷۵] (۳) سفینة البحار، مادة« کوفة».

[۷۶] (۱) نقل هذا الکلام ابن أبی الحدید عن الجاحظ(شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۱/ ۳۴۳).

[۷۷] (۲) نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۶.

[۷۸] (۳) نهج البلاغة، الخطبة ۲۰۰.

[۷۹] (۱) فی ظلال نهج البلاغة ۱/ ۱۷۷.

[۸۰] (۱) الکامل لابن أثیر ۳/ ۳۸۳؛ تأریخ الطبری ۴/ ۱۰۶، ۱۰۸.

[۸۱] (۲) اطلع، تعنی فی الأصل النظر من الأعلی، واستعملت کنایة عن النصر والغلبة المفاجاة، مادة« طلوع» بمعنی‌الظهور.

[۸۲] (۳)« یدالون»(فعل مضارع مجهول من باب الأفعال) من مدة دولة بمعنی الانتقال من مکان إلی آخر. ومن هنا اطلقت الدولة علی المال والثروة التی تتداول بین الناس، والمراد بها فی هذه العبارة سیغلبونکم وتکون لهم الدولة بدلکم.

[۸۳] (۱)« قعب»، قال بعض أرباب اللغة بمعنی قدح خشبی وقال البعض الآخر قدح کبیر ضخم.

[۸۴] (۲)« علاقة» إذا استعملت مفتوحة العین عنت الرابطة المعنویة وإن کسرت کانت بهذا المعنی أو بمعنی الروابط المادیة، وقد وردت هنا بمعنی ما یعلق بالظرف من لیف أو نحوه.

[۸۵] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۲/ ۳- ۱۸؛ مروج الذهب ۳/ ۱۶۳(بحث ذکر أیام الولید بن عبدالملک).

[۸۶] (۲) سورة الأنفال/ ۶۲- ۶۳.

[۸۷] (۱) سورة آل عمران/ ۱۰۳.

[۸۸] (۲) سورة الانعام/ ۶۵.

[۸۹] (۱)« سئمتهم» من مادة« سأم» بمعنی الملل والتعب من الشیء.

[۹۰] (۲)« مث» من مادة« میث» بمعنی حل الشیء فی الماء، ویطلق علی المطر الذی یذیب تراب الأرض، کمایطلق علی الحوادث المریرة التی تذیب عقل الإنسان وتصدع قلبه.

[۹۱] (۱) سورة الأعراف/ ۸۲.

[۹۲] (۲) منهاج البراعة ۳/ ۳۵۸. صرح المسعودی- من المؤرخین المشهورین- أنّ الحجاج ولد عام ۴۱ ه وتوفی‌عام ۹۵ وله من العمر ۵۴ سنة.

[۹۳] (۳) سورة نوح/ ۲۶.

[۹۴] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۱/ ۳۴۱.

[۹۵] (۲) بلوغ الأدب ۲/ ۱۲۵.

[۹۶] (۳) المصدر السابق.

[۹۷] (۴) سورة البقرة/ ۲۴۹.

[۹۸] (۱) مصادر نهج البلاغة ۱/ ۳۹۰.

[۹۹] (۱) سورة الأحزاب/ ۴۵.

[۱۰۰] (۲) سورة سبأ/ ۲۸؛ سورة فاطر/ ۲۴؛ سورة الفتح/ ۸ وسورة البقرة/ ۱۱۹.

[۱۰۱] (۱)« منيخون» من مادة« نوخ» بمعنى تنويم الجمل، ومن البديهى أن يكون موضع استراحة الأفراد هو ذلكالموضع الذى ينومون فيه الجمال بين حجارة خشن.

[۱۰۲] (۲)« الجشب» على وزن« خشن» بمعنى الطعام الغليظ أو ما يكون منه بغير أدم.

[۱۰۳] (۱) شرح نهج البلاغة، ابن ميثم ۲/ ۲۴ أما كيف ضبطت مفردة(أم جبين) فقيل بيائين وقيل باء وياء وقيل بالجيم كما قيل بالماء(أم جبين) و(أم حبين)، كما كثر الكلام بشأن هذا الحيوان فقيل هو نوع من العضايا وتنفر منه عرب البادية لأنّه سام عند الأكل.

[۱۰۴] (۱) للوقوف على المزيد راجع بلوغ الأدب والإسلام والجاهلية والتأريخ الكامل(ج ۱) وسيد المرسلين وشرح العلامة الخوئى لنهج البلاغة.

[۱۰۵] (۱)« أغضيت» من مادة« غضى» تعنى السكوت على مضض، كما تعنى اغماض العين- ومن هنا تطلق الليالىالغاضية على الليالى الظلماء.

[۱۰۶] (۱)« قذى» على وزن قضا الصفاء والاخلاص، ومن هنا يطلق القذى على الشىء الذى يقع فى الماء فيلوثه، كما يطلق على ما يقع فى العين.

[۱۰۷] (۲)« شجا» من مادة« شجو» ما يعترض فى الحلق من عظم أو نحوه، كما يطلق على الشدة والهم والغم.

[۱۰۸] (۳)« كظم» على وزن غضب من مادة« كظم». قال الراغب فى المفردات الكظم بمعنى مخرج النفس، والكظوم بمعنى الاختناق وحبس النفس، كما تستعمل بمعنى ربط القربة بعد ملئها بالماء، ومعنى العبارة صبرت على الخناق رغم الضغط الذى مارسه العدو.

[۱۰۹] (۴)« العلقم»، قال صاحب مجمع البحرين هى شجرة شديدة المرارة، وتسمى الحنظل أيضاً، كما جاءت علقمة بمعنى المرة.

[۱۱۰] (۵) رواها نصر بن مزاحم عن الإمام عليه السلام؛ شرح نهج البلاغة، ابن ميثم ۲/ ۲۶، شرح نهج البلاغة لابن أبىالحديد ۲/ ۲۲.

[۱۱۱] (۱) المراجعات، الرسالة ۸۴.

[۱۱۲] (۱) يقصد قرابة عثمان من بنى هاشم.

[۱۱۳] (۲)« المبتاع» بمعنى المشترى والمراد به هنا معاوية والبائع عمرو بن العاص.

[۱۱۴] (۳) انظر أسد الغابة فى معرفة الصحابة(عمرو بن العاص).

[۱۱۵] (۱) سورة البقرة/ ۱۶.

[۱۱۶] (۲) سورة البقرة/ ۸۶.

[۱۱۷] (۳) سورة النساء/ ۵۸.

[۱۱۸] (۴)« اهبة» على وزن لقمة بمعنى العدة والتأهب والاستعداد للقيام بعمل وإهاب على وزن كتاب بمعنى الجلدالذى لم يدبغ وقد اعد للدباغة.

[۱۱۹] (۵)« شب» من مادة« شبب الشباب»، ويستعمل فى شب النار.

[۱۲۰] (۶)« لظا» بمعنى شعلة النار كما تطلق على نفس النار(الراغب فى المفردات).

[۱۲۱] (۷)« سنا»، قال صاحب المقاييس تتضمن العلو والارتفاع وقد وردت فى العبارة بمعنى تصاعد ألسنة النيران.

[۱۲۲] (۱) بحار الأنوار ۷۴/ ۱۶۵.

[۱۲۳] (۱) سورة التوبة/ ۳۸.

[۱۲۴] (۲) سورة المجادلة/ ۲۲.

[۱۲۵] (۱) سورة الانفال/ ۶۵.

[۱۲۶] (۱) الانبار محافظة من محافظات العراق التى تقع غرب بغداد.

[۱۲۷] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۷۵.

[۱۲۸] (۳) الكافى ۵/ ۴.

[۱۲۹] (۱) مصادر نهج البلاغة ۱/ ۳۹۷.

[۱۳۰] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۸۵- ۸۷.

[۱۳۱] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۸۱.

[۱۳۲] (۱) الكافى ۵/ ۲، كتاب الجهاد، باب فضل الجهاد، ح ۲.

[۱۳۳] (۱) لابدّ من الالتفات إلى أنّ الاضافة(لباس التقوى) فى التفسير الأول من قبيل الإضافة اللامية وفى التفسيرالثانى إضافة بيانية.

[۱۳۴] (۱) سورة التوبة/ ۹۱- ۹۲.

[۱۳۵] (۲)« ديّث» من مادة« ديث» بمعنى الذلة والهوان، ومن هنا يصطلح بالديوث على من لا يكترث لعفة أهله، كأنهقد ذلل حتى صار كذلك.

[۱۳۶] (۳)« صغار» بمعنى الذلة.

[۱۳۷] (۱)« القماءة» بمعنى الصغار و الذل.

[۱۳۸] (۲) الأسهاب ذهاب العقل أو كثرة الكلام، أى حيل بينه و بين الخير بكثرة الكلام بلافائدة، و قدورت بهذا المعنى فى الخطبة.

[۱۳۹] (۳)« أديل» من مادة« دولة»، قال صاحب المقاييس لها معنيين؛ الأول التحول و الانتقال، والآخر الضعف، واريد بها هنا المعنى الأول.

[۱۴۰] (۴) فسرها جمع من شرّاح نهج البلاغة بالذلة والهوان على أنّها من قبيل تكرار وتأكيد العبارات السابقة، أمّا ما أوردته فى المتن فانه ورغم انسجامه مع المتون اللغوية الا أنه ينطوى على معنى جديد يأبى التكرار، وعليه يبدو هو التفسير الأنسب.

[۱۴۱] (۱) النصف والانصاف من مادة واحدة بمعنى العدل.

[۱۴۲] (۱) بحار الأنوار ۹۸/ ۹.

[۱۴۳] (۲) اصول الكافى ۵/ ۸.

[۱۴۴] (۳) نهج البلاغة، الكلمات القصار، ۲۵۲.

[۱۴۵] (۱)« عقر» على وزن ظُهر بمعنى أساس الشىء وأصله ومنه عقر الناقة، وذلك لزوال أساس الناقة بحيث تفقدتوازنها وتقع على الأرض.

[۱۴۶] (۲)« تواكلتم» من مادة« وكل»، وكل كل منكم الأمر إلى صاحبه، أى لم يتوله أحد منكم، بل أحاله كل على الآخر.

[۱۴۷] (۳)« شنت» من مادة« شن»، وشنت الغارات مزقت عليكم من كل جانب كما يشن الماء متفرقاً دفعة بعد دفعة. والعبارة إشارة إلى الغارات المتوالية التى كان يشنها عليهم الشام.

[۱۴۸] (۱)« حجل» على وزن فعل و« حجل» على وزن فَصل بمعنى الخلخال التى تزين به النساء العربيات أرجلهن.

[۱۴۹] (۲)« قلب» بضمتين جمع قلب بالضم فسكون بمعنى السوار المصمت وتعنى فى الأصل التغيير.

[۱۵۰] (۳)« قلائد» جمع« قلادة» على وزن اجارة، تطلق على كل شىء يحيط بآخر.

[۱۵۱] (۴)« رعث» بضم الراء والعين جمع« رعث» على وزن رأس ما تعلقه المرأة من الزينة فى أذنها.

[۱۵۲] (۱) سورة التوبة/ ۹۲.

[۱۵۳] (۱) بحار الأنوار ۹۷/ ۶۴ ح ۶۰.

[۱۵۴] (۱) يا عجباً عجباً، قال بعض شرّاح نهج البلاغة أن العبارة« فيا عجباً عجباً» أصلها« عجبت عجباً ...»؛ أى منصوبةعلى أنها مفعول

مطلق. كما احتمل أن تكون عجباً الأولى من قبيل المفعول المطلق والثانيـة للتكرار والتأكيد(شـرح نهج البلاغة لابن ميثم ۲/ ۳۶) وقال البعض تقديرها« يا عجبى احضر»(شرح نهج البلاغة للعلامة الخوئى ۳/ ۳۹۲) ويبدو هنا التفسير أنسب لأن تكون« عجباً» منادى

[۱۵۵] (۱)« ترحاً» تعنى الحزن والغم فقد دعا عليهم الإمام عليه السلام بهذه العبارة بالحزن والهم.

[۱۵۶] (۲)« حمارة» من مادة« حمر» بمعنى اللون الأحمر، ويطلق على شدة حرارة الصيف المحرقة، وكأن شدةالحرارة كحمرة النار.

[۱۵۷] (۳)« قيظ» على وزن فيض بمعنى الحرارة الشديدة للصيف، وعليه فاضافة حمارة إلى قيظ تأكيد للحرارة.

[۱۵۸] (۴)« يسبخ» من مادة« سبخ» بمعنى التخفيف والتسكين.

[۱۵۹] (۵)« صبارة» من مادة« صبر» بمعنى حبس الشيء وحفظه، وتطلق الصبارة على شدة البرودة.

[۱۶۰] (۶)« ينسلخ» من مادة« سلخ» بمعنى إزالة القشر ومن هنا يطلق السلاخ على من يزيل جلد الحيوان، ثم اطلقت على كل فصل وإزالة.

[۱۶۱] (۱) قر له معنيان؛ الأول البرد والثانى الاستقرار فى مكان، ولا يبعد أن يعود المعنى الأول إلى الثانى، لأنّ البرد الشديد يصد الإنسان عن العمل.

[۱۶۲] (۲) سورة التوبة/ ۸۱.

[۱۶۳] (۱) سورة المائدة/ ۲۲- ۲۴.

[۱۶۴] (۱)« حلوم» من مادة« حلم» بمعنى ضبط النفس وقد وردت هنا بمعنى الآمال الفارغة الشبيهة بأحلام الأطفال.

[۱۶۵] (۲)« ربات» جمع« ربة» صاحب الشيء ومالكه، واستناداً إلى تاء التأنيث فانّها تستعمل فى المؤنث.

[۱۶۶] (۳)« حجال» جمع« حجلة» وصحيحه حجلة على وزن عجلة وهى القبة، موضع يزين بالستور، والمراد بربات الحجال النساء.

[۱۶۷] (۱) لابد من الالتفات هنا الى ان التعبير بقتالكم الى انهم كانوا فى مقام محاربة الله و احكامه، و انهم لا- محالة ملعونين مطرودين من رحمة الله و من هنا فان اغلب المفسرين ذهبوا الى ان الايه ۳۰ من سوره التوبه(قاتلهم الله) تعنى الطرد من رحمه الله(انظر المفردات للراغب و نشر طوبى للمرحوم العلامه الشعرانى).

[۱۶۸] (۲)« نغب» جمع« نغب» على وزن لقمه بمعنى شربه الماء كجرعه و جرع و قد شبه هنا الحزن بالماء المر الذى شربه الامام جرعه جرعه.

[۱۶۹] (۳)« التهام» من مادة« همم» بمعنى الهم، و يستعمل هذاالوزن عاده بمعنى المصدر مثل تكرار و تذكار.

[۱۷۰] (۴)« لله ابوهم» تقال هذه العباره للمدح، كما تطلق فى بعض الاحيان للتعجب، و مفهومها رحم الله والديهم.

[۱۷۱] (۵)« مراساً» و« ممارسة» بمعنى واحد، أى عالجه وزاوله وعاناه.

[۱۷۲] (۱)« ذرفت» من مادة« ذرف» بمعنى سيل الدمع، وقد وردت هنا بمعنى زدت على الستين.

[۱۷۳] (۱) سورة ابراهيم/ ۲۴- ۲۵.

[۱۷۴] (۲) نهج البلاغة، الكلمات القصار/ ۲۶۱.

[۱۷۵] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۱.

[۱۷۶] (۲) فى ظلال نهج البلاغة ۱/ ۱۹۲.

[۱۷۷] (۱) بحار الأنوار ۴۱/ ۶۲.

[۱۷۸] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۸۸- ۹۰.

[۱۷۹] (۱) تعتبر هذه الخطبة من الخطب المهمة لأمير المؤمنين على عليه السلام التى رواها كبار علماء الفريقين فى كتبهم ومؤلفاتهم، ومنهم ۱- الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين ۱/ ۱۷۱؛ ۲- الباقلانى فى كتاب إعجاز القرآن/ ۲۲۲؛ ۳- الحسن بن على بن شعبة فى

تحف العقول؛ ۴- ابن عبد ربهٔ فی العقد الفرید ۲/ ۳۶۵؛ ۵- ابن قتیبهٔ فی عیون الأخبار ۲- ۲۳۵؛ ۶- المسعودی فی مروج الذهب ۳/ ۳۶۵؛ کما رواها المرحوم العلّامهٔ المجلسی فی البحار عن کتاب مطالب السئول لمحمد بن طلحهٔ الشافعی وکتاب الإرشاد للمفید مع بعض الاختلاف.

[۱۸۰] (۱)« آذنت» من مادهٔ« اذن» بمعنی الاعلان، ومنه الاذان الذی یعلن وقت دخول الصلاهٔ.

[۱۸۱] (۱) نهج البلاغهٔ، الخطبهٔ ۱۸۸.

[۱۸۲] (۲)« اطلاع» من مادهٔ« طلع» بمعنی الظهور، وطلوع الشمس بمعنی ظهورها، ویری البعض أنّها تطلق علی‌العلم المفاجئ، وأشرفت باطلاع، أقبلت بغتهٔ.

[۱۸۳] (۳)« المضمار»: الموضع والزمن الذی تضمر فیه الخیل، وتضمیر الخیل أن تربط ویکثر علقها وماؤها حتی‌تسمن، ثم یقلل علفها وماؤها وتجری فی المیدان حتی تهزل، ثم ترد إلی القوت، والمدهٔ أربعون یوماً، وقد یطلق التضمیر علی العمل الأول أو الثانی، واطلاقه علی الأول لأنّه مقدمهٔ للثانی وإلّا فحقیقهٔ التضمیر احداث الضمور وهو الهزل وخفهٔ اللحم، وإنّما یفعل ذلک بالخیل لتخف فی الجری یوم السباق.

[۱۸۴] (۴)« السباق» من مادهٔ« سبق» ومسابقهٔ من باب مفاعلهٔ ولسباق نفس المعنی. وسبقهٔ بمعنی الهدف المطلوب‌الذی یتسابق من أجله أو بمعنی الجائزهٔ.

[۱۸۵] (۱) سورهٔ الحدید/ ۲۱.

[۱۸۶] (۲)« منیهٔ» من مادهٔ« منی» علی وزن نقی، قال صاحب مقاییس اللغهٔ بمعنی تقدیر الشیء، ثم اطلقت علی‌الموت والأجل، لأنّ الموت أمر مقدر، وتطلق المنی علی الأمانی التی تدور فی خلد الإنسان.

[۱۸۷] (۱) نهج البلاغهٔ، الخطبهٔ ۲۳۷.

[۱۸۸] (۱) ورد هذا الحدیث النبوی فی غوالی اللئالی ۱/ ۲۶۷.

[۱۸۹] (۲) نهج البلاغهٔ، الکلمات القصار/ ۱۳۱.

[۱۹۰] (۳) بحار الأنوار ۱۴/ ۳۱۹ ح ۲۱.

[۱۹۱] (۴) نهج البلاغهٔ، الکلمات القصار/ ۱۳۳.

[۱۹۲] (۵) نهج البلاغهٔ، الخطبهٔ ۲۰۳.

[۱۹۳] (۶) بحار الأنوار ۷۵/ ۳۶۶، مواعظ الإمام الهادی علیه السلام

[۱۹۴] (۱) سورهٔ المؤمنون/ ۱۰۰.

[۱۹۵] (۱) سورهٔ العنکبوت/ ۶۵.

[۱۹۶] (۲) سورهٔ الاسراء/ ۶۷.

[۱۹۷] (۱)« ظعن» علی وزن« طعن» بمعنی الرحیل من مکان إلی آخر ومن هنا اطلقت الظعینهٔ علی الهودج لأنّه من‌وسائل السفر، وتستخدم أحیاناً کنایهً عن النساء، لأنّهم غالباً مایرکبن الهودج.

[۱۹۸] (۱) سورهٔ آل عمران/ ۱۸۵.

[۱۹۹] (۲) سورهٔ النساء/ ۷۸.

[۲۰۰] (۳) سورهٔ الزمر/ ۳۰.

[۲۰۱] (۴) سورهٔ القصص/ ۸۸.

[۲۰۲] (۵) علی ضوء المعنی الأول فانّ الأمر فی قوله« أمرتم بالظعن» هو أمر تکوینی وأجل الهی ولکن لیس فی‌الجملهٔ من تقدیر،

وهو أمر تشريعى على ضوء المعنى الثانى وفى العبارة تقدير هو التجهز والاستعداد، أو الظعن بالمعنى المجازى.

[۲۰۳] (۶) سورة البقرة/ ۱۹۷.

[۲۰۴] (۷) سورة الشعراء/ ۸۸- ۸۹.

[۲۰۵] (۸) سورة الكهف/ ۴۶.

[۲۰۶] (۱) بحار الأنوار ۷۰/ ۹۱. فقد روى هذه الحديث جابر بن عبداللّه الأنصارى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى باب حب الدنيا.

[۲۰۷] (۲)« تحرزون» من مادة« حرز» بمعنى الحفظ، و« الحرز» على وزن الحرص بمعنى الموضع الآمن لحفظالأشياء.

[۲۰۸] (۱) سورة ص/ ۲۶.

[۲۰۹] (۲) سورة الجاثية/ ۲۳.

[۲۱۰] (۳) سورة النازعات/ ۴۰- ۴۱.

[۲۱۱] (۱) سورة الحجر/ ۳.

[۲۱۲] (۲) نهج البلاغة، الكلمات القصار/ ۳۶.

[۲۱۳] (۳) بحار الأنوار ۷۴/ ۱۷۳.

[۲۱۴] (۱) قال صاحب مصادر نهج البلاغة هذه من الخطب المعروفة التى رواها أغلب العلماء والمحدثين الذين عاشوا قبل السيد الرضى(ره) ومنهم:

۱- الجاحظ فى البيان والتبيين ۱/ ۱۷۰.

۲- ابن قتيبة الدينورى فى الإمامة والسياسة ۱/ ۱۵۰.

۳- ابن عبد ربة فى العقد الفريد ۴/ ۷۱.

۴- البلاذرى فى كتاب أنساب الأشراف(فى شرح سيرة على عليه السلام)/ ۳۸۰.

۵- القاضى نعمان المصرى فى دعائم الإسلام ۱/ ۳۹۱(مع اختلاف وما ورد فى النهج وقال الشارح الخوئى يستفاد من بحار الأنوار والاحتجاج والإرشاد أنّ هذه الخطبة جزء من الخطبة ۲۷(شرح نهج البلاغة، الخوئى ۴/ ۲۱).

[۲۱۵] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱۳/ ۱۱۷.

[۲۱۶] (۱)« يوهى» من مادة« وهى»، عناها صاحب المقاييس بالضعف ومن هنا يصطلح على الكلام الضعيفبالواهى. فالعبارة تعنى أن كلامكم يضعف ويفتت.

[۲۱۷] (۲)« الصم» جمع« أصم» وهو من الحجارة الصلب المصمت، و« الصلاب» جمع صليب، والصليب الشديد.

[۲۱۸] (۱)« كيت وكيت» من مادة« تكييت» بمعنى اعداد جهاز الناقة أو ملأ ظرف الماء، إلّاأنّ العبارة كيت وكيت تستعمل حيث يريد الفرد عمل كل شىء عن طريق الكلام، وهما كلمتان لا تستعملان إلّامكررتين ككناية عن الحديث.

[۲۱۹] (۲)« حيدى حياد»: صيغة فعل أمر من مادة« حيود» كنزال بمعنى أنزل، وهى كلمة يقولها الهارب عند الفرار والكتمان تأكيد لاحداهما الأخرى حيث تعنى الميل والانحراف عن الشىء.

[۲۲۰] (۱) سورة الاحزاب/ ۲۸.

[۲۲۱] (۲)« أعاليل» جمع اعلولة، ما يتعلل به و« أضاليل» جمع اضلولة بمعنى أسباب الضلالة، أى انكم تتشبثونبأسباب واهية من أجل إضلال أنفسكم والآخرين.

[۲۲۲] (۳) سورة التوبة/ ۳۸.

[۲۲۳] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۶۹.

[۲۲۴] (۱)« الضيم» يعنى الظلم والاضطهاد.

[۲۲۵] (۱) ان تقديم المغمور- الخبر للمبتدأ- يفيد الحصر، أى المغرور الواقعى هو هذا الفرد.

[۲۲۶] (۲)« أخيب» من مادة« خيب» بمعنى فقدان الشىء.

[۲۲۷] (۱) بحار الأنوار ۴۵/ ۸۳.

[۲۲۸] (۱) سورة القصص/ ۸۵.

[۲۲۹] (۱) بحار الأنوار ۷۵/ ۴۵.

[۲۳۰] (۲) بحار الأنوار ۷/ ۲۶۴.

[۲۳۱] (۳) سفينة البحار، مادة وطن.

[۲۳۲] (۴) نهج البلاغة، الكلمات القصار، ۴۴۲.

[۲۳۳] (۱) نهج البلاغة، الكلمات القصار، ۳۶۶

[۲۳۴] (۱) جاء فى مصادر نهج البلاغه أن هذه الخطبة جزء من رسالة كتبها الإمام عليه السلام حين خلافته، ثم ضمنها الحوادث التى أعقبت وفاة رسول اللّه صلى الله عليه و آله ثم أمر عليه السلام بقراءتها على الناس من أجل وحدة الرأى العام بهذا الشأن، كما احتمل أن تكون الخطب ۲۶، ۵۴، ۷۸ هى الاخرى جزء من هذه الرسالة.

ثم صرح بانّ هذه الخطبة وردت مع بعض التغييرات فى كتاب أنساب الاشراف(مصادر نهج البلاغه، ۱/ ۴۰۸).

[۲۳۵] (۱) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ۲/ ۵۷.

[۲۳۶] (۱)« إستأثر» من مادة« اثر»، بمعنى الاستبداد كما صرح بذلك القاموس ومنه الحكومة الاستبدادية لأنّهاحكومة فردية، يستعبد فيها الفرد سائر الناس.

[۲۳۷] (۱) قال صاحب مصادر نهج البلاغة نقل هذا الكلام طائفة من العلماء ممن سبقوا المرحوم السيد الرضى، منهم الزبير بن بكار(طبق نقل ابن أبى الحديد والجاحظ ...) وابن قتيبة فى عيون الأخبار وابن عبد ربّه فى العقد الفريد.

والطريف، نقله حتى إبن خلكان فى وفيات الأعيان وشهد بصحته وهو من رفع راية مخالفة نهج البلاغة. مصادر نهج البلاغة ۱/ ۴۱۸.

[۲۳۸] (۱)« عاقصا» من مادة« عقص» بمعنى التوى قرناه على أذنيه

[۲۳۹] (۲)« عريكة» من مادة« عرك» بمعنى الطبيعة، ولين العريكة بمعنى السلس، كما تأتى بمعنى إشتباك الشئ ومن هنا إطلقت المعركة على إشتباك الأفراد.

[۲۴۰] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۱۶۷.

[۲۴۱] (۱)« عدا» به معنى الصرف والاعادة، وفاعله ضمير مستتر يعود إلى ما، ويحتمل أن تكون من فى ممّا بمعنى عن، و بدا من مادة بدو بمعنى الظهور.

[۲۴۲] (۲) مصادر نهج البلاغة ۱/ ۴۱۱.

[۲۴۳] (۱) سورة الاحزاب/ ۵۳؛ الدر المنثور ۵/ ۲۱۴.

[۲۴۴] (۲) تفسير الفخر الرازى ۲۵/ ۲۲۵.

[۲۴۵] (۳) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۱۸۴.

[۲۴۶] (۴) الاحتجاج للطبرسى، نقلا عن سفينة البحار، مادة(طلح).

[۲۴۷] (۱) سورة التوبة/ ۱۰۰.

[۲۴۸] (۲) ورد ذمه فی تفسیر الآیة ۹۳ من سورة الانعام فی الدر المنثور(الدر المنثور ۳/ ۳۰) وذکر صاحب أسدالغابة أنه کان من کتاب الوحی ثم ارتد فأمر رسول الله صلی الله علیه و آله بقتله(اسد الغابة، شرح أخبار عبدالله بن سعد بن أبی سرح).

[۲۴۹] (۳) جاء فی أسد الغایة فی معرفة الصحابة فی أخبار هذا الرجل أن النبی صلی الله علیه و آله طرده، کما طردهالخلقاء الثلاثة(ابوبکر وعمر وعثمان) ولم یقبلوا زکاته، رغم قوله أنه من أصحاب رسول الله صلی الله علیه و آله حتی توفی فی خلافة عثمان.

[۲۵۰] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۱/ ۲۳۱.

[۲۵۱] (۱) نقل هذه الخطبة محمد بن طلحة الشافعی فی کتاب مطالب السئول وأضاف أنّ الإمام علیه السلام خطبها فی مسجد الکوفة، ویتضح من هذا أنّ له سند غیر نهج البلاغة، لأنّ نهج البلاغة لم یشر إلی موضع الخطبة. کما رواها الجاحظ فی البیان والتبیین، وأنّ أخطأ فی البدایة حیث نسبها إلی معاویة إلّاأنّه یعترف أخیراً بأنها لاتشبه کلام معاویة وهی من کلمات علی بن أبی طالب. مصادر نهج البلاغة ۱/ ۴۱۷.

[۲۵۲] (۱) سورة النمل/ ۵۶.

[۲۵۳] (۲) سورة هود/ ۲۷.

[۲۵۴] (۱) سورة الرعد/ ۱۱.

[۲۵۵] (۱) سورة الرعد/ ۱۱.

[۲۵۶] (۱) نهج البلاغة، الکلمات القصار، ۱۲۶.

[۲۵۷] (۱)« کلالة» علی وزن ضلالة بمعنی ضعف السلاح عن القطع فیقال کل السیف إذا لم یقطع.

[۲۵۸] (۲)« نضیض» بمعنی قلیل، والنضیض و فره، بمعنی القلیل ماله.

[۲۵۹] (۳) سورة البقره/ ۲۰۴- ۲۰۵.

[۲۶۰] (۴)« مصلت» من مادة« صلت» بمعنی الاظهار و السیف الصلت بمعنی السیف المشهور المصقول، ویقال المصلت لمن شهر سیفه.

[۲۶۱] (۵) أشرط من مادة شرط بمعنی العلامة، و معنی العبارة أنه أعد نفسه للفساد و الاهلاک، و کانه میز نفسه بهذالامر.

[۲۶۲] (۶)« اویق» من مادة« وبق» بمعنی الهلاک، أی اهلک نفسه.

[۲۶۳] (۷)« الحطام» علی وزن الغلام بمعنی المتکسر الذی لا قیمة له، و من هنا یطلق علی المال حطام الدنیا لزهادة قیمته.

[۲۶۴] (۸)« ینتهزه» من مادة« نهز» بمعنی الحرکة من أجل القیام بعمل، کما وردت بمعنی الحرکة من أجل نیل غنیمة، و علیه ینتهز بمعنی یغتنمه.

[۲۶۵] (۹)« مقتب» علی وزن محور تعنی طائفة من الخیل، وقد وردت فی العبارة بمعنی طائفة من الناس، ولعل العبارة أشارة لجهلهم وعدم علمهم.

[۲۶۶] (۱۰)« یفرع» من مادة« فرع» أعلی الشئ وقد وردت هنا بمعنی علا المنبر وارتقاه.

[۲۶۷] (۱) سورة البقرة/ ۱۶.

[۲۶۸] (۲) سورة البقرة/ ۲۰۷.

[۲۶۹] (۳) نهج البلاغة، الکلمات القصار ۴۵۶.

[۲۷۰] (۱)« طامن» و« اطمینان» من مادة واحدة بمعنی السکینة والهدوء، وهی تشیر فی العبارة إلی الوقار والتواضعالصوری والظاهری.

[۲۷۱] (۲)« شمر» من مادة« شمر» بمعنی الترتیب والاعداد.

[۲۷۲] (۳) وسائل الشیعة ۱/ ۵۱.

[۲۷۳] (۱)« ضوولة» بمعنى الضعف و العجز.

[۲۷۴] (۲)« مراح» من مادة« روح» مصدر ميمى من راح إذا ذهب فى العشى

[۲۷۵] (۳)« مغدى» من مادة« غدو» مصدر ميمى من غدا إذا ذهب فى الصباح، وقيل مكان الحيوانات فى النهار فى مقابل المراح فى الليل.

[۲۷۶] (۱) فى ظلال نهج البلاغة، الخطبة المذكورة.

[۲۷۷] (۲) سورة النور/ ۳۷.

[۲۷۸] (۳)« شريد» من مادة« شرد» بمعنى هروب الناقة، ثم اطلقت على كل من يهرب من قومه.

[۲۷۹] (۴)« ناد» من مادة« ند» بمعنى المنفرد الهارب من الجماعة إلى الوحدة.

[۲۸۰] (۵)« مقموع» من مادة« قمع» بمعنى المقهور والمغلوب، وتعنى الاقتلاع أيضاً.

[۲۸۱] (۶)« مكعوم» من مادة« كعم»، كعم البعير بمعنى شد فاه، ثم اتسعت لتطلق على كل فم يشد.

[۲۸۲] (۷)« ثكلان» من مادة« ثكل» بمعنى فقد الاحبة، كما وردت بالنسبة للإنسان الذى يعيش العزاء بمعنى الشخص الباكى الحزين.

[۲۸۳] (۸) شرح نهج البلاغة محمد عبده والعلامة الخوئى وابن أبى الحديد.

[۲۸۴] (۱)« أخمل» من مادة« خمل» بمعنى أسقط ذكره حتى لم يعد له بين الناس نباهة.

[۲۸۵] (۲)« اجاج» من مادة« أجج» بمعنى الملوحة والمرارة.

[۲۸۶] (۳)« ضامزة» من مادة« ضمز» بمعنى السكوت والتحفظ عن الكلام

[۲۸۷] (۴) شرح نهج البلاغة لابن ميثم، والعلّامة الخوئى وفى ظلال نهج البلاغة لمحمد عبده.

[۲۸۸] (۱)« حثالة» بالضم: القشاوة وما لاـخير فيه، واصله ما يسقط من كل ذى قشر، ومن هنا تطلق الحثالة على حشاشة الدهن المتساقطة.

[۲۸۹] (۲)« قراضة» من مادة« قرض» بمعنى قطف الشى وتطلق على القطع الصغيرة المتناثرة من المقراض ومن هنا يطلق المقراض على المقص.

[۲۹۰] (۳)« جلم» على وزن قلم بمعنى المقراض.

[۲۹۱] (۱) سورة الدخان/ ۲۵- ۲۹.

[۲۹۲] (۲)« أشغف» من مادة« شغف» بمعنى اكثر تعلق بالدنيا و حبالها. وقد أخذت فى الأصل من شغاف وهو الغلاف الذى يضم القلب، كما تستعمل فى العشق الشديد الذى يجتاح القلب وينفذ إلى أعماقه.

[۲۹۳] (۱) بحار الانوار ۷۰/ ۱۲۲.

[۲۹۴] (۱) منهاج البراعة ۴/ ۵۸؛ بحار الانوار ۱۴/ ۳۲۸.

[۲۹۵] (۱) روى السيد الرضى(ره) هذه الخطبة فى موضعين من نهج البلاغة: مرة هنا و أخرى فى الخطبة ۱۰۴ حيث قال هناك: وقد مر جانب من هذه الخطبة(إشارة إلى هذه الخطبة ۳۳) وقد ذكرتها ثانية بسبب إختلاف بعض العبارات. قال صاحب مصادر نهج البلاغة: ومن هنا يتضح مدى إحتياط السيد الرضى فى نقل كلمات أمير المؤمنين عليه السلام. ثم قال: يفهم من رواية الشيخ المفيد فى الإرشاد أنّ الإمام عليه السلام خطبها فى الربذة حيث توقف هناك جمع من حجاج بيت الله وقد تجمعوا حين سمعوا بالإمام عليه السلام ليصغوا إلى كلامه ولم يكن الإمام عليه السلام قد خرج من خيمته. قال إبن عباس دخلت الخيمة فرأيت الإمام عليه السلام يخصف نعله. فقال: يابن عباس: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها. قال: قل. قلت: أقلّ من درهم. قال: والله، لهى أحب إلىّ من إمرتكم، إلاـ أن أقيم حقا أو أدفع باطلاـ فقلت: لقد إجتمع حجاج بيت الله ليسمعوا ما تقول. هلاـ أذنت لى أن أخطبهم؟ قال عليه

السلام: لا أنا أحدّثهم. فخرج من الخيمة فخطب بهذه الخطبة(مصادر نهج البلاغة، ۱/ ۴۲۱- ۴۲۲).

قال صاحب المستدرک ومدارک نهج البلاغة رواها الشيخ المفيد فی کتاب الإرشاد، المستدرک، ص ۲۴۲.

[۲۹۶] (۲)« يخصف» من مادة« خصف» بمعنی وصل الأشياء ورقعها.

[۲۹۷] (۳)« امرة» علی وزن فطرة بمعنی الحکومة.

[۲۹۸] (۱) سورة الانعام/ ۹۱.

[۲۹۹] (۱)« بوأ» من مادة« بوء» بمعنی تعبيد المکان ضد النبوة بمعنی المرتفع وغير المعبد، وقد وردت هنا بمعنیتنظيم وترتيب موقع الاستقرار.

[۳۰۰] (۲)« قنات» من مادة« قنو» بمعنی جذع الشجرة، کما تغنی العود والرمح، والمراد بها هنا القوة والغلبة والدولة، وقوله إستقامت قناتهم تمثيل لاستقامة أحوالهم.

[۳۰۱] (۳)« صفات»، حجر مستوی وکبير ومحکم وواسع.

[۳۰۲] (۱)« ساقه» من مادة« سوق» جمع سائق، واصلها سوقه واصحب ساق بيت الاعلال.

[۳۰۳] (۲)« حذا فير» جمع حذ فور بمعنی الشريف والجمع الکثير، وقد جاءت هنا بمعنی جميع جوانب الموضوع. وهنا ينبغی الالتفات إلی أن. ضمير الهاء فی ساقتها يعود إلی الناس فی عصر الجاهلية الذين إعتنقوا الإسلام، ويمکن أن يکون الضمير فی تولت وحذا فيرها عائدا إلی أعداء الإسلام الذين تقهقروا ابان نصر الإسلام، کما يمکن أن يعود إلی أهل الجاهلية الذين أقبلوا علی الإسلام.

[۳۰۴] (۱)« أنقبن» من مادة« نقب» بمعنی الثقب والشق ويطلق النقب علی الآبار تحت الأرض وذلک لأنها تنقبالأرض- ومنه البحث والتنقيب حين تأمل المطالب وإظهار الحقائق والنقيب العالم بحال القوم.

[۳۰۵] (۱) الکامل لابن أثير ۱/ ۴۸۲.

[۳۰۶] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحديد ۲/ ۱۸۷- ۱۸۸(بتصرف).

[۳۰۷] (۱) سورة المعارج/ ۱.

[۳۰۸] (۲) سورة الانفال/ ۳.

[۳۰۹] (۱) صحيح الترمذی ۵/ ۶۳۴(طبعة دار إحياءالتراث العربی) کما ورد هذا الحديث فی کتاب ينابيع المودة/ ۵۹. وورد فی کتب أعلام الشيعة ومنها بحارالانوار، ۳۲/ ۳۰۰ وإحقاق الحق، ۶/ ۴۲۵.

[۳۱۰] (۱)« مفتونين» من مادة« فتنة» بمعنی الامتحان والابتلاء کما جاءت بمعنی العذاب والخداع والضلال، وقدوردت هنا بمعنی الضلال.

[۳۱۱] (۱) رواها إبن المغازلی الشافعی فی کتاب مناقب أمير المؤمنين وابن أبی الحديد فی شرح نهج البلاغةوالمحقق الکرکی فی نفحات اللاهوت لاحقاق الحق(۶/ ۴۴۰). وقد قال ابن أبی الحديد فی شرحه للرسالة ۶۵ من نهج البلاغة لو فرضنا أن النبی صلی الله عليه و آله لم يوص بعلی عليه السلام- کما تقول الإمامية- ولکن ألا يعلم معاوية وغيره من الصحابة أنّ رسول الله صلی الله عليه و آله قال ألف مرة فی علی عليه السلام:« أنا حرب لمن حاربت وسلم لمن سالمت» وقال« اللّهم عاد من عاداه ووال من والاه» وقال« أنت مع الحق والحق معک»(شرح نهج البلاغة لابن أبی الحديد ۱۸/ ۲۴).

[۳۱۲] (۲) وسائل الشيعة ۱۱/ الباب ۲۵ من أبواب جهاد العدو، ح ۷، وللوقوف بصورة أعمق راجع کتاب أنوار الفقاهة، کتاب الخمس والانفال/ ۷۰.

[۳۱۳] (۳) للوقوف أکثر علی هذه الروايات راجع أنوار الفقاهة(کتاب الخمس والانفال)/ ۷۵.

[۳۱۴] (۱) لم يرد فی شروح نهج البلاغة شئ بشأن الأول هل يقابل الثانی، أم أنّها إشارة إلی أحد الشعراء الأوائل، أم المراد به اسم

شاعر غير معروف. ويبدو الإحتمال الأول أنسب.

[۳۱۵] (۲)« المحض» بمعنى اللين الخالص بلا رغوة الذى لم يخالطه ماء، ثم إطلق على كل شئ خالص.

[۳۱۶] (۳)« زبد» من مادة« زبد» بمعنى استخراج شئ من آخر، ومن هنا يطلق الزيد على ما يستخرج من الحليب.

[۳۱۷] (۴)« مقشرة» من مادة« قشر» وتطلق على التمرة بعد نزع نواتها.

[۳۱۸] (۵)« بجر» على وزن برج من مادة« بجر» بمعنى ظهور السرة، كما وردت بمعنى التهم فى الأكل، ويطلق الأبجر على صاحب البطن والحريص.

[۳۱۹] (۶)« جرد» من مادة« جرد» بمعنى الخيول الصغيرة قليلة الشعر

[۳۲۰] (۷)« سمراء» من مادة« سمر» بمعنى السهرة والسامر تقال لمن يقضى الليل صاحيا لسهرة أو حراسة أو هدف آخر.

[۳۲۱] (۱) سورة الانعام/ ۱۲۴.

[۳۲۲] (۲) سورة النساء/ ۵۴.

[۳۲۳] (۳) سورة آل عمران/ ۲۶.

[۳۲۴] (۱) غر الحكم، الرقم ۵۲۴۲

[۳۲۵] (۲) بحار الانوار ۷۰/ ۲۵۸.

[۳۲۶] (۱) رواها الطبرى فى تأريخه ۶/ ۵۱ وابن قتيبة فى الإمامة والسياسة ۱/ ۱۵۰ والبلاذرى فى أنساب الاشراف/ ۳۸۰، وكذلك المرحوم الشيخ المفيد فى الامالى(المجلس ۱۸) بصورة أكثر إختصارا ممّا وردت فى نهج البلاغة(مصادر نهج البلاغة ۱/ ۴۲۵) ورواها المرحوم العلّامة المجلسى فى بحار الانوار عن مطالب السئول محمد بن طلحة الشافعى(بحار الانوار ۷۴/ ۳۳۳).

[۳۲۷] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۱۹۲.

[۳۲۸] (۱) شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحرانى ۲/ ۷۷ والعلّامة الخوئى ۴/ ۷۲.

[۳۲۹] (۱) قال الراغب فى المفردت« أف» فى الأصل تعنى كل شئ قذر وهى كلمة تضجر تطلق للمهانة والاستحقار. فمثلًا يقال« أففت بكذا» أى تضجرت منه واستقذرته. وقال البعض« أف» تعنى مايجتمع من الأوساخ تحت الأظافر وقال البعض أن التراب والغبار إذا علق ببدن الإنسان فان نفخه يشبه القول« اوف» أو« اف» ثم استخدمت هذه المفردة بمعنى اظهار التضجر والنفرة ولا سيما من الاشياء الصغيرة. ونخلص ممّا ذكر ومن بعض القرائن إلى أن هذه المفردة كانت فى الاصل إسم صوت.

[۳۳۰] (۲)« سئمت» من مادة« سئم» بمعنى الملل، التى تتعدى أحيانا بحرف من وأحيانا اخرى بدونها، وسئمتهوسئمت منه. بمعنى واحد، وعليه سئمت عتابكم بمعنى سئمت من عتابكم.

[۳۳۱] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۵۱.

[۳۳۲] (۲)« غمرة» الواحدة من غمر وهو الستر، وغمرة الموت الشدة التى ينتهى إليها المحتضر، وهى الحالة التى كان يعيشها جيش الكوفة.

[۳۳۳] (۳)« حوار» من مادة« حور» بمعنى الرجوع وتطلق على المحادثة بين الأفراد والتى يصطلح عليها بالمحاورة، وقد وردت بهذا المعنى فى العبارة.

[۳۳۴] (۴)« تعمهون» من مادة« عمه» بمعنى تتحيرون وتترددون.

[۳۳۵] (۵)« المألوسة» من مادة« ألس» تعنى فقدان العقل، ومن هنا تستعمل حيث الخدعة التى تسلبِ عقل المقابل، وهى تعنى المخلوطة بمس الجنون.

[۳۳۶] (۱)« سجيس» من مادة« سجس» بمعنى تغيير لون الماء وتكدره، ومن هنا اطلقت« سجيس الليالى» على ظلمةالليل وكأنّ اصل

الاستعمال ما دامت الليالى بظلامها، وهكذا وردت فى العبارة.

[۳۳۷] (۲)« زوافر» جمع زافرة من مادة« زفر» بمعنى التنهد وهو التنفس بصوت. كما يطلق الزفير على صوت النار، والزافرة بمعنى الأنصار والأقوام والعشيرة.

[۳۳۸] (۱) على سبيل المثال راجع نهج البلاغة، الخطبة ۱۰۷ و ۱۱۸

[۳۳۹] (۱) لعمر اللّه، مفهوم هذه العلمة القسم بالعمر ومدة الحياة، ولما لم يكن للعمر من معنى بالنسبة لله فانّ المعنى هنا« قسماً بالله» وقد تقدم شرح هذه العبارة فى الخطبة الرابعة والعشرين.

[۳۴۰] (۲)« سعر» جمع ساعر من مادة« سعر» بمعنى أوقد النار وسعر بمعنى شعلة النار، والمراد ليئس موقدو الحرب أنتم.

[۳۴۱] (۱) سورة الحج/ ۳۹.

[۳۴۲] (۲) سورة البقرة/ ۱۹۰.

[۳۴۳] (۳)« تمتعضون» من مادة معنى« معض» الابتئاس والغضب.

[۳۴۴] (۱) أوردنا شرحاً وافياً فى المجلد الأول ذيل الخطبة رقم ۱۰ لعبارة« وآيم الله» التى تفيد مفهوم القسم.

[۳۴۵] (۲)« حمس» من مادة(ح م س) بمعنى إشتد وصلب، والحماسة والتحمس بمعنى التشديد والتشدد ولاسيما فى الحرب ويقال الاحمس للرجل الشجاع الذى يقف بصلابة بوجه العدو.

[۳۴۶] (۳)« الوغى» بمعنى الضجيج والصوت والجلبة فى ميدان القتال، كما يقال لنفس الحرب الوغى، وهكذا وردت فى العبارة.

[۳۴۷] (۴)« إستحر» من مادة« حرر» بمعنى اشتداد الحر، وهو إشارة لايثار الفرار على الثبات فى المعركة إذا إشتد القتال وبلغ حدته.

[۳۴۸] (۵) يبدو هذا الاحتمال مستبعدا لوجود التقدير فى الجملة، لان العبارة« قد إنفرجتم عن ابن أبى طالب» تتطلب أن يكون تقدير العبارة« إنفراج الرأس» هو« إنفراج الرأس عن الجسد» أو« إنفراج الجسد عن الرأس» كما ورد مثل هذا التعبير فى الخطبة ۹۷« انفرجتم عن على بن أبى طالب انفراج المرأة عن قبلها».

والعجيب ما اورده شرّاح نهج البلاغة من تفاسير غريبة لهذه العبارة، حتى ذكروا ثمانية وجوه أو أكثر لانرى ضرورة للخوض فيها.

[۳۴۹] (۱)« يعرق» من مادة« عرق» بمعنى فصل اللحم عن العظم، كما ورد بمعنى فصل اللحم عن العظم بالأسنانوأكله.

[۳۵۰] (۲)« يهشم» من مادة« هشم» بمعنى كسر الشى اليابس كما ورد بمعنى كسر مطلق العظام، أو عظام الرأى و الوجه.

[۳۵۱] (۳)« يفرى» من مادة« فرى» بمعنيشق الشئ و تمزيقه.

[۳۵۲] (۴)« جوانح» جمع« جانحة»، و هى الضلوع تحت الترائب، اصلها من مادة« جنح» بمعنى الميل و الانحراف، و قد اطلقت على الاضلاع لأنّها ليست بشكل مستقيم.

[۳۵۳] (۱) شرح نهج البلاغة ابن ميثم البحرانى ۲/ ۸۱.

[۳۵۴] (۲) فى ظلال نهج البلاغة/ ۲۲۸.

[۳۵۵] (۳) مفتاح السعادة ۶/ ۸۲.

[۳۵۶] (۱)« قراش» جمع« قراشه» بعنى العظام الرقيقة التى تلى القحف أو عظام الجبهة والرأس، وهام جمع هامةبمعنى الرأس كما تطلق على زعيم القبيلة.

[۳۵۷] (۲)« تطيح» من مادة« طوح» بمعنى الهلاك أو الاشراف على الهلاك. ولما كان فصل اليد والرجل يشكل القضاء عليهم فقد اطلقت بهذا المعنى فى العبارة المذكورة.

[۳۵۸] (۱) للوقوف على خطبة الإمام عليه السلام ليلة عاشوراء وما قاله صحبه الاوفياء راجع بحار الانوار ۴۴/ ۳۹۲.

[۳۵۹] (۲) سورة المائدة/ ۲۴.

[۳۶۰] (۱) سورة المائدة/ ۲۵.

[۳۶۱] (۲) سورة يونس/ ۷۱.

[۳۶۲] (۱) مفتاح السعادة ۶/ ۸۴- ۸۵.

[۳۶۳] (۲) نهج البلاغة، الخطبة ۴۰.

[۳۶۴] (۱) اصول الكافى ۱/ ۴۰۵.

[۳۶۵] (۱) وردت هذه الخطبة مع اختلاف طفيف فى مروج الذهب للمسعودى والكامل لابن أثير وأنساب الأشراف للبلاذرى وتاريخ الطبرى والإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينورى وصفين لنصر بن مزاحم، كما رواها البسط بن الجوزى فى تذكرة الخواص وأبوالفرج الإصفهانى فى الأغانى(مصادر نهج البلاغة، ۱/ ۴۵۹).

[۳۶۶] (۱)« خطب» على وزن ختم العمل المهم بين الإنسان والآخرين ومن هنا يصطلح بالمخاطبة على الحوار الذى يدور بين فرد وآخر.

[۳۶۷] (۲)« فادح» بمعنى ثقيل ومن هنا يقال أفدحه الدين لمن أثقل كاهله.

[۳۶۸] (۱)« مجرب» على وزن محقق ممن يتمتع بمعرفة عظيمة بفعل كثرة التجارب إلّاأنّ العرب تلفظه مجرببالفتح على وزن مقرب.

[۳۶۹] (۱)« نخلت» من مادة« نخل» بمعنى تنقية الشئى، واستعمال هذه المفردة فى الخطبة تشير إلى الرأى الصائبالذى طرحه الإمام عليه السلام على أصحابه بشأن التحكيم.

[۳۷۰] (۲)« منابذين» من مادة« نبذ» بمعنى الابعاد، وتستعمل هذه المفردة فى نقض العهد، وذلك لان ناقض العهد إنّما يطرح العهد بعيدا عنه.

[۳۷۱] (۳)« ضن» من مادة« ضنن» بمعنى البخل والامساك.

[۳۷۲] (۴)« زند» بمعنى الخشب الذى يشعلون به النار(حيث كانوا يولدون النار سابقا بضرب خشبتين ببعضهما، ثم اطلق على كل وسيلة لاشعال النار ومنه الزناد.).

[۳۷۳] (۵)« قدح» ومنه القداحة ما يخرج منه النار.

[۳۷۴] (۱) راجع مروج الذهب ۲/ ۲۹۰ وسترد بعض الايضاحات لهذه الخطبة لاحقاً.

[۳۷۵] (۲) الاغانى لابى الفرج الاصفهانى ۱۰/ ۳، شرح نهج البلاغة للعلّامة الخوئى ۴/ ۸۸، شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۲۰۵.

[۳۷۶] (۱) إقتباس وتلخيص لما ورد فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۲۰۶- ۲۵۶.

[۳۷۷] (۲) سورة الشورى/ ۳۸

[۳۷۸] (۳) سورة آل عمران/ ۱۵۹.

[۳۷۹] (۱) وردت هذه الخطبة أو بعضها مسندة أو مرسلة من قبل المؤرخين والمحدثين.

م- قال ابن أبى الحديد(۲/ ۲۸۳) نقلها ابن حبيب البغدادى(المتوفى عام ۲۵۴).

ب- ابن قتيبة الدينورى فى الامامة والسياسة، ۱/ ۱۲۷.

ج- البلاذرى فى أنساب الأشراف، ۲/ ۳۷۱.

ء- الطبرى فى تأريخ الرسل والملوك، ۶/ ۳۳۷۷.

[۳۸۰] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۲۸۳.

[۳۸۱] (۲)« صرعى جمع« صريع» من مادة« صرع» بمعنى طريح، و تعنى الجنازة أو المقتول الملقى على الأرض؛ كما يطلق على من

يسقط على الأرض فى المصارعة، و من هنا يطلق مرض الصرع على من يغمى عليه و يقع على الأرض.

[۳۸۲] (۳)« أهضام» جمع هضم وهو المطمئن من الوادى وتعنى الكسر والضغط.

[۳۸۳] (۴) الغائط ما سفل من الأرض والمراد هنا المنخفضات.

[۳۸۴] (۵)« طوحت» من مادة« طوح» بمعنى السقوط والهلكة، وإذا ورد من باب التفعيل كما ورد فى الخطبة فانّه‌بمعنى القذف فى المتاهة والمضلة.

[۳۸۵] (۶)« احتبل» من مادة« حبل»، أوقعكم فى حباله، والمقدار القدر الإلهى.

[۳۸۶] (۱)« الهام» جمع هامة رأس الإنسان أو سائر الكائنات الحية، واخفاء الهام تغنى ضعاف الفعل.

[۳۸۷] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۲۸۱ و تأريخ الطبرى ۲/ ۶۰- ۶۱، حوادث عام ۳۷.

[۳۸۸] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۲۷۱- ۲۸۲.

[۳۸۹] (۱) قال صاحب مصادر نهج البلاغة هذه من الخطب المعروفة التى رواها أغلب العلماء والمحدثين الذين عاشوا قبل السيد الرضى(ره) ومنهم:

۱- الجاحظ فى البيان والتبيين ۱/ ۱۷۰.

۲- ابن قتيبة الدينورى فى الإمامة والسياسة ۱/ ۱۵۰.

۳- ابن عبد ربة فى العقد الفريد ۴/ ۷۱.

۴- البلاذرى فى كتاب أنساب الأشراف(فى شرح سيرة على عليه السلام)/ ۳۸۰.

۵- القاضى نعمان المصرى فى دعائم الإسلام ۱/ ۳۹۱(مع اختلاف وما ورد فى النهج وقال الشارح الخوئى يستفاد من بحار الأنوار والإحتجاج والإرشاد أنّ هذه الخطبة جزء من الخطبة ۲۷(شرح نهج البلاغة، الخوئى ۴/ ۲۱).

[۳۹۰] (۱)« تطلعت» من مادة« طلع» بمعنى مد العنق بحثا عن شى، وأصلها طلوع بمعنى الظهور والبروز.

[۳۹۱] (۲)« تقبعوا» من مادة« قبع» بمعنى الاختباء، وأصله تقبع القنفذ إذا أدخل رأسه فى جلده.

[۳۹۲] (۳)« تعتعوا» من مادة« عتع» بمعنى تلعثم اللسان، والمراد ترددوا فى كلامهم.

[۳۹۳] (۴) فوت تعنى فقدان الشى، وتطلق على التفاوت بين شيئين وابتعاد هما عن بعضهما بحيث لا يدرك أحد هماالآخر، ومن هنا تطلق هذه المفردة على من يسبق الآخرين، وهذا هو الذى اريد بها فى العبارة.

[۳۹۴] (۵)« الرهان» من مادة« رهن» بمعنى جعل الشى عند الاخر، ومن هنا يطلق الرهن على وثيقة الدين، كما يطلق‌الرهان على جوائز المسابقات، والمراد بقوله« استبددت برهانها» إنفردت بجائزة هذه المسابقة الإلهية.

[۳۹۵] (۱) لم يكن فى مهمز من الهمز يعنى لم يكن فى عيب أعاب به.

[۳۹۶] (۲)« الغمز» بمعنى الطعن والغماز من يبحث عن العيوب ويطعن بالناس، وهذا هو المراد بالعبارة.

[۳۹۷] (۱) ورد هذا الحديث بعدة تعبيرات فى أغلب مصادر العامة، ومن أراد الوقوف على المزيد فليراجع الغدير ۳/ ۹۷.

[۳۹۸] (۱) لقد أوردنا توضيحات مسهبة بهذا الشأن فى شرح الخطبة الشقشقية.

[۳۹۹] (۱) نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

[۴۰۰] (۱) روضة الكافى/ ۶۹ ح ۲۶.

[۴۰۱] (۲) نهج البلاغة، الرسالة ۴۷.

[۴۰۲] (۳) نهج البلاغة، الخطبة ۱۳۶.

[۴۰۳] (۴) سورة النساء/ ۷۵.

[۴۰۴] (۱) بحار الانوار ۴۲/ ۱۳۳.

[۴۰۵] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبی‌الحدید ۲/ ۲۹۶؛ محمد عبده الشارح المعروف والعلّامة الخوئی إختاروا هذاالمعنی أیضاً.

[۴۰۶] (۱) نقل هـذه الخطبـة الامـدی فی غررالحکم مع إختلاف طفیف وما ورد فی نهج‌البلاغـة، ویفهم من هذا أنّ الآمدی قد روی هذه الخطبة من مصدر آخر غیر نهج‌البلاغة(مصادر نهج‌البلاغة ۱/ ۴۳۵).

[۴۰۷] (۱) سـمت بمعنی الطریق أو الجادة، کما تطلق مشـکل المحسنین، والتسمیت هو الدعاء لمن یعطس حیث‌یسأل الله له السلامة، فالعطسة من علامات السلامة.

[۴۰۸] (۲) سورة البقرة/ ۲.

[۴۰۹] (۱) سورة یونس/ ۶۲- ۶۴.

[۴۱۰] (۲) سورة النور/ ۴۰.

[۴۱۱] (۳) صحیح البخاری ۶/ ۱۰ باب کتاب النبی صلی الله علیه و آله إلی کسری وقیصر.

[۴۱۲] (۱) وردت هذه الخطبة فی ثلاثة مصادر علی الأقل قبل السـید الرضـی وهی: الغارات لابراهیم بن هلال الثقفی(۲۸۳) وأنساب الاشراف للبلاذری الذی أورد بعضها وتأریخ الطبری الذی روی بعض أقسامها، وکذلک مصادر نهج‌البلاغة ۱/ ۴۳۸.

[۴۱۳] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۱/ ۴۳۷.

[۴۱۴] (۱)« تحمش» من مـادة« حمش»، قال صاحب المقاییس لها معنیین الغضب والنحافـة، وقـد وردت هنا بمعنی‌الغضب؛ أی ألیس لکم حمیة تغضبکم علی عدوکم.

[۴۱۵] (۲) نهج‌البلاغة، الخطبة ۱۲۱.

[۴۱۶] (۳)« مستصرخ» من مادة« صرخ»، الصراخ حین الخوف أو المصاب وطلب النصرة.

[۴۱۷] (۴)« متغوث» من مادة« غوث» بمعنی النصرة حین الشدة، وعلیه یطلق المتغوث علی من یطلب نصرة الآخرین عند الشدائد.

[۴۱۸] (۵)« المساءة» مصدر مادة« سوء»، بمعنی فقد ان النعم المادیه أو المعنویة الدنیویة أو الاخرویة، البدنیة أو غیرالبدنیة.

[۴۱۹] (۱)« جرجرة» صوت یردده البعیر فی حنجرته عند عسفه، وقیل من مادة« الجرر» بمعنی الجر، واطلق الجررلتکراره.

[۴۲۰] (۲)« أسر» من مادة« سرر» المصاب بداء السرر، وهو مرض فی کرکرة البعیر أی زوره ینشأ من الدبرة والقرحة.

[۴۲۱] (۳)« النضو» المهزول من الابل، والأدبر المدبور، أی المجروح المصاب بالدبرة، وهی العقر والجرح من‌القتب ونحوه.

[۴۲۲] (۴)« أدبر» من مادة« دبر» بمعنی الجرح الذی یتعرض له الحیوان إثر ضغط السراج.

[۴۲۳] (۵) جنید مصغر جند.

[۴۲۴] (۶)« متذائب» بمعنی مضطرب، من قولهم تذاءبت الریح أی إضطرب هبوها ومنه سمی الذئب ذئباً لاضطراب مشیته.

[۴۲۵] (۱) نهج‌البلاغة، الخطبة ۲۷.

[۴۲۶] (۱) سورة الانعام/ ۵۷؛ سورة یوسف/ ۴۰ و ۶۷.

[۴۲۷] (۱) العلّامة الخوئی ۴/ ۱۸۳ من شـرح نهج‌البلاغة قد أشار إلی هذا المعنی، ویسـتفاد من التأریخ الکامل لابن‌أثیر أن ابن عباس احتج علی الخوارج بهذه الآیة(الکامل ۳/ ۳۲۷).

[۴۲۸] (۲) سورة النساء/ ۳۵.

[۴۲۹] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبی الحدید ۲/ ۳۰۸.

[۴۳۰] (۲)« إمرة» علی وزن عبرة مصدر أو إسم مصدر من مادة« أمر»، و« الامرة» هنا بمعنی الحکومة.

[۴۳۱] (۳) واضـح ان الضـمیر فی إمرته یعود إلی مطلق الامیر سواء البر أو الفاجر وکذلک ضـمیر فیها، ولیس صـحیح ما اورده بعض

شرّاح نهج‌البلاغة من أنّ الأول يعود إلى البر والثانى إلى الفاجر، أو كلاهما للفاجر.

[۴۳۲] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۳۱۰.

[۴۳۳] (۱) ميزان الحكمة ۱/ ۹۸.

[۴۳۴] (۱) رواها ابن طلحة الشافعى فى مطالب السئوال، صحيح أنّ ابن طلحة الشافعى عاش بعد السيد الرضى إلّاأنّ رواية أبن طلحة تفيد أنّه عثر عليها فى مصدر غير نهج‌البلاغة. ورواها الجاحظ فى رسالة المعاش والمعاد وقال فى مطلع الخطبة« الصدق والوفاء تؤامان» وهذا يدل على أنّه رأها فى المصادر التى صنفت قبل الرضى(لأن الجاحظ عاش أوائل القرن الثالث بينما يعتبر السيد الرضى من كبار علماء أواخر القرن الرابع) مصادر نهج‌البلاغة ۱/ ۴۴۰.

[۴۳۵] (۱)« توأم» من مادة« وئام» بمعنى الموافقة حسبما صرح بعض أرباب اللغة، بينما ذهب البعض كصاحب‌المقاييس إلى أنّ التاء أصلية، واتئام(مصدر باب إفعال) بمعنى ولادة أحد مع الآخر من حمل واحد.

[۴۳۶] (۱) سورة الأحزاب/ ۲۳.

[۴۳۷] (۲)« جنة» على وزن« غصة» بمعنى الدرع واشتقت فى الأصل من مادة جن على وزن فن بمعنى الستر ومنه‌المجنون، كما تطلق الجنة على البستان كأنه تغطى بالأشجار، ومنه الجنين المغطى برحم الأم وإطلاق الجن على تلك الجماعة لخفائها.

[۴۳۸] (۳) نوادر الروندى/ ۵.

[۴۳۹] (۴) بحارالأنوار ۹۷/ ۴۶.

[۴۴۰] (۱) نهج‌البلاغة، الخطبة ۲۰۰.

[۴۴۱] (۲) بحارالانوار ۷۲/ ۱۱۴.

[۴۴۲] (۳) غرر الحكم ح ۸۳- ۲.

[۴۴۳] (۴) فروع الكافى ۵/ ۱۲۴.

[۴۴۴] (۱)- الحول القلب بضم الاول وتشديد الثانى هو البصير بتحويل الامور وتقليبها.

[۴۴۵] (۲)« ينتهز» من مادة« إنتهاز» بمعنى الإقدام على عمل، كما يعنى الاستفادة التامة من الفرصة.

[۴۴۶] (۳)« حريجة» من مادة« حرج» بمعنى التحرج والتحرز من الآثام، ويأتى الحرج أحياناً بمعنى الذنب.

[۴۴۷] (۱) كنز العمال ۳/ ۱۶ ح ۵۲۱۷.

[۴۴۸] (۲) نهج‌البلاغة، الخطبة ۳.

[۴۴۹] (۳) بحارالانوار ۴۴/ ۳۲۹.

[۴۵۰] (۱) نهج‌البلاغة، الخطبة ۲۰۰، وروى عنه عليه السلام أنّه قال:« لولا- التقى- أو لولا- الدين والتقى لكنت أدهى العرب». شرح‌نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۲۸.

[۴۵۱] (۲) نهج‌البلاغة، الخطبة ۱۲۶.

[۴۵۲] (۳) تأريخ الطبرى ۳/ ۵۶۹.

[۴۵۳] (۴) سيد المرسلين ۲/ ۴۰۸ نقلًا عن السيرة الحلبية ۳/ ۴۰.

[۴۵۴] (۵) بحارالانوار ۴۴/ ۳۴۴.

[۴۵۵] (۱) سند الخطبة: وردت هذه الخطبة بعدة أسناد. رواها قبل السيد الرضى(ره) نصر بن مزاحم فى كتاب صفين والشيخ المفيد فى المجالس والمسعودى فى مروج الذهب. وقال نصر بن مزاحم دخل الإمام عليه السلام الكوفة بعد معركة الجمل فأسرع قرّاء الكوفة وأشرافها لإستقباله. فدخل المسجد وصلى ركعتين ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم خطب الخطبة.

[۴۵۶] (۱) بحارالانوار ۷۴/ ۱۸۸(مع اختلاف طفيف) وبحارالانوار ۷۰/ ۹۰- ۹۱ مع فارق ضئيل جداً.

[۴۵۷] (۱) الأنوار النعمانية ۳/ ۱۱۴.

[۴۵۸] (۱)« حذاء» كما ورد فى تفسير السيد الرضى(ره) وشرّاح نهج‌البلاغة بمعنى السريع، من مادة حذ على وزن‌حظ بمعنى القطع، أو القطع السريع، ثم اطلقت على كل حركة سريعة، وحذا مؤنث إحذاً.

[۴۵۹] (۲)« صبابة» بالضم البقية من الماء واللبن فى الإناء، والضمير فى اصطبها وصابها يعود الى الصبابة، لأنّ الإناء مذكر والضمير المؤنث لا يعود اليه.

[۴۶۰] (۱) سورة الروم/ ۷.

[۴۶۱] (۲) سورة الجاثية/ ۲۴.

[۴۶۲] (۱) سورة القارعة/ ۹.

[۴۶۳] (۲) نهج‌البلاغة، الخطبة ۱۸۸.

[۴۶۴] (۳) سورة المؤمنون/ ۹۹- ۱۰۰.

[۴۶۵] (۴) سورة الشعراء/ ۱۰۲.

[۴۶۶] (۱) سورة المؤمنون/ ۸۴- ۸۵.

[۴۶۷] (۲) سورة يونس/ ۹۱.

[۴۶۸] (۳)« تنبيه الخواطر»،(طبق نقل ميزان الحكمة، ۳/ ۲۳- ۲۴ مادة عمل).

[۴۶۹] (۱) وردت هذه الخطبة فى كتابين قبل نهج‌البلاغة، الأول كتاب صفين لنصربن مزاحم والآخر كتاب الإمامة والسياسة مع فارق طفيف. أما القسم الثانى فقد رواه ابن عبد ربه فى العقد الفريد. مصادر نهج‌البلاغة، ۱/ ۴۴۶.

[۴۷۰] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ۳/ ۷۰- ۱۱۸ بتلخيص.

[۴۷۱] (۱) إغلاق مصدر من باب إفعال يستعمل عادة فى الأبواب.

[۴۷۲] (۱)« اناة» بمعين التثبت والتأنى والصبر.

[۴۷۳] (۲)« أرودوا» من مادة« رود» على وزن فوت بمعنى طلب الشيئ بالرفق والمداراة، ومنه الإرادة.

[۴۷۴] (۱) نهج‌البلاغة، الرسالة ۶.

[۴۷۵] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد ۳/ ۷۰- ۹۱ بتصرف وتلخيص.

[۴۷۶] (۱) الكامل لابن أثير ۳/ ۱۸۰.

[۴۷۷] (۲) يتفق الفريقان على نزول الآية« وإن جائكم فاسق بنبأ فتبينوا»« الاية ۶ من سورة الحجرات» كان فى الوليد. بل نقل العلامة المجلسى فى الغدير ۸/ ۲۷۶ الإجماع على ذلك.

[۴۷۸] (۱) الغدير ۸/ ۲۴۱.

[۴۷۹] (۲) الغدير ۸/ ۲۴۱.

[۴۸۰] (۳) نقل هذه القصة أغلب المؤرخين ومنهم البلاذرى فى أنساب الأشراف ۵/ ۲۹.

[۴۸۱] (۴) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۳/ ۴۳ وتأريخ اليعقوبى ۲/ ۱۷۰.

[۴۸۲] (۵) شرح نهج البلاغة طبق نهج الحق/ ۲۹۷.

[۴۸۳] (۱) سند الخطبة: أوردها عدد من المؤرخين ممن عاشوا قبل السيد الرضى فى كتبهم ورووا قصة بنى ناجية، ومنهم الطبرى فى تأريخه المعروف فى وقائع عام ۳۸ ه وابراهيم بن هلال الثقفى فى كتاب الغارات والبلاذرى فى أنساب الاشراف والمسعودى فى

كتاب مروج الذهب. مصادر نهج‌البلاغة، ۱/ ۴۵۱.

[۴۸۴] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۳/ ۱۲۸ بتصرف.

[۴۸۵] (۱)« بكته» من مادة« بكت» على وزن بخت بمعنى الضرب بالعصا، كما تعنى التوبيخ والغلبة على الآخرين عن‌طريق الاستدلال.

[۴۸۶] (۲) سورة البقرة/ ۲۸۰.

[۴۸۷] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ۳/ ۱۲۸- ۱۵۰ بتصرف.

[۴۸۸] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۳/ ۱۲۸- ۱۵۰ بتصرف.

[۴۸۹] (۱) سند الخطبة: قال أغلب شرّاح نهج‌البلاغة أنّ هذه الخطبة والخطبة رقم ۲۸ كلاهما فصل من خطبة طويلة روى السيد الرضى قسما منها هنا وآخر فى الخطبة المذكورة(كما ترك القسم الثالث) ويفيد هذا الأمر مرة اخرى أنّ السيد الرضى(ره) لم يرد نقل كافة خطب الإمام عليه السلام فى نهج‌البلاغة، بل كان يلتقط كلامه عليه السلام إلتقاط لأنّ غرضه ذكر فصاحته عليه السلام لا غير. على كل حال نقل هذه الخطبة قبل السيد الرضى(ره) المرحوم الصدوق فى كتاب من لايحضره الفقيه، والمرحوم الشيخ الطوسى(بعد الرضى) فى مصباح المتهجد.(مصادر نهج البلاغة، ۲/ ۱۰- ۱۱).

[۴۹۰] (۱)« مقنوط» من مادة« قنوط» على وزن قنوت بمعنى اليأس من الخير والرحمة، والقنوط على وزن بلوطصيغة مبالغة.

[۴۹۱] (۲) سورة الاعراف/ ۱۵۶.

[۴۹۲] (۳) سورة يوسف/ ۸۷.

[۴۹۳] (۴) سورة الحجر/ ۵۶.

[۴۹۴] (۵) سورة لقمان/ ۲۰.

[۴۹۵] (۱) سورة الزمر/ ۵۳.

[۴۹۶] (۲) فى ظلال نهج‌البلاغة ۱/ ۲۲۶.

[۴۹۷] (۳) مجمع البيان ذيل تفسر بسم اللّه الرحمن الرحيم من سورة الفاتحة.

[۴۹۸] (۴)« إستنكاف» من مادة« نكف» على وزن نظم بمعنى الابعاد، والانتكاف بمعنى الخروج من أرض إلى‌اخرى، والاستنكاف بمعنى الآباء والاعراض عن الشىء.

[۴۹۹] (۵) سورة النساء/ ۱۷۳.

[۵۰۰] (۶) سورة النحل/ ۱۸.

[۵۰۱] (۱) منى لها الفناء، أى قدر لها لها الفناء. وتطلق على الآمال التى يخطط لها الإنسان فالمراد أن الفناء مقدر فى‌طبيعة الدنيا.

[۵۰۲] (۲)« الجلاء» بمعنى الظهور، ومنه الجلاء عن الوطن بمعنى الخروج منه، وكأنّ الإنسان كان مستخفياً وقدظهر بعد أن خرج من وطنه.

[۵۰۳] (۱)- مادة« الالتباس» إن تعدت بحرف الباء عنت الاختلاط والامتزاج، وإن تعدت بحرف على عنت الاشتباه، ومن هنا يتضح أنّ المراد بالعبارة هنا الاشتباه.

[۵۰۴] (۲)« البلاغ» بمعنى الوصول إلى الشى، ومنه البلوغ الذى يصل فيه الإنسان مرحلة خاصة. والمراد بها هنا مايتبلغ به، أى يقتات به مدة الحياة.

[۵۰۵] (۳) سورة البقرة/ ۱۹۷.

[۵۰۶] (۱) الكفاف من مادة كف بمعنى كف اليد، ولما كان الإنسان يبعد الشىء عنه بكفه فقد وردت هذه المفردةبمعنى المنع والسلب، ومنه المكفوف لمن سلب بصره، ويقال للجماعة كافة لأنها تمنع العدو.

[۵۰۷] (۲) سورة المائدة/ ۸۷.

[۵۰۸] (۳) اصول الكافى ۲/ ۱۴۰.

[۵۰۹] (۴) غرر الحكم، ح ۲۳۴.

[۵۱۰] (۵) غرر الحكم، ح ۲۸۶.

[۵۱۱] (۶) نهج‌البلاغة/ ۳۷۱.

[۵۱۲] (۱) سند الخطبة رواه بعض المحدثين الذين عاشوا قبل السيد الرضى(ره) ومنهم نصربن مزاحم فى كتاب صفين، وذكر بعض المؤرخين أنّ الإمام عليه السلام دعا بهذا الدعاء عند ما وضع رجله فى الركاب وعزم على المسير إلى الشام لقتال معاوية. وقال السيد الرضى وابتداء هذا الكلام مروى عن رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله وقد قفاه أميرالمؤمنين على عليه السلام. ورواه أعثم الكوفى فى كتاب الفتوح، ما اورده مع بعض الاضافات القاضى نعمان المصرى فى كتاب دعائم الإسلام، وقال: إنّ الإمام عليه السلام كان يدعوا بهذا الدعاء عند كل سفر، مصادر نهج‌البلاغة، ۲/ ۱۲.

[۵۱۳] (۱)« وعثاء» من مادة« وعث» على وزن درس تعنى المشقة، وأصله المكان المتعب لكثرة رمله وغوص‌الأرجل فيه ومن هنا يطلق الوعثة على المرأة المترهلة لأنّها لا تستطيع الحركة بسهولة.

[۵۱۴] (۲)« كآبة» بمعنى الإنزعاج وسوء الحال وتصدع البال ومن هنا يقال الكئيب للفرد غير مرتاح البال.

[۵۱۵] (۳)« منقلب» من مادة« قلب» مصدر بمعنى الرجوع، كما يمكن أن تكون إسم مصدر، واسم مكان وزمان، وهى هنا إسم مصدر أنسب منها مصدر.

[۵۱۶] (۱) سورة الحديد/ ۴.

[۵۱۷] (۲) سورة البقرة/ ۱۱۵.

[۵۱۸] (۳) بحارالانوار ۹۰/ ۳۰۲.

[۵۱۹] (۴) اصول الكافى ۲/ ۴۶۸ ح ۱.

[۵۲۰] (۵) بحارالانوار ۹۰/ ۳۴۱؛ أصول الكافى ۲/ ۴۸۶.

[۵۲۱] (۶) سورة الفرقان/ ۷۷.

[۵۲۲] (۱) سورة النمل/ ۶۲.

[۵۲۳] (۱) سورة المؤمنون/ ۲۸- ۲۹.

[۵۲۴] (۲) سورة القصص/ ۲۲.

[۵۲۵] (۳) سورة القصص/ ۲۴.

[۵۲۶] (۴) سورة القصص/ ۸۵.

[۵۲۷] (۵) الوسائل‌الشيعة ۸/ ۲۷۵- ۲۸۱.

[۵۲۸] (۶) سورة الزخرف/ ۱۳- ۱۴.

[۵۲۹] (۱) سند الخطبة: من جملة من رواها قبل السيد الرضى(ره) إبن الفقيه فى كتاب البلدان، إلّاأنّه صرح أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام خاطب بهذا الكلام أهل البصرة والكوفة ولا يغير ذلك شيئاً. ونقلها بعد السيد الرضى(ره) الزمخشرى فى ربيع الأبرار فى باب البلاد والديار. مصادر نهج‌البلاغة، ۲/ ۱۵.

[۵۳۰] (۱)« أديم» بمعنى ظاهر الشيئ وغالباً ما يطلق على الجلد، كما يسمى وجه الأرض ب(أدمة الأرض)، وقيل هذاهو السبب فى تسمية آدم لأنه خلق من أديم الأرض.

[۵۳۱] (۲)« عكاظ» كما ذكرنا سابقا سوق كانت تقيمها العرب فى العصر الجاهلى قرب مكة فى صحراء بيت نخلة والطائف يجتمعون إليه ليتعاكظوا؛ أى يتفاخروا، وكان تفاخرهم قبلى عادة ما يقود إلى الحروب الدامية.

[۵۳۲] (۱)« تعركين» من مادة« عرك» على وزن درك، من عركت القوم الحرب إذا مارستهم حتى أتعبتهم.

[۵۳۳] (۲)« نوازل» جمع نازلة بمعنى الحوادث الشديدة.

[۵۳۴] (۳) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ۳/ ۱۹۸.

[۵۳۵] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ۳/ ۱۹۸.

[۵۳۶] (۱) سند الخطبة: كما ذكر سابقاً فانّ الإمام خطبها بالنخيلة حين تجهز لصفين خارجاً من الكوفة. وقد جاء فى كتاب مصادر نهج‌البلاغة أنّه خطبها فى الخامس والعشرين من شوال سنة ۳۷ ه وهو بالنخيلة خارجاً من الكوفة، وأضاف طبقاً لنقل ابن أبى الحديد أنّه ذكرها جماعة من أصحاب السير وزاد وفيها، ومنهم نصر بن مزاحم فى كتاب صفين(مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۱۶).

[۵۳۷] (۱)« وقب» من مادة« وقب» الحفرة فى الأرض أو الجبل، ويقال للشى وقب إذا دخل الحفرة أو الظلام، ومن‌هنا كان المعنى دخل الليل.

[۵۳۸] (۲)« غسق» يعنى شدة الظلمة، ولما كانت الليل يشتد ظلمة كلما اقترب من منتصفه فانّ الغسق كناية عن منتصف الليل أيضاً ومن هنا قال المفسرون:« أقم الصلوة لدلوك الشمس إلى غسق الليل» إشارة إلى الصلوات الأربع الظهر والعصر والمغرب والعشاء وقرآن الفجر صلاة الصبح(سورة الاسراء/ ۷۸).

[۵۳۹] (۳)« لاح» من مادة« لوح» بمعنى الظهور والبزوغ. وتستخدم فى كل وجود مضيىء ويطلق اللوح على‌الصفيحة البيضاء التى تصنع من الخشب أو الفلز.

[۵۴۰] (۴)« خفق» من مادة« خفق» و« خفوق» بمعنى الغياب والتزلزل والحركة، ومن هنا تستعمل حين يغرب القمر أو الشمس أو كوكب.

[۵۴۱] (۱) سورة القصص/ ۷۳.

[۵۴۲] (۲) سورة الانعام/ ۹۷.

[۵۴۳] (۳) سورة النحل/ ۱۶.

[۵۴۴] (۴)« افضال» من مادة« فضل» بمعنى الإحسان.

[۵۴۵] (۵) المناجاة الخمسة عشر، مناجاة الشاكرين، بحارالانوار ۹۱/ ۱۴۶.

[۵۴۶] (۶) بحارالانوار ۱۳/ ۳۵۱ ح ۴۱.

[۵۴۷] (۱)« مقدمة» بكسر الدل بمعنى المتقدم و بفتح الدال المبعوث مسبقا و تطلق المفردتان على طليعة الجيش يعنى الطائفة التى تتحرك أمام العسكر لتطلعه على ما يواجهه من أحداث.

[۵۴۸] (۲) كما ذكرنا سابقا فإن ملطاط اقتبست من مادة« لط»« لطط» و ميمها زائدة، و تعنى هذه المادة الإقتراب و المرافقة، و من هنا يقال« لط» للقادة لأنها ترافق العنق دائما، كما يقال الملطاط لشاطىء النهر و البحر، بينما أعتبرها البعض الآخر من أرباب اللغة من مادة« ملط» على وزن« شرط» و ليس هناك من فارق مع سابقتها من حيث المعنى و إن تفاوت اللفظ.

[۵۴۹] (۳)« نطفة» الماء الصافى القليل أم الكثير، ويطلق أحيانا بمعنى كل ماء جار و مائع سيال.

[۵۵۰] (۴)« شرذمة» تعنى فى الأصل الجماعة القليلة و ما يتبقى من الشىء، و يقال الشرذمة لما يفصل عن الثمرة.

[۵۵۱] (۵)« أكناف» جمع« كنف» على وزن« هدف» بمعنى أطراف الشىء، و حيث تكون أطراف الأشياء سببا لستر الاقسام الباطنية فانه يقال« الكنيف» للجدران الأربعة التى يستتر فيها الإنسان، و كذلك يطلق على الواقى و الدرع الذى يحفظ الإنسان من ضربات

الأعداء.

[۵۵۲] (۱) سورة الدخان/ ۲۵- ۲۹.

[۵۵۳] (۱) وردت هذه القضايا التأريخية فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۳/ ۲۸۸.

[۵۵۴] (۱) سند الخطبة: رواها جمع ممن عاش بعد السيد الرضى(ره) ومنهم العلامة المجلسى فى روضة البحار وعلى بن محمد بن شاكر الواسطى فى كتاب عيون الحكم والمواعظ(مصادر نهج البلاغة، ۲/ ۱۸).

[۵۵۵] (۱)« بطن» من مادة« بطن» على وزن متن تستعمل للأشياء الخفية، ويقال بطنت الأمر بمعنى علمت ببواطنهوأسراره. ولما كان داخل البطن خفى فقد استعملت هذه المفردة بشأن كل شىء خفى، وباطن الأشياء بمعنى داخلها، وله معنى الفعل اللازم والمتعدى.

[۵۵۶] (۱) سورة الانعام/ ۱۰۳.

[۵۵۷] (۲) سورة الاعراف/ ۱۴۳.

[۵۵۸] (۳) نهجالبلاغة، الخطبة ۱۷۹.

[۵۵۹] (۱) الاستعلاء قد يكون بمعنى الافضلية واريد بها هنا هذا المعنى.

[۵۶۰] (۲) سورة النور/ ۳۵.

[۵۶۱] (۱) للوقوف على المزيد بهذا لاشأن راجع المجلد الأول من الشرح، الخطبة الاولى.

[۵۶۲] (۲)« جحود» و« جحد» بمعنى الإنكار الممزوج بالعلم- وقال الراغب فى المفردات تعنى نفى ما ثبت فى القلب، أو إثبات ما نفاه القلب- وعليه ففى مفهوم الجحود نوع من التعصب والعداء الخفى ضد الحق.

[۵۶۳] (۳) سورة العنكوبت/ ۶۱- ۶۳.

[۵۶۴] (۱) وردت هذه الأشعار فى حواشى« شرح الباب الحادى عشر» فى الصفحة الأولى من قول إبن أبى الحديد.

[۵۶۵] (۱) سند الخطبة: نقل هذه الخطبة عدد ممن عاش قبل السيد الرضى(ره)، كالمرحوم الكلينى فى الكافى فى باب البدع والرأى والمقاييس(۱ / ۵۴) وأحمدبن محمدبن خالد البرقى فى كتاب المحاسن(۱ / ۲۰۸) واليعقوبى فى تأريخه(۲ / ۱۳۶) وابوجبان التوحيدى فى البصائر والذخائر/ ۳۲، وأخرون ممن عاشوا بعد الرضى ولا حاجة لذكرهم. مصادر نهجالبلاغة ۲/ ۱۹.

[۵۶۶] (۱)« تبتدع» من مادة« بدعة» بمعنى حديثة الظهور، وتستعمل بشأن الاحكام المخالفة لكتاب اللّه والسنةالنبوية.

[۵۶۷] (۱) راجع كتاب الغدير/ ۱۰.

[۵۶۸] (۲)« يتولى» من مادة« تولى» بمعنى الاتباع. وتأتى أحيانا بمعنى الإقتراب والسيطرة على المقام والمنصب إلا أن المراد هنا المعنى الأول.

[۵۶۹] (۳)« مرتادين» من مادة« ارتياد»، الطالبين للحقيقة.

[۵۷۰] (۴)« ضغث» على وزن حرص قبضة من حشيش مختلط فيها الرطب باليابس، كما يطلق الضغث على الاحلامالمزعجة، وقد وردت فى العبارة بمعنى بعض من الشىء.

[۵۷۱] (۱) العبارة إقتباس من الآية ۱۰۱ من سورة الأنبياء« إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنّا الحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ» التىوردت بعد الحديث عن جهنم، فى اشارة إلى أنّ هذه الطائفة ناجية من النار، ولما كانت فتن الدنيا هى جهنمها، فقد استثنى عليه السلام هذه الطائفة من هذه الفتن.

[۵۷۲] (۱) سورة القصص/ ۳.

[۵۷۳] (۱) لقد نقل هذه الخطبة« نصر بن مزاحم» فى كتاب صفين عن جابر عن أمير المؤمنين على عليه السلام(مع بعض الفوارق الطفيفة)(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۰).

[۵۷۴] (۱)« محلة» تستعمل بمعنى المكانة والمنزلة الاجتماعية.

[۵۷۵] (۲)« رووا» من مادة« التروية» بمعنى الارتواء من الماء، ولهذا يصطلح على اليوم الثامن من شهر ذى الحجة ب« يوم التروية» حيث كان الحجيج فى السابق يتزودون بالماء حين الذهاب إلى عرفة ومنى والمشعر الحرام، كما قد تستعمل هذه المفردة ويراد بها المعنى الكنائى كإرواء السيوف الذى ورد فى هذه الخطبة.

[۵۷۶] (۳) بحار الأنوار ۴۵/ ۷.

[۵۷۷] (۱) ارشاد المفيد ۲/ ۸۱. طبعة آل البيت.

[۵۷۸] (۲) سورة التوبة/ ۵۲.

[۵۷۹] (۳)« لمه» من مادة« لمى يلمو لموا» بمعنى أخذ الشىء بأكمله و(لمه) بضم اللام وفتح الميم بدون التشديد» بمعنى الجماعة القليلة،(غواة) جمع غاوى بمعنى الضال، والعمس بمعنى محو الأثر وعدم العلم بالشىء، ومن هنا أطلق العميس على الظلام الدامس، فيقال ليل عماس؛ أى مظلم.

[۵۸۰] (۱)« أباة» جمع أبى بمعنى الرفض والامتناع والضيم بمعنى الظلم، وهو ما يطلق على أولئك الذين لايستسلمون للظلم والجور.

[۵۸۱] (۲) سورة المنافقون/ ۸.

[۵۸۲] (۳) الكافى ۵/ ۶۳.

[۵۸۳] (۴) بحار الأنوار ۴۴/ ۱۹۲.

[۵۸۴] (۵) بحار الأنوار ۴۵/ ۸۳.

[۵۸۵] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۳/ ۲۶۳.

[۵۸۶] (۲) بحار الأنوار ۴۴/ ۳۹۱.

[۵۸۷] (۱) سورة طه/ ۶۳.

[۵۸۸] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۳/ ۳۳۰.

[۵۸۹] (۱) سند الخطبة: روى أنّ الإمام عليه السلام خطبها فى عيد الأضحى وبدايتها« اللَّه أكبر اللَّه أكبر لا اله إلّااللَّه واللَّه أكبر وللَّه الحمد الحمدللَّه على ما هدانا ...» ورواها المرحوم الصدوق(ره) فى كتابه من لا يحضره الفقيه ۱/ ۲۲۹ والشيخ الطوسى(ره) فى كتاب المصباح/ ۲۶۱ وقال: نقل أبومخنف عن عبدالرحمن‌بن جندب عن أبيه أنّ علياً عليه السلام خطب الناس فى الأضحى وقد أورد السيد الرضى(ره) بعضها فى نهج‌البلاغة، كما روى الشيخ المفيد قسما منها فى المجلس العشرين من الامالى. مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۲۲ وقد مضى شبيه هذا المضمون فى الخطبة ۲۸.

[۵۹۰] (۱)« تصرمت» من مادة« صرم» بمعنى انقطعت وفنيت، ومن هنا يطلق الصارم على السيف القاطع، وتصرم‌الدنيا يعنى انقطاع أجلها.

[۵۹۱] (۲)« آذنت» من مادة إيذان أعلمت وأخبرت.

[۵۹۲] (۱)« حذاء» من مادة« حذ» على وزن حظ بمعنى السريعة الذهاب، ومن هنا يطلق الحذاء على الدابة السريعة، والمراد هنا سرعة أجل الدنيا.

[۵۹۳] (۲)« تحفز» من مادة« حفز» على وزن حبس بمعنى تعجلهم وتسوقهم، وقد ورد فى الحديث الشريف أن‌حفز الموت من علامات القيامة. قيل وما حفز الموت. قال صلى الله عليه و آله: موت الفجأة(لسان العرب).

[۵۹۴] (۳)« مر» على وزن« شر» بمعنى المضى والعبور ومر على وزن حر ضد الحلو، وأمر» من مادة« مُر» بمعنى‌مضى الزمان يجعل حلاوة الدنيا مرارة.

[۵۹۵] (۴)« سـملة» من مادة« سـمل» على وزن حمل بمعنى البقية من الماء تبقى فى الإناء، ومن هنا كان الاسـمال بمعنىالإصلاح لأنّه يزيل ما بقى من الأحقاد والأضغان.

[۵۹۶] (۵)« إدواة» على وزن إدارة القربة الصغيرة من الجلد.

[۵۹۷] (۶)« تمزز» من مادة« مز» على وزن حز بمعنى التـذوق والامتصاص والأكل وقال صاحب مقاييس اللغةامتصاص الماء تدريجياً وببطئ.

[۵۹۸] (۱)« أزمعوا» من مـادة« زمع» بمعنى العزم على الشـيىء، ولـذلك قيـل ان هـذه المفردة قلبت من عزم أى نقلتفيها حرفى الزاء والميم من مكـان إلى آخر، وقيـل كانت فى الأصل جمع ثم بـدلت إلى زاء، والمفردات الثلاث(عزم وزمع وجمع) بمعنى واحـد وهو التصميم والعزم على الشى.

[۵۹۹] (۲)« أمد» على وزن صمد أجل الشىوتأتى بمعنى الغضب، لأنّ صبر الإنسان ينفد حين الغضب.

[۶۰۰] (۳) سورة الحديد/ ۱۶.

[۶۰۱] (۱) بحارالانوار، ۵۰/ ۲۱۱.

[۶۰۲] (۱)« حنين» بمعنى الشـفقة والرأفـة والرحمـة وتقال عادة مقترنة بالأنين والألم، و« اسـتن حنانة» تطلق علىالعمود الخشبى الذى ورد فى الروايـة أن رسول الله صـلى الله عليه و آله كـان يسـتند إليه ويخطب الناس، ثم اسـتبدل بالمنبر فكان ذلك العمود يتأوه لفراق النبى صلى الله عليه و آله.

[۶۰۳] (۲)« وله» جمع« واله» و« والهة» من مادة« وله» على وزن ولع بمعنى شدة الهم الذى يذهب بالعقل ويفقد التميز.

[۶۰۴] (۳)« عجال» جمع« عجول» من مادة« عجلة» بمعنى السرعة فى العمل، كما تطلق على المرأة التى تثكل بولدها.

[۶۰۵] (۱)« هديل» يطلق على الحمام كما يطلق أحياناً على نوحه وهو من الهدل على وزن العدل بمعنى الصوتالعذب.

[۶۰۶] (۲) جؤار له معنى مصدرى وهو الصوت المرتفع المشوب بالتضرع والنجدة.

[۶۰۷] (۳) متبتل من مادة تبتل بمعنى الإنفصال والإعتزال وتطلق على الرهبان الذين يعتزلون المجتمع وينهمكون بالعبادة. ومن ألقاب الزهراء عليها السلام البتول لإنقطاعها إلى الله وأفضليتها على سائر النساء فى الفضل والعلم والمعرفة. وورد فى بعض الروايات أن التبتل هو رفع اليد بالدعا.

[۶۰۸] (۴)« رهبـان» جمـع« راهب» من مـادة« رهب» على وزن رحم بمعنى الخـوف، الخـوف مع ضـبط النفس والرهبانيـة تعنى شـدة العبوديـة وتـرك الـدنيا، وهى بدعـة ابتـدعها طائفـة من النصارى حيث يقاطع الفتى اوالفتاة الزواج ويقبع فى زاويـة من الدير وينهمك بالعبادة، وقد ورد النهى عنها فى الاسلام، فقد قال صلى الله عليه و آله:« لا رهبانية فى الاسلام».

[۶۰۹] (۵) نهجالبلاغة، الخطبة ۱۹۳.

[۶۱۰] (۱)« انمياث» من مادة« موث» على وزن موت بمعنى الـذوبان، وانمياث من باب الانفعال، ويعنى فى العبارةبـذل قصارى الجهد فى سبيل اللّه.

[۶۱۱] (۱) بيت الشـعر إقتبـاس من حـديث عن الإمام السـجاد والصادق عليهما السـلام، بحارالانوار، ۱۳/ ۳۵۱ المناجاة الخمسة عشـر مناجاة الشاكرين.

[۶۱۲] (۲) سورة الحجرات/ ۱۷.

[۶۱۳] (۱) سـند الخطبـة: ورد فى كتاب مصادر نهجالبلاغـة أنّ هذه ليست خطبة مسـتقلة(بل هى جزء من الخطبة السابقة التى خطبها فى الأضـحى) ومن هنا عـدتها نسـخة إبن أبى الحديد التى تعتبر أصح النسخ جزءاً من الخطبة السابقة، اما أنّها وردت مسـتقلة فى سائر النسـخ فهـذا مـن خطأ الرواة، والشاهـد على ذلـك أنّهـا وردت جزءا من الخطبـة فى كتـاب من لاـ يحضـره الفقيه(۱/ ۴۶۱) ومصباح

المتهجد/ ۴۲۹. جدير ذكره أن العبارة التى وردت فى كتاب من لايحضره الفقيه بعد« تجر رجلها إلى المنسك»« فلا تجزى» الذى يغير العبارة تماماً. ولايبدو ذلك مستبعداً، وان درجنا على السير فى نهج‌البلاغة حسب تصنيف صبحى الصالح. مصادر نهج‌البلاغة، ۲/ ۲۳.

[۶۱۴] (۲)« الاضحية»: الشاة التى طلب الشارع ذبحها بعد شروق الشمس من عيد الأضحى.

[۶۱۵] (۳)« إستشراف» من مادة« شرف» بمعنى علو المقام، والمراد باستشراف الاذان تفقدها حتى لاتكون مجدوعة أو مشقوقة غير سالمة.

[۶۱۶] (۱)« عضباء» من مادة« عضب» على وزن عزم بمعنى القطع أو الكسر، وعضباء القرن بمعنى مكسورة القرن، كما يطلق على الناقة إذا شقوا اذنها ناقة عضباء.

[۶۱۷] (۲) وردت العبارة« فلا تجزى» فى كتاب من لا يحضره الفقيه ۱/ ۱۶۸ باب صلاة العيدين، ح ۱۴۸۷.

[۶۱۸] (۳) سورة الحج/ ۳۶.

[۶۱۹] (۱) سند الخطبة: يرى صاحب مصادر نهج‌البلاغة أنّ هذا الكلام جزء من الخطبة ۲۶ و ۳۰ و ۵۴ و ۷۸، خطبها عليه السلام فى بيته بحضور الناس ليدونوها وينقلوها إلى الآخرين. وقال فى ذيل الخطبة ۲۶ رواها قبل السيد الرضى(ره) الثقفى فى الغارات والطبرى فى المسترشد والمرحوم الكلينى فى الرسائل نقلًا عن كشف المحجة للسيد ابن طاووس وابن قتيبة فى الإمامة والسياسة(مصادر نهج‌البلاغة ۱/ ۳۹۰).

[۶۲۰] (۲) منهاج البراعة ۴/ ۳۲۶؛ شرح نهج‌البلاغة لابن ميثم البحرانى ۲/ ۱۴۴.

[۶۲۱] (۱)« تداكوا» من مادة« دك» على وزن فك، قال الراغب فى المفردات أنّها تعنى الأرض المستوية الرخوة، بينماصرحت سائر كتب اللغة بعكس ذلك وان الدك يعنى الضرب. ومعنى العبارة فى الخطبة أنّهم تزاحموا عليه ليبايعوه رغبة فيه.

[۶۲۲] (۲)« هيم» جمع« أهيم» و« هيماء» صفة مشبهة بمعنى شدة العطش التى تجعل الحيوان أو الإنسان يروح ويجيئ، ويقال الهيمان للعاشق. والهيم العطاش من الابل.

[۶۲۳] (۳)« ورد» اسم مصدر بمعنى الورود، وقيل مصد كتأكيد لمعنى الفاعلية، وتعنى الجمع أيضاً. يوم وردها يوم سشربها للماء.

[۶۲۴] (۴)« مثانى» جمع مثناة بالفتح ومثناة بالكسر وهو حبل من صوف أو شعر يعقل به البعير. وهى فى الأصل من مادة ثنى بمعنى التكرار واعادة جزء من الشى إلى الآخر.

[۶۲۵] (۱) من أراد المزيد يمكنه مراجعة الخطبة الشقشقية.

[۶۲۶] (۱) سورة الانفال/ ۳۹.

[۶۲۷] (۲) سورة الحجرات/ ۹.

[۶۲۸] (۱) سند الخطبة: لم يشر صاحب مصادر نهج‌البلاغة إلى سند خاص لهذه الخطبة، إلّاأنّ لابن أبى الحديد فصل ذيل هذه الخطبة تحت عنوان من أخبار يوم صفين يفيد أنّ ما أورده هنا السيد الرضى(ره) بمعنى آخر ينسجم وما جاء فى التواريخ.

شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ۴/ ۱۳.

[۶۲۹] (۱) هنالك احتمال بشأن إعراب هذه الجملة: أحدهما أن كل منصوبه على أنّها مفعول لفعل تقديره« أتفعل كل‌ذلك»، والآخر انها مرفوعة كمبتدأ وتقدير الجملة« أكل ذلك ناشئ من كراهية الموت». على كل حال فانّ الجملة« كراهية المت» مفعول لأجله.

[۶۳۰] (۱)« تعشو» فى الأصل من مادة« عشو» على وزن ضرب بمعنى الظلمة وعدم وضوح الشىء ومنه صلاةالعشاء لأنها أول الظلمة وعشى بمعنى آخر اليوم الذى يظلم فيه الجو تدريجيا ويقال الأعشى لضعيف البصر.

[۶۳۱] (۲)« تبوء» من مادة« بوء» على وزن نوع بمعنى الرجوع والعودة وقيل أصلها يعنى الصافى والمسطح واريد بهاهنا الرجوع.

[۶۳۲] (۱) سند الخطبة: نقل ابن أبى الحديد هذا الكلام عن الواقدى ابن هلال قبل المرحوم السيد الرضى(ره) ورواها الزمخشرى فى

ربيع الأبرار فى الجزء الرابع من باب القتل والشهادة. وأضاف صاحب مصادر نهج‌البلاغة بعد ما اورد هذا الكلام انه من كلامه المعروف فى مصادر العلماء السابقين وبعد السيد الرضى(مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۲۹).

[۶۳۳] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن ميثم ۲/ ۱۴۶.

[۶۳۴] (۲) سورة التوبة/ ۲۴.

[۶۳۵] (۳)« لقم»: قال بعض أرباب اللغة وشرّاح نهج‌البلاغة تعنى معظم الطريق أو جادته، واصلها من اللقم على وزن‌العفو بمعنى السرعة فى الأكل.

[۶۳۶] (۴)« مضض» على وزن« مرض» بمعنى تجذر الهم فى القلب مع الحرقة.

[۶۳۷] (۵) التصاول من صول على وزن قول أن يحمل كل واحد من الندين على الآخر.

[۶۳۸] (۶)« تخالس» من مادة« خلس» على وزن درس كل واحد منها يطلب اختلاس روح الآخر.

[۶۳۹] (۱)« كبت» على وزن ثبت بمعنى الاذلال.

[۶۴۰] (۲) جران البعير مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره، القاء الجران كناية عن التمكن، فالعبارة كناية عن إتساع رقعةالإسلام ونصر المسلمين واستقرار الإسلام فى مختلف بقاع العالم.

[۶۴۱] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۴/ ۳۴ باختصار شديد.

[۶۴۲] (۱) سند الخطبة: قال صاحب مصادر نهج‌البلاغة لقد روى هذا الكلام عن أميرَالمؤمنين عليه السلام كراراً من المحدثين قبل السيد الرضى(ره). وروى إبراهيم الثقفى فى كتاب الغارات عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ الإمام عليه السلام صعد منبر الكوفة فقال:« سيعرض عليكم سبّى ...» كما روى هذا الكلام الكلينى فى الكافى والبلاذرى فى أنساب الاشراف والحاكم فى المستدرك وشيخ الطائفة الطوسى فى الامالى(مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۳۳).

[۶۴۳] (۲) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ۴/ ۵۴.

[۶۴۴] (۳) مصادر نهج‌البلاغة، ذيل الخطبة.

[۶۴۵] (۱)« بلعوم» على وزن« حلقوم» موضع مرور الطعام، ورحب البلعوم واسعه، أو كناية لكثرة أكله.

[۶۴۶] (۲)« مندحق» من مادة« دحق» على وزن قطع بمعنى الدفع والابعاد وطرح الشى بعيداً، ولما كان كبر البطن يؤدى الى بروزها وكأنّها تطرح بعضها خارجا اطلق على الشخص البطين مندحق البطن.

[۶۴۷] (۱) رواه الحاكم فى كتاب مستدرك الصحيحن ۱/ ۱۲۱ طبعة حيدر آباد.

[۶۴۸] (۲) بحارالانوار ۴۵/ ۱۳۷.

[۶۴۹] (۳) الغدير ۱۰/ ۲۶۴.

[۶۵۰] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ۴/ ۱۱۵.

[۶۵۱] (۱) إحقاق الحق ۶/ ۴۴۰- ۴۴۱.

[۶۵۲] (۲) روى هذا لاحديث المرحوم العلّامة الأمينى فى كتاب الغدير عن علماء السنة مثل محب‌الدين الطبرى فى الرياض والشافعى فى الكفاية والحموى فى الفرائد وابن صباغ المالكى فى الفصول المهمة(الغدير ۲/ ۳۰۰) وللوقوف أكثر راجع مصادر هذا الحديث فى المجلد السابع من احقاق الحق ۷/ ۲؛ ۱۶/ ۴۲۳.

[۶۵۳] (۱) نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ۱۸/ ۲۴.

[۶۵۴] (۱) سورة الاعمران/ ۲۸.

[۶۵۵] (۱)- أجمع مفسرون الفريقين أنّ هذه الآية نزلت فى عمار، وصحيح أن عمار اجبر على الكفر إلّاأنّه تظاهربأنّه تكلم من خلال

الاعتقاد بذلك وأنّه رجع عن دين محمد ليتركوه ويحفظ دمه.

[۶۵۶] (۲) سورة النحل/ ۱۰۶.

[۶۵۷] (۳) سورة غافر/ ۲۸.

[۶۵۸] (۱) سند الخطبة: اورد بعض هذه الخطبة قبل السيد الرضى(ره) إبن قتيبة فى كتاب الإمامة والسياسة وابن‌الجوزى فى تذكرة الخواص والطبرى فى المسترشد، كما نقل ابن أثير فى كتاب النهاية عدة إحتمالات وردت بشأن بعض مفردات الخطبة وهذا يشير أنّه حصل عليها من عدة نسخ(مصادر نهج‌البلاغة، ۲/ ۳۶).

[۶۵۹] (۱)« أوبوا» من مادة« أوب» على وزن قوم بمعنى الرجوع، كما تطلق هذه المفردة على السحاب والرياح بسبب‌الرجوع فيها.

[۶۶۰] (۲) أعقاب جمع عقب بمعنى كعب الرجل، كما تطلق على الأثر الذى يتركه على الأرض، وهى هنا كناية عن‌الأجيال السابقة.

[۶۶۱] (۱) سيأتى سند هذا الكلام ذيل الخطبة رقم ۶۰ فهى تشير إلى نفس الموضوع.

[۶۶۲] (۲) سورة آل‌عمران/ ۴۹.

[۶۶۳] (۱) سند الخطبة: قال صاحب كتاب مصادر نهج‌البلاغة بعد أن جمع الخطبة ۵۹ و ۶۰ بشأن هذا الكلام رواه المبرد فى الكامل(والمبرد من علماء القرن الثالث الهجرى) ونقل بعضه البيهقى فى المحاسن والمساوئ والمسعودى فى مروج الذهب ثم مدح ابن أبى‌الحديد فى انه قال: هذا من الأخبار المشهورة القريبة من التواتر ومن معجزاته الغيبة عليه السلام. مصادر نهج‌البلاغة، ۲/ ۳۷.

[۶۶۴] (۲)« قرارات» من مادة« قرار»، وقرارت النساء أرحامهن حيث تنعقد النطفة لمدة فى الرحم فتقر هناك، وقال‌القرآن« ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ»، سورة المؤمنون/ ۱۳.

[۶۶۵] (۱)« نجم» من مادة« نجم» على وزن حجم بمعنى الطلوع، كما يطلق على كل ظهور وطلوع مفاجىء.

[۶۶۶] (۲) سورة التوبة/ ۵۸.

[۶۶۷] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۲۶۷.

[۶۶۸] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ۵/ ۷۳- ۷۶.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز" القائميّة "للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ أُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِع أُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵–۲۳۵۷۰۲۳– (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ

المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم - إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مركز
القائمیة
اصبهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹